نص ينشر لأول مرة

تراجم الأوائل والخلفاء

(الأعلام الصغرى)

خير الدين الزِّركلى



راجعه وقدم له

د. محمد سالمان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الزركلى، خير الدين بن محمود بن محمد بن
على، ١٨٩٣ ـ ١٩٧٦.
تراجم الأوائل والخلفاء: (الأعلام الصغرى)/
خير الدين الزركلى؛ راجعه وقدم له: د. محمد
سالمان. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،
٢٠١٤.
٤٥٦ص: ٢٤ سم.
تدمك ٩ ٧٦٩ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الرجال ـ تراجم.
٢ ـ النساء ـ تراجم.
أ ـ سالمان، محمد (مراجع ومقدم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٣٤٠٩/ ٢٠١٤
I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 769 - 9
ديوى ٩٢٠،٧

تراجم الأوائل والخلفاء

(الأعلام الصغرى)

خير الدين الزِّركلي

راجعه وقدم له

د. محمد سالمان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : تراجم الأوائل والخلفاء
(الأعلام الصغرى)
تأليف : خير الدين الزركلي
راجعه وقدم له : د. محمد سالمان

الإشراف الفني : مادلين أيوب فرج
تصميم الغلاف : الحبيبة حسين

الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدي : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
email:info@gebo.gov.eg

الإهداء

إلـــى..

رؤى..

راجعت بعضًا من صفحات هذا الكتاب،

وأنت على كتفي..

آمل ألا أكون انشغلت

بالماضي عن المستقبل..

محمد

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي الهادي الأمين، نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن تبع هداه إلىٰ يوم الدين وبعد.

فهذا كتاب جديد للإمام خير الدين الزركلي، نقدمه للقارئ العربي للمرة الأولىٰ بعد ما ظل حبيس الأدراج لسنوات طويلة.

خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزرقي (الأزرقي) المعروف فيما بعد بالزركلي (بكسر الزاي والراء) الدمشقي، وأصل نسبه (الزركلي) هو: الزرقلي، نسبة إلىٰ قبيلة كردية زعيمها حسن الأزرقي حاكم ولاية ماردين ولما كانت نسبة الأعلام عند الأتراك في الأسماء هي (لي) فقد عرفت القبيلة بالزرقلية أو الزركلية.

ولد ليلة ٩ من ذي الحجة ١٣١٠هـ (٢٥ يونية ١٨٩٣م) في بيروت، وكانت لوالده تجارة فيها، وهو وأمه دمشقيان.

ونشأ بدمشق، فتعلم في إحدىٰ مدارسها الأهلية. وأخذ عن علمائها، علىٰ الطريقة القديمة، واتفق أن رأىٰ أحد الصبيان المجاورين لبيته وهو متأبط كتابًا صغيرًا حسن التجليد، وتبرق ورقته الأولىٰ جدةً وحسنًا فاندفع إلىٰ سؤاله عنه، وكان مولعًا بقراءة القصص كقصة عنترة وبني هلال وأشتات من تلك الأساطير، فلما رأىٰ الكتاب يتأبطه الصغير، وسأله عن اسمه أجابه بكل كبرياء وعجب: هذا كتاب علم.. وبعد جهد بذله الزركلي عرف أنه كتاب (الآجرومية) في النحو فأحدث في نفسه هوىً جديدًا، فأقبل علىٰ دراسة النحو واللغة والأدب، ثم مال إلىٰ التاريخ فقرأ جانبًا من تاريخ الإسلام، وقليلاً من التاريخ العام واتسع نطاق الميل، فدرس العروض والمعانىٰ والبيان والفقه والتوحيد، وأولع بكتب

الأدب، ونظم الأبيات من الشعر، في صباه، وأدىٰ امتحان «القسم العلمي» في المدرسة الهاشمية. ودرَّس فيها.

وأصدر مجلة «الأصمعي» أسبوعية، فصادرتها الحكومة العثمانية، لصورة كتبت أنها صورة «الخليفة العربي» المأمون.

وذهب إلىٰ بيروت، فانقطع إلىٰ الكلية العلمانية (لاييك) تلميذًا في دراساتها الفرنسية، ثم أستاذًا للتاريخ والأدب العربي فيها.

ورجع، في أوائل الحرب العالمية الأولىٰ، إلىٰ دمشق. وأصدر بها، بعد الحرب (١٩١٨) جريدة «لسان العرب» يومية، مع أحد الأصدقاء. وأقفلت؛ فشارك في إصدار «المفيد» يومية أيضًا. وهيأ للطبع مجموعة من شعره أطلق عليها «عبث الشباب» فالتهمتها النار، وأكلت أصولها!

وعلىٰ إثر وقعة «ميسلون» في صباح اليوم الذي كان الفرنسيون يدخلون به دمشق (١٩٢٠) غادر إلىٰ فلسطين، فمصر، فالحجاز. وصدر حكم الفرنسيين (غيابيًا) بإعدامه، وحجز أملاكه.

وفي سنة ١٩٢١ تجنس بالجنسية العربية في الحجاز. وانتدبه الملك حسين ابن علي، لمساعدة ابنه «الأمير عبدالله»، وهو في طريقه إلىٰ شرقي الأردن، فمهد السبيل لدخول عبدالله وإنشاء الحكومة الأولىٰ في عمان. وسُمي في تلك الحكومة مفتشًا عامًا للمعارف، فرئيسًا لديوان رياسة الحكومة.

وفي خلال ذلك أبلغتْ حكومةُ «الجمهورية الفرنسية» بيته في دمشق، أنها قررت وقف تنفيذ حكمها عليه، فكانت فرصة له لزيارة دمشق، والعودة منها بعائلته إلىٰ العاصمة الأردنية.

وقصد مصر، فأنشأ «المطبعة العربية» في القاهرة (أواخر ١٩٢٣) وطبع فيها بعض كتبه، ونشر كتبًا أخرىٰ.

وثارت سورية علىٰ الاحتلال الفرنسي (١٩٢٥)، فأذاع الفرنسيون حكمًا ثانيًا (غيابيًا أيضًا) بإعدامه!

وساءت صحته في عمله بالمطبعة، فباعها (سنة ١٩٢٧).

واستجم ثلاث سنوات، زار خلالها الحجاز، مدعوًا، بعد أن تسلم آل سعود مقاليد الحكم فيه.

وذهب إلىٰ القدس (١٩٣٠) فأصدر، مع زميلين، جريدة «الحياة» يومية. وعطلتها الحكومة الإنجليزية. فاتفق مع آخرين علىٰ إصدار جريدة يومية أخرىٰ في «يافا» وأعد لها مطبعة، وأصدر العدد الأول منها.

وأبلغه صاحب السمو الملكي الأمير فيصل آل سعود، تعيينه (١٩٣٤) مستشارًا للوكالة (ثم المفوضية) العربية السعودية بمصر؛ فترك الجريدة لمن والىٰ إصدارها، وتحول إلىٰ القاهرة.

ومثَّل حكومة السعودية، في عدة مؤتمرات دولية. وشارك في مؤتمرات أدبية واجتماعية.

وانتدب (١٩٤٦) لإدارة وزارة الخارجية، بجدة. وصدر مرسوم ملكي بأن يتناوب مع صديقه الشيخ يوسف ياسين - وزير الخارجية بالنيابة - العمل في الوزارة وفي جامعة الدول العربية، معًا.

وسُمي (١٩٥١) وزيرًا مفوضًا ومندوبًا دائمًا لدىٰ الجامعة، فشعر بالاستقرار بمصر.

وعُين (١٩٥٧) سفيرًا ومندوبًا ممتازًا - حسب التعبير الرسمي - في المغرب، حيث آل إليه عمادة السلك السياسي في المغرب، فقام بها مدة ثلاث سنوات. ومرض سنة (١٩٦٣) ودُعي إلىٰ الرياض، فمنح إجازة للراحة والتداوي، غير محدودة. واختار الإقامة في بيروت، فعكف علىٰ إنجاز كتاب كان قد بدأ بوضعه، في سيرة عاهل الجزيرة الأول «الملك عبدالعزيز آل سعود» وهيأه للطبع سنة ١٩٧٠.

وكان المجمع العلمي العربي بدمشق، قد تفضل (عام ١٩٣٠) فضمه إلىٰ

أعضائه. وكذلك مجمع اللغة العربية بمصر (١٩٤٦) والمجمع العلمي العراقي في بغداد (سنة ١٩٦٠).

وقام برحلات إلىٰ الخارج أفادته:

الأولىٰ: إلىٰ إنجلترا (١٩٤٦) ومنها إلىٰ فرنسا، ممثلاً للحكومة في اجتماعات المؤتمر الطبي الدولي، بباريس.

والثانية: إلىٰ الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٤٧) بمهمة رسمية، غير سياسية، أمضىٰ فيها سبعة أشهر بين كاليفورنيا وواشنطن ونيويورك وغيرها. وحضر في خلالها بعض اجتماعات هيأة الأمم المتحدة.

والثالثة: إلىٰ أثينا العاصمة اليونانية (١٩٤٥) بصفة «وزير مفوض ومندوب فوق العادة» وجعل طريق عودته منها، إلىٰ استانبول، لزيارة بعض مكتباتها، وإلىٰ حلب، فبيروت، فالقاهرة.

والرابعة: إلىٰ تونس (١٩٥٥) مندوبًا لحضور مؤتمر أقامه الحزب الدستوري فيها وعاد منها مارًا بإيطاليا، حيث تيسر له في خلال شهرين الطواف في أهم مكتباتها.

أما ما نشر من كتبه، فهو:

١ - ما رأيت وما سمعت. وهو رحلته الأولىٰ من دمشق إلىٰ فلسطين، فمصر، فالحجاز، طبع سنة ١٩٢٣.

٢ - عامان في عمان. من مذكراته عن عامين في مدينة عمّان، عاصمة الأردن. طبع الجزء الأول منه سنة ١٩٢٥.

٣ - الجزء الأول من «ديوانه» الشعري. وفيه بعض ما نظم إلىٰ سنة صدوره (١٩٢٥). ثم نشر ديوانه بعد وفاته بتقديم الأستاذ سليم الزركلي.

٤ - الأعلام. الطبعة الأولىٰ. في ثلاثة أجزاء (سنة ١٩٢٧).

٥ - الأعلام. الطبعة الثانية، في عشرة مجلدات. ووصل عدد طبعاته نحو عشر طبعات.

٦ - ماجدولين والشاعر. قصة شعرية صغيرة.

٧ - شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز.

أصيب أوائل عام ١٩٧٦، وهو في بيروت، بدوار وغيبوبة، نقل علىٰ أثرهما إلىٰ مستشفىٰ الجامعة الأمريكية ببيروت والأحداث فيها ملتهبة، فظل غائبًا عن الوعي خمسة أيام متواصلات، وفي اليوم السادس أفاق وكان أول ما طلب فنجانًا من القهوة، ثم غاب صوته وأخذ يطلب حاجاته كتابة، حتىٰ أجريت له عدة عمليات، زرعت في إحداها بطارية في جوار قلبه. فأخذ يسترد بعد ذلك عافيته شيئًا فشيئًا.

ولما أصبح قادرًا علىٰ المشي نصحه أطباؤه بمغادرة المستشفىٰ.

وفي شهر سبتمبر ١٩٧٦ قدم إلىٰ دمشق فمكث أيامًا في ضيافة ابن عمه الشاعر سليم الزركلي، ثم قصد مصيف بلودان.

وفي أواخر سبتمبر سافر إلىٰ القاهرة؛ حيث ولده الدكتور غيث وبنتان له. أُدخل بُعيد هبوطه القاهرة مستشفىٰ في المعادي، وسرعان ما أخذت صحته في التحسن لكنها عادت فساءت مرة أخرىٰ فنقل إلىٰ مستشفىٰ في الزمالك، وهناك ساءت أكثر وتدهورت سريعًا، إلىٰ أن فاضت روحه إلىٰ بارئها في الثالث من ذي الحجة ١٣٩٦هـ الموافق ٢٥ نوفمبر ١٩٧٦ في إحدىٰ مستشفيات حي الزمالك بمدينة القاهرة.

لقد طوىٰ الموت العلم الذي خلد الأعلام، وهيهات أن تجود بمثله الأيام.

الزركلي شاعرًا:

الزركلي شاعر أصيل، تعلق بعمود الشعر العربي، والتزمه، وصاغ من الموشحات علىٰ منوال الأندلسيين.

شعره يتصف بمتانة التعبير، ودقة التصوير، وحسن الديباجة وروعة الموسيقا في حب الوطن والحنين إليه وفي وصف جمال الطبيعة وفي تصوير مآسي شعبه

ووصف معاناتهم في ظل الاحتلال وفي رثاء عظماء الأمة ومشهوريها.

وهو واحد من الشعراء الذين أعادوا للشعر العربي روعته وعظمته وجلال هيبته وخلصوه من التكلف والصنعة، الأمر الذي جعل الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر يقول عنه: «من أدباء دمشق الشاعر المجيد السيد خير الدين الزركلي.. رأيته ينحو في شعره فلسفة المعري».

وقال عنه دكتور شكري فيصل أن الزركلي «أحيا بشعره أمة» وقال أيضًا: «شعر الزركلي نمط رفيع البيان، ورائع التصوير، ونير الأداء لم يبق من القادرين عليه إلا القلة».

وكان شعره أيقونة الثورة السورية .. فتغنت الآلاف بشعره، وهو يقول:

يا راقدًا في الشام   يسقيك غاديها
قد خلت الآجام   من رابض فيها
توالت الآلام   وانقض مزجيها
هل ترجع الأيام   بيضا لياليها؟!

ويضم ديوان الزركلي، والذي طبع بعد موته نحو أربع مئة وثماني قصائد تتراوح بين البيت المفرد والأربعين بيتًا، أكثره في القضايا الوطنية، وغابت المرأة عن ديوانه (إلا قليلا).. وقارئ ديوان الزركلي يجد أن أغلب شعره كتب ما بين عامي ١٩١٩، وعام ١٩٣٩ ويجده أنه كتب في أماكن متفرقة كثيرة كدمشق وعمان وبيروت والطائف والقاهرة وجده والقدس...

وقد أرّخ الزركلي لبعض قصائده، فقد أرّخ لنحو (٣٢٤) قصيدة ولم يؤرخ للباقي.. وقد وجدتُ بعضًا من القصائد التي لم تنشر بالديوان وآمل أن يتيّسر لي نشره كاملاً مضافًا إليه مسرحيته الشعرية المخطوطة «وفاء العرب».

كتابه الأعلام:

لعل هذا الكتاب هو واحد من أشهر كتب التراجم ومن أَنْفَسِهَا، جمع فيه الزركلي نحو خمس عشرة ألف ترجمة من العصر الجاهلي حتىٰ عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م)، وقد أصاب به الرجل شهرة عظيمة وأصبح من خلاله صاحب مدرسة مستقلة في فن التراجم.

صنّفه الرجل في نحو خمسين عامًا، وكان «الأعلام» شغله الشاغل وعمله فيه مستمرًا ما امتدت به الحياة، وودّ لو استطاع أن يعمل فيه وهو في المستشفىٰ ورهن مبضع الجراح.. وبلغ من حرصه علىٰ استمرار «الأعلام» أن رصد مبلغًا من المال أودعه البنك العربي باسم المجمع العلمي بدمشق مع وصية بها للمجمع بمتابعة العمل فيه بعد وفاته.. حتىٰ أنه قال: «لو أحرق الأعلام لألقيت بنفسي في البحر أسفًا عليه» كما ذكر زكريا زعيتر.

الأعلام.. صنعه الزركلي كلمة كلمة وتعهده بالعناية والتوسعة وسد الثغرات ويسهر الليل ويلحق به النهار بين أكوام الفهارس ومجموعة المصورات إلىٰ أن استوىٰ علىٰ سوقه.

طريقته في ترتيب التراجم أن يرتبها ترتيب المعجم، فآمنة قبل إبراهيم لوجود ألفين في بدء (آمنة)، وأحمد قبل إدريس... غير أنه لم يعتمد سوىٰ الأول والثاني، فكل (محمد علي) عنده في نسق واحد، ولكنه يرتب بينهم بحسب الوفاة معتمدًا علىٰ التاريخ الهجري.

وعندما يذكر العلم يذكره بشهرته أو لقبه في بابه من حروف المعجم، ثم يحيل علىٰ الاسم الذي تجيء الترجمة تحته، ففىٰ البحث عن (الطبري) يأتي به في حرف (ط/ ب/ ر) وهو ترتيبه بحسب الشهرة، ثم يحيل إلىٰ الترجمة في موضوعها فيكتب (=) ويعني انظر: محمد بن جرير ٣١٠هـ والرقم الذي يلي الاسم هو تاريخ الوفاة بالهجري.

وتبدأ الترجمة بشهرة المترجم عنوانًا لها، محددًا تاريخ الولادة والوفاة

بالهجري وما يقابلها بالتاريخ الميلادي، ثم يذكر الاسم كاملاً ويثبت لقبه وكنيته ونسبته من الأعم إلىٰ الأخص (الأنصاري الخزرجي) مثلاً، ثم يذكر المدينة التي ينسب إليها صاحب الترجمة والفرقة التي ينتمي إليها، ثم حرفته، ثم نشأته وتعلمه والمجال الذي تخصص فيه وأهم الأعمال التي تولاها ويبين منزلته، ثم أهم مؤلفاته، ويحيل إلىٰ المصادر والمراجع موضحًا الخلافات بين المصادر ومصححًا لبعض أوهام القدامىٰ ومشيرًا إلىٰ المطبوع منها والمخطوط.

الأعلام الصغرى:

لهذا الكتاب قصة طريفة.. فقد تلقيت دعوة كريمة من ابنته السيدة (حياة الزركلي) وقد اصطحبني في تلك الدعوة الأستاذ مصطفىٰ موسىٰ المحقِّق التراثي المعروف، ولأننا لا نعرف الطريق إليها فكان لزامًا علينا أن يصحبنا إليها ابنها المهندس محمود عبدالعاطي وكان موعد لقائنا مغرب الخميس ٢٦/ ١١/ ٢٠١٣م، بالقرب من ميدان الدقي لننطلق لمقابلة السيدة الفاضلة.. ولكن الطريف أن المهندس ليس خبيرًا بدروب القاهرة وشوارعها الأمر الذي جعله يصطحب حرمه المصون السيدة/ صافيناز الجمَّال فهي الخبيرة بتلك الدروب.. وبالفعل كان لقاؤنا علىٰ الموعد.. انطلقت السيارة تطوي الأرض طيًّا في طريقها للمعادي يصطحبنا في المسير نيل مصر العظيم.. وعندما وصلنا كانت السيدة «حياة» في استقبالنا بحفاوة بالغة هي سيدة طويلة ممشوقة القوام.. نحيلة الجسم.. بيضاء.. عليها آثار السنين من خلال بعض تجاعيد الزمن.. تحتفظ بذاكرتها عن والدها وأخباره وأحبابه وحياته.. وقصت علينا قصصًا عن كتبه ورحلاته وحبه للعلم.. ثم قدمت لنا حقيبة سوداء كبيرة مملوءة بالأوراق والملفات تولىٰ أ/ مصطفىٰ موسىٰ مهمة فتح الأوراق وتقديمها لنا.. فتجد - مثلاً - مخطوطًا لمسرحية شعرية ومخطوطًا لمقال لم ينشر.. وصورة دراسة مقدمة لدورية ما، وصور لشهادات تقدير مقدمة من المملكة المغربية.... وفي مظروف أبيض صغير كانت - تلك المفاجأة - مخطوط كامل بخط صغير

وجميل ومقروء، علىٰ صفحته الأولىٰ أشار الزركلي أنه كتاب لم يكتب له مقدمة ولم يختر له اسمًا، ولم يكمله، ويظن أنه كتبه عام ١٩٢٨!!

أخذتنا الأوراق الكثيرة للنظر فيها ومعرفة ما يصلح للنشر وما يمكننا تقديمه.. بينما أخذت حرم المهندس محمود عبدالعاطي جانبًا ومعها المخطوط الصغير.. تقرأ فيه باهتمام بالغ - فهي متخصصة في التاريخ والآثار - ولأن الزركلي لم يختر له اسما.. فكانت دعابتها أنه «الكتّاب الأمْوُر» وتتعالىٰ ضحكاتنا لهذه التسمية الطريفة..

أخذت «المخطوط» وبعض أوراقه، وودعنا السيدة «حياة» لتكون رحلة العودة.. لم أنم في تلك الليلة بضيفي الجديد في غرفتي.. كتاب جديد.. لم يذكره كل من كتب عن الزركلي.. بل لم يذكره الرجل عندما ترجم لنفسه.. مبكرًا استيقظت صباح الجمعة لأقرأ في تلك الدرة النادرة.. ولأول مرة أعرف قلة صبري.. فلم احتمل ليوم الأحد فأمسكت بهاتفي واتصلت بالأستاذ الدكتور أحمد مجاهد رئيس مجلس إدارة الهيئة وأخبرته بالموضوع والذي رحّب بنشره وأحسست أنه يشاطرني فرحتي بهذا الكتاب النادر والمجهول.. مر يوم الجمعة ببطء ثم تلاه السبت ببطء أشد، ويوم الأحد مبكرًا ذهبت إلىٰ الهيئة ويبدأ نقاشنا حول كيفية الطبع.. هل نكتبه علىٰ الكمبيوتر أم نصوره بخط الرجل ليكون تحفة فريدة.. وبعد التجارب والنقاشات العديدة من فريق عمل متكامل استقر الرأي علىٰ كتابته بالكمبيوتر، ثم نصوره وليكون الكتاب بصورتيه الجديدة والمخطوطة في غلاف واحد، وأرسلنا الكتاب لقسم «الإسكانر» لتصويره علىٰ الكمبيوتر.. ولعمري إنني انظر إليه بعد تسليمه لهم تمامًا كرضيع حُرم من صدر أمه لتوه!!

خصصت موظفًا خاصًا لهذا الكتاب ليأتيني بأخباره يوميًا.. لا عمل له إلا مراعاته والحفاظ عليه وطمأنتي عليه من وقت إلىٰ آخر ويعود به آمنًا إليَّ ليستقر.. يوميًا.. بأحضاني.!!

أخيرًا هذا كتاب أطلقت عنيه «تراجم الأوائل والخلفاء - الأعلام الصغرىٰ»

تيمنًا بكتاب «الأعلام» ذلك الكتاب، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وخلد ذكرهم.

والكتاب صغير الحجم لا يتعدىٰ المائتين من الصفحات، وهو أيضًا في مجال التراجم، ولكن أي تراجم التي أفرد لها الزركلي كتابه الصغير؟!

يبدأ الكتاب بترجمة ليست وجيزة للنبي (ﷺ) اسمه وحياته وزواجه وغزواته وبعض أقواله... ثم ينتقل إلىٰ تراجم «بيت النبوة» أجداده بدءًا من عدنان وحتىٰ عبدالله بن عبدالمطب مرورًا بمضر وكعب بن لؤي وقصي وعبد مناف وهاشم بن عبد مناف وعبدالمطلب... ثم ينتقل الزركلي مترجمًا لأسرة بني هاشم وفيها ترجمة أبي طالب وحمزة والعباس والحسن بن علي والإمام الحسين ثم ترجمة الأئمة الاثنىٰ عشرية، وتضمُّ ترجمة زين العابدين بن علي والإمام الباقر ثم جعفر الصادق وموسىٰ الكاظم ثم علي الرضىٰ... ثم ينتهي بالإمام المهدي، ثم ينتقل الزركلي مترجمًا لملوك الجاهلية بدءًا من حموربي وقحطان ويعرب وسبأ وحمير وتُبَّع وعمرو بن لحي وحذيمة الوضاح وكليب ..... فإذا ما انتهىٰ إلىٰ قيس بن زهير. فيبدأ بابًا جديدًا - في تراجمه لتكون تراجم الخلفاء الراشدين - بأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ثم يبدأ بتراجم لخلفاء بني أمية، فإذا ما انتهىٰ منهم فتكون تراجم الخلفاء العباسيين، ومنها إلىٰ خلفاء المسلمين في الأندلس.

المتأمل بين تراجمه في كتابنا وردت - بعضها - مفصلة وقد يروي بعضًا من سيرته وأشعاره ولذا قد تمتد الترجمة لصفحة أو اثنتين وقد تزيد أحيانًا، وقد تقصر فتصل لثلث الصفحة.

وعلىٰ هذا فإن هذه التراجم - بمادتها - غير موجودة بكتاب الأعلام وإن ورد أصحاب التراجم بالأعلام.

وإذا كان كتاب «الأعلام» ضمّ نحو خمس عشرة ألف ترجمة، وأورد صورًا لبعض من ترجم لهم كما أورد خطوطًا لبعض منهم ممن تيسّر له في العهود القريبة. فإن كتابنا هذا ضمّ ما يقرب من مائة وخمسين ترجمة.

وإذا كان الزركلي في كتابه «الأعلام» بدأ مبوبًا ومرتبًا الأعلام حسب الترتيب الألفبائي.. فإن ترتيبه هنا في الأعلام الصغرى ترتيبًا زمنيًا عدا ترجمة النبي (ﷺ) التي تصدرت الكتاب.

وإذا كان الزركلي لم يختر له اسمًا ولم يكتب له مقدمة كما نص بخطه.. فكان حريًا بنا أن نكتب له مقدمة نعرف فيها بالزركلي وكتابه هذا ومنهجه ومصادره والفرق بينه وبين كتابه الكبير «الأعلام»، ثم كان لزامًا علينا أن نعطيه - أي الكتاب - عنوانًا، ولذا كان العنوان الأقرب إلينا وإلىٰ روح الزركلي «تراجم الأوائل والخلفاء - الأعلام الصغرىٰ».

يبدأ الزركلي ترجمته باسم الشهرة للمترجم أو اسمه الحقيقي إذا كان المترجم له مشهور به.. فنجد تراجم - مثلاً - بالأسماء الحقيقية وعبد مناف، ولهاشم ابن عبد مناف، وعبدالمطلب بن هاشم، وعبدالله بن عبدالمطلب، والحسن ابن علي، والحسين بن علي.... وقد تجد ترجمة بأسماء الشهرة دون الاسم الحقيقي، فنجد ترجمة لجذيمة الوضَّاح، وتُبَّع، حتىٰ ما وصلنا للعباسيين فتجد تراجم أبو العباس السفاح، والراضي بالله، والمقتدر بالله... ثم ينتقل الزركلي بعد الاسم المترجم له بذكر سنة الميلاد وكذا سنة الوفاة علىٰ أرجح الأقوال.

ثم تبدأ الترجمة ولكن يلاحظ أن تراجمه في صدر الكتاب (بيت النبوة والأئمة الاثنىٰ عشرية والملوك والأمراء، والخلفاء الراشدين)، كان الزركلي يبدأ الترجمة مباشرة، باسم المترجم له وميلاده ونشأته.... ولكن مع خلفاء بني أمية وبني العباس والأندلسيين كان حريصًا أن يصدِّر الترجمة بعدة سطور عن شخصية المترجم له، يدرك القارئ منها أهمية تلك الشخصية وقوتها أو ضعفها.. انظر - مثلاً - ترجمة (سليمان عبدالملك) يقول: «لم يكن صاحب هذه الترجمة من أولئك الرجال الذين حالفهم التوفيق فشادوا وسادوا، ولكنه قصُرت مدته، وحاول القيام بعمل عظيم فلم يفلح، وكان الناس قد استبشروا بتوليه بعد أخيه....».

كما كان الرجل حريصًا علىٰ ذكر خاتمة للترجمة يضمنها مدة تولية الخلافة بالسنين والشهور وأحيانًا الأيام، وذكر عدد أولاده ومكان دفنه.

- حرص الزركلي أن يذكر مصادره في كتابه - علىٰ الرغم من تصريحه المباشر علىٰ أنه سيذكرهم بقائمة في نهاية الكتاب، ولكنه لم يفعل - وقد أحصيت عدد المصادر التي ذكرها في ثنايا التراجم فتعدت السنين مصدرًا، ما بين مصادر تختص بالتاريخ العربي والإسلامي في الشرق كتاريخ الشام لابن عساكر، وتاريخ بغداد والمعارف لابن قتيبة، والأغاني للأصفهاني، وبين كتب تضمُّ التاريخ المغربي والأندلسي كنفح الطيب للمقري، والبيان المغرب لابن عذارىٰ المراكشي أو المعجب في تلخيص أخبار المغرب، كما اعتمد علىٰ كتب تاريخيه عامة كالكامل في التاريخ لابن الأثير وتاريخ الطبري، وتاريخ ابن الوردي.. كما اعتمد علىٰ كتب الأنساب ككتاب.. «سبائك الذهب» للقلقشندي، وكذا نجد كتب التراجم، فتجد وفيات الأعيان لابن خلكان، وشذرات الذهب لابن العماد، وتاريخ النحاة للسيوطي.. لم يتوقف الزركلي علىٰ الكتب العربية فتعداها إلىٰ كتب مترجمة ككتاب «السياسة الإسلامية» لماربين، و«تاريخ الجاهلية» لدىٰ برسفال كما اعتمد علىٰ العديد من الدوريات كمجلة لغة العرب، ومجلة الشرق.

- وكما كان الرجل حريصًا علىٰ ذكر المصادر والمراجع.. كان - أيضًا - حريصًا علىٰ ذكر خلافات المؤرخين، ولكنه عند الخلاف يتجاذب الزركلي جانبان..

الأول منهما.. أنه يذكر الخلاف فقط كما في ترجمة (الحسين بن علي)، قال: «وبعد قتال عنيف نشب بين الفريقين، أصيب الحسين بجراح شديدة، فسقط عن فرسه، فقتلوه، قيل قاتله سنان بن أنس النخعي، وقيل: الشمر بن ذي الجوشن، وأرسل رأسه ونساؤه وذراريه إلىٰ يزيد.... واختلفوا في الموضع الذي دفن رأس الحسين فيه، فقائل في الشام، وقائل بل دفن مع الجثة في كربلاء وقائل غير ذلك» فقد ذكر الزركلي الخلاف ولم يبد رأيًا فيه.

والثاني: نرىٰ الزركلي يدخل طرفًا في الخلافات ويرجح رأيًا أو يصوب تاريخًا أو موقفًا كما في ترجمة (علي الرضىٰ) فيقول: «... وفي سبائك الذهب للقلقشندي أن وفاته كانت سنة ٢٣٠هـ والصحيح ما ذكرته [٢٠٣هـ] واعتمده ابن خلكان وأكثر المؤرخين».

والزركلي لم ينقل فقط، ولكنه حاضر في كتابه له آراؤه، ففي ترجمة (جعفر الصادق) يقول: «والشيعة تذكر أن لجعفر كتابًا يدعونه (الجفر) ذكر فيه كل ما يحتاجون إلىٰ علمه إلىٰ يوم القيامة. وهذا الوصف باطل».. كما أنه لم يقرّ للفيلسوف الألماني ماربين في كتابه «السياسة الإسلامية» بشأن الحسين (انظر: ترجمة الحسين بن علي) ولذلك نرىٰ للزركلي آراء كثيرة، فله رأي في البدع والأوهام والخرافات (انظر: ترجمة علي الخالص) ورأي عن أهل السنة والشيعة (انظر: ترجمة: المعتصم بالله).

كما نجد له رأيًا أدبيًا ونقديًا، ففي ترجمة (سليمان بن الحكم الأندلسي) وقد أورد أبياتًا شعرية ثم قال: «وهذه القصيدة إنما نظمها المستعين معارضًا الأبيات التي عملها العباس بن الأحنف علىٰ لسان هارون الرشيد، وأورد منها أبياتًا ثم قال.. وهذه القطعة أرشق وأعذب..».

- والكتاب علىٰ الرغم من صِغر حجمه فإنه يضم الكثير من اللقطات، فتجد لقطات لغوية (ترجمة حمير/ تُبَع/ الضيزن السليحي/ الناصر)، ففي ترجمة حمير - مثلاً - يتعرض للغة اليمن التي تختلف عن لغة العرب الحجازيين، فيتكلم عن (الوتم) وهو إبدال السين تاء فيقول: النات بدلاً من الناس، وكذلك عن (الشنشنة) وهي إبدال الكاف شينًا، وإبدال لام التعريف ميمًا، وقد ورد أن رسول الله (ﷺ) تكلم بتلك اللغة، حيث قال: «ليس من امبر امصيام في امسفر»، ويقصد: «ليس من البر الصيام في السفر»... إلخ.

. كما نراه يعدد أسماء الأصنام عند العرب، وما تعبده القبائل منها (ترجمة عمرو بن لحي).

- اعتمد الزركلي علىٰ بعض كتب ليست لدينا تلك النسخ التي اعتمد عليها

ففي (ترجمة علي الهادي) أورد أبياتًا شعرية، وذكر أن الأبيات أكثر من ذلك في كتاب «الكنز المدفون» ولكن بالرجوع للكنز المدفون لم نر الأبيات على ما ذكره الزركلي، وعلى هذا فقد اعتمد الرجل على نسخة للكنز ليست بين أيدينا الآن.. وفي هذا السياق ذكر الزركلي كتابًا له تحت عنوان «الصيّب المنثال في شرح أرجوزة الأمثال» كما أشار إليه في ترجمة (كليب) وأسأل الله أن نعثر عليه في قابل الأيام، ليعد إضافة حقيقية لتراث الرجل الأدبي والثقافي.

- في ثنايا بعض الترجمات ينوه الرجل إلى أن هناك تراجم للشعراء والقوّاد وغيرهم، ففي ترجمة (كليب) - مثلاً - أشار إلى أنه سيترجم للمهلهل في (ديوان الشعراء)، وكذلك في ترجمة (عمرو بن هند) ذكر أنه سيترجم لعبيد بن الأبرص... إلخ مما يؤكد أن الرجل بدأ كتابه بطموحات كبيرة وآمال عريضة ثم عدل عنها، وهو ما أشار إليه في نهاية الكتاب، وربما وجد في كتابه «الأعلام» غنىً عن هذه التراجم فتوقف عند هذا الحد.

- وأخيرًا إليك عزيزي القارئ، هذا الكتاب الصغير حجمًا، الكبير مقامًا، الكثير علمًا فهو بحق موسوعة أدبية جامعة به الأنساب والشعر، والحكم والتاريخ، والمعارك والفتوحات، والأقوال والنوادر...

وبعد.. فهذه نسخة خطية واحدة.. اجتهدت لضبطها ما استطعت ولم أتدخل في النص إلا نادرًا وقد وضعته بين معقوفتين [ ] لنبين للقارئ أن ما بينهما ليس للزركلي. فإن باءت اجتهاداتي بالفلاح فمن الله وحده، وإن كانت الأخرى فمني التقصير وللقارئ الاعتذار، والله أسأل التوفيق والسداد، إنه نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. محمد علوان سالمان

القاهرة في مساء الإثنين

١٢ من ربيع الأول ١٤٣٥هـ

١٣ من يناير ٢٠١٤ م

«لم أضع لهذا الكتاب اسماً، ولا مقدمة، ولا أكملته. . وأظنني كتبته حوالي سنة ١٩٢٨م أيام وضعت «معجم ما ليس في المعاجم» لقصاصات الصحف».

خير الدين

بيت النبوة

إيضاح

تحت لواء عنوان «بيت النبوة» كل من انعقد نسبه بنسب النبي القرشي (عليه أفضل الصلاة والتسليم)؛ ممن تقدمه من عهد عدنان، أو من تأخر عنه إلىٰ هذا الزمان، وذلك أمر يطول علىٰ مثل هذا المصنَّف، وأحرِ به أن يكون في تأليف ينفرد له، أما ما عوَّلت علىٰ الاكتفاء به في هذا الباب فهو أنني سأفتتحه بذكر خلاصة ترجمة الرسول الأعظم، ثم ألحقها بأخبار أشهر رجال نسبه الشريف، ثم بالكلام علىٰ أنبه أعمامه ذكرًا وأرفعهم قدرًا وأختمه بالسبطين الأكملين (رضوان الله عليهما)، وبقية الأئمة الاثنىٰ عشر وأما أشباههم [...][1] الفضيلتين: الارتباط بالنسب النبوي الأغر، والنبوغ؛ كالعلم والرياسة والشجاعة وأمثالها: مما أفردت لكل منه فصلاً أشبعتُ الكلام فيه علىٰ ما أردت الإتيان عليه، فيلتمسهم طالب الوقوف علىٰ أخبارهم وآثارهم في مظانهم من فصول الكتاب.

الله أسأل تسديد خطاي إلى واضح السبيل

---

(١) سقط بالأصل..

محمد رسول الله

ولد سنة ٥٧١م – ٥٣ق.هـ

وهاجر سنة ٦٢٢م – ١هـ، وتوفي سنة [١١هـ]

بينما العرب في ليلة ليلاء، من جاهلية عمياء، يأكل قويُّهم ضعيفهم، ويفضُل غويُّهم شريفهم، وأنصاب الفتنة منصوبة، سيوف مسلولة، وأرواح مبذولة، ولا رادع، ولا حَكَم ولا مسيطر، وهم إلىٰ الفناء أقرب منهم إلىٰ [...][1]، بعيدون عن فضائل العلم والمدنية، لا همَّ لهم إلا القتال والنزال، علىٰ كثرة ما فيهم من ذوي العقول الرجيحة، والألسنة الفصيحة، وما في أخلاقهم من الألفة، والنجدة، والإباء، والغَيرة، وما في أجسامهم من القوة والمتانة والصلابة، وما في عشائرهم من التضامن والتراصّ، لولا إحنٌ وأحقاد، تتوارثها الأحفاد، عن الآباء، عن الأجداد؛ رأت في قلوبهم مكانًا خاليًا فتحكمت، فشغلتهم عن مجاراة غيرهم من [...][2] الفرس والروم في حلبة الحضارة والعمران، والعلم والعرفان [...][3]، أراد الله بهم الخير؛ فأرسل لهم من أنفسهم هاديًا حكيمًا مرشدًا، ضمَّ كلمتهم ووحَّد جمعهم، وأمات كامن أضغانهم، وأسس فيهم بنيانًا لا يتهدَّم، وأودع في أدمغتهم نورًا لا تطفئه العصور والدهور، ذلك هو: النبي الأعظم: محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وإلىٰ هنا ينتهي نسبه الشريف وما وراء ذلك فالخلاف فيه كثير. ولد (ﷺ) بمكة، ومات أبوه بعد مولده بشهور، فكفله جده عبد المطلب، وماتت أمه آمنة بنت وهب وعمره ست

(١ - ٣) كلمة غير واضحة بالأصل.

سنوات، ثم مات جده وله من العمر ثمانية أعوام، فأتم تربيته عمه أبو طالب، فنشأ معروفًا بالشجاعة والهمة والأمانة والصدق والأخلاق الفاضلة والعقل وقوة الإدراك، ولقبه قومه بالأمين.

ولما بلغ الخامسة والعشرين زوجه عمه بخديجة بنت خويلد القرشية الأسدية، وكانت قد أرسلته بتجارة إلىٰ الشام فأفلح وربح، وفي العام الأربعين من مولده بعثه الله إلىٰ الناس مبشرًا ونذيرًا؛ فجعل يدعوهم ويرشدهم خفية مدة ثلاث سنين، ثم أعلن الدعوة وكان قد آمن به جماعة من أهله وذوي قرباه، فهزأت به قريش وآذته، فصبر، وأقام بمكة مدة مات في أثنائها عمه وأكبر عاصم له من أعدائه: أبو طالب بن عبد المطلب، وأسلم في أواخرها عمه حمزة بن عبد المطلب نجدةً لابن أخيه ونصرة له، وأسلم عمر بن الخطاب، وكثر عدد نصرائه وفيهم ابن عمه عليّ بن أبي طالب، ومولاه زيد بن حارثة، وصدِّيقه أبو بكر، وصاحبه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. فرأىٰ النبي (ﷺ) أن يأذن لمن ليس له عشيرة تحميه من شر قريش بالهجرة إلىٰ أرض الحبشة، فهاجر جماعة من أصحابه، ثم أسلم ستة من الأوس والخزرج من سكان المدينة، وذهبوا إليها فنشروا الإسلام في أبنائها، فجاءه منها اثنا عشر من الأنصار فآمنوا به فبعث معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف ليعلمهم شرائع الإسلام والقرآن، فلم يمض غير قليل حتىٰ لم تبق دار في المدينة من دور الأنصار إلا وبها مسلمون إلا دار بني أمية بن زيد. ثم ذهب إلىٰ مكة جماعة منهم فعرضوا علىٰ النبي وأصحابه الهجرة إليهم والإقامة في يثرب وهي المدينة المنورة، وعاهدوه علىٰ أن يدافعوا عنه، فاستوثق منهم، وأمر أصحابه بالخروج من مكة ثم لحقهم، وبلغ قريشًا خبر رحلته فقصدوه ليقتلوه فحماه الله منهم، ودخل المدينة مهاجرًا بعد إقامته بمكة ثلاثة عشر عامًا.

ومن سنة دخوله المدينة يبتدئ التاريخ الهجري. وكانت الدعوة الإسلامية لا تخرج عن حد الدليل والبرهان، ولكنه لما اطمأنّ في المدينة وعلم أن أعداءه غير تاركيه بل لابد لهم من قصده ومحاولة إيذائه، رأىٰ أن السيف لا يدفعه إلا السيف؛ فأمر المسلمين بإعداد القوة ومحاربة خصومهم وبغاة الشر بهم. فحدثت مناوشات يسيرة ثم عظم أمرها.

فلما كانت السنة الثانية من الهجرة في شهر رمضان كانت غزوة بدر الكبرىٰ. وفي هذه السنة كانت غزوة بني قينقاع، والكُدْر والسويق. وفي السنة الثالثة كانت غزوة أُحد، وغزوة حمراء الأسد، وفي الرابعة غزوة الرجيع، وغزوة ذات الرقاع، وغزوة بدر الثانية. وفي السنة الخامسة كانت غزوة الخندق، وغزوة بني قريظة، وفي السادسة غزوة بني لحيان، وغزوة ذي قرد، وغزوة بني المصطلق، وفيها بعث رسول الله الرسل إلىٰ كسرىٰ وقيصر والنجاشي وغيرهم من عظماء الملوك كالمقوقس بمصر، والحارث الغساني بالشام. وفي السنة السابعة من هجرته كانت غزوة خيبر. وفي الثامنة غزوة ذات السلاسل، وغزوة مؤتة، وفيها فتح المسلمون مكة المكرمة، وكانت غزوة هوازن بحنين. وفي التاسعة غزوة تبوك، وغزوة طيئ... وكل هذه الغزوات كانت حروبًا بين المسلمين وعرب الحجاز، وأكثرها تم به النصر للمسلمين، حتىٰ ارتفع شأنهم، وطأطأت لهم العرب رؤوسها؛ فدخلوا في الدين أفواجًا، وأرسلت القبائل وفود الطاعة.

ولم يتوفه الله إلا بعد أن فُتحت له بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانىٰ ذلك من الشام والعراق، وجُبي له من أخماسها وصدقاتها وجزيتها ما لا يُجبىٰ للملوك إلا بعضه، وهاداه جماعة من ملوك الأقاليم فلم يستأثر بشيء مما ورد عليه ولا أمسك منه درهمًا بل صرفه علىٰ مصارفه وأغنىٰ به غيره وقوّىٰ به المسلمين.

وكان (ﷺ) شجاعًا مقدامًا، خطيبًا، أوتي جوامع الكلم، متصفًا بصفات

الكمال، قال أنس بن مالك: كان رسول الله (ﷺ): أشجع الناس وأسمح الناس، وأحسن الناس، وقع في المدينة فزع فركب فرسًا عريًا، فسبق الناس إليه وهو يقول: أيها الناس لم تُراعوا لم تُراعوا.

وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله (ﷺ)؛ فكان أقربنا إلى العدو.

ودُوِّنت كلماته من بعده. قال (ﷺ): «أُوتيت جوامع الكلم واختُصِرَ لي الكلام اختصارًا».

وهذه نبذة من أقواله في الاجتماع والسياسة والأخلاق:

- «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمن خان».
- «أحبُّ الجهاد إلى الله: كلمةُ حق تقال لإمام جائر».
- «أحبب حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وابغض بغيضك هونًا ما عسى أن يكون حبيبك يومًا ما».
- «اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس؛ فإن الأمور تجري بالمقادير».
- «أمسك عليك بعض مالك فهو خيرٌ لك».
- «ألا أدلكم على أشدكم؟ أملككم لنفسه عند الغضب».
- «الاقتصاد نصف العيش، وحُسن الخُلق نصف الدين».
- «الجنة تحت أقدام الأمهات».
- «الجنة تحت ظلال السيوف».
- «الحزم سوء الظن».
- «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».
- «خير الناس أنفعهم للناس».

- «دعوا الحسناء العاقر، وتزوجوا السوداء الولود، فإني أكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

- «الرمي خير ما لهوتم به».

- «زُرْ غِبًا تزدد حُبًا».

- «الصبر عند الصدمة الأولىٰ».

- «عرامة الصبي في صغره زيادة في عقله في كبره».

- «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلىٰ جنبه».

- «من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضىٰ لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

- «من مشىٰ مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام».

- «المستشار مؤتمن فإذا استشير فليُشر بما هو صانع لنفسه».

ومما أثبته رجال الحديث وثقاة الرواة من نعوته وأوصافه (ﷺ):

كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش.

وكان إذا خطب في الحرب خطب علىٰ قوس وإذا خطب في الجمعة خطب علىٰ عصا.

كان طويل الصمت قليل الضحك، وإذا تكلَّم تبسَّم.

كان يجلس علىٰ الأرض ويأكل علىٰ الأرض ويجيب دعوة المملوك علىٰ خبز الشعير.

كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويجالس المساكين.

كان إذا مشىٰ لم يلتفت، وإذا التفت التفت جميعًا، يتكفأ في مشيه كأنما ينحط من صبب[1].

---

(١) يتكفأ: يتمايل إلىٰ الأمام. صبب: أي منحدر من الأرض. انظر: مشكاة المصابيح: ٢/ ٤٣٤.

كان إذا ضحك وضع يده علىٰ فيه.

كان إذا اهتمَّ أكثر من مسِّ لحيته.

كان إذا أراد غزوة ورّىٰ بغيرها، وهو القائل: الحرب خدعة.

كان أشدَّ حياء من العذراء في خدرها.

كان ضخم الرأس واليدين والقدمين، ليس بالطويل ولا القصير، سبط الشعر.

كان فيه دعابة قليلة، وإذا مزح غضَّ بصره.

كان في كلامه ترتيل وترسيل.

كان لونه أسمر، وخلقته تامة، عيناه سوداوان، وفي خديه حُمرة.

كان متواضعًا في غير مذلة.

كان يأخذ المسك فيمسح به رأسه ولحيته.

كان يرسل شعره إلىٰ أنصاف أُذُنيه.

كان يلبس قلنسوة بيضاء.

وكتب الحديث مفعمة بدرر ألفاظه مشحونة بمحاسن أوصافه، وأما معجزاته فحسبنا منها المعجزة الخالدة التي هي القرآن الكريم المُبكِم بفصاحته بلغاء الجاهلية المحيِّر بأحكامه حكماء الناس أجمعين، وهو الذي أجمع عقلاء الأمم كافة علىٰ أنه أفضل الكتب السماوية وأجدرها بالبقاء وأصلحها للبشر وأنفعها للناس، وكان رسول الله (ﷺ) كثير الزوجات، قال ابن الكلبي النسَّابة: تزوَّج النبيُّ خمس عشرة امرأة، دخل بثلاث عشرة منهن، وجمع بين إحدىٰ عشرة، وتوفي وعنده تسع نسوة، وولد له سبعة أولاد: ثلاثة ذكور، وأربع بنات. فأما **الذكور**؛ فالقاسم - وبه كان يُكنىٰ -، وعبد الله، وإبراهيم، وكلهم ماتوا صغارًا لم يتجاوز أحدهم السنتين. وأما **البنات**: فزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. وكلهن عشن حتىٰ كبرنَ وتزوجن، ولم يكن لرسول الله (ﷺ) نسل

إلا من ابنته فاطمة، تزوجها ابن عمه علي بن أبي طالب، فولدت له الحسن والحسين، وإليهما نسبة كل منتسب إلىٰ النبي المصطفىٰ (صلوات الله عليه)، وولد لهما ولد ثالث سمته مُحْسنًا، مات صغيرًا، وكان لرسول الله كُتَّاب يستعين بهم؛ لأنه لم يتعلم الكتابة، منهم: عثمان بن عفان، وعليّ بن أبي طالب، وزيد ابن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وكان له سيَّافون يضربون الأعناق بين يديه، وحُرَّاس اتخذهم حتىٰ نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)، فتركهم، ومؤذنون، ورُسُل، وشعراء، وخطباء، وخدَم، وخيل، وبغال، وإبل، وحماران، وسلاح كثير من سيوف ودروع وقسيّ ورماح وحراب وخوذة ومجنّ. وفي آخر سنة من حياته الشريفة حج حجة الوداع وخطب فيها فأبان للناس ما لهم وما عليهم وهي من أطول خطبه وأكثرهن استيعابًا لأمور الدين والدنيا. وفي المدينة المنورة بدأ به ألم في آخر صفر، وحُمَّ واشتد به الصداع فتوفي يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول. وفي مثل هذا اليوم كان مولده، فدفن في مرقده الشريف في المدينة المنورة، بعد أن أسس للناس مدينة أشرقت شمسها اليوم في جميع أقطار الأرض ودينًا يعتنقه نيّف ومئتا مليون من البشر، صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.



عدنان

كان في نحو سنة ١١٠٠ قبل الهجرة

كان النبي (ﷺ) إذا انتسب فبلغ عدنان يُمسك ويقول: كذَب النسابون. فلا يتجاوزه، وإجماع المؤرخين ورجال الأنساب على أن عدنان من أبناء إسماعيل ابن إبراهيم (عليهما السلام)، والذي اعتمده القلقشندي في نسبته إلى إسماعيل أن عدنان ابن أد بن أدد الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل (عليه السلام)، وإسماعيل يبتدئ به القسم الثالث من أقسام العرب في جاهليتهم، وذلك أن المؤرخين يسمون الجيل الأول من أجيال العرب «**العرب العاربة**» وهم الذين انقطعت أخبارهم وبادت آثارهم، وربما سموهم العرب البائدة، ومنهم قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الأولى. والجيل الثاني يبتدئ بقحطان وسموه «**العرب المتعربة**» يذهبون إلى أن قحطان وابنه يعرب أخذا العربية عمن تقدمهم وسيأتي الكلام على قحطان وبنيه. والجيل الثالث «**العرب المستعربة**» ويبدأ بإسماعيل (عليه السلام) وسموهم مستعربين لأن إسماعيل لم يكن عربيًا، وإنما هاجر ومعه أمه هاجر من الشام إلى الحجاز، وكان الحجاز وتهامة حينئذ مقرَّ العمالقة، فأصابت سكان اليمن مجاعة نشأت عن قحط أصاب بلادهم فأقبلوا مهاجرين نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى، فاجتمع بهم إسماعيل وأمه فأقبلا معهم، واحتلوا أسفل مكة، ثم حاربوا العمالقة سكان الحجاز فأهلكوا أكثرهم، وأقام اليمانيون المهاجرون في ربوع الحجاز وتهامة وفيهم بقيةٌ من جرهم الثانية (وهم من العرب المتعربة) فنشأ إسماعيل فيهم وتعلَّم منهم اللغة العربية، وكان يتكلم بالعبرانية، وزوجوه من بناتهم فخرج فيهم نسله وكان من أحفاده عدنان المترجَم وإليه يُنسب الجم الغفير من عرب الحجاز: وذلك أنه ولد له معدٌّ وولد لمعدّ نزارٌ، ومن نزار ربيعة ومضر: وهذان هما اللذان كثرت بطونهما.

فكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر في تاريخ العرب إذ كانوا يناصُون مضر في الشرف والرفعة، ومنهم كان أكثر الخوارج في الإسلام، ومنهم بنو أسد وبنو عبد القيس، وعنزة وبكر وتغلب ووائل والأراقم والدُّؤل وغيرهم مما بسطه علماء الأنساب - انظر أنساب العرب للقلقشندي.

وتشعبت قبائل مضر إلىٰ شعبتين: قيس بن عَيلان بن مضر، وبطون إلياس ابن مضر. فمن بني قيس بن عيلان: بنو غطفان، وبنو سُلَيم بن منصور، ومن غطفان بغيض بن ريث، وعبس وذبيان ابنا بغيض، وما يتفرع منهما، ومن سليم ابن منصور بن بُهثة وبنو هوازن.

وإما إلياس: فكان من بنيه تميم بن مر، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد ابن خزيمة وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة: قريش. وهم أولاد فِهْر ابن مالك ابن النضر بن كنانة.

وانقسمت قريش، فكان منها جُمح وسهم ابنا هصيص بن كعب، وعَدِيُ بن كعب، ومخزوم بن يقظة بن مرة، وتَيْم بن مرة، وزُهرة بن كلاب، وعبد الدار ابن قصيّ، وأسد بن عبد العُزّي بن قصيّ، وعبد مناف بن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم. وبيت هاشم هو الذي كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم. ومنه العباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب. ومن بني عبد شمس بن عبد مناف بنو أُمية الخلفاء.

هذه خلاصةٌ موجزة عن بعض بطون عدنان وقبائلها الذين انتشروا في أنحاء الحجاز وتهامة ونجد والعراق، ثم اليمن، ونحن وإن أطلنا في إيرادها، ولكن البحث يضطرنا إلىٰ ذكر أكثر مما ذكرنا. والله بخليقته أعلم.

مضر

مات في نحو سنة ٩٥٠ قبل الهجرة

مضر بن نزار بن معد بن عدنان: أحد سادات قريش، وبنوه كما في العبر: أهل الكثرة والغلبة بالحجاز من سائر بني عدنان. ولهم الرياسة بمكة والحرم. ومضر: أول من سنَّ الحداء للإبل، وكان من أحسن الناس صوتًا، وهو صاحب المثل السائر «بصبصنَ، إذ حُدِين بالأذناب»، قاله وكان في سفر فوقع فرُضَّت يده فجعل يصيح من ألمه: يا يداه! يا يداه! فأتته الإبل القريبة منه وكانت ترعىٰ فلما صلح وركب حدا، فأعجبه ما رأىٰ من الإبل فقال: بصبصن... إلخ، فذهبت مثلاً. ومات بمكة.

كعب بن لؤيّ

مات في نحو سنة ٣٠٠ – ٤٠٠ قبل الهجرة

أبو هصيص كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر: قرشي من كبار سادات العرب في الجاهلية وله أعمال مشهورة وذكر في تاريخ الجاهليين معروف. قال القلقشندي: كان كعب عظيم القدر عند العرب فلما مات أرَّخوا بموته إلىٰ عام الفيل (وهو عام مولد النبي ﷺ)، ثم أرخوا بالفيل إلىٰ أن ظهر الإسلام؛ فكانوا يؤرخون بالوقائع العظيمة إلىٰ أن قرَّ رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) علىٰ اتخاذ هجرة الرسول الأعظم تأريخًا للمسلمين... وهو أي كعب أول من سَنَّ الاجتماع في الجمعة، وكانت العرب تسميه يوم العروبة. كانت قريش تجتمع إليه في هذا اليوم فيخطبهم ويعظهم، وقيل: كان يذكر لهم أنه سيكون من وَلَده نبي يبعثه الله. وهو الذي سمىٰ يوم العروبة بيوم الجمعة. وقال ابن الأثير المؤرخ: كان كعب يخطب الناس أيام الحج. فهو من الخطباء الأمراء. وهو الأب الثامن للنبي الهاشمي المختار، وكانت إقامته بمكة وفيها مات.

قُصَيّ

مات في نحو سنة ٢٠٠ قبل الهجرة

أبو المغيرة قُصَيٌّ، واسمه زيد، بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ: كان سيد قريش ورئيسهم والمشارَ إليه منهم. مات أبوه وهو طفل صغير. فتزوج[ت] أمَّه، فاطمة بنتَ سعد، رجل من بني عُذرة يدعىٰ ربيعة بن حرام، وسار بها الشام فأخذت قصيًا معها، فشبَّ في حجر ربيعة، وسُمِّي قصيًا لبعده عن دار قومه، فكان قُصي ينتمي إلىٰ ربيعة إلىٰ أن كبر فكان بينه وبين رجل من قضاعة شيء فعيَّره القضاعي بانتسابه لغير أبيه، فعاد إلىٰ أمه فسألها فأخبرته، فلما كان الشهر الحرام خرج مع الحاجّ حتىٰ قدم مكة فتعرَّف إلىٰ قومه من قريش فعرفوه؛ فأقام بينهم وكثر ماله، وكان موصوفًا بالدهاء والعقل ومعرفة الطرق الموصلة إلىٰ السيادة والرياسة، فعظم شرفه، ووليَ الكعبة، ثم كانت له مع القبائل حروب ووقائع رفعت ذكره واضطرته أن يجمع قومه إلىٰ مكة من الشعاب والأودية والجبال فسمَّوه مجمّعًا. وملكوه عليهم فكان أول قرشي من ولد كعب بن لؤي أصاب ملكًا أطاعه به قومه. وقسّم مكة أرباعًا ومنازل بين قومه فبنوا بها المساكن، وكان إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف قريش كله. قال في كامل التواريخ: وتيمنت قريش بأمره ورأيه فكانت لا تعقد نكاحًا إلا في داره ولا يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في داره، ولا يعقدون لواء للحرب إلا في داره يعقده بعض ولده، وكان أمره في قومه كالدِّين المتبع في حياته وبعد مماته.

وحفر بمكة بئرًا سماها العجول وهي أول بئر حفرتها قريش بمكة، ولما كبر وبلغ سن الهرم جلس في دار الندوة، وهي دار في مكة كانت قريش تجتمع بها في قضاء أمورها، وجمع بنيه وكانوا قد شبوا وسادوا فرأىٰ أكبرهم سنًا أضعفهم شأنًا، وهو ولده عبد الدار، فأشفق عليه فقال له: والله لأُلحقنك بهم، فأعطاه

رياسة دار الندوة، وحجابة الكعبة، واللواء - فكان يعقد لقريش ألويتهم في الحروب - والسقاية - فكان يسقي الحاجّ، والرفادة وهي سنة سنها قصي في قريش، وذلك أنهم كانوا يأتونه في كل موسم بشيء من أموالهم يصنع منه طعامًا للحاجّ يأكله الفقراء.

قال ابن الأثير في كلامه على الرفادة: وكان قصي قد قال لقومه: إنكم جيران الله وأهل بيته، وإن الحاج ضيف الله وزوّار بيته وهم أحقُّ الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج ففعلوا فكانوا يُخرجون من أموالهم فيصنع به الطعام أيام منىٰ. قال: وجرىٰ الأمر علىٰ ذلك في الجاهلية والإسلام إلىٰ الآن فهو الطعام الذي يصنعه الخلفاء كل عام بمنىٰ.

ثم مات قصي بمكة فخلفه بالسيادة أبناؤه ودُفن بالحجون فكانوا يزورون قبره ويعظمونه، وهو الأب الخامس من آباء النبي (ﷺ) وفي جمعه القبائل يقول الشاعر:

أبوكم قصيٌّ كان يدعىٰ مجمِّعًا   به جمع الله القبائل من فهرِ

عبد مناف

مات في نحو سنة ١٣٥ قبل الهجرة

عبد مناف بن قُصيّ بن كلاب بن مرة: سيد من سادات الجاهلية كانت له الشوكة في قريش، ساد في أيام أبيه قصي وترأس بعد أبيه، وعبد مناف لقب له، وإنما اسمه المغيرة، ويُكنىٰ أيضًا أبا عبد شمس، وكان يقال له القمر لجماله، وكانت أمه حين ولدته دفعته إلىٰ مناف، وهو صنم بمكة تدينًا فغلب عليه عبد مناف. وكان دون أبيه السالف ذكره بالحكمة والتدبير، فلم يُحدث جديدًا في قومه بعده، وانقادت له قريش لمكانة أبيه عندهم ولشدة تعلقهم به وحبهم له ولبنيه.

قال الجوهري: والنسبة إلىٰ عبد مناف مَنافيّ. قال: والقياس عبدي، عدلوا عنه لإزالة اللبس.

وهو الأب الرابع لرسول الله (ﷺ)، وفي آله يقول الشاعر:

قل للذي طلب السماحة والندىٰ هــلّا مــررت بــآل عـبـد مَـنَـافِ

الرائشون وليس يوجد رائش والـقـائـلـون هـلـمَّ لـلأضـيـافِ

هاشم بن عبد مَناف

ولد سنة ١٠٢ ومات سنة ١٢٧ قبل الهجرة

هاشم بن عبد مناف بن قُصي: أحدُ من انتهت إليهم سيادة قريش في الجاهلية، اسمه عمرو وكنيته أبو نضلة، ولُقِّب هاشمًا لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة، وذلك أنه كان أحد الأجواد الذين ضُرب بهم المثل في الكرم والسخاء وللشعراء فيه قصائد وأبيات مأثورة.

واتفق أنه أصاب الناس مَحْل فخرج هاشم إلىٰ الشام فاشترىٰ دقيقًا وكعكًا وقدم به مكة في الموسم فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر وجعله ثريدًا وأطعم الناس حتىٰ أشبع الجياع فسُمِّي هاشمًا. قال الشاعر:

عمرو العلا هَشَم الثريدَ لقومه ورجــالُ مكة مسنتون عـجـافُ

وكان هاشم قد بلغ السيادة وهو صغير فعُرف شأنه في حياة أبيه عبد مناف، ولما مات أبوه تولىٰ سقاية الحاج ورفادته (وهي إطعام الفقراء من الحجاج كما قدمنا)، فحسده ابن أخ له اسمه أمية بن عبد شمس (وهو جد بني أمية ملوك

الشام) فتكلف أن يقلده في كرمه فعجز وظهر عليه أنه يصنع فوق طبعه فشمتت به ناس من قريش فغضب ودعا هاشمًا للمنافرة فكره هاشم ذلك لسنه وقدره، فألحّت عليه قريش حتىٰ رضي فتنافرا إلىٰ كاهن من بني خزاعة بعسفان واتفقا علىٰ أن ينحر المفضول خمسين ناقة بمكة يطعمها الناس ويرحل عن مكة عشر سنين، فانصرفا إلىٰ الكاهن فقال: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدىٰ بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشمٌ أميةَ إلىٰ المفاخر». فقضي بتفضيل هاشم وأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها وغاب أمية عن مكة بالشام عشر سنين؛ فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية، ثم توارثها بنوهما.

وبينما كان هاشم في سفر إلىٰ الشام مرض فتحوَّل إلىٰ غزَّة فمات بها وهو في عصر الشباب لم يتجاوز سنُّه خمسًا وعشرين، وكان موصوفًا بالجمال وكرم الخلال، وهو جد أبي القاسم محمد (ﷺ)، وفي هاشم يقول الشاعر:

عمرو العلا ذو الندىٰ من لا يسابقه ... مرُّ السحاب ولا ريح تُجاريه
جفانه كالجوابي للوفود إذا ... لبوا بمكة ناداهم مناديهِ
أو أمحلوا أخصبوا منها وقد ملئت ... قوتًا لحاضره منهم وباديهِ

عبد المطلب بن هاشم

ولد سنة ١٢٧ ومات سنة ٤٥ قبل الهجرة

أبو الحارث شيبةُ الحمدِ بن هاشم بن عبد مناف: أحدُ عظماء قريش وسيد من كبار سادات العرب، اسمه شيبة الحمد، قيل: لأنه ولد وفي رأسه شيبة فسموه بها، وغلب عليه لقبه عبد المطلب، وذلك أن أباه هاشمًا سافر في تجارة إلىٰ الشام فمرَّ بالمدينة فنزل علىٰ عمرو بن لبيد الخزرجي من بني النجَّار فرأىٰ

ابنته سلمىٰ فأعجبته فتزوَّجها ولما عاد من سفره أخذها معه إلىٰ مكة، ثم أراد السفر إلىٰ الشام فأخذها إلىٰ المدينة علىٰ أن يعيدها عند رجوعه وكانت حبلىٰ، فلما بلغ غزَّة مات بها (كما تقدم في ترجمته)، وولدت سلمىٰ غلامًا شيبة (أو شيبة الحمد) فنشأ في المدينة، وبعد نحو سبع سنين مرَّ بالمدينة رجل من بني الحارث؛ فإذا غلمان ينتضلون (يتبارون في رمي السهام) وشيبة بينهم كلما أصاب قال: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الحارثي: من أنت؟ قال: أنا ابن هاشم بن عبد مناف، فلما أتىٰ الحارثي مكة أخبر المطلب بن عبد مناف (أخا هاشم) بما رأىٰ وما سمع، فَسُرَّ المطلب وركب وارتحل إلىٰ المدينة فرأىٰ غلمانًا يضربون كرةً فعرف ابن أخيه فأخذه واستأذن أمه وأركبه علىٰ عجز الناقة حتىٰ قدم مكة ضحوة والناس في مجالسهم فسألوه: من هذا وراءك؟ وكانت بزَّته غير حسنةٍ فخجل أن ينسبه لهم فقال: عبدٌ لي، ثم ألبسه حلة تليق به وأخرجه للناس فحدثهم بخبره؛ فكان بعضهم إذا ذكروه قالوا: عبد المطلب فغلب عليه، ثم شبَّ بينهم فكانت له السقاية والرفادة، ولاحت عليه أمارات السيادة والإمارة وكان عاقلاً ذا أناة ونجدة وخُبرة فأحبه قومه؛ فرفعوا من شأنه وطال عمره، وحفر بئر زمزم، وهي البئر التي احتفرها إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام) ودفنتها جرهم، فأعادها وظهر ماؤها. وكان فصيح اللسان حاضر الجَنان، وفد بجماعة من قريش علىٰ ملك اليمن سيف بن ذي يزن الحميري حين أدرك مُلك آبائه، يهنئونه بالنيابة عن أهل الحجاز، فلما دخلوا عليه، استأذنه عبد المطلب في الكلام؛ فقال: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك أذِنًا، فقال عبد المطلب:

«إن الله قد أحلك أيها الملك محلًا رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعزَّت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت أبيتَ اللعن، رأسُ العرب، وربيعها الذي به تخصبه، ومَلِكها الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ

العباد، فسلفك خير سَلَف، وأنت لنا بعدهم خير خَلَف، فلن يهلك من أنت خلفه، ولم يخمل من أنت سلفه، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته أشخصَنا إليك من أبهجك لكشف الكرب الذي فَدَحَنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة، لا زلت ناعم البال، مهنَّئًا في كل حال».

فقال سيفُ الملك: من أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب ابن هاشم، قال: ابن أختنا؟ قال: نعم، فأقبل عليه من بين القوم وقال: «مرحبًا وأهلاً ومناخًا سهلاً، وناقة ورحلاً، وملكًا [...][1]، يعطىٰ عطاءً جزلًا، قد سمعت مقالتكم وعرفت قرابتكم، أهل الشرف والنباهة ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم»، ثم أمر بهم إلىٰ دار الضيافة فأقاموا شهرًا لا يؤذن في مقابلته ولا في الانصراف، ثم دعا بعبد المطلب فأخبره أن كتبهم السماوية تبشر بنبي يظهر من ذريته، وأمره أن يكتم ذلك، وأجزل له العطايا وأكرم من جاء معه، وأذن لهم فعادوا.

وكان عبد المطلب إذا دخل شهر رمضان صعد حراء فتحنث (أي تعبَّد)، وأطعم المساكين جميع الشهر، وهو أول من خضب بالسواد من العرب. مات وعمره ٨٢ سنة - كما في عيون التواريخ - وفي الكامل أنه عاش ١٢٠ سنة، وفي سبائك الذهب ١٤٠ سنة، وخلف اثني عشر ولدًا وهم: عبد الله، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، والعباس، وضرار، وحمزة، والمقوم، وأبو لهب، وقثم، والغيداق، والحارث. وبعض الناسبين يعدهم عشرة، يهمل عبد الكعبة وقثم ويزيد ست بنات، وأنا ذاكرٌ فيما يلي تراجم أشهر هؤلاء، وفي كتب السيرة النبوية أن رسول الله كان إذا انتخىٰ في الحرب يقول:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب!»

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

عبد الله بن عبد المطلب

ولد سنة ٨١ ومات سنة ٥٣ قبل الهجرة

أبو قُثَم عبد الله الذبيحُ بن عبد المطلب بن هاشم: والدُ رسول الله (ﷺ)، ولد في مكة ونشأ بها، وهو أصغر ولَدِ عبد المطلب وأقصرُهم عُمرًا، وكان عبد المطلب أبوه قد نذر: لئن وُلِدَ له عشرة أبناء وشبوا في حياته وكانوا أعوانًا له على أعدائه لينحرنَّ أحدهم عند الكعبة لله تعالىٰ! فما زال يلد له حتىٰ بلغ أبناؤه عشرة أشدَّاء، فذهب بهم إلىٰ هُبل وهو أكبر أصنام الكعبة فضُربت القداح (يفعلون ذلك كالقُرْعة) فخرجت علىٰ عبد الله.. وهو أحب بنيه إليه وأصغرهم، وكان عبد المطلب واقفًا يدعو؛ فلما خرج القِدْح علىٰ عبد الله انبرىٰ إليه فأخذه وذهب به إلىٰ أساف ونائلة (وهما صنمان كانوا إذا أرادوا ذبح شيء نحروه عندهما)؛ فقامت قريش من أنديتها فمنعوه من ذبحه، فأصَرَّ، فقالوا: هلمَّ فانطلق إلىٰ كاهنة الحُجْر فسلها؛ فإن أمرتك بذبحه فافعل، فذهب معهم إليها وهي بخيبر، فقصَّ عليها عبد المطلب خبره، فقالت: ارجعوا اليوم حتىٰ يأتيني تابعي فأسأله، فرجعوا عنها، ولما أصبحوا غدوا إليها، فقالت: نعم قد جاءني الخبر، فكم الدية عندكم؟ قالوا: عشر من الإبل، قالت: ارجعوا إلىٰ بلادكم فقربوا عشرًا من الإبل واضربوا عليها وعلىٰ عبد الله بالقداح؛ فإن خرج علىٰ صاحبكم فزيدوا عشرًا حتىٰ يرضىٰ ربكم، وإن خرجت علىٰ الإبل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم، فخرجوا حتىٰ أتوا مكة؛ فاجتمعوا ثم قربوا عبد الله وعشرًا من الإبل؛ فخرجت القداح علىٰ عبد الله فزادوا عشرًا فخرجت عليه فما برحوا يزيدون عشرًا وتخرج القداح عليه حتىٰ بلغت الإبل مئة، ثم ضربوا فخرجت القداح علىٰ الإبل، فقال من حضر: قد رضي ربك يا عبد المطلب، فقال عبد المطلب: لا والله! حتىٰ أضرب ثلاث مرات، فضربوا ثلاثًا، فخرجت القداح علىٰ الإبل،

فنُجِرت، وتُرِكت لا يُصَد عنها إنسان ولا سبع، وانصرف عبد المطلب بابنه فرحًا به، فزوجه بآمنة بنت وهب (أمّ رسول الله ﷺ)، ثم أرسله إلىٰ المدينة يمتار لهم تمرًا، فمرض بالمدينة، ومات بها ودفن في دار النابغة الجعدي الشاعر.

وبعضهم يقول: إنه سافر إلىٰ الشام في تجارة فلما عاد نزل في المدينة وهو مريض فتوفي بها، وله من العمر ثمان وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل ولادة سيد الخلق وهادي الهداة محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام)، وجُلّ هذه الترجمة ملخَّص عن المجلد الثاني من الكامل لابن الأثير.

أبو طالب بنْ عبد المطلب

ولد سنة ٨٥ وتوفي سنة ٣ قبل الهجرة

أبو طالب واسمه عبد مناف بنُ عبد المطلب بن هاشم: والد عليّ بطل الإسلام، وعمُّ النبي الأمين وناصره، وكافله ومربيه، وهو من أبطال بني هاشم والمُطاعين منهم.

قال رسول الله (ﷺ): ما نالت قريش مني شيئًا أكرهه حتىٰ مات أبو طالب. وذلك أنه لما أعلن الدعوة ثارت عليه بنو قريش وأرادوا قتله، فانتصر له عمه أبو طالب، فصدَّهم عن أذيته، فلما مات أخرجوه فاضُطرَّ إلىٰ الهجرة بمن معه كما قدمنا في الترجمة الأولىٰ.

وكان أبو طالب خطيبًا عاقلاً حَسَنَ الروية طاهر القلب أبيَّ النفس، وعَرَض عليه ابنُ أخيه الإيمان بدينه فوعده بنصرته وحمايته، ولكنه امتنع عن قبول الإسلام خوفًا من أن تعيِّره العرب وتعيبه، فنزلت آيةُ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦)، فتركه واكتفىٰ منه بصدِّ أعدائه عنه، وأورد الفاضل السهيلي في كتابه الروض الأُنف نقلاً عن هشام بن السائب الكلبي خطبة قالها

أبو طالب حين حضرته الوفاة، واجتمعت عليه وجوه قريش نذكرها عنه قال:

«يا بني قريش! إنكم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، وفيكم السيد المطاع، والمتقدم الشجاع، والواسع الباع، لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبًا إلا أحرزتموه، ولا شرفًا إلا أدركتموه، فلكم علىٰ الناس بذلك الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، والناس لكم حرب، وعلىٰ حربكم أُلب، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية؛ فإنَّ فيها مرضاة للرب، وقِوامًا للمعاش، وثباتًا للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها؛ فإن في صلة الرحم منسأةً في الأجل، وزيادة في العدد، واتركوا البغي والعقوق؛ ففيهما هلكت القرون قبلكم، وأجيبوا الداعي وأعطوا السائل؛ فإن فيهما شرف الحياة والممات، وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة؛ فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام، وأنا أوصيكم بمحمدٍ خيرًا؛ فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو جامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمرٍ: قَبِلَهُ الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلىٰ صعاليك العرب وأهل البر في الأطراف والمستضعفين من الناس: قد أجابوا دعوته وصدَّقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا، ودورها خرابًا، وضعفاؤها أربابًا، وإذا أعظمُهم عليه أحوجُهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصغت له فؤادها وأعظمته قيادها، دونكم يا معاشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاةً ولحزبه حُماة والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكفيت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي».

ومن خُطبه ما ذكره الإمام المبرّد قال: خطب أبو طالب لرسول الله (ﷺ) في تزويجه خديجة بنت خُوَيْلد فقال: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزَرْع إسماعيل، وجعلَ لنا بلدًا حرامًا، وبيتًا محجوجًا، وجعلنا الحُكَّام علىٰ الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي: مَن لا يُوازن به فتًىٰ من قريش إلا رَجَحَ

عليه برًّا وفضلاً وكرمًا وعقلاً ومجدًا ونُبلاً، وإن كان في المال قُلٌّ فإنما المال ظلٌّ زائل وعاريةٌ مسترجَعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعليَّ».

قال المبرد: وهذه الخطبة من أقصر خطب الجاهلية.

وكان أبو طالب صاحب تجارة كباقي قريش، ومولده في موطنه مكة وبها نشأ وفيها مات ودُفن، وأعقب أربعة واثنتين، وهم: علي، وجعفر، وعقيل، وطالب، والاثنتان هما: أم هانئ، واسمها فاختة، وجُمانة، وأمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

حمزة بن عبد المطلب

ولد سنة ٥٤ قبل الهجرة وتوفي سنة ٣ للهجرة

أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم: عمُّ رسول الله (ﷺ)، وأحدُ صناديد قريش وسراتهم وسادتهم في الجاهلية والإسلام، ولد بمكة ونشأ بها، قال صاحب أُسد الغابة: كان أعزّ قريش وأشدَّها شكيمة، وأول أخباره في الإسلام أن أبا جهل المخزوميَّ القرشيَّ (عدوَّ النبي ومن أشدِّ أعدائه عليه) تعرَّض لرسول الله فشتمه وأهانه، ورسول الله صامت لم يُجبه، وكان حمزة غائبًا في الصيد؛ فلما عاد أُخبِرَ بما صنع أبو جهل، فقصدَه، فرآه في الكعبة فضربه بقوس كانت في يده فشجَّ رأسه شجة منكرة، وقال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فارددُ عليَّ إن استطعت، فحدثت ضجة عظيمة وقامت رجال بني مخزوم على حمزة؛ فمنعهم أبو جهل وخاف اتساع الفتنة؛ فقالوا: ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت، فقال حمزة: وما يمنعني؟ فقالت العرب: اليوم عزَّ محمد، وإنَّ حمزة سيمنعه، فكفُّوا عن بعض إساءاتهم إلى المسلمين، وثبت حمزة على إسلامه، وكان ذلك قبل موت أبي طالب، ثم هاجر حمزة مع النبي (ﷺ) إلى المدينة وحضر وقعة بدر وغيرها وأبدى من البسالة ما هو معروف عنه.

قال المدائني: أول لواء عقده رسول الله (ﷺ) كان لحمزة بن عبد المطلب، وكان حمزة يُعرف في الحرب بريشة نعامة يضعها في صدره، ولما كان في وقعة بدر قاتل بسيفين، فقال أمية بن خلف، وهو أسير في يد المسلمين: من الرجل المعلَّم بريشة؟ فقيل له: حمزة، فقال: ذاك فعل بنا الأفاعيل!

وقُتل (رضي الله عنه) في وقعة أُحُد بعد أن قتل أحدًا وثلاثين نفسًا، ثم عثر فوقع على ظهره، فرآه أحد العبيد فأدركه وضربه بحربة ذهبت بروحه، وأخذه المشركون فمثَّلوا به وبشهداء المسلمين، فلما رآه النبي (ﷺ) صَعِقَ وبكى، ثم قال: «رحمك الله أيْ عمّ؛ فلقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات».

وأخذه المسلمون فدفنوه في المدينة. قال ابن حزم وغيره من رجال التحقيق: إنه انقرض عقبه، فلا يثبت انتساب بعض الأُسرِ إليه (رضوان الله عليه).

العباس بن عبد المطلب

ولد سنة ٥١ قبل الهجرة وتوفي سنة ٣٢ هجرية

قال رسول الله (ﷺ): «هذا العباس بن عبد المطلب: أجودُ قريش كفًا وأوصلها؛ هذا بقية آبائي».

كان العباس أحدَ عظماء قريش: رئيسًا في الجاهلية عظيمًا في الإسلام؛ وَصُولاً لأرحام قريش مُحسنًا إليهم ذا رأي سديد وعقل غزير؛ مولعًا بإعتاق العبيد، كارهًا للرق.

قال صاحب أُسد الغابة: اشترى العباس سبعين عبدًا وأعتقهم جميعًا، وكانت له سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام (وهي أن لا يدع أحدًا يسب أحدًا في المسجد ولا يقول فيه هُجرًا).

ولد بمكة بعد مولد رسول بسنتين، وأسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، وأقام

بمكة يكتب إلىٰ رسول الله (ﷺ) أخبارَ المشركين، وبعد الهجرة أراد أن يرحل إلىٰ المدينة مهاجرًا فقال له النبي (ﷺ): مقامك بمكة خير، ثم هاجر بعد زمن وشهد، وقعة حُنين فثبت مع رسول الله لما انهزم الناس، وشهد فتح مكة أيضًا، وكان طويلاً جميلاً أبيض بضًا له ضفيرتان، وعاش نيفًا وثمانين عامًا، أُصيب في آخر عمره بمرض في عينيه فعميتا، وهو أبو الخلفاء العباسيين يتصل نسبهم به، وكان جليل القدر رفيع الجانب.

قال الصفدي في نكْت الهميان: ولم يمرَّ (أي العباس) بعمر ولا بعثمان وهما راكبان إلَّا ترجَّلا: إجلالاً له، وبارك الله في نسله.

قال الجهشياريّ في كتاب الوزراء: أُحصيَ ولد العباس في سنة مئتين فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفًا (٣٣٠٠٠).

وتوفي (رضي الله عنه) بالمدينة ودُفن في البقيع، وله عشرة أولاد ذكور، سوىٰ الإناث، منهم حبر الإسلام عبد الله بن عباس.

الحسن بن عليّ

ولد سنة ٣ وتوفي سنة ٥٠هـ

أبو محمد الحسنُ بن علي بن أبي طالب: خامسُ الخلفاء (الآتي ذكرهم) وآخرهم، أُمُّهُ السيدة فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) وهو أكبر أولادها وأولهم، ولد في المدينة المنورة ونشأ بها، وكان عاقلاً حليمًا وقورًا محبًا للخير حَسَنَ الخَلْق والخُلُق، لما استشهد أبوه علي (وستأتي في ترجمته) عمد أهل العراق إليه فبايعوه علىٰ الخلافة سنة ٤٠هـ، وأشاروا عليه بالمسير إلىٰ الشام لمحاربة معاوية بن أبي سفيان، فأطاعهم وزحف بمن معه، [وعرف] خبرُه معاوية فسار من الشام إليه، فلما تقارب الجيشان في موضع يقال له مسكن بناحية من الأنبار، علم الحسنُ أن هاتين الطائفتين لا تغلب إحداهما الأُخرىٰ، إلا بفناء عدد عظيم منها، فعظم عليه

الأمر، وهاله نشوب القتال بين المسلمين؛ فمال إلىٰ السلم، وكتب إلىٰ معاوية يتنازل له عن الخلافة لقاءَ شروط يشترطها، فسُرَّ معاوية وصالحه وخلع الحسنُ نفسه وسلم الأمر إلىٰ معاوية في بيت المقدس تورعًا وحسمًا للشر، وسمي عامُ ذلك وهو سنة ٤١هـ «عام الجماعة» لاجتماع كلمة الإسلام فيه واتفاقهما علىٰ حقن الدماء بعد تلك الحروب والفتن بين علي ومعاوية، ثم قصد معاوية الكوفة ورحل الحسن إلىٰ المدينة؛ فأقام بها حتىٰ توفي مسمومًا في قول بعضهم. ودفن بالبقيع عليه الرحمة والرضوان، ومدة خلافته ستة أشهر وخمسة أيام، وولد له أحد عشر ابنًا وبنت واحدة. هذا ما يتعلق بسيرته.

وأما فصاحته وبداهته فكان معاوية يوصي حاشيته باجتناب محاورة رجلين هما: الحسن وعبد الله بن عباس؛ لقوة بداهتهما.

قال البيهقي: قدم الحسنُ علىٰ معاوية وعنده عمرو بن العاص ومروان بن الحكم والمغيرة بن شُعبة وصناديدُ قومه ووجوه اليمن والشام، فأجلسه معاوية علىٰ سريره إكرامًا له فحسده مروان فقال: يا حسن، لولا حلم أمير المؤمنين ما أقعدك هذا المقعد ولقتلك وأنت له مستوجبٌ بقودك الجماهير فلما أحسست بنا وعلمت أن لا طاقة لك بفرسان أهل الشام وصناديد بني أمية أذعنتَ بالطاعة وبعثتَ تطلب الأمان، أما والله لولا ذلك لأُريق دمك ولعلمت أنا نعطي السيوف حقها عند الوغىٰ، فاحمد الله إذا ابتلاك بمعاوية فعفا عنك بحلمه، ثم صنع بك ما ترىٰ.. فنظر إليه الحسن. وقال: ويحك يا مروان! لقد تقلدتَ مقاليدَ العار في الحروب عند مشاهدتها والمخاذلة عند مخالطتها، نحن! هبلتكَ الهوابل، لنا الحجج البوالغ والنعم السوابغ تفخر ببني أمية وتزعم أنهم صُبُرٌ في الحروب أُسد عند اللقاء؟ ثكلتك أمك! أولئك البهاليل السادة، والحُماة الذادة، والكرام القادة، بنو عبد المطلب. أما والله لقد رأيتَهم وجميع من في هذا البيت ما هالتهم الأهوال ولم يحيدوا عن الأبطال كالليوث الضارية الباسلة الحنقة فعندها وليتَ

هاربًا وأُخذتَ أسيرًا فقلدتَ قومك العار، أيُراقُ دمي زعمتَ؟ أفلا أرقت دم من وثب علىٰ عثمان في الدار فذبحه كما يُذبح الجمل، وأنت تثغو ثغاء النعجة وتنادي بالويل والثبور كالأَمَة اللكْعاء، ألا دفعت عنه بيد أو ناضلتَ عند بسهم؟ لقد ارتعدتْ فرائصك وغُشيَ بصرُك فاستغثت بي كما يستغيث العبد بربه فأنجيتك من القتل ومنعتك منه، ثم تحثُّ معاويةَ علىٰ قتلي؟ ألا ولو رام ذلك معك لذُبح كما ذُبح ابن عفان!.. أنتَ معه أقصر يدًا وأضيق باعًا وأجبن قلبًا من أن تجسُرا علىٰ ذلك، ثم تزعم أني ابتُليتُ بحلم معاوية؟ أما والله لهو أعرف بشأنه وأشكر لما ولَّيْنَاه من هذا الأمر، فمتىٰ بدا له فلا يُغْضينَّ جفنه علىٰ القذىٰ معك، فوالله لأُعَقِّبَنَّ أهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها ويستأصل فرسانها، ثم لا ينفعك عند ذلك الهرب والروغان ولا يردُّعنك الطلب تدريجُك الكلام. انطق إن كنتَ صادقًا!.. فانتصر عمرو ومعاويةُ للحسن وشتما مروان فانصرف مغضبًا مفحَمًا..

وسأله أبوه عليٌّ (ﷺ) ليمتحن بداهته: يا بُنَيَّ ما السداد؟ قال: دفع المنكرَ بالمعروف. قال: فما الشرف؟ قال: اصطناع العشيرة والاحتمال للجريرة. قال: فما السماح؟ قال: البذل في العسر واليسر. قال: فما اللؤْم؟ قال: إحراز المرء ماله وبذله عرضه. قال: فما المنعة؟ قال: شدة البأس ومنازعة أعز الناس، قال: فما الجبن؟ قال: الجراءة علىٰ الصديق والنكول عن العدوّ. قال: فما الغنىٰ؟ قال: رضىٰ النفس بما قسم الله لها. قال: فما الذل؟ قال: الفزع عند الصدمة. قال: فما المجد؟ قال: أن تعطي في العزم وتعفو في الجرم.اهـ.

وتجد ترجمته بأطول مما هنا في تاريخ الشام لابن عساكر، وإسعاف الراغبين للصبان وأمثالهما من كتب التاريخ والسِّيَر والأخبار.

وكان آخر كلامه (ﷺ) لأخيه الحسين وهو يجود بنفسه: «يا أخي أوصيك أن لا تطلب الخلافة؛ فإني والله ما أرىٰ أنْ يجمع الله فينا النبوَّة والخلافة؛ فإياك أن يستخفك سفهاء الكوفة ويخرجوك فتندم من حيث لا ينفعك الندم».

والحسن (عليه الرضوان) ثاني الأئمة الاثنىٰ عشر عند الإمامية، وذلك أن السادة الإمامية، وهم فرقة من فرق المسلمين تقول بإمامة علي (رضي الله عنه) بعد النبي (ﷺ) (انظر كتاب الملل والنِحَل للشهرستاني)، يذهبون إلىٰ أن إمامة المسلمين يتوارثها أبناءُ علي عنه، وهم مختلفون في أسماء بعضهم ولكنهم متفقون علىٰ عدوهم، وأنهم ختموا بالمهديّ المنتظر وهو الإمام الثاني عشر، والأشهر في تسميتهم أنهم: الإمام علي، والحسن، والحسين، وزين العابدين، والباقر، والصادق، والكاظم، والرضا، والجواد، والهادي، والعسكري، والمهديّ (رضوان الله عليهم أجمعين)، ولكل من هؤلاء الأئمة شأن معروف ومكان محفوظ، وأنا آتٍ علىٰ تراجمهم فيما يلي إن شاء الله.

وأما الإمام الأول علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فسيُذكر في فصل الخلفاء الراشدين.

الحسين بن عليّ

ولد سنة ٤ وتوفي سنة ٦١هـ

السيد الشهيد أبو عبد الله الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ﷺ): ولد في المدينة المنورة، ونشأ بين عظماء المسلمين وعقلائهم: أديبًا عاقلاً مفكرًا.

قال رسول الله (ﷺ): «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

وهو صاحب الفاجعة التي أدمت القلوب وقرّحت الأجفان، وأنست الناس أحزانهم، وأبقت في قلوب بني هاشم ومن شايعهم ضغينة لبني أمية لا تُنسىٰ أبد الدهر وحسبك أنها ما زالت تغلي في الصدور حتىٰ ضربوا آل أمية ومروان تلك الضربة القاضية فمحوا دولتهم وأزالوا صولتهم حتىٰ لم يبق منهم في بلاد المشرق ديار.

وخلاصة الحادثة أنه لما مات معاوية بن أبي سفيان وولي الخلافة ابنه يزيد تخلَّف الحسين عن مبايعته ورحل إلىٰ مكة في جماعة من أصحابه وافقوه علىٰ رأيه فأقام بمكة أشهرًا؛ فبلغ أهل الكوفة ذلك، وكان لأبيه عليّ وأخيه الحسن فيها نُصراء وأعوان فكتبوا إليه كتابًا يطلبون به حضوره ليبايعوه علىٰ الخلافة ويذكرون له أنهم في جيش متهيئ للوثوب فوعدهم بالمسير إليهم، ثم نصحه جماعة من عقلاء قومه أن لا يذهب فأصرَّ علىٰ ما ارتأىٰ، وخرج في أسرته ومواليه ورجاله، وهم نحو الثمانين، قاصدًا الكوفة، وبلغ يزيد بن معاوية خبرُه فأرسل إليه جيشًا اعترضه في كربلاء، وبعد قتال عنيف نشب بين الفريقين أُصيب الحسين بجراح شديدة فسقط عن فرسه فقتلوه. قيل: قاتله سنان بن أنس النخعي، وقيل: الشمر ابن ذي الجوشن، وأُرسل رأسه ونساؤه وذراريه إلىٰ يزيد بن معاوية في الشام، فأظهر يزيد حزنه عليه، ولكن ما ينفع الحزن وقد سبق السيفُ العَذَل، ونفذ القضاء والقدر.

واختلفوا في الموضع الذي دفن رأس الحسين فيه فقائل في الشام، وقائل بل دفن مع الجثة في كربلاء، وقائل غير ذلك مما أدَّىٰ إلىٰ تعدد مراقده وضياع ضريحه الحقيقي بينها.

وكان مقتله، سقاه الله شأبيب رضوانه، يوم الجمعة عاشرَ محرَّم، ولا يزال هذا اليوم يومَ حزن وكآبة عند جميع المسلمين، اللهمَّ إلا جماعة من جَهلة أهل السنة يتباركون به لثبوت صيام النبي المكرَّم في يوم عاشوراء، وفي طائفة الشيعة أيضًا رجال يتجاوزون حد الحزن يقيمون له المآتم ويضربون أنفسهم بالسلاح وبعضهم يمثلون حادث مقتله، كما تمثَّل الحوادث التاريخية والخيالية علىٰ مسارح النوادي، وعقلاء الطائفتين غير راضين عما يفعله هؤلاء الجماعات منهم، أصلحنا الله!

أما خروج الحسين يريد الكوفة بنسائه وأطفاله؛ فقد فسَّره الفيلسوف الألماني

«ماربين» في كتاب له سماه «السياسة الإسلامية» بما لا أرىٰ مناصًا من التفكير فيه. قال «ماربين»: «مات الرجلان العظيمان علي ومعاوية وتركا في الصدور أضغانًا وجاء ولداهما: الحسين بن علي، ويزيد بن معاوية، والأول طامح، والثاني يراقبه ولا يستطيع البطش به. أما الحسين فلا أعلم في أصحاب الديانات من اختار سياسته المؤثرة؛ فإنه لما وجد قوته وقوة قومه ضعيفة بجانب قوىٰ يزيد فكر في عمل كبير صرَّح به لقومه، وهو أنه يريد المسير إلىٰ الموت.. وعلىٰ أثر ذلك جمع نساءه وأطفاله وخرج من المدينة فلحق به عدد من أقربائه وأصدقائه.. ليس اختياره أخذ أطفاله إلا لحكمة كان يعلمها ويسعىٰ إليها. أيقن أنه لابد ليزيد من قتله فأراد أن تكون المصيبة عامة، فاستصحب صغاره وهو معتقد أن يزيد سيفتك بهم جميعًا، راقه ذلك لأنه علم أن الثورة الهاشمية لا يثيرها علىٰ بني أمية إلا دافع مؤثر يثب بالأمة الإسلامية جمعاء وثبة الحزن والإشفاق، وثبة التألم والغضب، وهي الأمنية التي كان يسعىٰ إليها الحسين بأخذ أطفاله وصغاره، ولذلك كان؛ فإنها لم تقع الواقعة حتىٰ نفرت من يزيد قلوب أخصائه، وما بلغت سبايا الحسين مدينة دمشق حتىٰ تهيأت الثورة علىٰ يزيد، وما هي إلا أعوام قلائل تركت آل يزيد طعمًا للسيوف وشيدت علىٰ أثرها دعائم الخلافة الهاشمية العباسية.. لم يذكر لنا التاريخ رجلاً ألقىٰ بنفسه وأبنائه وأحب الناس إليه، في مهاوي الهلاك والفناء، إحياءً لدولة سُلبت منه إلا الحسين، ذلك الرجل الكبير الذي عرف كيف يزلزل ملك الأمويين الواسع، ويقلقل أركان سلطانهم».

واستطرد الباحث إلىٰ الكلام علىٰ الشيعة مما لا دخل له في بحثنا، وقد نُقِلت بعض مباحث كتابه إلىٰ الفارسية والعربية، وكان لما فكَّر به مناصرون ومؤيدون، وهو رأي حسن علىٰ علاته؛ فإن الحسين إنما قصد الكوفة وهو واثق بنصرة أهلها، وأخذ أطفاله ونساءه للسكنىٰ بها، ولئن صحَّ تفكير الحسين بذلك ليكوننَّ دليلاً ثابتًا علىٰ ما كان يوصف به من سعة العقل وجَوْدة الرويَّة.

ولنختم ترجمته بشيء من كلامه العذْب.

قال أكثر مترجميه: خطب الحسين بن عليّ يومًا فقال:

«يا أيها الناس! نافسوا في المكارم، وسارعوا إلىٰ المغانم، ولا تحتسبوا المعروف لم تعجلوه، واكتسبوا الحمد بالنجح، ولا تكسبوا بالمطل ذمًا، واعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم فلا تملوا النعم، واعلموا أن المعروف يُكسب حمدًا ويُكسب أجرًا؛ فلو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسنًا جميلاً يسر الناظرين ويفوق العالمين، ولو رأيتم اللؤم رأيتموه سمجًا مشوَّهًا تنفر منه القلوب وتغض دونه الأبصار. أيها الناس: من جاد ساد، ومن بخل ذَلّ، وإن أجود الناس من أعطىٰ من لا يرجوه، وإن أعفىٰ الناس من عفا عند قدرته، وإن أفضل الناس من وصل من قطعه، والأصول علىٰ مغارسها فروعها تنمو، من أحسنَ أحسنَ الله إليه، والله يحب المحسنين».

ومن كلامه: الحلم زينة، والوفاء مروءة، والعجلة سفه، والسفه ضعف، والغلوّ ورطة، ومجالسة أهل الدناءة شر، ومجالسة أهل الفسوق ريبة.

زين العابدين بنُ الحسين

ولد سنة ٣٨ وتوفي سنة ٩٤هـ

أبو الحسن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: رابع الأئمة الاثنىٰ عشر عند الإمامية، وأحد من يُضرب بهم المثل في الحلم والورع.

ولد بالمدينة ونشأ بها ففاق أهلها تقًىٰ وصلاحًا، وكان من العلم والكرم علىٰ جانب عظيم؛ فأما حلمه فله فيه حكايات عجيبة، خرج يومًا من المسجد فلقيه رجل فسبَّه وبالغ وأفرط فبادر إليه العبيد والموالي، فكفهم وأقبل عليه، وقال: ما سُتِر عنك من أمرنا أكثر! ألك حاجة نُعينك عليها؟ فاستحىٰ الرجل وتنحَّىٰ فأمر له بخمسة آلاف درهم.

ولقيه آخر فنال منه، فقال: يا هذا بيني وبين جهنم عقبة إن أنا جزتُها فما أبالي بما قلت، وإن لم أَجُزْها فأنا أكثر مما تقول! ألك حاجة؟ فخجل الرجل.

وأما ورعه وتقاه: قال ابن المسيب: ما رأيت أورع منه.

وكان كثير الصلاة منهمكًا في العبادة فلُقِّبَ زين العابدين، وقُرِّب إليه الماء ليلة ليتوضأ فوضع يده في الإناء ليبدأ، ثم رفع رأسه فنظر إلىٰ السماء والقمر والكوكب فجعل يتفكر في خلقها حتىٰ أصبح وأذَّن المؤذن ويده في الإناء لا يفتكر بها.

وأما كرمه فقال ابن عائشة: سمعت بعض أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر إلا بعد موت علي بن الحسين.

وقال محمد بن إسحق: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين معايشهم ومآكلهم؛ فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلاً إلىٰ منازلهم، ولما مات أُحصي من كان يقوتهم فإذا هم نحو مئة بيت.

ونقل كثير من المصنفين أن القصيدة التي مطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحِلُّ والحرمُ

قيلت في مدح زين العابدين، وأن قائلها الفرزدق ارتجلها ارتجالاً في البيت الحرام، ولها قصة معروفة في كتب الأخبار، والقصيدة في طبقة عالية من الشعر، ونسبها أبو تمام في أشعار الحماسة للحزين الليثي قال: وقيل: إنها للفرزدق.

ومن كلام زين العابدين: كان إذا بلغه أن أحدًا ذكره بسوء يقول: اللهم إن كان صادقًا فاغفر لي، وإن كان كاذبًا فاغفر له، وكان يقول: فَقْد الأحبة غربة.

ومات في المدينة المنورة فدفن في البقيع.

الباقر بن زين العابدين

ولد سنة ٥٧ وتوفي سنة ١١٧هـ

الإمام أبو جعفر محمدٌ الباقر بنُ عليّ زين العابدين بن الحسين: (ﷺ): هو خامس الأئمة الاثنىٰ عشر، وكان ناسكًا عابدًا، وله في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال: سأله العلاء بن عمرو بن عبيد عن قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠)، ما معنىٰ هذا الرتق والفتق؟ فقال أبو جعفر: كانت السماء رتقًا لا تُنزل مطرًا، وكانت الأرض رتقًا لا تخرج النبات ففتقناهما بنزول المطر وخروج النبات، وهذا رأي حَسَن في تفسير الآية لموافقة درجة علم العرب في عصر نزول القرآن الكريم.

وأما سبب تلقيبه بالباقر فلم يذكروا له غير وجه واحد مُتَمَحَّل وهو أنه مشتق من مادة بَقَرَ. قالوا: لأنه بقر العلمَ أي شقه فعرف أصله وخفيه.

ومن كلامه: بئس الأخ يراعيك غنيًا ويقطعك فقيرًا.

وقال: ليس في الدنيا شيء أعونَ من الإحسان إلىٰ الإخوان.

وقال: ما دخل قلب امرئ شيءٌ من الكبر إلا نقص من عقله مثلُ ذلك قلَّ أو كثر.

وقال: سلاح اللئام قبيح الكلام.

وقال: لموت عالم أحب إلىٰ الشيطان من موت سبعين عابدًا.

وقال: شيعتنا من أطاع الله.

وقال: اعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك.

وتوفي بالمدينة ودفن بقبة العباس في البقيع (رَضِوَاللَّهُعَنْهُ).

جعفر الصادق

ولد سنة ٨٠ وتوفي سنة ١٤٨هـ

أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين (عليهم رضوان الله): هو سادس الأئمة الاثنىٰ عشر، وكان من أجلَّاء التابعين، وله منزلة في العلم معروفة وأخذ عنه جماعة من أئمة المسلمين كأبي حنيفة ومالك وابن جريج والسجستاني، وأشهر من ينتسب إليه من القارئين عليه جابر بن حيان الكيميائي العلَّامة المشهور.

قال ابن خلكان: وألَّف جابر كتابًا يشتمل علىٰ ألف ورقة يتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة.

والشيعة تذكر أن لجعفر كتابًا يدعونه «الجفر» ذَكَرَ فيه كل ما يحتاجون إلىٰ علمه إلىٰ يوم القيامة، وهذا الوصف باطل.

ولُقِّبَ جعفر (رَحِمَهُ اللَّهُ) بالصادق؛ لأنه لم يُعرف له كذبٌ قط.

ومن كلامه: لا يتم المعروف إلا بثلاث: تعجيله وتصغيره وستره.

- أربعة أشياء القليل منها كثير: النار والعداوة والفقر والمرض.

- صحبة عشرين يومًا قرابة.

- من لم يستح عند العيب ويرعو عند الشيب ويخشىٰ علي بظهر الغيب فلا خير فيه.

- إياكم وملاحاة الشعراء؛ فإنهم يضنون بالمدح ويجودون بالهجاء.

- من أكرمك فأكرمه، ومن استخف بك فأكرم نفسك عنه.

ودخل عليه بعض شيعته فرآه يوصي ولده موسىٰ بوصية حفظ منها قوله: «يا بني! اقبل وصيتي واحفظ مقالتي؛ فإنك إن حفظتها تعش سعيدًا وتمت حميدًا، يا

بني! إن من قنع بما قسم الله له استغنىٰ، ومن مدَّ عينيه إلىٰ ما في يد غيره مات فقيرًا، ومن لم يرض بما قسم الله له اتَّهم ربه في قضائه، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، يا بني! من سلَّ سيف البغي قُتِلَ به، ومن كشف حجاب غيره انكشف ستره، من داخل السفهاء حُقِّر، ومن خالط العلماء وُقِّرَ، ومن دخل مداخل السوء اتُّهم، يا بني! قل الحق لك أو عليك، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال، يا بني! إذا زرت فزُر الأخيار ولا تزُر الأشرار؛ فإنهم صخرة لا يتفجر ماؤها، وشجرة لا يخضّر ورقها، وأرض لا يظهر عشبها».

وكان جريئًا قويّ البديهة: يُذكر أنه كان عند المنصور فوقعت ذبابة علىٰ وجهه فذَبَّها فعادت حتىٰ اضجرته فالتفت إلىٰ جعفر فقال له: يا أبا عبد الله لِمَ خلق الله الذباب؟ قال: ليُذِلَّ به الجبابرة! فسكت المنصور.

توفي صاحب الترجمة في المدينة، ودُفن في البقيع في قبر أبيه.

موسى الكاظم

ولد سنة ١٢٨ وتوفي سنة ١٨٣هـ

الإمام أبو الحسن موسىٰ الكاظم بن جعفر الصادق بن الباقر (عليهم رضوان الله): سابع الأئمة، وأحد سادات بني هاشم، ومن أعلام أهل البيت، ولد بالأبواء، وسكن المدينة المنورة، وكان أعبد أهل زمانه، ومن كبار علمائهم وأسخيائهم، حذا حذو جده زين العابدين في تفقد الفقراء ليلاً والناس نيام، وقيل فيه ما قيل بجده من أنه كان يحمل النفقات إلىٰ منازل الفقراء في المدينة فلا يعرفون من أين أتت حتىٰ مات فانقطعت، فعرفوه.

وكانت له سيادة ورياسة معروفة فوشىٰ به بعض أعدائه إلىٰ الرشيد العباسي، وقالوا له: إن الأموال تُحمل لموسىٰ من جميع الجهات والزكاة والأخماس،

وها هو قد اشترىٰ ضيعة سماها السيرية بثلاثة آلاف دينار، وحج الرشيد في تلك السنة وفي نفسه شيء منه فبدأ بالمدينة فدخلها فاستقبله موسىٰ الكاظم في جماعة من الأشراف، ثم خلا به الرشيد فقال له: أنت الذي يبايعك الناس سرًّا؟ قال: أنا إمام القلوب وأنت إمام الجسوم، ثم اتفق اجتماعهما عند القبر الشريف؛ فقال الرشيد: سلامٌ عليك يا بنَ عَمّ. وقال موسىٰ: السلام عليك يا أبَتِ، فلم يحتملها الرشيد فحمله إلىٰ البصرة وأمرَ واليها عيسىٰ بن جعفر بن منصور أن يحبسه عنده فحبسه سنة، فكتب إليه الرشيد في سفك دمه وإراحته منهُ، فاستعفاه عيسىٰ من ذلك ورجاه أن يكون قتله علىٰ غير يده؛ فأرسل إلىٰ السندي بن شاهك في بغداد يأمره بتسلُّمه وقتله، فجعل له سمّا في طعام قدّمه إليه، فأقام متوعكًا ثلاثة أيام ومات. ودفن في مقابر قريش بباب التين في بغداد.

ومن إنشائه رسالة بعث بها إلىٰ الرشيد من السجن يقول فيها: «إنه لم ينقضِ عني يوم من البلاء إلا انقضىٰ معه يوم عنك في الرخاء حتىٰ نمضي جميعًا إلىٰ يوم ليس له انقضاء هنالك يخسر المبطلون». ولُقِّبَ الكاظم لحلمه، وكظمه لغيظه، وأخباره شهيرة.

عليّ الرضى

ولد سنة ١٥٣ وتوفي سنة ٢٩٣هـ

أبو الحسن عليٌّ الرضىٰ بن موسىٰ الكاظم بن جعفر الصادق: ثامن الأئمة عند الإمامية: ومن أجلّاء السادة أهل البيت وفضلائهم، وهو الذي يذكر أصحاب التواريخ والسيَر أن المأمون العباسي عهد إليه بالخلافة من بعده وزوجه ابنته وضرب اسمه علىٰ الدينار والدرهم، وغيَّر من أجله الزيّ العباسي الذي هو السواد فاستعاض عنه بالأخضر؛ لأنه كان شعار أهل البيت، فثار العراق من ذلك النبأ وقام أهل بغداد فخلعوا المأمون، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي فرحل إليهم المأمون بجيشه فاستخفىٰ إبراهيم، ثم استسلم فعفا عنه المأمون، ومات

عليٌّ الرضىٰ في حياة المأمون فلم تتم له الخلافة، وعاد إلىٰ السواد فاستألف القلوب ورضي الناس عنه.

وكان السيد عليٌّ الرِضىٰ أسودَ اللون؛ لأن أمه كانت سوداء، وولد بالمدينة، وكان موصوفًا بطيب النفس وكرم الأخلاق والجود.

حكىٰ القرماني في تاريخه أنه دخل يومًا الحمامَ فبينما هو في مكان منه إذ دخل عليه جنديّ فأزاله عن موضعه وقال له: صُبَّ علىٰ رأسي يا أسود! فنهض عليٌّ وأخذ يصب علىٰ رأس الجندي حتىٰ دخل رجل عرفه فصاح: ويلك يا جندي هلكت! أتستخدم ابن بنت رسول الله؟ فانقلب الجندي يقبل قدميه ويقول: هلا عصيتني إذ أمرتك؟ فقال: إنها لمثوبة وما أردت أن أعصيك فيما أثاب عليه!

ورآه أبو نواس ذات يوم وهو خارج من حضرة المأمون علىٰ بغلة فارهة، فدنا منه وسلم وقال: يا ابن رسول الله (ﷺ)، قلت فيك أبياتًا أحب أن تسمعها مني، قال: قل. فأنشأ أبو نواس يقول:

مـطـهـرون نـقـيـات ثـيـابُـهـمُ تجري الصلاة عليهم كلما ذُكروا

من لـم يكـن عـلويًا حين تنسبه فـمـا لـه في قـديـم الـدهـر مفتخرُ

أولئك القوم أهل البيت عندهم علم الكتاب وما جاءت به السوَرُ

فقال: قد جئتنا بأبيات ما سبقك إليها أحد، ما معك يا غلام؟ قال: ثلاث مئة دينار، قال: ادفعها إليه، وبعد أن افترقا ووصل عليٌّ إلىٰ منزله. قال: لعله يستقلها: يا غلام سُقْ إليه البغلة.

وكان دِعْبِل الخزاعي شاعر أهل البيت وله في عليّ وأبيه مدائح كثيرة.

توفي (رضي الله عنه) بمدينة طوس ودفنه المأمون بجانب قبر أبيه الرشيد، وفي سبائك الذهب أن وفاته كانت سنة ٢٣٠هـ، والصحيح ما ذكرته واعتمده ابن خلكان وأكثر المؤرخين؛ لأنهم جميعًا [اتفقوا] علىٰ أنه توفي في حياة المأمون المتوفىٰ سنة ٢١٨هـ.

محمد الجواد

ولد سنة ١٩٥ وتوفي سنة ٢٢٠هـ

أبو جعفر محمد الجواد بن علي الرِضَىٰ بن موسىٰ الكاظم، وبقية النسب معروفة: وهو تاسع الأئمة، كان كبير القدر، رفيع الذكر كأسلافه كرام أهل البيت ولد في المدينة، ثم انتقل مع والده الرِّضَىٰ إلىٰ بغداد، ولما توفي أبوه كان صغيرًا فاجتاز به المأمون يومًا فعرفه وأخذه معه وأحسن إليه وقرَّبه، وكان علىٰ صغر سنه ذكيّ الفؤاد طلْق اللسان تلوح عليه أمارات النجابة؛ فعُني به المأمون وبالغ في الإحسان إليه، ثم أراد أن يزوجه بابنته أم الفضل فمنعه العباسيون من ذلك خوفًا من أن يعهد إليه كما عهد إلىٰ أبيه فأظهر المأمون ميله إليه وحبه بفضله وعلمه علىٰ حداثة سنه فنازعوه باتصافه بصفة العلم واستصغروه فأرسل إلىٰ يحيىٰ بن أكثم وأمره أن يمتحن محمدًا فلما حضر أمر له بفرش حَسن فجلس عليه ثم سأله يحيىٰ مسائل فأجاب عنها بأحسن جواب وسُرّ الخليفة فقال: أحسنت يا أبا جعفر، ثم التفت إلىٰ من حضر فقال: الحمد لله علىٰ ما منَّ به عليَّ من السداد في الأمر والتوفيق في الرأي، وأقبل علىٰ أبي جعفر فقال له: إني مزوجك ابنتي أمّ الفضل وإن رُغمتْ لذلك أنوف قوم! فاخطب لنفسك فقد رضيتك لنفسي وابنتي، فقال أبو جعفر:

الحمد لله إقرارًا بنعمته، ولا إله إلا الله إخلاصًا بوحدانيته، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد سيد بريته والأصفياء من عترته، أما بعد؛ فقد كان من فضل الله علىٰ الأنام أن أغناهم بالحلال عن الحرام؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٢)، ثم إن محمد بن علي بن موسىٰ خطب إلىٰ أمير المؤمنين عبد الله المأمون ابنته أُمّ الفضل وقد بذل لها من الصداق مهر جدته فاطمة بنت

رسول الله (ﷺ) وهو خمسمائة درهم جياد، فهل زوَّجتني يا أمير المؤمنين إياها علىٰ هذا الصداق؟ فقال المأمون: زوجتك ابنتي أمَّ الفضل علىٰ هذا الصداق المذكور، فقال أبو جعفر: قبلت نكاحها لنفسي علىٰ هذا الصداق المذكور، ثم أمر المأمون بأنواع الطيب فتطيب الحاضرون ودعىٰ بالحلواء فمدت موائدها وأكلوا وفرقت عليهم الجوائز وأخرجت الأموال للفقراء والمساكين، وبعد ذلك تم الزواج.

وأقام أبو جعفر محمد عند المأمون معظَّمًا مكرَّمًا حتىٰ عزم علىٰ التوجه بزوجته أم الفضل إلىٰ المدينة المنورة فلبث حتىٰ مات المأمون وآلت الخلافة العباسية إلىٰ المعتصم فكتب إليه يستقدمه إلىٰ بغداد ومعه زوجته فحضر، وذلك سنة ٢٢٠هـ، ومرض فمات ببغداد شابًا (رضوان الله عليه) ودفن في مقابر قريش في قبر جده أبي الحسن موسىٰ الكاظم، وعادت امرأته أم الفضل إلىٰ قصر المعتصم.

ويقال: إنه مات مسمومًا كما يقال في أكثر الأئمة المذكورين، وخلف أربعة أولاد صبيَّان وبنتان.

ومن كلامه: ما عظمت نعمة الله علىٰ أحد إلا عظمت إليه حوائج الناس فمن لم يتحمل تلك المؤنة عرَّض تلك النعمة للزوال.

- أهل المعروف إلىٰ اصطناعه أحوج من أهل الحاجة إليه؛ لأن ثم أجره وفخره وذكره فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبتدئ فيه بنفسه.

- من أجلَّ إنسانًا هابه، دون جهل شيئًا عابه.

- والفرصة خلسة، من كثر همُّه سقم جسمه.

- عنوان صحيفة المسلم حُسن خُلقه، من استغنىٰ بالله افتقر الناس إليه.

- الجمال في اللسان، والكمال في العقل، العفاف زينة الفقر، والشكر زينة البلاء، والتواضع زينة الحسب، والفصاحة زينة الكلام، وخفض الجناح زينة العلم، العامل بالظلم والمُعين عليه والراضي به شركاء.

- العلماء غرباء «لكثرة الجهال بينهم» - أخذه أبو العلاء فقال:

أولوا الفضل في أوطانهم غرباءُ تشذ وتنأىٰ عنهم القرباءُ

ومن كلام أبي جعفر: الصبر علىٰ المصيبة مصيبة علىٰ الشامت، لو سكت الجاهل ما اختلف الناس، الرأي مع الأناة، من وعظ أخاه سرًّا فقد زانه، ومن وعظه علانيةً فقد شانه.

عليّ الهادي

ولد سنة ٢١٤ وتوفي سنة ٢٥٤هـ

أبو الحسن العسكريُّ عليٌّ الهادي بنُ محمدِ الجوادِ بن عليّ الرِضَىٰ: عاشرُ الأئمة الاثنىٰ عشر: كان معروفًا بالتقىٰ والصلاح، ولد في المدينة المنورة وبها نشأ؛ فلما بلغ سن الشباب وأصبح في منزلة يُنظر بها إليه تواترت الوشايات به علىٰ المتوكل العباسي الخليفة في بغداد فأرسل إليه فاستقدمه من المدينة وأنزله في سُرَّمن رأىٰ (سامرَّاء) وكانت تسمىٰ «مدينة العسكر»؛ لأن المعتصم لما بناها انتقل إليها بعسكره فنُسبت إلىٰ العسكر، ولذلك لُقِّب أبو الحسن عليٌّ المترجَم [له] بالعسكري، فأقام بها، فسعىٰ بعض أعدائه إلىٰ المتوكل وأخبروه أن في منزل عليّ سلاحًا وكتبًا وغيرها من شيعته وأوهموه أنه يطلب الإمرة لنفسه فوجَّه إليه عددًا من جند الأتراك ليلاً فهجموا عليه وهو في منزله علىٰ الأرض وعليه مدرَّعة من الشعر وعلىٰ رأسه ملحفة من صوف وهو مستقبلٌ القبلة يترنم بآياتٍ

من القرآن لا يفصل بينه وبين الأرض فاصل إلا الرمال والحصىٰ، فأخذوه إلىٰ المتوكل ووصفوا له حالته وكان المتوكل جالسًا يستعمل الشراب فأجلسه إلىٰ جانبه وعرض عليه كأسًا فاعتذر بأنه لم يذقها فعافاه منها، ثم قال: أنشد في شعرًا أستحسنه فقال: إني لقليل الرواية للشعر قال: لابد أن تنشدني، فأنشده:

باتوا علىٰ قُلَل الأجبال تحرُسُهم غُلْب الرجال فما أغنتهم القُلَلُ
واستُنزلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حُفرًا يا بئس ما نزلوا
ناداهمُ صارخ من بعد ما قبروا أين الأسِرَّةُ والتيجان والحُللُ
أين الوجوه التي كانت منعَّمة من دونها تُضرَبُ والاستار والكللُ
فأفصح القبر عنهم حين ساءَ لهُم: تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهرًا وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

فهاجت الأبيات إشفاقَ المتوكل فبكىٰ وأمر برفع الشراب، ثم قال: يا أبا الحسن عليك دين؟ قال: نعم، أربعة آلاف دينار فأمر بدفعها إليه وردّه إلىٰ منزله مكرَّمًا.. أقول: هذه الأبيات التي أنشدها صاحب الترجمة نقلتها وقصتها عن وفيات الأعيان.

وحكىٰ مؤلف سراج الملوك أنها مترجمة عن كتابة بالحِمْيرية قديمة قبل الإسلام كانت منقوشة علىٰ بعض قصور ملوك حِمْير؛ وعبارته: قال وهب بن منبه: أَصَبْتُ علىٰ غُمْدان وهو قصر سيف بن ذي يَزَن بأرض صنعاء اليمن، وكان من الملوك الأَجِلَّة مكتوبًا بالقلم المُسْند مترجمًا بالعربية، وإذا هي هذه الأبيات، وفي الكنز المدفون جاءت الأبيات أكثر مما تقدم بزيادة الأبيات الآتية في أولها:

انظر لماذا ترىٰ يا أيها الرجل وكن علىٰ حذر من قبلِ تنتقلُ
وقدِّم الزاد من خير تُسرُّ به فكلُّ ساكن دار سوف يرتحلُ

وانظر إلىٰ معشر باتوا علىٰ دعة فأصبحوا في الثرىٰ رهنًا بما عملوا
بنوا فلم ينفع البنيانُ وادخروا مالاً فلم يُغنهم لما انقضىٰ الأجلُ

باتوا علىٰ قلل الأجبال... إلخ.. قال صاحبه: ووجد مكتوبًا علىٰ قصر غُمدان أيضًا هذه الأبيات:

من كان لا يطأ الترابَ برجله وطئ التراب بصفحة الخدِّ
من كان بينك في التراب وبينه شبران كان بغاية البعدِ
لو بعثر الناسُ الثرىٰ ورأوهمُ لم يعرفوا المولىٰ من العبدِ!

وتوفي الإمام علي الهادي (عليه الرحمة والرضىٰ) بمدينة سامرَّاء فدفن في بيته وخلّف ثلاثة أبناء وابنة.

الحسَن الخالصُ

ولد سنة ٢٣٢هـ وتوفي سنة ٢٦٠هـ

أبو محمد الحسنُ الخالصُ بن علي الهادي بن محمد الجواد: حادي عشر الأئمة عند طائفة الإمامية، ولد في المدينة المنورة وانتقل مع أبيه الهادي إلىٰ سامراء (أو سُرَّمن رأىٰ أو سُرَّ من راء أو مدينة العسكر = كلها أسماء بلدة واحدة في العراق)، وولي الإمامة بعد وفاة أبيه، وكان علىٰ سَنَن سَلَفه الصالح في التقىٰ والنسك والعبادة يجله الناس ويحترمونه، قال صاحب الفصول المهمة: لما ذاع خبر وفاة الحسن ارتجت سُرَّمن رأىٰ، وقامت صيحة واحدة وعُطلت الأسواق وغُلقت الدكاكين وركب بنو هاشم والقواد والكُتَّاب والقضاة والمعدّلون وسائر الناس إلىٰ جنازته وصلىٰ عليه أبو عيسىٰ ابن المتوكل بأمر الخليفة، ودفن في البيت الذي دفن فيه أبوه وخلف محمدًا الآتي ذكره.

وأصحاب القصص والأخبار ينقلون عنه وعمن تقدمه من أهل البيت (رضوان الله عليهم) كرامات وحكايات كثيرة أضربتُ عن ذكرها لأني لا أقول بها ولاسيما وجلّها مملوء بالأوهام التي لا يتحصل منها للقارئ ما يفيده وأما التاريخ فأضيق صدرًا من أن يتّسع لهاتيك الأخبار والأقاصيص، وهو إنما يُكرِّم الرجال الذين شَرُفوا بأعمالهم وسَمَوْا بأنفسهم وما أجدر أولئك بالإجلال والإعظام إذا هم جمعوا بين التالد والطارف والنَّسب والمكتسب ذلكم خيرة الخلق وصفوة البشر.

محمد المَهْدي

ولد سنة ٢٥٥ وتوفي سنة ٢٦٥هـ

أبو القاسم محمد المهدي بنُ الحسن العسكري بن علي الهادي: آخر الأئمة الاثنىٰ عشر فيما تعتقده الإمامية، وهو المعروف عندهم بالمهدي وصاحب الزمان والمنتظر والحُجَّة، والذي يُحققه المؤرخون الثقات أنه ولد بسامرَّاء، ومات أبوه وعمره خمس سنين، ولما بلغ التاسعة أو العاشرة؛ فَقُدَ فلم يُعرف له أثر. هذا ما عُرِفَ من خبره.

أما الشيعة فيروون أنه دخل سردابًا كان في دار أبيه، ثم لم يخرج منه، وهم ينتظرون خروجه ويأتون بالأدلة الثابتة عندهم علىٰ أنه حيٌّ يُرزُق وأنه سيعود إلىٰ هذا الوجود فيملأُ الأرض رحمةً وعدلاً وسلامًا، وهناك أقوال وآراء لا يدخل إيرادها والمناقشة بها في بحث هذا الكتاب وحسبي منها الإشارة إليها.

وأمر خروج المهدي المنتظر لا خلاف فيه عند الشيعة ولكن بعضهم يرىٰ أنه غيرُ صاحب هذه الترجمة ويؤكد أنه محمد بن الحنفية ابن علي بن أبي طالب والقول الأول هو الشائع الذائع عندهم.

قال ابن بطوطة الرحالة في حديث رحلته ما لفظه: ثم وصلت إلىٰ مدينة الحلة وهي مستطيلة مع الفرات وأهلُها كلهم إمامية اثنا عشرية وبها مسجد علىٰ بابه ستر

حرير يقولون: إن محمد بن الحسن العسكريّ دخل هذا المسجد وغاب فيه وهو عندهم الإمام المهدي المنتظر فيهم كلَّ يوم يلبس آلة الحرب منهم ويأتون باب المسجد ومعهم دابة مُسرَجة مُلجمة ومعهم الطبول والبوقات ويقولون: اخرج يا صاحب الزمان فقد كثر الظلم والفساد وهذا أوان خروجك ليفرق الله بك بين الحق والباطل، ويقفون إلىٰ الليل ثم يعودون، كذلك دأبهم أبدًا.

وأما أهل السنة فأكثرهم علىٰ اعتقاد ظهور رجل من نسل النبي (ﷺ) تصلُحُ به الأرض بعد فسادها وتزهو بعد اكمدادها، وفيهم من يأخذ بالحديث الشريف: «لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارًا ولا الناس إلا شِحًا ولا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الناس ولا مهديَّ إلا عيسىٰ ابنُ مريم»، وفيهم من يتكلم في هذا الحديث، وهذا بحث يطول فاطلبه إن شئتَ فيما أُلف له خاصة من الأسفار والتصانيف أو في المصنفات الكبيرة مما له علاقة بأمر المهديّ وظهوره ومن هو.

وتأمل فيمن ظهر في الإسلام حتىٰ اليوم يَدَّعي أنه ذلك الرجل المُصلح الإلهي وما أحسبُنا معاشر المسلمين إلا ونبينا الأعظم (صلوات الله عليه) قد أغلق الله به باب التنبؤ وكفىٰ الناس ظهور نبي جديد في كل جيل وقبيل: فأبينا نحن إلا أن نوجد تلك الشنشنة حيةً خالدة، لكن حرَّفنا الاسم وبدَّلنا مادَّة التنبؤ بمادة الهدي فكان القائم لإصلاح البشر قبل خاتم الأنبياء يدعوه الناس نبيًّا ورسولاً فجئنا نحن ندعوه مَهْدِيًّا ومنتظرًا، أقلق أبناءَ القرون الأولىٰ والأجيالِ الخالية قيامُ كَذَبَة دجالين تسربلوا رداء النبوة وظهروا بمظهر الرُّسُل فأسكت الله تلك النأمة بآخر أنبيائه، ومهَّدنا نحن السبيل لمن نحا ذلك النحو وانتهج ذاك النهج فأوجدنا له سربالاً من سرابيل الدعوة إلىٰ الله والهداية إليه فعادوا يعاودون الكرة ويبرزون في هذه الأجيال المرة بعد المرة، ذلك بما جَنَت أيدينا واقترفت أنفسنا فلا حول ولا قوة إلا بالله مرشدِ خليقته، إلىٰ طريقته، ومُلهم كل قلب ما يشتغل به عما سواه.

❊❊❊

كتاب الملوك والأمراءِ

بيـان

أمضينا الكلام في المطلب الأول من مطالب الكتاب علىٰ ما يتعلق بالنسب النبوي الطاهر والسادةِ من أهل البيت الكرام، وهانذا أفتتح الباب الثاني منه وفيه الكلام علىٰ الملوك والأمراء والخلفاء والوزراء جاهليتهم وإسلاميتهم، متقدميهم ومتأخّريهم، ورتبته علىٰ فصول أربعة:

الأول: في ملوك الجاهليين كحمير وسيف وتبع وجذيمة، وأمرائهم كقيس ابن زهير وزهير بن جناب.

والثاني: في خلفاء الراشدين الأربعة وأولهم أبو بكر.

والثالث: في صدور الخلفاء وأعيان الملوك بعد الجاهلية وفيه أشهر ملوك بني أمية ومروان وآل عباس وغيرهم.

والرابع: وهو فصل الأمراء والوزراء في الإسلام كالبرامكة وأضرابهم[1].

وإنما أنا متوخٍ أولئك الرجال الذين بنوا مجدهم بسواعدهم وقلوبهم غير المتكلمين علىٰ آبائهم وجدودهم، وهذا الباب من أجلّ أبواب الكتاب لاشتماله علىٰ أخبار الجاهليين في باديتهم والإسلاميين في حاضرتهم، وترىٰ فيه نُبَذًا كثيرة عن المدنية العباسية في العراق والحضارة الأموية في الأندلس مما يعرض في خلال تراجم أصحابها.

والله الموفق للخير والمرشد للصواب.

***

(١) توقف الزركلي فلم يذكرهم في الكتاب.

ملوك الجاهلية وأمراؤها

(كلمة)

جاهلية العرب لم تزل أمرًا غامضًا مستور الحقيقة في مدتها وأسماء ملوكها وأخبار قبائلها وأعمار رجالها، ولا سيما ما سلف منها، وإنما اندفع مؤرخونا المتقدمون بسائق حب الاطلاع فبحثوا ونقَّبوا فيما وصلت إليه يدهم من أساطير الأولين والآخرين، ولكن كان جلُّ ما أُتوا به من الأرقام التاريخية تكهنًا وتقديرًا ورميًا في الغيب، ولقد قُدِّرَ علينا أن نصنع صنيعهم فلم تكن نتيجة بحثنا غير العلم بأنهم يحققون ما لا يتحققون، ويدَّعون علم ما لا يعون، وأعظم ما استندوا إليه في أبحاثهم وعولوا عليه في أرقامهم أمران:

الأول: علم الأنساب في الجاهلية، يسلسلون الرجال حتىٰ يبلغوا بهم أبا البشر آدم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) علىٰ ما يعترضهم من العقبات وما يضطرون إلىٰ سلوكه من وعر المسالك، وفي هذا ما فيه من التصدي بما لا يُدرك وحسبنا سندًا في الوقوف عن الأخذ بأقوالهم ما صرَّح به النبي القرشي (ﷺ) وَمِنْ حولهِ النسابون والإخباريون والشعراء ودهاة الحجاز واليمن مِنْ كراهية الإغراق في نسبة نفسه إلىٰ ما يتجاوز عدنان، وقوله عند بلوغه وإرادة اجتيازه: كذب النسابون! فبمثل هذا تسقط عندنا دعوىٰ الوثوق بعلم الأنساب في الجاهلية الأولىٰ، أي ما وراء عدنان، وفي ذلك اختلافنا.

وأما الأمر الثاني: الذي عول عليه مؤرخونا بعد الأنساب فهو التوراة في أنبائها عن بدء الخليقة وأزمان آدم ونوح وغيرهما[١]، وقد أظهرت الاكتشافات

(١) انظر: سفر التكوين.

الجيولوجية وتنقيبُ علماء العاديات والآثار ما خالف كثيرًا من أخبار التوراة وأرقامها وأبحاثها.

والتوراة إنما هو كتاب دين يوضح قدرة الله في خلقِه الأكوان ويشرح شريعة موسىٰ التي سنها الله، لا كتاب تاريخ وعلم يبحث عن الحقائق الطبيعية[1] والعلمية؛ فإنه كثيرًا ما تدخله الشبهة في مباحثه في الطبيعة والتاريخ[2]. ولا يهولنَّك دفاع علماء اللاهوت عما جاء به والتماسهم له الوجوه البعيدة؛ فالكتب السماوية وفي مقدمتها القرآن الكريم: إذا تعرضت للبحث الغامض في التاريخ أو العلم الطبيعي توجز فيه ولا تزيده بيانًا عما يعلمه أهل ذلك العصر المرسَل إليهم ذلك الكتاب.

فإذا سقطت هاتان الدعوتان: دعوىٰ الأنساب، ودعوىٰ الوثوق بالتوراة، تلاشىٰ ما يقال عن الحكم علىٰ الزمن الذي حكم فيه الحموربيون مملكة بابل والعراق، والذي كانت فيه قبائل طسم وجديس وعاد وثمود ذوات الذكر والشأن، وداخلنا الشك في عصر القحطانيين حكام البلاد اليمانية والجرهميين وأضرابهم.

واخترنا تَرْكَ إرادة التحقيق في ذلك حتىٰ تنبثَّ أيدي الباحثين في أطراف العراق واليمن والحجاز بعناية قوية وغيرة علىٰ العلم كبيرة؛ فإذا بدت لهم الآثار وانكشفت الأستار زالت الأوهام وقام البتُّ والقطع في الحُكم مُقام الوهم والتكهن والتقدير.

ولما كان هذا المصنَّف مرتبًا علىٰ السنين في أكثر أبوابه وفصوله اضطررت إلىٰ أن أتابع فيه الأقرب إلىٰ الحق واليقين، مما ذهبت إليه جماعة المؤرخين، بينما يظهر ما يثبته أو يُعدِّله من عاديات الآثار، وربك يفعل ما يشاء ويختار.

---

(١) انظر: تفسير الكتاب المقدس المطبوع في مطبعة الأمريكان، ص٣٣١، و٣٣٤.
(٢) المرجع السابق.

حمورابي

كان في نحو سنة ٣٢٠٠ قبل الهجرة

ما زالت شريعة حمورابي ومؤسسها موضع عناية الباحثين وتنقيب المنقبين حتىٰ تضاربت بهما الأقوال واختلفت إلىٰ مظان آثارهما رحال الرجال، والذي اتضح لهم بعد البحث أن مقرّ الدولة الحمورابية كان في القطر العراقيّ، وأن عاصمتها مدينةُ بابل: دلّهم علىٰ ذلك ما وجدوه من آثارها الماثلة للباحث عنها فيما بين النهرين، حيث ظهرت أنقاض مدرسة صغيرة (في مدينة زيبارا) يرجع عهد بنائها إلىٰ ما يقارب ثلاثة آلاف سنة قبل الهجرة، وعثروا بجوارها علىٰ كثير من الآجرّ المشويّ والأحجار المنبسطة منقوشًا عليها نصوص تاريخية وصكوك وعقود ورسائل وأدعية دينية كُتبت بالحروف المسمارية مما استدلّ منه العلماء الجيولوجيون علىٰ أن تلك الدولة يرجع عهد تأسيسها إلىٰ نحو القرن الثاني والثلاثين قبل الهجرة، وهو رأي القائلين بأن حمورابي كان معاصرًا لإبراهيم الخليل، وأنه هو المذكور في سفر التكوين من التوراة باسم (امرافل) موحد المملكة البابلية، قاله الأب شيل الدومنيكي، وحبّذ هذا الرأي العلامة الأب انستاس الكرملي قال في لغة العرب: إن الرأي القائل بأن حمورابي وامرافل اسمان لمسمىٰ واحد قريب الاحتمال ولو اختلف مبناهما.

وأمرافل: لفظة سنسكريتية من امرابلا Amarapala ومعناها: حامي المخلّدين، وحمورابي: آرامية تفيد ما يقارب هذا المعنىٰ وهو رب الأرباب.

ودولة حمورابي وإن جزم بعض فضلاء المؤرخين كصاحب (العرب قبل الإسلام) وغيره بأنها عربية الأصل واللسان؛ فإن جلّ علماء الآثار والعاديات ما برحوا في شك من ذلك: فيهم من يقول: إن حمورابي عربي لا دولته، وفيهم القائل بأن الأسرة المالكة والدولة معًا كانوا عربًا ينطقون باللسان العربية المتداولة في تلك العصور، وهي تختلف عن لسان عرب اليوم، وتُشبه لغة الآشوريين «سكان

نينوىٰ وما جاورها»، وكانوا معاصريهم ومجاوريهم ويتفقون معهم في كثير من أزيائهم وعاداتهم وطراز بنائهم.

والحموربيون إذا ثبتت عربيتهم بما سيكتشفه المنقّبون من آثارهم يكونون أول دولة عربية عرَّف بها تاريخُ البشر ووصف حضارتها ومدينتها بما أفصحت عنه الأطلال الشاخصة بها، وفي (العرب قبل الإسلام) أن بعض الباحثين ظفر في بلاد السوس (فيما وراء النهر) بمسلة[1] من الحجر الأسود الصلب قد نُقشت عليها شريعة حموربي مؤلَّفة من ٢٨١ مادة تبحث في طبقات الأمة وحقوق المرأة وواجباتها والزواج والإرث، وعثر آخرون علىٰ كتابات تدل علىٰ معرفتهم بفنون الجراحة والطب، وبالجملة؛ فإن الأمة الحمورابية وإن ظلمها التاريخ بإغفال ذكرها وإهمال أمرها فستُظهرها آثارها الخالدة وتُفصح عنها بناياتها وأنقاضها حتىٰ تكون في عداد الدول القديمة المعروفة ذات المكانة الرفيعة والمنزلة السامقة والمجد والإعظام.

قحطان

توفي في نحو سنة ٢٦٩٠ قبل الهجرة

سبقت الإشارة إلىٰ صاحب هذه الترجمة في الكلام علىٰ عدنان وقلنا بأن الجيل الثاني من أجيال العرب الثلاثة، وهو المسمىٰ «العرب المتعربة» يبتدئ بقحطان وأنه وابنه يعرب أخذا العربية عمن تقدمهما من قبائل العرب العاربة.

وقحطان هو: ابنُ عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، ذلك ما يذكره

(١) المِسَلَّة في اصطلاح الأثريين اليوم: أعمدة طويلة مربعة محددة الرأس، والأصل في هذه التسمية شيوعها عند العامة من المصريين في إطلاقهم علىٰ بعض الأعمدة القديمة اسم مسلة فرعون. قال ياقوت في المعجم: في البحث عن عين شمس: «وكانت مدينة كبيرة.. وبها آثار قديمة وعواميد تسمِّيها العامة مَسَالّ فرعون سودٌ طوالٌ جدًا تبين من بعد كأنها نخيل بلا رؤوس».

علماء الأنساب ويقدمونه علىٰ ما عداه، واسم قحطان في التوراة يقطان، وأبوه عابر هو نبي الله هود (ﷺ)، وكانت إقامة أبيه هود في حضرموت وهو من أشراف قومه ووجوههم وبها توفي وفيها قبره، وأما ابنه قحطان؛ فمولده ومنشأه الأول في حضرموت، ثم انتقل بجماعة من قبيلته وأهله إلىٰ مدينة صنعاء وكانت أرضًا خالية فابتنىٰ بها واقتدىٰ به من جاءَ معه فمصَّروها وصيروها مدينة تذكرهم آثارها بعد مَرِّ الأُلوف من السنين، وكثرت جماعة المنتقلين إلىٰ صنعاء لما وجدوا بها من الخصب وطيب الهواء فنادوا بقحطان أميرًا عليهم (ملكًا) وكان كما قدمنا من أعيان قومه وأبوه ذو الشأن الرفيع بوجاهته بينهم ونُبُوَّتِه فيهم، وأحسن قحطانُ السياسة فأحبوه وكرَّموه، ورأىٰ نفسه في قوة وسلطان فجمع جيشًا وزحف به إلىٰ العراق، وكان قد بلغه أن شداد بن عاد (أحد أمراء العرب العاربة) جاور العراقيين مدة واستولىٰ في نحو سنة ٢٩٢٧ ق.هـ علىٰ مدينة بابل قاعدة مملكة الكلدانيين والحموربيين.

ولما كانت سنة ٢٦٩٥ق.هـ، وذلك في أيام قحطان، وثبَ الملك الآشوري بعلوس علىٰ من كان فيها من العرب فطردهم وجعلها عاصمة لمملكته الآشورية، فزحف إليه قحطان بما اجتمع لديه من المقاتلة ونشبت بين الفريقين حرب هائلة طالت أيامها، ومات في أثنائها قحطان سنة ٢٦٩٠ق.هـ، ثم إن ابنه يعرب عقد الصلح مع بعلوس، وعاد إلىٰ صنعاء مقر مُلكه ومُلك أبيه من قبله.

أما قحطان فيقال: إنه أول من لبس التاج ولعله لما قدم العراق ورأىٰ حضارة بابل ونينوىٰ في ذلك العهد قلَّد ملوكهم بلبس التاج فكان أول من لبسه من ملوك اليمن وجزيرة العرب، وهو وابنه يعرب أول من نطق باللغة العربية وكانت لغتُهم اللغةَ الكلدانية وهي لسان أهل العراق الأصليين، واستبعد ابن خلدون ما ينقله المؤرخون من أن قحطان أول من تكلَّم بالعربية، وأنه أتىٰ بها مخترعًا من ذات نفسه، فقال: وقحطان تعلَّم العربية ممن أدركه من العرب العاربة (البائدة).

وولد لقحطان ثلاثة عشر ولدًا، وكثر نسله حتىٰ امتلأت به البلاد اليمنية بعد زمن يسير، وإنما تشعبت القبائل والبطون القحطانية من حفيده سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان، فكانت منه بطون حِمْير وبطون كهلان وانتشرت أبناؤهم في الشام والحجاز والعراق واليمن، ومن نسله التبابعة ملوك اليمن، واللخميون ملوك الحيرة، والغساسنة ملوك الشام، وفيه يقول الشاعر:

فما مثل قحطان السماحة والندىٰ ولا كابنه رب الفصاحة يعرب

يَعْرُبْ

مات في نحو سنة ٢٦٥٠ قبل الهجرة

يعرب بن قحطان بن عابر: أحد ملوك العرب وحكمائهم وخطبائهم ومن ذوي البسالة والإقدام فيهم ولي إمارة صنعاء بعد موت أبيه، واشتد ساعده، وكثر رهطه بعد عودته من قتال الآشوريين في العراق وبابل، فأقام في مقرّ إمارته سنينًا يُعدُّ عُددَه ويُنمي عَدَده، ورأىٰ قوم عاد (الثانية) قد طغوا في اليمن فخاف زحفهم عليه، فجمع جموعه وابتدأهم فحاربهم فحالفه التوفيق والظفر فامتلك البلاد اليمانية، وصفا له الملك بها، ثم حارب العمالقة وكانوا في الحجاز فغلبهم علىٰ أمرهم، وولىٰ إخوته الأعمال؛ فجعل جرهمًا علىٰ الحجاز، وعاد بن قحطان علىٰ الشحر، وحضرموت بن قحطان علىٰ جبال الشحر، وعمان بن قحطان علىٰ بلاد عُمان.

ويعرب هذا أول من حيَّاه وولده بتحية الملك: أنعم صباحًا! و: أبيتَ اللعن! وهو وأبيه اللذان نشرا لغة العرب في البلاد والممالك، وذلك بعد تفرق الألسن وتبلبلها واختلاف الناس في أساليب التعبير عن ضمائرهم وخواطرهم، وبذلك يقول حسان بن ثابت الأنصاري:

تعلمتمُ من منطق الشيخ يعربِ أبينا فصرتم مُعربين ذوي نَفْرِ
وكنتم قديمًا ما لكم غيرَ عجمة كـلامٌ وكـنـتـم كالبهائم في القفرِ

ويزعم أصحاب الأخبار أن يعرب لما حضرته الوفاة جمع بنيه وأوصاهم بقوله:

«أيْ بنيّ! تعلموا العلم واعملوا به، واتركوا الحسد؛ فإنه داعية القطيعة بينكم، وتجنبوا الشر وأهله؛ فإن الشر لا يجلب عليكم إلا الشر، وأنصفوا الناس من أنفسكم؛ فإنهم ينصفونكم من أنفسهم، واجتنبوا الكبرياء؛ فإنها تُبعد قلوب الرجال عنكم، وعليكم بالتواضع؛ فإنه يقربكم من الناس ويحببكم إليهم، وإذا استشاركم مستشير فأشيروا عليه بما تشيرون به علىٰ أنفسكم بمثل ما استشاركم فيه؛ فإنها أمانة قد ألقاها في أعناقكم».

وملك بعد أبيه ثلاثًا وثلاثين سنة، ومات في صنعاء.

سَبأ

مات نحو سنة ٢٥٩٠ قبل الهجرة

عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان: أحد كبار ملوك اليمن ومن أصحاب الذكر والشأن في تاريخ تلك الأصقاع، ملك صنعاء وما جاورها من الديار التي أخضعها يعرب لسلطانه، كما قدمنا في ترجمته، وكان موصوفًا بالشجاعة وعلوّ الهمة وحب الغزو؛ فإنه طمح ببصره إلىٰ القبائل البعيدة عنه فقصدها وحاربها وأكثر السبي فيها فلما عاد إلىٰ صنعاء أكبرتْ قبيلته أمره وأعظمت شأنه وكانت عادة السبي غير مألوفة فسنَّها عبد شمس.

قال أصحاب التواريخ: ولذلك لُقِّب بسبأ.. ولا يحسن عندي هذا التوجيه.

وكان مولعًا بالعمران وإقامة الأبنية الفخمة، فابتنىٰ مدينة مأرب، وهي

من المدن التي ما زالت آثارها شاخصة إلىٰ هذا الحين وقد عثر بعض علماء الآثار واللاهجين بالبحث والتنقيب من فضلاء الغرب علىٰ كثير من الكتابات منقوشة علىٰ الحجارة باللسان الحميري استدلوا منها علىٰ اسم المدينة ورأوا بعض الأنقاض الآخذة بالاندثار فعرفوا منها حدود المدينة، وفيها سور له بابان أحدهما شرقي والآخر غربي، وفي وسطها آثار هيكل يسميه سكان ذلك القطر الآن هيكل سليمان، وبنىٰ بها السُّدّ المعروف بسُدّ مأرب.

قال المسعودي: ومات سبأ قبل أن يستتمه فأتمته ملوك حمير بعده.

وفي المؤرخين من ينسب له بناء مدينة عين شمس في إقليم مصر وتعرف اليوم باسم مصر الجديدة، وما أحْسبها إلا من بناء الفراعنة كما يُفهم من صدر كلام ياقوت الحموي عنها.

وكان موصوفًا بقوة العارضة حتىٰ قال واصفوه: هو أول من خطب في الجاهلية علىٰ الجماعة يريدون أنه أول خطيب جاهلي قام في ملأ من الناس فحذرهم أو أنذرهم أو وعظهم أو شجَّعهم، لم يكن ذلك معروفًا عند من تقدمه من ملوك القبائل وأمرائها.

وعاش بعد موت أبيه خمسًا وثلاثين سنة، وأعقب نسلاً حميدًا. قال النسابة الكلبي: وُلد لسبأ: حمير وكهلان وصيفي وبشر ونصر وأفلح وزيدان والعود ورهم وعبد الله ونعمان ويشجب وشداد وربيعة ومالك وَزيد.

فيقال لبني سبأ كلهم السبئيون إلا حميرًا وكهلان؛ فإن القبائل قد تفرقت منهما؛ فإذا سألت الرجل: ممن أنت؟ فقال: سبئي، فليس بحميري ولا كهلاني. اهـ.

وفي كثرة غزواته وفتوحه يقول الشاعر:

لقد ملك الآفـاق من حيث شرقها إلىٰ الغرب منها عبد شمس بن يشجب
سعىٰ بالجياد الأعـوجيـة والقنا إلـىٰ بـابـل في مقـنـب بـعـد مقنب

قال صاحب سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب: «ويقال: إن سبأ أغار علىٰ بلبل(؟)(١) بالخيل ففتحها وأخذ أتاوتها، وضرب بالخيل والرجال في الأرض؛ فكان لا يُذكر له بلد إلا قصده وفتحه، وهو أول من فتح البلاد وأخذ أتاوتها.

حِمْيَرُ

مات نحو سنة ٢٥٤٠ قبل الهجرة

الحِمْيريون: ملوك عظام كانت منازلهم في اليمن ودام لهم الملك زمنًا طويلاً، وهم ينتسبون إلىٰ صاحب هذه الترجمة: حِمْيَرَ بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكان ملكًا شجاعًا مظفَّرًا، حَكم بعد موت أبيه سبأ، ولم تزل عاصمة ملكه صنعاء، وغزا وافتتح حاذيًا حذو آبائه في توسيع دائرة مُلكهم حتىٰ قيل: إن غُزاته بلغوا الصين.

وحمير: لقبٌ عليه لاختياره الثياب الحمر وكثرة لبسه لها واسمه العَرَنْججُ: وهو مشتقٌّ من قولهم: اعرنجج في الأمر: إذا جدَّ فيه، واتخذ من الذهب الوهاج تاجًا، فكان أول من تتوج بالذهب، وله وقائع مشهورة منها أنه قاتل قبائل ثمود، وكان مُقامها في اليمن ففرَّقها فارتحلت إلىٰ الحجاز.

والدولة الحميرية ذات ذكر وشأن في تاريخ جاهلية العرب، وأصحابُ الأخبار لا يعوِّلون في مدتها علىٰ رأي، ولكنهم يختلفون اختلافًا عهدناه بهم في مثلها فلا غرابة فيه، وضعفت في منتهىٰ أمرها، شأن غيرها من الدول الكبيرة، فأُسست علىٰ أنقاضها دولة حبشية أسسها أرياط الحبشي الذي أغار بجيش كبير من أبناء جلدته علىٰ آخر الملوك الحميريين ذي نواس، وهو أحد الملوك

---

(١) كذا بالأصل.

اليمانيين المعروفين بالأذواء[١]، فقاتله وامتلك اليمن سنة ٨٥ق.هـ. فدام لأرياط الملك وتوارثه عنه بعض أبنائه، والعرب اليمانيون يتحفزون إلىٰ الوثوب بهم، ولكنهم لا يستطيعون لاستئثار الحبشة بالقوة دونهم، حتىٰ نهض فيهم شابٌّ كان من سلالة الأذواء الحميريين واسمه: سيف بن ذي يزن فإنه دهم الأحباس بجيش أتىٰ به من الفُرْس؛ علىٰ نحو ما سيأتي مفصَّلاً في ترجمة سيف المذكور؛ فأعاد الملك إلىٰ أهله واستقلَّ به سنة ٢١ق.هـ.

وللحميريين لغةٌ انفردت بها قبائل اليمن تختلف عن العربية الحجازية بفروق كثيرة في كتابتها وكلماتها، ولها ألفاظ لا يعرفها غير اليمانيين؛ فمما اختصوا من الألفاظ: العباهلة، والأقيال، والأرواع، والمشابيب[٢]، وغير ذلك مما ورد شيء منه في بعض رسائل النبي (ﷺ) التي بعث بها إليهم، وكان يخاطب كل قبيلة بلهجتها ولغتها، ورسائله محفوظة في أكثر كتب الأدب والتاريخ.

ومما خالفوا فيه غيرهم من قبائل العرب: الوثوب: يعنون بن القعود، وإبدال لام التعريف بالميم، يقولون: طابَ امْهواء، وجاء امشتاءُ، وصفا امجوُّ؛ يريدون الهواء والشتاء والجو، ويحفظ عن رسول الله (ﷺ) أن جماعة من الحميريين سألوه عن الصيام في السفر فأجابهم بلغتهم: ليس من امْبرِّ امْصيامُ في امْسفر، يعني: ليس من البر الصيامُ في السفر.

والعامة في مصر والشام اليوم يقولون: امبارح «إذا أرادوا «البارحة».

ومنها: الوَتْمُ، وهو إبدالهم السين تاء، يقولن: ألناتُ بالناتِ، يعنون: الناسُ بالناس.

---

(١) جمع «ذو» وهم ملوك اليمن الحميريون المبدوءة أسماؤهم بذو: منهم: ذو يزن وذو غمدان وذو جدن وذو سلحين وغيرهم.

(٢) العباهلة في لغتهم: الذين استقرَّ مُلكهم، والأقيال: جمع: قيْل وهو دون الملك الأعلىٰ كالوزير الأكبر (صدر أعظم)، والأرواع: السادات، والمشابيب: الأذكياء.

والشنشنة: وهي إبدالهم الكاف شيئًا: سُمع أحدهم في عرفة، يقول: لبيشَ اللهم لبيش، أي: لبيك اللهم لبيك، وهذه شائعة اليوم في كثير من القرىٰ والبوادي، ويبدلون الياء جيمًا في الإضافة والنسب نحو غلامج (أي غلامي) وبصرج (أي بصري).

ويقفون علىٰ الهاء بالتاء: يقولون: عربيَّتْ، ولغويَّتْ، ونجدِيتْ، وهم يريدون: عربية، ولغوية، وهذه أيضًا شائعة اليوم في المدارس المسيحية، خاصة في بلاد الشام، والبحث في هذا الأمر يطول، وعلماء العربية لا يحتجون بكلامهم في اللغة لمخالطتهم الحبشة والهنود (المزهر: للسيوطي).

وعلماء الآثار اليوم يرون بونًا بعيدًا بينها وبين العربية الحجازية، وذلك فيما عثروا عليه من كلامهم، حتىٰ شك بعضهم في أنها فرع من العربية وعدُّوها لغة قائمة بنفسها. قال البستاني في دائرة المعارف (ج٧ ص٢٤٢): وذهب بعضهم إلىٰ أن الحميرية تختلف جدًا عن العربية، حتىٰ أنه لا يجوز جعلهما معًا، وأول من بيَّن لأوروبا وجود الكتابة الحميرية في المقاطعات الجنوبية من بلاد العرب هو العالم نيبور، وذلك سنة ١١٩٠هـ (١١٧٤م)، ثم كُشفت عدةَ كتابات وآثار في ظَفارِ وصنعاء والخريبة ومأرب وحرم بلقيس وحضرموت، وفي المتحف الإنكليزي بلوندره نموذج منها منقول علىٰ ألواح نحاسية باللغة الحميرية وُجدت في حضرموت، وجوهرتان عليهما كتابة حميرية جيء بهما من بابل، واكتشف الباحثان بليفير وكوغلان عدة ألواح برنزية عثرا عليها في القرب من صنعاء وأهدياها إلىٰ المعرض. قال البستاني: ووُجد حديثًا كتابات كثيرة حتىٰ صارت تعد بالمئات.

والأحرف الحميرية اكتشفها موسيو كلدور في أبين (جهة في الشمال الشرقي من عدن) منقوشة علىٰ قطعة من البلاط، والكتابة الحميرية تختلف عن غيرها

من لغات القبائل العربية اختلافًا واضحًا وخطها يعرف بالمُسْنَد وهو قريب في صورته من الخط السرياني والحبشي.

ونقل صاحب المطالع النصرية عن ابن خلكان قوله: والحميرية هي خط أهل اليمن قوم هود وهم عاد الأولىٰ، وكانت كتابتهم تسمىٰ المسند الحميري وكانت حروفها كلها منفصلة وكانوا يمنعون العامة من تعلمها فلا يتعاطاها أحد إلا بإذنهم. اهـ.

وعاش حمير خمسين سنة في ملكه بعد أبيه، وولد له خمسة أولاد: مالك، وعامر، وعمرو، وسعد، ووائلة. كذا في المعارف لابن قتيبة.

ومن بطون حمير علىٰ ما ذكره القلقشندي في كتاب الأنساب: السكاسك، والشَّعبيون، وبنو الريَّان، وقضاعة، وبطون قضاعة، وبنو عبد شمس.

ومن ملوك حمير: التبابعة، والأذواء، والأقيال. وعلىٰ ما في تاريخهم وأخبارهم من الغموض تجد في كتب التاريخ الكبيرة كتاريخ ابن خلدون وأشباهه كلامًا كثيرًا عنهم، وفيه ما تؤيده الآثار المكتشفة في عصرنا هذا.

تُبَّع

مات في نحو سنة ١٠٥٣ق.هـ

الملك الأكبر من ملوك الدولة الحميرية الثانية في بلاد اليمن، كان يُلقَّب بتُبَّع، كما كان الفرس يدعون كل ملك منهم كسرىٰ (معرب خُسْرَوْ الفارسية)، والروم قيصر (معرَّب: Cesar)، والترك خاقان، والحبشة النجاشي (معرب انكاش، في الحبشية، وهي بالكاف المشَمة بالجيم، كما في العبر).

وامتاز تُبَّع هذا بأنه ورد ذكره وذكر قومه كثيرًا في الأخبار الإسلامية، وهو من ذوي الفتوح والشأن، واسمه حسان وأبوه تبع أسعد أبو كرب الحميري (قاله أبو الفداء). كان من أعاظم ملوك حمير، ولعله أكثرهم غارات وأظفرهم كتائب.

قال الإمام ابن عساكر في تاريخ الشام: سار تُبَّع بجيش عرمرم حتىٰ انتهىٰ إلىٰ

سمرقند يغزو ويفتتح وكلما دخل مدينة أو قرية كبيرة اختار من كلمائها وذوي العقول الراجحة من أبنائها عددًا لا يقل عن العشرة فاستصحبهم معه، ثم انصرف فأخذ طريق الشام، فامتلك دمشق واعتقل منها أحبارًا من اليهود جعلهم فيمن سيَّر معه من الحكماء، وما كرَّ راجعًا نحو اليمن إلا وبين يديه من الأحبار والكهنة والحكماء ما يناهز أربعة آلاف رجل، وبينما هو سائر إلىٰ اليمن كان الأحبار يحدثونه عن الأديان والكتب السماوية حتىٰ استمالوه إليهم، ولما قرُب من مكة شاع في الناس أنه يريد هدم الكعبة؛ فهرع إليه الأحبار فحدثوه بشأن الكعبة وأنها بيت الله وما زالوا به إلىٰ أن كانت لها في نفسه هيبة؛ فخلع ثيابه مُحرمًا واصطفىٰ دين إبراهيم الخليل، ودخلها فقضىٰ نسكه وكساها سبعة أثواب، فهو أول من كسىٰ البيت، ثم مرَّ ببقعة يثرب (المدينة) وعاد إلىٰ اليمن فاستمرت بينه وبين قومه مناظرات في أمر دينه الجديد، وكانوا وثنيين يعبدون بيتًا شيدوه يزعمون أن به إلهًا يكلمهم ويخرج إليهم، وثبت تُبَّع، وتبعه جماعات منهم وأحرق كثيرًا من الذين قاوموه في نشر دينه، واعتزله جماعة بقوا علىٰ دياناتهم فهدَّم تُبَّع وأصحابه بيت عبادتهم، واتخذ في اليمن مدينتَيْ «مأرِب» و «ظفارِ» فجعلهما سكنًا له يقيم في أيام الشتاء بمنزل في مأرب مبني بالصفائح الذهبية، ويقضي فصل الصيف في «ظفارِ» بمنزله المبنيّ من الرخام، وجعل في مأرب مكانًا يُنَشَّأ أبناء الملوك من حمير يتعلمون به اللغة والأخلاق فهو كمدرسة للعلم والتربية، ثم ثار عليه جمع من قومه فقتلوه، وقيل: بل مات في «غلسان» من بلاد الهند.

هذه أخبار تُبَّع حسان اليماني لخصتها كما ترىٰ عن بعض الكتب العربية الموثوق بها عند أصحاب هذه اللغة، وأما آثار التبابعة فحتىٰ يومنا الذي نحن فيه لم ينكشف للباحثين من أمرها غامض ولا وضحت حقيقة وعساها تنبئ الأطلال الدارسة بأقدار بُناتها وأهليها الأولين ولو بعد حين، أما زمن صاحب الترجمة فلم أرَ ما أثق به من الأقوال الصريحة في كتب التواريخ غير كلمةٍ يُستأنَس بها الآن أوردَها الحافظ ابن عساكر قال: وبين تُبَّع ومولد رسول الله (ﷺ) ألف

سنة، فأضفت ما بين مولد النبي وهجرته إلىٰ الألف فكان مجموعهما ألف سنة وثلاثًا وخمسين سنة، وإنما هو تقدير وتقريب: وقد يحسُن إيرادهما ويُحتج بهما عند فقدان الحقيقة وامتناع التأكيد.

وينسبون لتُبَّع هذا شعرًا يزعمون أنه ناظمه وأثبت شيئًا منه ابن عساكر في تاريخه، أما عندي فلا يثبت من ذلك شيء ونحن نرىٰ الخلاف في أسماء ملوكهم قائمًا فكيف بما يُعزىٰ إليهم من الشعر علىٰ كثرة ناظميه والمشتغلين فيه.

عمرو بن لُحَيّ

مات نحو سنة ٣٩٠ق.هـ

كانت العرب حتىٰ سنة ٤٠٠ قبل الهجرة آخذة بدين إبراهيم الخليل (عليه السلام) إلا قليلاً منها اتبعوا ديانات مجاوريهم من الفرس والروم والوثنيين وغيرهم حتىٰ نشأ في الحجاز ملك منهم يُدعىٰ «عمرو بن لحي» بن حارثة بن عمرو مزيقياء الأزدي من ولد كهلان بن سبأ، وكان ملكًا مطاعًا شائع الذكر داهية خضعت له الحجاز، وهو أول من أدخل الأصنام علىٰ تلك البقعة وجعلها في الكعبة، وذلك أنه أُصيب بعلة شديدة أعياه شفاؤها فقيل له: لو قصدت البلقاء من أعمال الشام فإن بها حمةً إن أتيتها برأتَ، فأتاها، فاستحمَّ، فبرأ من مرضه، واختلط ببعض أهلها فرآهم يعبدون أصنامًا فسألهم عنها، فقالوا: هذه أرباب اتخذناها علىٰ شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية نستنصر بها فنُنصَر ونَستَسْقي بها فنُسْقَىٰ، فأعجبه ذلك، فطلب منهم صنمًا وبذل لهم ما يعدِله من النقود فدفعوا إليه «هُبَل» واسمه في العبرانية «هبَّعل»، وهو اسم أكبر أصنام الفينيقيين أو الكنعانيين ومن جاورهم من أمم الشام.

قال النويري: وهُبَل: صنم من خرز العقيق علىٰ صورة الإنسان، فاحتمله عمرو به لحي وسار به إلىٰ مكة فوضعه علىٰ الكعبة، واشترىٰ صنمين أحدهما

«إساف»، والثاني «نائلة»، فعكف علىٰ عبادتهما وأمر قومه وعشيرته بعبادة الأوثان وتعظيمها، ثم دعا العرب كافة إلىٰ رفع شأنها واحترامها والتقرب منها، فأجابه السواد الأعظم منهم رغبةً أو رهبةً، وشذَّ جماعة من عقلائهم ومفكريهم، ففضَّلوا الديانات المعروفة في ذلك العصر كالإسرائيلية والنصرانية، ومنهم من اختار مذهب المجوس والزنادقة أو الثنوية، أو عبادة الكواكب، وثبت فريق علىٰ ديانته الأولىٰ. واستمر الأكثرون علىٰ عبادة الأصنام وتقريب القرابين لها حتىٰ جاء الإسلام فحطمها وحوَّل الناس عن ابتغائها بعد أن كَثُرَ عددها وفشا أمرها واتخذت كل قبيلة من قبائل العرب صنمًا ابتدعته، ومنهم من بنىٰ له بيتًا ليكون كالكعبة يُطاف حوله، حتىٰ إذا ارتفع لصاحب ذلك الصنم شأن أو كان له سلطان علىٰ من جاوره من العشائر دعاهم إلىٰ تعظيمه وعبادته وناضَلَ عنه بيأسه وقوته، تشبهًا بقريش في سدانتها للكعبة وسيادتها بذلك.

وقد حطَّم المسلمون نيفًا وثلاثمائة صنم، وقيل: إنها كانت علىٰ عدد أيام السنة، ومن أشهر أصنام العرب: «هبل» الآنف ذكره، و«إساف»، وكان علىٰ الصفا، و«نائلة» وكان علىٰ المروة، و«مناة» وكان عند الأوس والخزرج في مدينة يثرب، و«اللات» وكان لثقيف في الطائف، و«العُزَّىٰ» وكان لقريش وكنانة، و«ود» لبني كلب بدومة الجندل، و«سواع» لهذيل، و«يغوث» لمذحج، و«يعوق» لهمذان، وأصنامهم كثيرة يضيق بها مجال هذا الكتاب.

أما عمرو بن لحي المترَجمُ: فقد كان في عصر سابور ملك العجم (قاله الشهرستاني)، وسوابير العجم ثلاثة: سابور بن أردشير (مات سنة ٣٩٨ق.هـ) وسابور بن هرمز المعروفُ بذي الأكتاف (مات سنة ٢٧٨ق.هـ)، وسابور ابن ذي الأكتاف (مات سنة ٢٦٩ق.هـ)، وأشهرهم عند سكان جزيرة العرب ذو الأكتاف؛ فإنه غزاهم وكان له معهم حديث طويل، والذي ذهبت إليه في تاريخ صاحب الترجمة أنه كان في عصر سابور الأول ورجحه عندي قِدَمُ

الأصنام في الكعبة ورجوعها إلىٰ عهد أبعد من عهد سابور الثاني أو الثالث، وكذلك صنع السيد رفاعة الطهطاوي في كتابه بداية القدماء وهداية الحكماء، اختارَ لعمرٍو مُعاصرةَ سابور الأول، وهو متردِّد في الحكم غير جازم.

جذيمة الوَضَّاح

مات سنة ٣٦٥ق.هـ

جذيمة بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي: أحد ملوك العراق ومن ذوي الذكر الذائع والاسم الشائع. قال المؤرخ ابن الأثير: «كان من أفضل ملوك العرب رأيًا، وأبعدهم مغارًا، وأشدهم نكاية، وهو أول من غزا بالجيوش، وشنَّ الغارات علىٰ قبائل العرب».

كان مقره في الأنبار واليًا علىٰ من جاوره من عرب العراق من قِبَل الأكاسرة ملوك العجم في أيام ازدهار ملكهم وامتداد سلطتهم، ثم استولىٰ علىٰ السواد (في شمالي العراق) وانقادت له الحيرة والأنبار وسائر القرىٰ المجاورة، ثم طمح بنظره إلىٰ مشارف الشام وأرض الجزيرة فغزاها وحارب ملكها عمرو بن الظرب والد الزباء، فقتله وانتهب بلاده، وكان له من الفرات إلىٰ تدمر، وفرَّت ابنته الزباء، حتىٰ انصرف جذيمة فعادت إلىٰ تدمر مقر ملك أبيها فجمعت شمل الجند واستعدَّت، ثم راسلته وعرضت عليه نفسها زوجة له، وكانت أجمل وأعقل وأشهر نساء عصرها، فقَدِم عليها جذيمة ليتزوجها فاغتالته وقتلته وأخذت بثأر أبيها: وقصتها مشهورة تجدها في أكثر كتب التاريخ والأدب العربي وفي حوادثها أمثال جيدة وأخبار تلذ التُّلاة، ولبحَثَةَ الإفرنج اهتمام كبير بأمرها وهم يسمونها «زينوبيا - ملكة تدمر»، فارجع إن شئت البحث عنها إلىٰ كتب المستشرقين وأهل التحقيق منهم، وابتعد ما استطعت عن كتب العرب وأقوالهم فيها إلا في ما لا بدّ منه كالأمثال العربية أو إرادة المقابلة.

وجذيمة أول ملك أو أمير عربي جلس على سرير اتخذه لنفسه في مجلسه: أخذ ذلك عن الفرس، وجُبيت له أموال البلاد الخاضعة لحكمه فقال فيه شاعره:

أضحىٰ جذيمة في الأنبار منزله قد حاز ما جمعت في عصرها عادُ
مستعمِلُ الخير لا تفنىٰ زيادتُه في كل يوم وأهل الخير تزدادُ

وضاع له ابن أخت يُدعىٰ عَمْرًا وهو صغير فمضىٰ عليه زمن ثم لقيه رجلان: اسم أحدهما مالك والثاني عقيل. فأتياه به فقال لهما جذيمة: تَمَنَّيا عليَّ ما شئتما، فطلبا منادمته ما بقي وبقيا، فنادماه أربعين سنة، ورأىٰ منهما عقلاً وأدبًا فصحبهما حتىٰ مات وفرقت بينهما الأيام، فضَرَبت العربُ بهما الأمثال في تأكيد الألفة وطول الصحبة؛ قال أبو خراش الهُذَلي يرثي أخاه عروة:

تقول أراه بعد عروة لاهيًا وذلك رُزءٌ لو علمتِ جليلُ
فلا تحسبي أن قد تناسيتُ عهده ولكنَّ صبري يا أميمُ جميلُ
ألم تعلمي أنْ قد تفرق قبلنا خليلا صفاءٍ: مالكٌ وعقيلُ

وكان يقال لجذيمة «الأبرش» و«الأبرص» لبرص كان فيه، ولكن العرب هابته أن تنعته به فلُقِّب بالوضَّاح، وقتل في تدمر كما ذكرنا واختلفوا في مدة ملكه بين ٥٠ سنة و[٦٠].

الضيزَنُ السليحي

مات سنة ٣٠٤ق.هـ

ما برحت الآثار الشاخصة والأطلال البالية تذكّر رأيها ببانيها وتدل مُشاهدها علىٰ شائدها، فإن علماء البلدان وأصحاب الرحلات المولعين بالأسفار والبحث عن الآثار كلما مرَّ واحد منهم بتلك الأخربة المبعثرة في ذلك المكان

الماثل بين الكوفة والقادسية استوقفه منظرها طويلاً فنقَّب وبحث ثم كتب ما لاح له، فأما ياقوت فثبت عنده أنَّ مجاوري ذلك الموضع كانوا يسمونه في عصره «طِيزَناباذ» وسبقه إلىٰ بيان ذلك المؤرخ البلاذري، واتفقا علىٰ أن اسمه الأول «ضيزناباذ»، ولكن مجاوريه الفرس حرفوا الضاد طاء؛ لأنَّ لغتهم خالية من الضاد، وقالا: ضيزناباذ: مؤلفة من كلمتين «ضيزن» وهو اسم بانيها و «أباذ» ومعناها بالفارسية العمارة فتكون ترجمتها «عمارة ضيزن»، وحرفتها العامة في العهد الأخير فقالت: «طُعَيريزات»، وهو اسمها الشائع اليوم علىٰ ما جاء في مجلة لغة العرب البغدادية، ص ٣١٩، وربما قالوا «العريسات»، كما جاء بها أيضًا في مواضع مختلفة، وهي كما في معجم البلدان تبعد عن القادسية في جادَّة الحاج مسافة ميل، وكانت في صدر الإسلام من أنزَه المواضع محفوفةً بالكروم والشجر والحانات والمعاصر مقصودةً للهو والبطالة، وفي القرن السادس كانت خرابًا ولم يبق بها إلا أثر قباب كانوا يسمونها «قباب أبي نُواس» لأبيات نَظَمها أبو نواس فيها أوردها ياقوت (ج٦، ص٧٩)، وهي اليوم آثار أبنية في تلال وهضاب.

أما مشيد دعائمها والمنسوبة إليه فهو صاحب هذه الترجمة: الضيزن بن معاوية بن الإحرام (أو الأجرام) بن سعد بن سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة (كذا نسبُهُ في كتابَيْ المعجم والفتوح روايةً عن الكلبي)، وكان ملكًا مذكورًا بالبأس والمنعة تخشاه أقيال العرب وملوكها، فكانوا يُهادونه ويسالمونه خوفًا من بطشه، وكان قد ملك الجزيرة إلىٰ الشام، والعرب في ذلك العهد، كما تدلك كتب الثقاة من مؤرخيهم، كانوا بين جاذبين سياسيين قويين:

أحدهما دولة الفرس وهي لا تألو جهدًا في تقريب من داناها من أمراء القبائل وملوك العشائر فتُنعم عليهم وتُحسن إليهم ثم تُطلقهم في بلاد الروم يعيثون بها فسادًا ويقلقون سكانها، **والثاني**: الروم، يصنعون صنيع الفرس، حذوَكَ النعلَ بالنعل! وكان الضيزن مشايعًا للروم متحيزًا إليهم يغير رجاله علىٰ العراق

والسواد، وذلك في أيام كسرىٰ سابور ذي الأكتاف وهو من بُغاة الأكاسرة وأشدهم عداوة للعرب، فجمع جيشًا كبيرًا وزحف به إلىٰ بلاد الجزيرة حتىٰ بلغ «الحضر» وهو بناءٌ بناه الضيزن، أو مدينة له فيها حصن، فلجأ الضيزن إلىٰ الحصن، وأقام سابور مدة لا يُرشد إلىٰ فتحه وزعموا أنه كان للضيزن بنت تدعىٰ «النضيرة» رأت سابور فأحبته وراسلته، ثم مهَّدت له سبيل دخول الحصن، فدخله، وقتل الضيزن، وانتهبه وأمر بهدمه، ولعله هو «أخو الحضر» الذي أراده صاحب القصيدة المشهورة وهو عدي بن زيد بقوله:

[أين] كسرىٰ كسرىٰ الملوك أنوشر وان أم أين قبله سابورُ
وبنو الأصفر الكرامُ ملوك الـ ـرّوم لم يبق منهمُ مذكورُ
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ـلة تُجبىٰ إليه والخابورُ
شاده مرمرًا وجلّله كِلْـ ـسا فللطير في ذراه وكورُ
لم يهبه ريب المنون فباد الـمُلكُ عنه فبابه مهجورُ

النعمان السائح

مات في نحو سنة ٢٢٠ق.هـ

النعمان بن امرئ القيس بن عمرو اللخميُّ الأعورُ السائحُ: أحد ملوك الحيرة من قبلِ ملوك الفرس، وكان شجاعًا كثير الغارات رفيع الذكر، غزا الشام مرارًا بتحريض الفرس، كما سبقت في الترجمة السالفة الإشارة إليه، فغنم وربح وظفر واتخذ كتيبتين حازهما عن جنده، إحداهما كانت مؤلفة من رجال الفرس، وسماها الشهباء. والثانية من تنوخ وسماها دوسر، وبهذه يُضرب المثل في البطش والفتك؛ فيقال: أفتك من دوسر.

واجتمعت له في حروبه أموال كثيرة، وكان موصوفًا بالعقل والدهاء منعوتًا

بالحزم وبُعد النظر، وكان معاصرًا ليزدجرد، المعروف بالأثيم، ملك الفرس، فدفع إليه ابنه بهرام (الذي سُمي بهرام جور) ليربيه ويهذبه، فأنشأه علىٰ غاية ما يكون من حُسن الأخلاق والشجاعة والفروسية، وطالت أيام النعمان، وهو باني القصرين العظيمين الخورنق والسدير، وللشعراء فيهما كلام كثير، ولما بلغ سن الكهولة فكَّر في أمر الحياة الدنيا فلم يرها إلا غَرورًا، فسلك مسلك النساك والحكماء. واستعاض عهد داء المُلْك، بقباء النُسْك، وانصرف سائحًا في البلاد، فانقطع خبرُه، وخفي أثرُه، وذلك بعد أن حكم ثلاثين سنة.وفيه يقول عديّ بن زيد من قصيدة تقدم بعضها:

وتدبرْ رَبَّ الخورنق إذ أشرف يومًا وللهدىٰ تفكيرُ

سرَّه ماله وكثرةُ ما يملك والبحر مُعْرضًا والسديرُ

فارعوىٰ قلبه وقال: فما غطبة حيٍ إلىٰ الممات يصيرُ

ومطلع هذه القصيدة:

أيها الشامت المعيِّر بالدهر أأنت المبرَّأُ الموفورُ

وفي ختامها بعد ذكر الملوك وآثارهم:

ثم بعد الفلاح والمُلك والنعمة وارتهمُ هناك القبورُ

ثم صاروا كأنهم ورقٌ جفَّ فألوت به الصبا والدَّبورُ

ولما غاب النعمان وتحدَّث الناس بأمره عثروا علىٰ بعض آثارٍ منه عرفوا منها ما صار إليه حاله فتولىٰ مكانه المنذر الأولىٰ، وتعاقبت الأبناء والإخوة من بني لخم حتىٰ آل الأمر إلىٰ المنذر بن ماء السماء الآتي خبرُه. [أورده الزركلي في الترجمة التالية بالفعل، ثم أدخل تعديلاً، فتأخرت ترجمة المنذر قليلاً].

كُليبُ وائلٍ

ولد سنة ١٨٧ وقُتل سنة ١٣٢ق.هـ

من أمراء العرب الذين تشبهوا بالملوك في سلطتهم وسعة ديار دان، وأن لهم وخضع لحكمهم صاحب هذه الترجمة: كليب واسمه وائل بن ربيعة بن الحارث بن مُرَّةُ التغلبي الوائلي من أحفاد عدنان، سيدُ الحيَّين بكر وتغلب ابنيْ وائل، ومن الشجعان المذكورين في الجاهلية، كانت منازله في نجد وأطرافها، وكانت الإمارة في بني ربيعة ابن نزار للأكبر، فالأكبر من ولده وكلما ولي الإمارة حَيٌّ منهم اتخذ له شارة أو سنة يعرف بها؛ فكان لواء الإمارة، بعد جدهم ربيعة، في بني عنزة بن أسد بن ربيعة فجعلوا سنتهم التي يمتازون بها أنهم يوفرون لحاهم ويقصون شواربهم ولا يباح لغيرهم من قبائل ربيعة أن يفعل ذلك إلا من أراد حربهم وقتالهم فيفعل خرقًا لحرمتهم ونبذًا لطاعتهم.

ثم تحوَّل اللواء إلىٰ بني عبد القيس بن أفصىٰ بن دعميّ بن جديلة بن أسد؛ فكانت سنتهم أنهم إذا شُتم أحدهم لنطم من شمة، وإذا لُطم قَتَل من لطَمَهُ يرون ذلك حقًا لهم لا ملام فيه.

وانتقل اللواء إلىٰ بكر بن وائل فكانوا يوثقون فرخ طائر ويضعونه في قارعة الطريق فإذا عُلِمَ بمكانه لم يسلك أحدٌ ذلك الطريق وإنما يتنحىٰ عنه بعيدًا ومن دنا منه أو حاذاه فقد خرق حرمة الأُسرة المالكة وجاز قتله، ومنهم تحوَّل اللواء إلىٰ تغلب فوليه كليب بن ربيعة بعد أبيه، فاتخذ جروًا كان إذا جلس في روضة أو مكان يضربه ويُلقيه فيَعوي فحيثما بلغ صوته كان في حمايته فلا يُرعىٰ كلأٌ منه ولا يُصاد فيه ولا يأوي أحد إليه.

وقالوا: إن اسمه وائل ولكنه لما اتخذ الجرو فكان إذا عوىٰ ابتعد الناس يحذِّر بعضهم بعضًا ويقولون: هنا كليب وائل فغلب ذلك عليه، وزاد في منزلة

كليب انضمام قبائل معدٍّ له وقيادته لجموعهم يومَ خزاز، وهو من أيام العرب المشهورة كان بين معد واليمن فأظهر كليبٌ شجاعة وبسالة ففضَّ جموع اليمن وهزمهم وأطاعته معد فوثق بها ودخله زهو شديد وبغىٰ علىٰ قومه حتىٰ بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فيقول: ما أظلته هذه السحابة في حماي، فلا يُرعَىٰ ما تظله، وكان يقول: وحش أرض كذا في جواري، فلا يُصاد، ولا يورد أحدٌ مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، ولا يمر أحد بين بيوته، ولا يجتبي أحد في مجلسه، وحمىٰ أرضًا من العالية في أول الربيع فكان لا يقربها أحد، وبه يُضرب المثل: يقال: «هو في حِمَىٰ كليب» لمن كان آمنًا، ومن أجله ثارت حرب البسوس التي هي أطول حرب نشبت في الجاهلية: قيل: دامت أربعين سنة، وسببها أنه رأىٰ ناقة غريبة ترعىٰ في أرض العالية التي هي في حماه فرماها بسهم فقتلها، وكانت الناقة لرجل يقال له سعد بن شمس الجرمي نزل ضيفًا عند البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة، وهو أخو زوجة كليب، فوقع الشقاق بين جساس وكليب علىٰ ما هو مسطور في كتب الأمثال (انظر كتاب «الصيِّب المنثال» لصاحب هذا الكتاب) وجعل جساس يترقب كليبًا حتىٰ انفرد به يومًا فقتله، ونشبت الحرب بين التغلبيين رهط كليب، والبكريّين رهط جساس، وكان بطل تلك المواقع مهلهل بن ربيعة أخو كليب، وسيأتي ذكره في ديوان الشعراء، وفي كامل التواريخ كلام طويل علىٰ يوم البسوس كما في أكثر كتب التاريخ والأخبار، وجاء في معجم البلدان (ج ٤ ص١٩٨): قوله: وسوق الذنائب قرية دون زبيد من أرض اليمن وبه قبر كليب وائل.. قال مهلهل يرثيه:

أليلتنا بذي حُسُم أنيري إذا أنتِ انقضيتِ فلا تحوري
فإن يكُ بالذنائب طال ليلي فقد أبكي من الليل القصيرِ

ولو نُبش المقابر عن كُليب لخُبِّر بالذنائب أيُّ زيرِ!
فلولا الريح أُسمعَ أهلُ حُجْر صليلَ البيض تقرَع بالذكورِ

والزير لقب كان يدعوه به كليبٌ؛ لأن مهلهلاً كان في صباه يُكثر من معاشرة النساء فسماه أخوه «زير النساء» فلما قُتل هَجَرَ مهلهلٌ ذاك النعيم، وعكف على السلاح والكفاح.. والبيت الأخير يقال: إنه أول كذب ورد في شعر العرب لأن بين الذنائب وحجر سبع ليال، وله في كليب مراثٍ كثيرة يأتي بعضها في ترجمته إن شاء الله.

ذو نُواس الحِمْيَري

ولد سنة ١٧٥ ومات سنة ١٠٩ق.هـ

أشرت في بعض ما تقدم إلىٰ ملوك الحِمْيريين ومآثرهم في القطر اليمانيّ، وصاحب هذه الكلمة هو: ذرعة بن كعب الحميريّ، أحدُ ملوكهم والأعزة فيهم، ولقبه ذو نواس؛ لأنه كان له ضفيرتان تنوسان (أي تضطربان) علىٰ عاتقه.

وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن الكريم، وكان من حديثه أنه بلغه أن رجلاً من الدعاة إلىٰ النصرانية والمبشرين بها بعثته آل جفنة ملوك غسان إلىٰ أهل نجران فتنصروا وكان دينه اليهودية فغاظه ذلك وسار إليهم بنفسه فأمر بأخاديد حُفرت وملأها جمرًا وجمع من في المدينة فجعل يعرضهم علىٰ النار من تبعه نجا، ومن أبىٰ هوىٰ! حتىٰ قتل منهم جمعًا كثيرًا.

وأُفلت رجل منهم اسمه «دوس ذو ثعلبان» فركب البحر وفرَّ إلىٰ النجاشي ملك الحبشة، وكان علىٰ النصرانية فحدَّثه بما حَدَثَ، فكتب النجاشي إلىٰ قيصر يعلمه ذلك ويستأذنه في التوجه إلىٰ اليمن فأتاه الجواب بالإيجاب فجهز جيشًا عِدَّته سبعون ألف مقاتل وزحف يريد صنعاء فاستقبله ذو نواس بجيشه علىٰ

ساحل البحر الأحمر عند عدن فتقاتل الجيشان وشعر ذو نواس بالغلبة فرأىٰ أن الموت قد كمن له بين شغار أسياف العبيد فركَض جوادَه برجله ركضةً أبلغتهما البحر وودع ذو نواس الحياة وهو يلاطم الموج ويعارك الحيتان مختارًا بطون الأسماك وهو عزيز كريم علىٰ الوقوع في أسر السودان وامتهانهم وإذلالهم له؛ فمات شريفًا!

زهير بن جَناب الكلبيّ

مات سنة ٦٤ق.هـ

زهير بن جَنَاب بن هُبَلَ بن عبد الله (أو عبد اللات) به كنانة بن بكر بن عوف ابن عذرة الكلبي من أهل اليمن: أحد أمراء العرب المشهورين وشعرائهم وذوي الرأي فيهم، وكان يُدعىٰ الكاهنَ لصحة رأيه، وكان شجاعًا مظفَّرًا ميمون النقيبة، عاش طويلاً: ومؤرخونا يذكرون عن عمره ما يقولونه عن سائر المعمَّرين، وهو أحد الذين شربوا الخمر صرفًا حتىٰ ماتوا (انظر ترجمته ملاعب الأسنة)، ومن أخباره أنه لما بلغه أن بني بغيض بن ربث بن غطفان بَنَوْا حرمًا كحرم مكة لا يُقتل صيده ولا يُهاج عائذه قال: والله لا يكون ذلك وأنا حيّ! فنادىٰ في قومه فغزا بني بغيض فظفر بهم وأخذ فارسًا منهم في حرمهم فقتله وعطَّل ذلك الحرم، ثم مرَّ علىٰ غطفان وردَّ النساء وأخذ الأموال، وقال في ذلك من أبيات:

فلم تصبر لنا غطفانُ لما ... تلاقينا وأحرزت النساءُ
فلولا الفضل منا ما رجعتم ... إلىٰ عذراء شيمتها الحياءُ
نفينا نخوة الأعداء عنا ... بأرماح أسنَّتُها ظِماءُ

واشتهرت واقعته مع بكر وتغلب ابني وائل: وسببها: أن أبرهة الأشرم حين طلع إلىٰ نجد أتاه زهير فأكرمه وفضَّله علىٰ من أتاه من العرب ثم أمَّره علىٰ بكر

وتغلب فوليهم حتىٰ أصابهم قحط فلم يؤدوا الخراج فقاتلهم زهير فترقبه ابن زيابة وكان فاتكًا حتىٰ نام فاعتمد بالسيف علىٰ بطن زهير حتىٰ ظن أنه قتله، وسلمت أمعاء زهير فلم يتحرك لئلا يعود إليه، فلما انصرف التيمي إلىٰ قومه أخبرهم أنه قتل زهيرًا، ولم يكن مع زهير إلا نفر من قومه فأمرهم أن يُظهروا أنه ميت ورحلوا به مجدّين إلىٰ قومهم فشفي وجمع جموعًا من أهل اليمن فهاجم بكرًا وتغلب فأثخن فيهم وأسر كليبًا ومهلهلاً ابني ربيعة وجماعة من فرسانهم وقال في ذلك من قصيدة:

أينَ أينَ الفرارُ من حذر الموتِ إذا يتقونَ بالأسلابِ
إذ أسرنا مهلهلاً وأخاهُ وابن عمرو في القيد وابن شهابِ
وسبينا من تغلب كل بيضاءَ رَقودِ الضحىٰ بَرُودِ الرضابِ
واستدارت رحىٰ المنايا عليهم بليوث من عامر وجَنَابِ
فهم بين هارب ليس يألو وقتيل معفَّرٍ في الترابِ
فَضُلَ العزّ عزُّنا حين نسمو مثلَ فضل السماء فوق السحابِ

وكان زهير خطيب قضاعة، وسيدها، وشاعرها، ووافدها إلىٰ الملوك، وبطلها، واجتمعت فيه خصال محمودة لم تجتمع في غيره وأحصىٰ بعضهم ما عُرِف له من الغزوات والحروب فبلغ مئتي واقعة، وأسنَّ وطال عمره حتىٰ ضعف عقله فمات منتحرًا بشرب الخمر صرفًا علىٰ ما سيأتي بيانه.

المُنذر بن ماء السماء

مات نحو سنة ٦٤ق.هـ

المنذر بن امرئ القيس اللخمي: أحد ملوك الحيرة وما بينها من جهات العراق وهو من أعظم رجال هذه الطائفة المالكة ومن كبار مشاهيرها ومغاويرها، أمه ماء

السماء أخت كليب وائل؛ السابق ذكره، وكان المنذر ينتخي بها في بعض حروبه فيقول: أنا ابن ماء السماء! فنُسب لها، وقيل: لأنها كانت جميلة، وصاحب هذه الترجمة هو المنذر الثالث: ولي مُلك الحيرة بعد أبيه سنة ١١٠ق.هـ، وذلك من قِبَل ملوك الأعاجم وملكُهم المعاصر له كسرىٰ قباذ: وفي أيامه ظهر مزدك الفارسي ينشر مذهب الزندقة فاختاره قباذ علىٰ المجوسية ودعا إليه المنذر بن ماء السماء وهو نائبه علىٰ العرب فأبىٰ المنذر متابعته، فأضمر له قباذ حقدًا، وكان قد اشتهر في زمنه ملك من ملوك العرب يُدعىٰ الحارث بن عمرو بن حُجر الكندي: منازله في نجد، وهو من بُسَّل الأمراء وذوي النجدة منهم، وسيأتي ذكره في الكلام علىٰ ابنه امرئ القيس الشاعر. فدخل الحارث هذا في مذهب مزدك وهجَرَ الأوثان وبلغ ذلك ملك العجم قباذ فسُرَّ وطردَ المنذر من مُلك العراق وولَّىٰ مكانه الحارث، فدام للحارث الملك حتىٰ مات قباذ وتولىٰ مملكة فارس كسرىٰ أنو شروان المعروف بالملك العادل، وذلك سنة ٩٣ق.هـ وكان كارهًا للزندقة وأشياعها فقتل مزدك الزنديق وأصحابه وطرد الحارث الكندي وأعاد المنذر بن ماء السماء، فدام ملك العراق في بني لخم حتىٰ جاء الإسلام.

والمنذر هذا هو باني الغَرِيّين وصاحب يومي البؤس والنعيم، وذلك في رواية الأغاني، وأمالي القالي، ومعجم ياقوت، وكامل ابن الأثير، وقال الجاحظ في المحاسن والأضداد، وابن قتيبة في الشعر والشعراء والمعارف، والجوهري في الصحاح، والزبيدي في التاج، بل هو النعمان بن المنذر الآتي ذكره، هذا خلاف المؤرخين فاخترَ أحد القولين.

والغَرِيان: بناءان في ظاهر الكوفة دُفن فيهما رجلان كانا ينادمان المنذر وهما: خالد بن المضلل وعمرو بن مسعود الأسديان، غضب عليهما يومًا وهم يشربون فأمر بهما فقُتلا، فلما أصبح وصحا سأل عنهما فأخبر بما كان فندم وأمر أن يُبنىٰ عليهما طِرْبالان ليُعرَفا بهما، وجعل لنفسه في كل سنة يومين أحدهما للبؤس

والثاني للنعيم؛ فكان يضع سريره بينهما، فأول من يظهر له في يوم بؤسه يذبحه ويطلي الغَرِيّين بدمه، وأول من يراه في يوم النعيم يمنحه مئة من الإبل ويُغدق عليه إحسانه، وظهر له في أحد أيام بؤسه عَبيد بن الأبرص الأسديُّ الشاعر وافدًا عليه رجاءَ خيره ولم يكن داريًا بذلك اليوم فتردد فيه المنذر ثم قتله (انظر ترجمة عَبيد في ديوان الشعراء).

وما زال علىٰ تلك الحال حتىٰ أتاه في يوم بؤس حنظلة بن أبي عفراء الطائي، فعرضه علىٰ القتل وكانت له عند الملك المنذر يدٌ فسأله أن يمهله سنة يرجع بها إلىٰ أهله فينظر في أمرهم ويعود في مثل هذا اليوم فأجابه وكفله شريك بن عمرو الشيباني فلما كان اليوم الموعود أقبل حنظلة وقد تكفَّن وتحنَّط وجاء بنادبته فعجب المنذر من وفائه وسأله عما جاء به بعد أن أفلت من القتل، فقال: إن لي دينًا يمنعني من الغدر. قال: وما دينك؟ قال: النصرانية. ووصفها له فرآها المنذر أحبَّ إليه مما كان عليه فتنصَّر ودعا أهل الحيرة إلىٰ النصرانية، وبنىٰ بها الكنائس وعفا عن الطائي وأبطل تلك العادة.

وعاش إلىٰ أن حدثت بينه وبين الحارث بن أبي شَمَّر الغساني شؤون وتلاقيا بجيشهما في موضع يُعرف بعين أُباغ، وهو واد وراء الأنبار علىٰ طريق الفرات إلىٰ الشام، فقُتل المنذر وانهزم جَمعُه وهذه الواقعة مذكورة في أيام العرب مشهورة باسم الموضع الذي كانت فيه.

الحارث الغساني

ولد نحو سنة ١٣٤ ومات نحو سنة ٦٢ق.هـ

الغسانيون هم عرب الشام قبل الإسلام ترجع أنسابهم إلىٰ أصول يمانية تفرق أهلها من اليمن عند انفجار سد مأرب، والمؤرخون مختلفون في أخبارهم علىٰ ما سنورده وإنما يتلخص لنا أن الغسانيين كانت لهم الولاية علىٰ جميع أطراف

الشام من الجنوب والشرق والشمال الشرقي: تمتد جنوبًا إلىٰ الحجاز وشرقًا إلىٰ حدود ملوك العراق من اللخميين، ولم يصح ملكهم لدمشق، وإنما كانت لهم الزعامة والإمارة علىٰ عرب الشام كافة، وكانت عاصمتهم بصرىٰ (اسكي شام) في حوران، أما دمشق فكان أكثر سكانها من الروم يحكمها أمراء من قِبَلَ القياصرة أصحاب القسطنطينية؛ كانوا يقرِّبون أمراء غسان منهم ويكرمونهم ليكونوا للشام مِجنًّا يدفعون به غارة مهاجميها من عرب الحجاز والعراق، وسُمُّوا غسانين لنزولهم علىٰ ماء يدعىٰ غسَّان بالقرب من الشام وهم قادمون من اليمن، وكانت الديانة الشائعة فيهم هي النصرانية وفيهم وثنيون كثيرون، وطالت مدتهم نحوًا من خمس مئة سنة، أولهم جفنة بن عمرو بن ثعلبة بن عمرو ابن مزيقياء، وآخرهم جبلة بن الأيهم الذي أسلم وارتد.

والعجب من ديار الشام فإنها علىٰ كثرة ما تضم من الآثار الشواخص لا تزال موضع بحث الباحثين من المستشرقين وعلماء العاديات والآثار والتاريخ، والخلاف ما برح قائمًا فيما يتعلق بالغسانيين من وجوه أربعة:

أولها: هل مَلكَ الغسانيون بلاد الشام كلها أم بعضها؟

ثانيها: هل حكموا دمشق؟

ثالثها: لماذا سُمُّوا غسانيين؟

رابعها: هل كانوا جميعهم نصارىٰ؟

فأما امتلاكهم الديار الشامية فلا دليل عليه غير ما جاء في كتاب «أشهر مشاهير الإسلام» قال مؤلفه الفاضل (ج٢ ص٢٣٣): «... والذي يترجح عندنا أن الفرس لما دوّخوا الولايات الرومانية سنة ٦١٤م أقروا ملوك غسان علىٰ ما كان لهم وأقاموهم ملوكًا علىٰ الشام ولما استعاد هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه في حرب الفرس وخوفه من شغب القوم

فاستمرت بيدهم ولاية دمشق إلىٰ حين الفتح الإسلامي، بل هناك دليل آخر علىٰ أن سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق، وربما شملت سورية كلها فقد ذكر المؤرخون أن جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسان ابتنىٰ بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه وهي جبلة التي لم تزل عامرة إلىٰ هذا العهد... لا جرم إنَّ سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة علىٰ الشام، وكانت عاصمة ملوكهم دمشق ولولا ذلك لما تسنىٰ لجبلة أن يبتني تلك المدينة ويسميها باسمه»، وهذا القول لم يشاركه فيه غيره من أهل البحث والنقد فيما نعلم فيثبتَ أو يسقط.

وأما الخلاف في حكمهم دمشق فقويّ جدًا ولفريقي المختلفين أدلة وحجج؛ فمن القائلين بالسلب المستشرق الكبير نُلدك صاحب تاريخ أمراء غسان (ص٤٧).

قال: «وأما عاصمة الغسانيين فكانت الجابية في الجولان، وهي عبارة عن قرية كان يسكنها قوم من الحضر مع لواحق تُحدق بها يأوي إليها أهل الوَبَر، وكان ملوك غسان في وسطهم كشيوخ القبيلة يقطنون قصرًا ابتنوه في ظهرانيهم»، كذا نقلته المشرق وقد نقصهم هذا المحقق قدرهم لما ثبت في التاريخ من إعظام ملوك الروم لهم وتقدمهم عندهم مما لا يكون لشيوخ القبائل مثله، وأيّد أحد الباحثين رأي نُلدك (راجع مجلة المشرق ج١، ص٤٨٤، وج٣، ص٤٣٨)، ومن القائلين بأن الغسانيين حكموا دمشق المستشرق الدكتور فانديك قال في كتابه «المرآة الوضية»: «وكانت - يعني دمشق - قبل الإسلام تحت آل جفنة ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية المُعمِّ المُخْوِلِ
يسقون من ورد البُرَيْصَ عليهم بردىٰ يصفّق بالرحيق السلسلِ

ومن نَقَضَ هذا القول فحجته قول حسان في نفس القصيدة:

لله در عصابة نادمتهم يومًا بجِلّق في الزمان الأولِ

وعنده أن جلق قرية من قرى الغوطة يمر بها نهر بَرَدى، لا دمشق نفسها، ذهب إلى هذا الرأي نُلدك صاحب أمراء غسان ودي برسفال في تاريخ الجاهلية:

وفي أشهر مشاهير الإسلام (ج١، ص٦٠، وج٢، ص٢٢٩) بحث حاول صاحبه فيه إثبات حكم الغسانيين للشام فراجعه.

وأما سبب تسميتهم غسانيين فلم يكن من الأمور التي فكّر بها الباحثون، ولكن ياقوت في معجمه (٦ ص٢٩٢)، اضطرب فيه فقال: «يجوز أن يكون فَعلان من الغس وهو دخول الرجل في البلاد، وهو اسم ماء نزل عليه بنو مازن بن الأزد بن الغوث وهم الأنصار (الأوس والخزرج)، وبنو جَفْنة وخزاعة فسُمُّوا به، ويقال: غسانُ ماء بالمشلَّل قريبٌ من الجُحْفَة – وهي قرية بين المدينة ومكة – وقال نصر: غسانُ ماء باليمن بين رِمَع وزبيد وإليه تنسب القبائل المشهورة إلى آخر كلامه».

وأما نصرانيتهم فالأكثر على أن الدين الذي كان غالبًا على تلك القبائل هو النصرانية لا أن جميعهم كانوا نصارى، وللأب أنستاس الكرملي بحث موجز مفيد يؤخذ منه هذا القول (راجع مجلة لغة العرب، ج٣، ص١٤١).

هذه خلاصة يسيرة لا تفي بالمراد، ولكنها ترشد الباحث إلى مظانّ البحث، ومواضع الخلاف ولعل الآثار توضح لنا ما جهلناه وتكشف ما وددناه.

أما صاحب هذه الترجمة فإن «الحارث الغساني» لقب يتناول كل من مُلِّك أو أُمِّرَ في بني غسان، ولفظ الحارث فيهم كلفظ قيصر في الروم وكسرى في الفرس، والذي أردناه هو ترجمة أشهر ملوك غسان ذِكرًا وأبعدهم صيتًا: الحارث الخامس المعروف بالأعرج بن أبي شُمْرٍ جَبَلَة بن الحارث الرابع بن حُجْر،

صاحب الوقائع المشهورة في عرب الحجاز والعراق وممدوح حسان بن ثابت الأنصاري الشاعر.

قال ابن قتيبة في كتاب المعارف: وأمه (أي الحارث) مارية ذات القرطين، وكان غزا خيبر فسبىٰ من أهلها ثم أعتقهم بعدما قدم الشام، وكان سار إليه المنذر بن المنذر بن ماء السماء في مئة ألف فُوجَّه إليهم مئة رجل، وأظهر أنه إنما بعث بهم لمصالحته فأحاطوا برواقه فقتلوه وقتلوا من معه في الرواق وركبوا خيلهم فنجا بعضهم وقُتل بعض، وحَمَلت خيل الغسانيين علىٰ عسكر المنذر فهزموهم، كما قدمنا في ترجمة المنذر، وكان للحارث بنت جميلة حليمة كانت تطيب أولئك الفتيان الذين دخلوا علىٰ المنذر وأوقعوا به وهي التي ألبستهم الأكفان وفوقها الدروع التي كانت تحجبها الثياب في الظاهر، وهذه الواقعة ذكرها ابن الأثير أيضًا وسماها يوم مرج حليمة (انظر الكامل، ج١، ص١٩٥)، وفي هذه الحادثة خلاف عند أصحاب الأخبار فبعضهم يقول: إن الذي قتل بها هو المنذر بن ماء السماء، وبعضُ يقول: بل مات المنذر في وقعة عين أباغ - المذكورة في ترجمة المنذر - وفي الكامل تفصيل الخلاف فراجعه في الكلام علىٰ يوم عين أباغ ويوم مرج حليمة، وفي عين أباغ يقول ابن الرعلاء الضبالي:

كم تركنا بالعين عين أباغ ... من ملوك وسوقة أكفاءِ
أمطرتهم سحائب الموت ترىٰ ... إن في الموت راحة الأشقياءِ
ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياءِ

سيف بن ذي يزن

مات سنة ٤٩ق.هـ

اسمه معد يكرب ولقبه سيف بن ذي يزن المكنىٰ بأبي مرة الحميريّ: أحد ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم المذكورين، ولد ونشأ في صنعاء، وكانت الحبشة قد تغلبت علىٰ البلاد اليمنية (سنة ١٠٧ق.هـ)، وملكتها بعد أن قتلت ملوكًا من آل حمير (السابق ذكرهم)، ثم اشتد ضغط الحبشان السود علىٰ الأمة الخاضعة، وحاولوا بها أمورًا لم تُطق الصبر عليها، فتحركت سواكن اليمانيين وهاجت أضغانهم وأخذوا ينتظرون وثبة ثائر ينحرفون إليه، حتىٰ نهض من بينهم أحد أبناء ملوكهم سيف بن ذي يزن الحميري: وكان شابًا عاقلاً شجاعًا، فقصد قيصر ملك الروم وهو حينئذ في أنطاكية، فشكا إليه أمره وما صنعت الحبشة من اغتصاب ملك آبائه وسوء تحكمهم بأهل البلاد وأطمعه بأنه يُملّكه اليمن إذا أخرج الحبشة منها فلم يلبه قيصر، فقصد النعمان بن المنذر وهو عامل كسرىٰ علىٰ الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه ما حلَّ بهم، فقال له النعمان: إن لي في كل عام رحلة إلىٰ كسرىٰ فانتظر، فلبث سيف حتىٰ كان الموعد ثم خرج معه فأدخله علىٰ كسرىٰ «أنو شروان» ملك الفرس، فسأله عن شأنه، فقال له: أيها الملك غلبتنا علىٰ بلادنا الأغربة. فقال له كسرىٰ: أيُّ الأغربة الحبشة أم السند؟ قال: بل الحبشة، وقد جئتك لتنصرني، ويكونُ مُلك بلادي لك. قال: بَعُدَت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشًا من فارسٍ بأرض العرب، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وصَرَفه، فلما قبض سيفٌ الدراهم رأىٰ خير الأمور أن يحتال فخرج وجعل ينثر تلك الدراهم للناس، فبلغ ذلك الملك، فقال: إنَّ لهذا شأنًا وأمر بإعادته فعاد فقال له: عمدتَ إلىٰ حباء الملك تنثره للناس؟ قال: وما أصنع بهذا وكل جبالنا مملوءة بالذهب والفضة! فجمع كسرىٰ مرازبته فاستشارهم فقال أحدهم: أيها الملك إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل

فلو بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ما تريد، وإن ظفروا ملكت بلادًا بلا مشقة، فبعث كسرىٰ معه مَن في سجونه وهم نحو ثمان مئة رجل وأمَّر عليهم رجلاً من أشراف العجم اسمه وَهْرِز بن الكامجار وهو شيخ مُسن، فسار بهم حتىٰ بلغوا الأُبُلَّة، فركبوا البحر في ثمان سفائن وخرجوا بساحل عَدَن فأقبل عليهم رجال اليمن يناصرونهم، فقتلوا ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة الأشرم، ودخلوا صنعاء وضبطوا البلاد وكتبوا إلىٰ كسرىٰ بالفتح، فأُلحقت اليمن ببلاد الفرس، علىٰ أن يكون ملكها والمتصرف في إدارتها سيف بن ذي يزن الحميري، واتخذ سيفٌ غُمدانَ قصرًا له، وعاد الفارسيون إلىٰ بلادهم بأمر كسرىٰ، واستبقىٰ سيفٌ جماعة من السودان أشفق عليهم وجعلهم خدمًا له، ووفدت عليه وفود العرب تهنئه، ومكث في المُلك نيفًا وعشرين سنة، فاتفق عبيده الذين كانوا من بقايا الدولة الحبشية علىٰ قتله، فشدوا عليه يومًا وهم بين يديه في موكبه بصنعاء فضربوه بحرابهم حتىٰ قتلوه (سنة ٤٩ق.هـ)، وبلغ كسرىٰ خبرُ قتله فأرسل إلىٰ اليمن جيشًا آخر أفنىٰ من بها من السودان.

وظلت اليمن تابعة لملوك فارس حتىٰ جاء الإسلام وافتتحها المسلمون سنة ١٣ للهجرة.. وتجد أخبار الملك سيف في كتاب مروج الذهب للمسعودي، والكامل، وتاريخ الطبري، والسيرة لابن هشام، والأخبار الطوال للدينوري، وتاريخ الحبشان للقنائي ودائرة المعارف للبستاني وأكثر كتب التاريخ والأخبار.

عمرو بن هند

قُتل سنة ٤٤ق.هـ

أوردنا فيما تقدم ترجمة المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة الذي قتله الحارث الغساني، وقد استولىٰ علىٰ مُلك العرب من قِبل الفرس بعد المنذر ابنه صاحب هذه الترجمة عمرو بن المنذر بن ماء السماء، واسم أم عمرو: هندُ

الكنديةُ عمة امرئ القيس الشاعر، وإليها ينتسب عمرو، كما انتسب أبوه إلىٰ أمه ماء السماء، ولما تملك عمرو وانتظم أمره أكثر الغزو وأظهر قوةً وبأسًا، فشاع خَبَرُه، وهابته العرب، وأطاعته القبائل، وكان شجاعًا فاتكًا، وأخباره كثيرة، وهو صاحب صحيفة المتلمس (انظر قصتها في ترجمته). وقاتل طرفة ابن العبد (انظر ترجمته)، ويُلقَّب بالمحرِّق: لشدته وبطشه، أو لأنه أحرق مئة رجل من بني تميم وقصتهم لا بأس بالإشارة إليها، وذلك أن ملوك العرب كانوا كثيرًا ما يرسلون أطفالهم إلىٰ بعض القبائل المطيعة لهم ليتربوا بها تربية بعيدة عن زهو الملوك وكبرياء الأمراء قريبةً من السذاجة ويتلعموا الفروسية والرماية ومهاجمة الأبطال، وكان لعمرو أخ اسمه أسعد[1]، دَفَعه أبوه إلىٰ بني تميم يتربىٰ بينهم، فلما ترعرع وأخذ يتعلم الرماية مرت به ناقة سمينة فعبث بها فرماها بسهم أصابها فقتلها، فغضب صاحبها سويد الدارمي التميمي فضرب أسعد فقتله، ثم علم الملك عمرو بن هند بما أصاب ابنه فحلف ليحرقن من بني دارم مئة رجل وقصدهم بجيش حتىٰ بلغ أَوَارَة (موضع لبني تميم بناحية البحرين) فظفر منهم بجماعة فأحرقهم، وبآخرين فألحقهم بهم حتىٰ قتل تسعة وتسعين رجلاً فمرَّ رجل من البراجم (وهم خمسة رجال من بني تميم) فشمَّ رائحة الحريق فظن وليمة، ولم يبلغه الخبر، فمال إليه، فلما رآه عمرو بن هند قال: ممن أنت؟ فقال: رجل من البراجم، فقال عمرو: إنَّ الشقيَّ وافدُ البراجم فأرسلها مثلاً، وأمر به فألقي في النار، وبرَّت يمينه.

وصارت تميم تعيَّر بالشَّرَه وحب الأكل. قال شاعر يهجوهم:

إذا ما مات ميت من تميم ... فسَرَّكَ أن يعيش فجيء بزادِ

وعاد عمرو وقد خافته القبائل، فبينما هو يومًا في مجلس له قال لجلسائه:

---

(١) هذا قول ياقوت في معجم البلدان في كلامه علىٰ أوارة (ج١، ص٣٦٤)، وأما ابن الأثير فقال في الكامل: إن أسعد ابنٌ لعمرو بن هند (ج١، ص١٩٩).

هل تعلمون أن أحدًا من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي، قالوا: ما نعرفه، إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي؛ فإن أمه ليلىٰ بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو، فكتب الملك عمرو إلىٰ عمرو بن كلثوم يستزيره ويدعو والدته إلىٰ زيارة أمه، فقدِم عمرو بن كلثوم في فرسان من بني تغلب ومعه أمه ليلىٰ فنزل علىٰ شاطئ الفرات، وعلم الملك عمرو بقدومه فأمر فضُرِبَتْ له الخيام بين الحيرة والفرات، وضرب سرادقًا لأُمَّيْهِما: هند وليلىٰ، وقال: لأمه هند، إذا فرغ الناس من الطعام فنحي خدمكِ عنك ومري ليلىٰ فلتناولك الشيءَ بعد الشيء يريد أن تستخدمها، ثم أرسل إلىٰ عمرو بن كلثوم ومن معه فحضروا ونزلوا في الخيام، وجلس القوم للطعام في سُرادق الملك، فلما انتهىٰ وقت الطعام طلبت هند من ليلىٰ أن تناولها حاجة، فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلىٰ حاجتها، فألحَّتْ عليها، فصاحت ليلىٰ: واذلَّاه يا آل تغلب! فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم وكان السرادقان متقاربين، فثار الدم في وجهه والقوم يشربون، فقفز من بينهم إلىٰ سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه فضرب به رأس الملك عمرو ابن هند فقتله وخرج فتبعه أصحابه فانتهبوا ما في الخيام وانهزم رجال عمرو بن هند.

قال أفنون التغلبي:

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا لتخدم ليلىٰ أمَّه بموفَّقِ
فقام ابن كلثوم إلىٰ السيف مصلتًا وأمسكَ من ندمائه بالمخنَّقِ
وجلله عمرو علىٰ الرأس ضربةً بذي شطب صافي الحديدة رونقِ

ولعمرو بن كلثوم قصيدة هي من أفضل المعلقات بناها علىٰ قتله لعمرو بن هند وسيأتي ذكرها في ترجمته (انظر ديوان الشعراء)، وبعد قتل الملك عمرو تولىٰ مكانَه أخوه قابوس بن المنذر الذي تلاه المنذر الرابع الذي ولي بعده ولده النعمان بن المنذر الآتي ذكره.

النعمان بن المُنذر

مات سنة ١٨ق.هـ

أشهر ملوك الحيرة علىٰ الإطلاق، أبو قابوس النعمانُ بن المنذر اللخمي: داهيةٌ أبيٌ شجاع كثير الأخبار، مَلكَ الحيرةَ إرثًا عن أبيه، وكان قد ضعف شأن دولتهم بعد قتل ابن كلثوم لابن هند، فلما ولي النعمان أعادها سيرتها الأولىٰ وأبلغها من الترف منتهاه ومن العزة أقصاها، وهو صاحب إيفاد العرب علىٰ كسرىٰ، والقصة مشهورة، نذكر خلاصتها: وذلك أنه قدم النعمان علىٰ كسرىٰ هرمز؛ فإذا عنده وفود من الروم والهند والصين فذكروا ملوكهم وبلادهم وشاركهم النعمان في الحديث فافتخر بالعرب وفضَّلهم علىٰ جميع الأمم لا يستثني فارس ولا غيرها، فتألم كسرىٰ فذم العرب، وأجابه النعمان بما كذب ظنه في حديث طويل، ثم عاد النعمان إلىٰ الحيرة فبعث إلىٰ عشرة رجال هم من خيار العرب في ذلك العهد فحضروا وهم: أكثم بن صيفي «من بني تميم»، وحاجب بن زرارة «تميمي»، والحارث بن ظالم «بكري»، وقيس بن مسعود «بكري»، وخالد بن جعفر «عامري»، وعلقمة بن علاثة «عامري»، وعامر بن الطفيل «عامري»، وعمرو بن الشريد «سلمي»، وعمرو بن معد يكرب «زبيدي»، والحارث بن ظالم «من بني مرة»، فلما وفدوا عليه جمعهم في الخورنق وقال لهم: «قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرىٰ مقالات تخوفت أن يكون لها غور، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خَولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله»، ثم حدثهم بما كان بينه وبين كسرىٰ، ودعاهم إلىٰ الوفود علىٰ كسرىٰ وأن يخطبوا بين يديه ليعلم أن في العرب رجالاً ذي عقول كبيرة وألسنة فصيحة، فأجابوه إلىٰ ما انتدبهم إليه، فرتبهم في الكلام بين يدي كسرىٰ وقدم عليهم أكثم بن صيفي، خلع عليهم الخلع وكتب معهم كتابًا إلىٰ كسرىٰ يذكرهم

فيه، فارتحلوا حتىٰ بلغوا المدائن، فدفعوا الرسالة إلىٰ أحد الحجاب فأوصلها إلىٰ كسرىٰ، فعقد لهم مجلسًا لسماع أقوالهم ودعاهم، فمثلوا بين يديه وألقىٰ كل واحد منهم ما تهيأ له من الكلام، ولولا خوف الإطالة لذكرت أقوالهم لما فيها من الحكمة والإبداع، وكان الترجمان يؤدي إليه معنىٰ ما يقولون. فلما انتهوا قال كسرىٰ: «قد فهمت ما تكلم به خطباؤكم ولولا علمي بأن الأدب لم يثقف أودكم وأنه ليس لكم مَلِك يجمعكم فتنطقون بين يديه منطق الرعية الخاضعة لم أجز لكم كثيرًا مما تكلمتم به، وإني لأكره أن أجبه وفودي وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب وصفحت عما كان فيه من خلل فانصرفوا إلىٰ ملككم فأحسنوا مؤازرته والتزموا طاعته واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم وأحسنوا أدبهم فإن في ذلك صلاح العامة»، ثم أكرمهم وأحسن إليهم فعادوا إلىٰ ديارهم، وإن شئت الإطالة في قصة الوفود فقد وردت في المجلد الأول من العقد الفريد لابن عبد ربه فارجع إليه.

ولما انتقل مُلك فارس إلىٰ كسرىٰ ابرويز بن هرمز الرابع أراد مصاهرة العرب فأرسل إلىٰ النعمان يخطب منه بعض بنات عمه لأولاده، فامتنع النعمان وقال للرسول: «ما في عين السواد وفارس ما تبلغون به حاجتكم؟» وكتب إلىٰ كسرىٰ يعتذر له بأنه ليس في بنات عمه ما يرضيه، وانصرف الرسول فأعاد ما قاله النعمان وترجم له لفظة «العين» بالبقر: وهي من الأوصاف الحسنة في العربية لتشبيه عيون النساء بعيون البقر في السعة والملاحة، فكان كلامه: «ما في بقر السواد وفارس ما تبلغون به حاجتكم» فأغضب هذا القول كسرىٰ، وسكت أشهرًا، ثم بعث إلىٰ النعمان يستقدمه إليه، وعلم النعمان بما كان، فأخذ سلاحه وأمواله ولجأ إلىٰ بعض القبائل فلم يحموه حتىٰ نزل علىٰ بني شيبان سرًا فأودعهم أهله وماله وتوجه مستسلمًا إلىٰ كسرىٰ، فقبض عليه وأرسله مُبْعَدًا إلىٰ خانقين، فأقام بها مسجونًا حتىٰ أصابها وباء فمات بالطاعون.

وبسببه كانت واقعة ذي قار بين الفرس والعرب؛ فإن كسرىٰ لما اعتقل

النعمان أرسل إلىٰ بني شيبان يطلب ما أودع عندهم، فامتنعوا من تسليمه، فجهز لهم الجيوش واجتمعوا في مكان يُعرف بذي قار فثبتت العرب وأبلت بلاءً حسنًا وانهزمت العجم، وذلك بعد البعثة النبوية وقبل الهجرة.

وكان كسرىٰ قد ولىٰ علىٰ الحيرة إياس بن قبيصة الطائي فلما ضعف أمرهم عن قتال العرب عاد بنو لخم إلىٰ مُلكهم فتولىٰ الأسود بن المنذر أخو النعمان، ثم المنذر الخامس بن النعمان، وهو آخر ملوك العراق، وفي زمنه استولىٰ خالد ابن الوليد علىٰ الحيرة فصالحه أهلها كما هو مسطور في كتب الفتوح.

وصاحب هذه الترجمة النعمان بن المنذر ذهب جماعة من ثقاة المؤرخين إلىٰ أنه صاحب الغَرِيّين، ويومي البؤس والنعيم، وقاتل عبيد بن الأبرص وقد أوردنا الكلام علىٰ كل ذلك في ترجمة المنذر بن ماء السماء السالفة فارجع إليه، وأنت تعلم أن مثل هذه الحوادث من وقائع الأجيال الخالية لا يجد المؤرخ اليوم ما يعوِّل عليه فيها إلا النقل وتحرِّيَ أصح الأقوال وقد تعارضت في هذا الأمر الآراء وصعب الترجيح فانظر وتأمل واختر ما يقوىٰ لديك.

قيس بن زهير

مات سنة ١٠هـ

الأمير قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي: أمير عبس وداهيتها وأحد السادة القادة في عرب العراق، كان يلقب بقيس الرأي؛ لجودة رأيه وهو معدود في الأمراء، والدهاة، والشجعان، والحكماء، والخطباء، والشعراء؛ فأما إمارته فقد ورثها عن أبيه زهير بن جذيمة أمير عبس من قبله، وأما دهاؤه ففيه المثل السائر «أدهىٰ من قيس»، وأما شجاعته فحروبه مع بني فزارة وذبيان شاهد صدق علىٰ ما يقال، وأما كلمته فله في أقواله غرر تحفظ من الشعر والنثر، وهو خطيب

مذكور، وشاعر مفطور، عُرفت بقيس تلك الخلال بعد مقتل أبيه، وذلك أن أباه زهيرًا كان سيدًا شريفًا فتزوج ملكُ الحيرة النعمان بن امرئ القيس ابنته (وهو جدُّ النعمان بن المنذر) وأرسل النعمان إلىٰ زهير يستزيره بعض أولاده فسيَّر إليه ابنه شأسًا، فأكرمه وحباه وردَّه إلىٰ أبيه، فلما كان شأس في طريقه بماء بني غنيّ اعترضه رباح بن الأشل الغنويّ فقتله وأخذ ما معه، ثم علم زهير بالأمر فأغار علىٰ بني غني، وكانوا حلفاء بني عامر فقتل منهم عددًا كثيرًا، ووقع الشر بين بني عامر وبني عبس، فترقب خالد بن جعفر العامريّ فرصةً بزهير حتىٰ قتله، وانطلق إلىٰ ملك الحيرة النعمان بن امرئ القيس فاستجار به فأجاره فلحقه الحارث بن ظالم المرّي الفاتك المشهور فقتله في الحيرة، وأخذ قيس ابن زهير العبسي يتجهز لقتل بني عامر أخذًا بثأر أبيه، فوقع خلاف بينه وبين أحد شيوخ بني عبس الربيع بن زيارد، فانضم إلىٰ الربيع أكثر القبيلة، فارتحل قيس بأهله ومن انحاز إليه حتىٰ نزل بجوار حذيفة وحَمَل ابني بدر الفزاريينْ، وكان لبني عبس قرابة في بني فزارة فأكرموه فأقام فيهم، وكان مع قيس أفراس له ولإخوته رآها حذيفة فحسده عليها؛ وجرىٰ حديث الخيل يومًا فقال حذيفة لقيس: فرسي الغبراءُ أسبق من فرسك وأحسن، فخالفه قيس، فتراهنا، وضمَّر الفرسين واختار كل منهما فارسًا لفرسه، وأرسلاهما ورجال القبيلة، وقوف ينظرون، وكانت مسافة السباق بعيدة فأقام حذيفة رجلاً في الطريق وأمره إذا رأىٰ داحسًا سابقًا فليعترضه حتىٰ تجوزه الغبراء، وسَبَق داحس فلطمه الرجل فحوله عن السير وهو علىٰ شفير وادٍ فهوىٰ الفرس بفارسه فكادا يهلكان، ومرَّت الغبراء فسبقت، ثم أقبل راكب داحس يسير الهوينا فقصَّ عليهم خبره فكذبه حذيفة فتشاحن حذيفة وقيس وافترقا فأرسل حذيفة ابنه ندبة يطالب قيسًا بالرهان فردَّه قيس فأغلظ ندبة الكلام لقيس فطعنه فقتله، ونادىٰ قيس بأهله فركبوا وابتعدوا، وبلغ حذيفة ما كان بابنه فطلب قيسًا فلم يدركه، وكان

مالك ابن زهير أخو قيس متزوجًا في فزارة وهو مقيم بينهم، فرآه حذيفة بعد ذلك فقتله، وشاع مقتل مالك فحزنت عليه عبس وبعثوا إلىٰ قيس أن يأتيهم بمن معه فجاءهم قيس فلقيه الربيع بن زياد فتعانقا وبكيا لمصابهم بمالك، فقال قيس للربيع: «إنه لم يهرب منكَ من لجأ إليك ولم يستغنِ عنك من استعان بك، وقد كان لك شرُّ يومَيَّ فليكن لي خيرُ يوميك، وإنما أنا بقومي، وقومي بك وقد أصاب القومُ مالكًا ولست أهمُّ بسوء؛ لأني إن حاربت بني بدر نصرتهم بنو ذبيان وإن حاربتني خذلني بنو عبس، إلا أن تجمعهم عليَّ وأنا والقوم في الدماء سواء قتلتُ ابنهم وقتلوا أخي فإن نصرتَني طمعتُ فيهم وإن خذلتني طمعوا فيَّ».

فقال الربيع: «يا قيس إنه لا ينفعني أن أرىٰ لك من الفضل ما لا أراه لي، ولا ينفعك أن ترىٰ لي ما لا أراه لك، وقد مالَ عليَّ قتلُ مالك، وأنتَ ظالم ومظلوم، ظلموك في جوادك وظلمتهم في دمائهم وقتلوا أخاك بابنهم، فإن يَبُؤ الدم بالدم فعسىٰ أن تلقح الحرب أُقم معك وأحبُّ الأمرين إليَّ مساعتُهم وتخلو بطلب ثأر أبيك»، وعلم حذيفة باتفاقهما فشق ذلك عليه واستعد للقتال، ثم حدثت الوقائع المعروفة بحروب داحس والغبراء وعظم الشر والبلاء، وانضمت ذبيان إلىٰ فزارة فكانت وقعة جَفْر الهباءة وبها قُتل حذيفة وحَمَل ابنا بدر، وعدد كبير من فزارة وعبس، وبموت حذيفة وأخيه انحسم الشر ودخل بعض أمراء القبائل في الإصلاح بينهم، فأذن قيس لقومه بالصلح، وتنسك وسار عنهم لا يريد إمارة ولا سيادة فنزل ببني النمر ابن قاسط، ثم دعاهم يومًا فخطبهم فقال:

«يا معاشر النمر أنا قيس بن زهير: غريب حريب طريد شريد موتور فانظروا لي امرأة قد أدبها الغنىٰ، وأذلها الفقر»، فزوجوه بامرأة منهم، فقال لهم: «إني لا أقيم فيكم حتىٰ أخبركم بأخلاقي: أنا فخور غيور أنِفٌ، ولست أفخر حتىٰ أبتلىٰ ولا أغار حتىٰ أرىٰ ولا آنف حتىٰ أظلمَ»، فرضوا أخلاقه، فأقام فيهم حتىٰ

ولد له، ثم أراد أن يتحول عنهم، فقال: «يا معاشر النمر إن لكم حقًا عليَّ في مصاهرتي فيكم ومُقامي بين أظهركم وإني موصيكم بخصال آمركم بها وأنهاكم عن خصال: عليكم بالأناة؛ فإنَّ بها تُدرَكُ الحاجة وتُنال الفرصة، وتسويدِ من لا تُعابون بتسويده، والوفاءِ بالعهود؛ فإن به يعيش الناس، وإعطاءِ ما تريدون إعطاءه قبل المسألة. ومنع ما تريدون منعه قبل الإنعام، وإجارة الجار علىٰ الدهر، وتنفيس البيوت عن منازل الأيامىٰ، وخلطِ الضيف بالعيال [بالإكرام]، وأنهاكم عن الغدر؛ فإنه عار الدهر، حاد عن الرهان؛ فإنَّ به ثكلت مالكًا أخي، وعن البغي؛ فإن به صُرع زهيرٌ أبي، وعن السرف في الدماء؛ فإن قتلىٰ أهلِ الهباءة أورثتني العار، ولا تعطلوا في الفضول؛ فتعجزوا عن الحقوق، وأنكحوا الأيامىٰ الأكفاء؛ فإن لم تصيبوا بهنَّ الأكفاءَ فخيرُ بيوتهنَّ القبور، واعلموا أني أصبحتُ ظالمًا مظلومًا، ظلمني بنو بدر بقتل أخي مالك، وظلمتهم بقتل من لا ذنب له»، ثم رحل إلىٰ عُمان فتنصَّر بها وتقشَّف وعفَّ عن المأكل حتىٰ أكل الحنظل، وما زال بها إلىٰ أن مات.

وقد رُوي له شعر جيد، منه قوله بعد وقعة جفر الهباءة يرثي حمل ابن بدر:

تعلَّم أن خير الناس مَيْتٌ … علىٰ جَفْرِ الهباءة لا يريمُ
ولولا ظُلْمُه ما زلت أبكي … عليه الدهر ما طلع النجومُ
لكن الفتىٰ حَمَل بن بدر … بغىٰ والبغىٰ مرتعه وخيمُ
أظنُّ الحلم دل عليَّ قومي … وقد يُستجهل الرجل الحليمُ
ومارستُ الرجال ومارسوني … فمعوجٌّ عليّ ومستقيمُ
فلا تغشَ المظالم، لن تراه … يُمتَّع بالغنىٰ الرجل الظلومُ

وقوله:

شفيتُ النفس من حَمَل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
شفيتُ بقتلهم لغليل صدري ولكني قطعتُ بهم بناني!

وقوله:

إذا أنت أقررت الظلامة لامرئ رماك بأخرى شعبُها متفاقمُ
فلا تُبد للأعداء إلا خشونة فما لك منهم إن تمكَّن راحمُ

وأخباره كثيرة تجدها في كامل التواريخ (ج١، ص٢٠٤)، وفي شرح النهج لابن أبي الحديد (ج٤، ص١٥٠)، وأكثر مصنفات الأخبار.

***

الخلفاءُ الراشدون

علاوة

الخليفة لقب كل ملك شرعي من ملوك الإسلام وهو كقيصر عند الروم والنجاشي عند الحبشة، وامتاز من خلفاء المسلمين أربعة هم سادة من مَلَكَ بعدهم نهجوا منهج رسول الله (ﷺ) واهتدوا بهديه، أولهم أبو بكر، والثاني عمر، والثالث عثمان، والرابع علي (رضوان الله تعالىٰ عليهم)، وهم الذين قاموا بجمع شتات المسلمين بعد وفاة النبي (صلوات الله عليه) وسنوا القوانين الإسلامية بأعمالهم وأقوالهم، وجمعوا القرآن الكريم، وكانوا قدوة من تلاهم، وينفردون بنعت خاص بهم دون سائر خلفاء الإسلام، وهو لقب الراشدين، كما أن ثانيهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حدث في الإسلام تلقيب كل ملك منهم بأمير المؤمنين وجرت سنته في الملوك مقترنة بلقب الخلافة فكل ملك مسلم جُمعت فيه شرائط التمليك علىٰ المسلمين يحق له أن يدعي «أمير المؤمنين الخليفة..».

وهذا الفصل إنما أفردته لترجمة هؤلاء الأربعة الكرام وسيعقُبُه إن شاء الله الكلام علىٰ غيرهم كخلفاء الأمويين في المشرق والمغرب وخلفاء بني مروان وبني العباس وأمثالهم ممن حكموا البلاد وساسوا العباد، وكان لهم القول والحول والطول والسيادة والقيادة والوفادة، نقدِّم المتقدم في عصره ونؤخر عنه من تلاه جريًا مع العصور والأزمنة بحيث تتألف منذ هذا الفصل إلىٰ بدء فصل الأمراء والوزراء سلسلة مُحكمة ينتظم بها ذِكر أشهر الخلفاء الإسلاميين مرة، وسألتزم في ذلك جانب الاختصار والإيجاز ما استطعت وما تضامَّت أجزاء الفوائد التاريخية فلا يفوتني من أخبار المترجَم إلا ما هو دون ما ذكرت وأوردت، والله نعم العون.

أبو بكر الصدِّيق

ولد سنة ٥١ق.هـ وتوفي سنة ١٣هـ

توفي رسول الله (ﷺ) واضطرب أمر المسلمين من بعده في من يتولىٰ أمرهم؛ فما زالوا حتىٰ اتفقت كلمتهم علىٰ الصحابي الجليل أبي بكر، عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عمرو بن كعب التيمي القرشي، أقرب الناس مودة من النبي، وأول من آمن به من الرجال، وأحد عظماء أصحابه الذين جاهدوا في الله حق جهاده وبذلوا النفس والنفيس في سبيل إعزاز دينه.

بويع بالخلافة يوم وفاة النبي في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ، فخطب في المسلمين خطبة طويلة يُحفظ منها: «أيها الناس، قد ولِّيت عليكم ولست بخيركم، وإنَّ أقواكم عندي الضعيف حتىٰ آخذ له حقه، وإنَّ أضعفكم عندي القوي حتىٰ آخذ الحق منه، لا يدع أحد منكم الجهاد؛ فإنه لا يدعه قومه إلا ضربهم الله بالذل. أيها الناس، إنما أنا متبع لا مبتدع، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله؛ فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، إن أصبت الحق فأعينوني عليه، وإن زغت فقوموني».

وحاله في الجاهلية حال سيادة ورئاسة، وكانت العرب تدعوه «عالم قريش»، وله ثروة طائلة، وربما عالج تجارة البز، وهو من علماء الأنساب المذكورين كان عارفًا بأخبار القبائل وبطون العرب وجماهيرهم كارهًا للسيئ من عادات الجاهلية وحرَّم علىٰ نفسه الخمر فلم يشربها، ولما نال الخلافة في الإسلام قام بشؤون الأمة حق القيام فحارب الذين ارتدوا عن الدين الإسلامي وقاتل الذين امتنعوا من إعطاء الزكاة، ثم اتجه إلىٰ الاستعمار[1] والفتح فافتُتحت في أيامه الشام وقسم كبير من العراق واتفق له قوَّاد أمناء كخالد بن الوليد وعمرو بن

---

(١) يقصد العمارة والبناء.

العاص، وأبي عبيدة بن الجراح، والعلاء بن الحضرمي، ويزيد بن أبي سفيان، والمثنىٰ بن حارثة، وازدهرت أيام العالم الإسلامي في زمنه، وود الناس لو طال ولكن المنية عاجلته فأصابته حمَّىٰ شديدة فعهد بالأمر من بعده لعمر بن الخطاب حذِرًا من اختلاف الأمة بعده، كما اختلفت بعد رسول الله.

ومات بعد أن حكم سنتين وثلاثة أشهر ونصف شهر وعمره ثلاث وستون سنة.

وكان موصوفًا بالحلم والصبر والرأفة بالعامة عادلاً في أحكامه أثبت في الوقائع الإسلامية في حياة الرسول وبعده حبًا عجيبًا وولوعًا غريبًا بخير الأمة ونفعها وأظهر شجاعة وبسالة يدلُّك عليها ما أخرجه البزاز في مسنده عن علي أنه قال: أخبروني من أشجع الناس، فقالوا: أنت؟ قال: أما إني ما بارزتُ أحدًا إلا انتصفت منه ولكن أخبروني بأشجع الناس، قالوا: لا نعلم فمن؟ قال: أبو بكر، إنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله عريشًا فقلنا من يكون مع رسول الله لئلا يهوي إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا منَّا أحد إلا أبا بكر شاهرًا سيفه علىٰ رأس رسول الله (ﷺ) لا يهوي إليه أحد إلا هوىٰ إليه فهو أشجع الناس».. إلىٰ آخر الحديث.

وقد شهد مع النبي (ﷺ) أكثر الغزوات وهو صاحبه في الغار ساعةَ لا ثالث لهما إلا الله، وكان خطيبًا لسنًا، وله مقالات محفوظة وكلمات مأثورة، ومن خيار ما يُنقل عنه وصيته ليزيد بن أبي سفيان لما ولاه قيادة جمهور من المسلمين وسيَّره لفتح الشام فإنه شيَّعه ماشيًا، وهو يقول له:

«إني قد ولَّيتُك لأبلوك وأجربك؛ فإن أحسنتَ رددتُك إلىٰ عملك، وزدتك، وإن أسأت عزلتُك، فعليك بتقوىٰ الله؛ فإنه يرىٰ من باطنك مثل الذي يرىٰ من ظاهرك، وإذا قدمت علىٰ جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعِدْهم إياه،

وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضُه بعضًا، وأصلح نفسك يَصلُح لك الناس، وإذا قَدِم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتىٰ يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع مَن قِبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، وإذا استشرتَ فاصدق الحديث تُصْدَق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتىٰ من قِبَل نفسك، واسهر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك وبدّدهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في مَحَارسهم بغير علم منهم؛ فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولىٰ أطول من الأخيرة؛ فإنها أيسرهما: لقربها من النهار، لا تجالس العبَّاثين وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبُنَ الناس، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتفِ بعلانيتهم، وستجد أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له».

ومن كلامه: «ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: البغي والنكث والمكر، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ (يونس: ٢٣)، وقال: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾ (الفتح: ١٠)، وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ (فاطر: ٤٣)».

وهو القائل لخالد بن الوليد: «فرَّ من الشرف يتبعك الشرف، واحرص علىٰ الموت تُوهَب لك الحياة» يريد بالشرف الرياسة والسيادة.

ولما عهد بالخلافة إلىٰ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان كتاب عهده ما ترىٰ:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله (ﷺ) عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي الفاجر، إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب؛ فإن بَرَّ وعدل فذلك

علمي، ورأيي فيه، وإن جار وبدَّل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردتُ، ولكل امرئ ما اكتسب، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

فانظر إلىٰ الإنشاء العذب الذي يمثل لك البلاغة بأوضح معانيها، كما أنت تراه في تضاعيف كلامه وخطبه ووصاياه (رضوان الله عليه)، وكان إذا خطب يقول في ختام كلامه: «اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يومَ ألقاك»، فيُعرف أنه انتهىٰ.

واطلع علىٰ هذه النبذة مما نقله عنه المؤرخون. قال أحدهم: كان أبو بكر إذا سقط خطام ناقته ينيخها ويأخذه، فقيل له: هلَّا أمرتنا؟ فقال: إن رسول الله (ﷺ) أمرني أن لا أسأل الناس شيئًا.

ومن قصار خطبه مما أورده له ابن عبد ربه في العقد قوله:

«أيها الناس، اتقوا الله في سريرتكم وعلانيتكم، وأْمروا بالمعروف، وانهوْا عن المنكر، ولا تكونوا مثل قوم كانوا في سفينة فأقبل أحدهم علىٰ موضعه يخرقه، فنظر إليه أصحابه فمنعوه، فقال: هو موضعي ولي أن أحكم فيه، فإن أخذوا علىٰ يده سلم وسلموا، وإن تركوه هلَكَ وهلكوا معه، وهذا مَثَلٌ ضربته لكم رحمنا الله وإياكم».

وقد جمع الفاضل صاحب كتاب أشهر مشاهير الإسلام طائفة كبيرة من أخباره وآثاره بلغت مئة وخمسين صفحة فارجع إلىٰ الجزء الأول منه إن شئت الاطلاع علىٰ أكثر مما قدمتُ لك، وأما كتب التاريخ كتاريخ أبي جعفر الطبري وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وأشباهها؛ فهناك الكثير من أنبائه (رضي الله عنه).

ودفن مع النبي (ﷺ) في حجرة عائشة.

عمر بن الخطاب

ولد سنة ٤٠ق.هـ وتوفي سنة ٢٣هـ

مضىٰ الخليفة الراشد الأول لسبيله بعد أن اختار للمسلمين إمامًا كان له من الذكر ما لم يكن لأحد من قبله ومن بعده: أعني ثاني الخلفاء الراشدين أبا حفص عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي، ذلك الرجل الكبير، وما أحسبني إلا علىٰ شيء من الجرأة وقد هممت بالإشارة إلىٰ بعض نبأه في صفحات يسيرة من هذا الكتاب الذي يضيق عن الإطالة والإكثار من الأخبار، ولكن قول: ما لا يستطاع كله لا يُترك قلُّه، حدا بي أن أقول:

كان عمر (رضي الله عنه) من شرفاء العرب ووجوههم في الجاهلية والإسلام.

أما في الجاهلية فكانت له السفارة في قريش، وذلك أنهم إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيرًا، وإن نافرهم حيٌّ لمفاخرة جعلوه منافرًا وراضوا به.

وأما في الإسلام فحسبك أن رسول الله (ﷺ) كان يدعو ربه أن يُعزَّ به دينه، وكان يُرزق من التجارة بين الشام والحجاز حتىٰ ولي الخلافة.

أسلم قبل الهجرة بخمس سنين ونصر الإسلام نصرًا بيِّنًا، وكان شجاعًا مهيبًا طويل القامة، إذا مشىٰ فكأنه راكب والناس يمشون.

وبويع بالخلافة سنة ١١هـ يوم وفاة أبي بكر، فحذا حذوه وسلك سبيله، فسيَّر البعوث وجيَّش الجيوش؛ فأتمَّ فتح الشام والعراق وفتحَ القدسَ والمدائن ومصر والجزيرة، ودوَّن الدواوين علىٰ الطريقة الفارسية لإحصاء أرباب الأُعطيات وتوزيع المرتَّبات المالية عليهم، ووضع للمسلمين التاريخ الهجريَّ، وكانوا يؤرخون بالوقائع الشهيرة كعام الفيل وعام الفجَّار، وكانوا يتعاملون بالدراهم والدنانير الفارسية والرومية فضرب عمرُ الدراهم علىٰ نقش الكسروية وزاد في

بعضها «الحمد لله» وبعض «محمد رسول الله»، واتخذ بيت مال للمسلمين، وأمَرَ ببناء مدينتي البصرة والكوفة فشيدتا، وهو أول من دُعي بأمير المؤمنين، وكانوا ينادونه يا خليفةَ خليفة رسول الله، فاستُثقلتْ، وضُرب بعدله المثل.

قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): «إن الله جعل أبا بكر وعمر حجةً علىٰ مَن بعدهما من الولاة إلىٰ يوم القيامة فسبقا والله سبقًا بعيدًا، وأتعبا والله من بعدهما إتعابًا شديدًا، فذكرهما حزن للأمة وطعن علىٰ الأئمة..».

وكان يطوف في الأسواق منفردًا ويقضي بين الناس حيث أدركه الخصوم، وقصة «اضرب ابن الأكرمين» من غريب أخباره: روىٰ أنس بن مالك فقال: بينا كان عمر جالسًا أتاه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك، فقال عمر: لقد عذت بمجير فما شأنك؟ فقال: سابقتُ بفرسي ابنًا لعمرو بن العاص (وهو يومئذ أمير مصر) فجعل يعلوني بسوطه، ويقول: أنا ابن الأكرمين، فبلغ ذلك أباه عمرًا فخشي أن آتيك، فحبسني في السجن، فانفلتُّ منه حتىٰ أتيتك، فكتب عمر بن الخطاب إلىٰ عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان، وقال للمصري: أقم حتىٰ يأتيك، فأقام حتىٰ قدم عمرو وشهد موسم الحج، وقعد عمر مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلىٰ جانبه، فقام المصري، فرمىٰ إليه عمر بالدرة (وهي سوطه)، وأشار إليه أن يضرب ابن عمرو.

قال أنس: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم يُنزع حتىٰ اشتهينا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين! فقال المصري: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، قال: ضعها علىٰ ضلع عمرو، قال: يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني، قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتىٰ تكون أنت الذي تنزع، ثم أقبل علىٰ عمرو بن العاص وقال: يا عمرو! متىٰ

تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتُهُم أحرارًا؟ فجعل عمرو يعتذر إليه، ويقول: إني لم أشعر بهذا.

قال الغزالي في إحياء علوم الدين: وشهد عند عمر شاهد فقال: ائتني بمن يعرفك، فأتاه برجل: فأثنىٰ عليه خيرًا، فقال له عمر: أنت جاره الأدنىٰ الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا، فقال: كنتَ رفيقه في السفر الذي يُستدَل به علىٰ مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل؟ قال: لا، قال: أظنك رأيته قائمًا في المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورًا ويرفعه أخرىٰ؟ قال: نعم! فقال: اذهب فلست تعرفه، وقال للرجل: اذهب فائتني بمن يعرفك.

وذكر عنده رجل فقيل: يا أمير المؤمنين، فاضلٌ لا يعرف من الشر شيئًا، فقال: ذاك أوقعُ له فيه.

وكتب إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري كتابًا يوصيه فيه: نقله ابن قتيبة في عيون الأخبار، نصه: «أما بعد؛ فإن للناس نفرة عن سلطانهم فأعوذ بالله أن تدركني، وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة، أقم الحدود ولو ساعة من نهار، وإذا عرض لك أمران: أحدهما لله والآخر للدنيا؛ فآثر نصيبك من الله؛ فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقىٰ، أَخِفِ الفُسَّاق واجعلهم يدًا يدًا ورجلاً رجلاً، وعُدْ مريض المسلمين، واشهد جنائزهم، وافتح لهم بابك، وباشر أمورهم بنفسك؛ فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً، وقد بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها؛ فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة: مرت بواد خصيب فلم يكن لها همٌّ إلا السِمَن، وإنما حتفها في السِمَن، واعلم أن العاقل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقىٰ الناس من شقي الناس به والسلام».

وهذه خطبة أوردها له أبو جعفر الطبري قال: قال عمر:

«إن الله (عَزَّ وَجَلَّ) قد ولَّاني أمركم وقد علمتُ أنفعَ ما بحضرتكم لكم وإنني أسأل الله أن يعينني عليه، وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره، وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به، ولن يغير الذي وليتُ من خلافتكم من خُلقي شيئًا، فلا يقولنَّ أحدٌ منكم: إن عمر قد تغيَّر منذ ولي، أعقلُ الحق من نفسي وأتقدم وأبيِّن لكم أمري فأيما رجل كانت له حاجة أو ظُلم مظلمة أو عتب علينا في خُلُق فليُؤْذنني إنما أنا رجل منكم، فعليكم بتقوىٰ الله في سركم وعلانيتكم وحرماتكم وأعراضكم، وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضًا علىٰ أن تحاكموا إليَّ فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة، وأنا حبيبٌ إليّ صلاحكم، عزيزٌ عليَّ عتبكم، وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله وأهلُ بلد لا زرع فيه ولا ضرع، إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله (عَزَّ وَجَلَّ) قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه، ومطلع علىٰ ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله لا أكِلُهُ إلىٰ أحد، ولا أستطيع ما بعُدَ منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة ولست أجعل أمانتي إلىٰ أحد سواهم إن شاء الله».

ومن كلامه (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): لا تؤخر عمل يومك إلىٰ غدك.

- لستُ بخب والخب لا يخدعني.

- اتقوا من تبغضه قلوبكم.

- إنما مَثَل العرب: مَثَلُ جمل أنِفٍ اتبعَ قائده فلينظر قائده حيث يقوده.

- لا ينبغي أن يلي هذا الأمر إلا رجل فيه أربع خلال: اللين في غير ضعف، والشدة في غير عنف، والإمساك في غير بخل، والسماحة في غير سرف؛ فإن سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث.

- من كتم سره كان الخيار في يده.

- مُرْ ذوي القرابات أن يتازوروا ولا يتجاوروا.

- تعلموا المهنة؛ فإنه يوشك أحدكم أن يحتاج إلىٰ مهنته.

- إياكم والمعاذير؛ فإن كثيرًا منها كذب.

ولما كان فجر يوم الأربعاء لأربع ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ٢٣هـ، ووقف عمر للصلاة بالناس فاجأه فيروز أبو لؤلؤة الفارسي غلامُ المغيرة بن شعبة فطعنه في خاصرته بخنجر ذي رأسين مسموم فسقط عمر، فانهال الناس علىٰ الفارسي يريدون القبض عليه فطعن منهم ثلاثة عشر رجلاً هلك سبعة منهم، ثم طعن نفسه فمات منتحرًا.

واختلف أصحاب الأخبار في الدافع الحقيقي لأبي لؤلؤة علىٰ عمله فقيل: إنه شكا لعمر ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولاه المغيرة فلم يره كثيرًا فحقد عليه فضربه.

وقيل غير ذلك، وكله وهم وأمور اتخذها الغلام الفارسي ليستر بها مؤامرة سياسية كانت بينه وبين جفينة النصراني من أهل الحيرة، والهرمزان الفارسيّ، ولا يُعلم إن كان ثمة غيرُهما فإن عمر أبقىٰ في قلوب الفرس والروم جروحًا لا تأسوها اليوم، أو ليس الذي قوّض أركان دولة الأكاسرة وزلزل عروش القياصرة بحزمه وبأس رجاله؟ كان فيروز الفارسي رجلاً غيورًا علىٰ أمته أخذته الآلام مما صنع أمير المؤمنين بقومه فأراد الانتقام ففعل ما فعل.

وأخذ عمر إلىٰ داره فدعا بعلي وعثمان والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، وأمرهم أن يتشاوروا في أمر الخلافة وأن ينتظروا طلحة؛ فإن أبطأ فليقضوا بأحدهم وأن يشهدهم عبد الله بن عمر (ابنه) وليس له أن يوليَّ، وإنما صنع ذلك ليتخلص من تبعة خَلَفه وليكون أمر المسلمين شورىٰ، وقيل له في ذلك، فقال: إن تركتكم فقد ترككم من هو خير مني (يريد رسول الله) وإن استخلفت فقد

استخلفَ عليكم من هو خير مني (يعني أبا بكر)، وكأنه بهذا القول يشير إلىٰ خَيْرة عرته في الأمر، فاختار سنة النبي الأمين ولم يعهد إلىٰ أحد، وعاش ثلاث ليالٍ ثم لَقي ربه.

هذا ما اتسع المجال لإيراده من أخبار أعدل الخلفاء وأمير الأمراء (رضوان الله ورحمته عليه) وإن شئت الزيادة فعليك بكتاب أشهر مشاهير الإسلام؛ فهناك نحو ثلاث مئة صفحة جمعت من أخباره ما لا تراه في غيرها.

عثمان بن عفان

ولد سنة ٤٧ق.هـ وتوفي سنة ٣٥هـ

توفىٰ اللهُ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وترك الأمر شورىٰ في ستة من كبار المسلمين وبعد بحث وحديث طويل تجده في تاريخ الطبري قرَّ رأيهم علىٰ أن يكون ثالث الخلفاء الراشدين ذو النورين عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية: نودي به خليفة في المسلمين بعد وفاة عمر بثلاثة أيام، وهو أحد الرجال الذين أعز الله بهم الإسلام من السابقين إلىٰ الدين، وله في سبيل الدعوة الإسلامية أياد بيضاء، وهو صاحب جيش العسرة.

وذلك أن رسول الله (ﷺ) لما حشد جيش العسرة في غزوة تبوك وقف في القوم، فقال: «مَن يُنفقُ اليوم نفقةً متقبَّلة؟» فلم يكن من عثمان إلا أن جهَّز نصف الجيش من ماله فبذل ثلاث مئة بعير بأقتابها وأحلاسها وتبرع بألف دينار، فقال رسول الله (ﷺ): ما ضرَّ عثمانَ ما عملَ بعد اليوم.

ولما ولي الخلافة كتب إلىٰ أمراء الأمصار يقول:

«أما بعد؛ فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاةً ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباةً وإن صدر هذه الأمة خُلقوا رعاةً ولم يُخلقوا جُباة وليوشكنَّ أئمتكم أن يصيروا

جُباة ولا يصيروا رعاة؛ فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدوَّ تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء».

وكتب إلىٰ أمراء الجنود في الثغور:

«أما بعد؛ فإنكم حُماة الإسلام وذاتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان عن ملأ مِنَّا ولا يبلغْني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدلَ بكم غيركم فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه».

وكتب إلىٰ عُمال الخراج:

«أما بعد؛ فإن الله خلق الخلق بالحق، فلا يَقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به؛ والأمانة الأمانة: قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلىٰ ما اكتسبتم، والوفاء الوفاء ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد؛ فإن الله خصم لمن ظلمهم».

وكتب إلىٰ العامة من المسلمين بالأمصار:

«أما بعد؛ فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم؛ فإن أمر هذه الأمة صائر إلىٰ الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن؛ فإن رسول الله (ﷺ) قال: «الكفر في العجمة؛ فإذا استعجم عليهم أمرٌ تكلفوا أو ابتدعوا».

وسار عثمان في بادئ الأمر سيرة من تقدَّمه، ثم ما لبث أن جعل يتشيع لأقاربه من بني أمية فيعزل عن البلاد الأكفاء ويوليها من لا يصلحُ لها منهم، وقد كان

عمر يتخوَّف ذلك منه. قال العلَّامة ابن أبي الحديد في شرح النهج من فصل عقده لذكر ما نُقِم علىٰ عثمان في خلافته:

«لما ولي عثمان صحَّت فيه فراسة عمر؛ فإنه أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاهم الولايات وأقطعَهم القطائع وافتُتحت أرمينية في أيامه فأخذ الخُمس كله فوهبه لمروان بن الحكم، وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربع مئة ألف درهم، وأعاد الحكم بن أبي العاص بعد أن سيَّره رسول الله (ﷺ) ولم يردَّه أبو بكر ولا عمر وأعطاه مئة ألف درهم، وتصدَّق رسول الله (ﷺ) بموضع سوق بالمدينة يُعرف بتهروز علىٰ المسلمين فأقطعه عثمانُ الحارث بن الحكم أخا مروان، وحمىٰ المراعيَ حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلا عن بني أمية، وأعطىٰ عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب - وهي من طرابلس الغرب إلىٰ طنجة - من غير [أن] يشركه فيه أحد من المسلمين، وأعطىٰ أبا سفيان بن حرب مئتي ألف من بيت المال في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمئة ألف من بيت المال، وقد كان زوَّجه ابنته أمّ أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكىٰ فقال للخلفاء شعرًا كثيرًا لست أدري مبلغه من الصحة، جاء فيه هذان البيتان لعثمان:

غِنىٰ النفس يُغني النفس حتىٰ يكفَّها   وإن عضها حتىٰ يُضرَّ بها الفقرُ

وما عسرةٌ فاصبر لها إن لقيتَها   بكائنة إلا سيتبعها يُسرُ

وتُرجم في كثير من كتب التاريخ الإسلامي ولعلك تجد ما يكفيك في أشهر مشاهير الإسلام.

علي بن أبي طالب

ولد سنة ٢٣ق.هـ وتوفي سنة ٤٠هـ

أمير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين أبو الحسن، عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب القرشي: ولد بمكة وأسلم صغيرًا وناصَرَ ابن عمه كبيرًا؛ فكان من أعظم أعوان رسول الله (ﷺ) علىٰ نشر الدعوة الإسلامية والذود عن حياض شريعة القرآن، وكان ممتازًا بثلاث خلال: الشجاعة في الحروب: وهو ابن بجدتها وصاحب الصوت والصيت في المعارك والملاحم، والفقه في الدين، وكان أعلم أصحاب النبي (ﷺ) بالأحكام وبه يُضرب المثل في حسن القضاء، والفصاحة في المنطق، وله الخطب الرنانة والأقوال المتناقلة والكلم السوائر.

تولىٰ الخلافة بعد مقتل عثمان (عام ٣٥هـ) فحدثت في أيامه من وقائع عظيمة أشدُّها ما كان بينه وبين معاوية مزاحمه الأكبر علىٰ الخلافة والداهية الأموي المشهور.

يكاد الباحث المؤرخ يوجل من إبداء رأيه في صاحب هذه الترجمة عليه الرضىٰ والسلام لما يراه من اختلاف الناس فيه وإدخال بعض العامة ورهط من الخاصة الحكمَ عليه في أمور الدين، علي أن العاقل المنصف إذا وجد مجالاً للقول لم يسعه إلا أن يجهر بحقيقة ما يجب أن يُذكر به هذا الخليفة الراشد مما يكون له أو عليه، لنترك أقوال الغالين في حبه والذين يبلغون به مقام الربوبية أو ما دونها، ولندعْ التعرض للمفاضلة بينه وبين من تقدمه من الخلفاء؛ فالأولون جهَلة أغبياء لا يُقاومون بغير التهذيب والتعليم فلا تلبث أن تنقشع عن قلوبهم تلك العَمَاية الرائنة والغَواية الكامنة، وأما الخلفاء من الأصحاب فكأصابع الكف للدين، لكل منهم مقام ومنزلة لا ينوب بها عنه الآخر، ولا سيما والشحناء في مثل هذا لا تجدي من أورىٰ بها الزند نفعًا.

أما ما شغل جماعات المؤرخين من أنه كان الأحقّ بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان، مما يؤدي بفريق من الناس إلىٰ الحط من كرامتهم بنسبتهم إلىٰ الظلم، ثم بأن يُقال فيهم ما يقال في الظالم المغتصب، فهذا أيضًا أمر مفروغ منه، والذي نعتقده أن أبا بكر كان أرضىٰ لله والناس من سواه لاطلاعه علىٰ روح الدين في نشأته الأولىٰ والثانية، حين كان أمير المؤمنين عليٌّ يُعَدُّ في الفتيان، يقوده إلىٰ الدين حبه لرسول الله (ﷺ) وشغفُه بأخلاقه واستحسانه لما جاء به، وأبو بكر من شيوخ المسلمين وأهل الحنكة والدربة والعلم والرأي فيهم، فهو أولىٰ بها، واجتهد أبو بكر في المسلمين فعهد إلىٰ عمر فلم يكن دونه ضبطًا للأمور وقيامًا بمصلحة الأمة، وانتهىٰ الأمر إلىٰ عثمان فكان في عصره ما كان، وجاءت النوبة إلىٰ علي والناس له مُريدون عليه مُجمعون، فكان (رضي الله عنه) شديدًا في الدين إذا رأىٰ الرأيَ لم يردُدْه عنه رادّ يصدع فيما يأمره به قلبه النقي وما يوحي إليه ضميره الطاهر غيرَ وانٍ ولا مُحابٍ وأنت ترىٰ أن سياسة المُلك ربما قضت علىٰ القائم بها أن يغض بصره علىٰ بعض القذىٰ وأن يتوقع الفرصة ويتربص للسوانح؛ فهذا ما يأخذه علىٰ عليّ من آخذه، ومن دافع عنه عدَّ تلك الخلال سياسةَ خداع ودهان، ورأىٰ عليًّا عليه الرضوان أجدر بأن لا يتصف بها وأحرىٰ بأن يتعرىٰ منها، وذلك ما يظهر لنا في أمره يتجلىٰ لك فيما سنذكره من الكلام علىٰ أخباره:

قُتل عثمان ووَليَ عليّ بمبايعة الناس له، فلم يكن ليطيب له الصبر وهو يرىٰ البلاد قد طُوِّقت ببني أمية وفيهم الصالح والطالح، فسيَّر الولاة إلىٰ الجهات وعزل بعض من ولَّاهم سلفه، وكانت بينه وبين معاوية بن أبي سفيان عداوات وحزازات أشار إليها العلامة ابن أبي الحديد في شرح النهج حكاية عن معاصره أبي جعفر نقيب البصرة، قال (ج٢، ص٥٧٩): «وكيف يتوهم من يعرف السيرَ أن معاوية كان يبايع لعليّ لو أقرَّه علىٰ الشام وبينه وبينه ما لا تبرك الإبل عليه

من الترات القديمة والأحقاد، وهو - أي عليٌّ - الذي قتل أخاه حنظلة وخاله الوليد وجده عتبة في مقام واحد ثم ما جرىٰ بينهما في أيام عثمان حتىٰ أغلظ كل واحد منهما لصاحبه وحتىٰ تهدده معاوية، وقال له: إني شاخص إلىٰ الشام وتاركٌ عندك هذا الشيخ - يعني عثمان - والله لئن أنحضت منه شعرة واحدة لأضربنك بمئة ألف سيف... إلخ».

فلما بعث عليٌّ الرجال إلىٰ الأمصار سيَّر سهلَ بن حنيف واليًا علىٰ الشام؛ فسار حتىٰ بلغ تبوك فإذا خيل من الشام فقالوا: من أنت؟ قال: أمير، قالوا: علىٰ أيّ شيء؟ قال: علىٰ الشام. قالوا: إن كان بعثك عثمان فحيَّ هلا بكَ، وإن كان بعثك غيره فارجع، فرجع إلىٰ علي، وبلغ معاوية الخبر فقام في الناس فأخبرهم بأنَّ عليًّا قَتل عثمان وحرضهم علىٰ القيام لقتل من اشترك في دمه فاتجهت إليه القلوب، وكان عليّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) لما أراد توجيه الأمر بالعزل إلىٰ معاوية وأضرابه من عُمال عثمان نهاه أصحابه وأطالوا عليه ولا سيما المغيرة بن شعبة وعبد الله بن العباس وهما من خيرة عقلاء المسلمين ودهاتهم فأبىٰ وأصرَّ (راجع كامل ابن الأثير المجلد الثاني)، قال له المغيرة: «أقرر معاوية وابن عامر - والي البصرة - وعمال عثمان علىٰ أعمالهم حتىٰ تأتيك بيعتهم ويسكن الناس، ثم اعزل من شئت»، فكان يقول: «لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري»، قال: «فإن أبيت فانزع من شئت واترك معاوية فإن فيه جرأة وهو في أهل الشام يُستمع منه ولك حجة في إثباته، كان عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قد ولَّاه الشام»، فقال: «لا والله لا أستعمل معاوية يومين!»، ودخل عليه ابن عباس فحدثه علي بقول المغيرة فقال: نصحك. قال: ولم نصحني؟ قال: «لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتىٰ ثبَّتهم لا يبالون من ولي هذا الأمر، ومتىٰ عزلتهم يقولون أخذَ هذا الأمر بغير شورىٰ، وهو قتل صاحبنا ويؤلِّبون عليك فتنتفض عليك الشام وأهل العراق مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك، وأنا أشير عليك أن تثبت

معاوية؛ فإن بايع لك فعليَّ أن أقلعه من منزله»، قال علي: «والله لا أعطيه إلا السيف»، فقال ابن عباس: «يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: الحرب خدعة؟ قال: بلىٰ! قال: «والله لئن أطعتني لأصدرنهم بعد ورد، ولأتركنهم ينظرون في دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا أثم لك..» فأزمع عليّ علىٰ ما ارتأىٰ وبعث الرجال فكان لسهل بن حنيف ما كان فلما عاد وأخبره أخذ يتجهز للزحف علىٰ الشام لقتال معاوية [و] من أخذ إخُذه، وإذا هم بنبأ جديد، جمعٌ من المسلمين ثاروا عليه في البصرة يرأسهم طلحة والزبير الصحابيان الجليلان وعائشة أم المؤمنين وكلهم يتهمونه بقتل عثمان، فحوَّل عليٌّ قوّته إليهم وتوجه نحوهم فكانت الواقعةُ المعروفة باسم «وقعة الجمل» حاربهم فيها عليّ بنصراءَ له من أهل الكوفة والحجاز فظفر بهم وفرَّق جمعهم، فلم يطمئن حتىٰ بلغه وهو في الكوفة أن معاوية يتهيأ للوثوب، فكتب إليه كتابًا يدعوه فيه إلىٰ البيعة له ويؤكد له أنه بريء من دم عثمان، فأجابه معاوية بأنه: إن لم يكن هو قاتل عثمان؛ فإنه أغرىٰ به وخَذَل عنه أنصاره، وأنه لا يبايع إلا بعد أمرين: أن يدفع إليه قتلة عثمان ينتقم منهم، وأن يترك الأمر شورىٰ بين المسلمين كما تركه عمر؛ فإن اتفقوا عليه بايعه، فأغلظ له عليٌّ في الجواب، وترادفت الرسائل بينهما، ولم يشعر عليّ إلا وأهل الشام زاحفة بجيوشها عليه، فجهز أهل العراق، ومن كان معه من رجال الحجاز وخرج يريد القتال، فتلاقىٰ الجَمعان في موضع يقال له صِفِّين (كِسجِّيل: موضع بقرب الرَّقَّة علىٰ شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس) قال ياقوت في معجم البلدان (ج٥، ص٣٧٠): «كانت وقعة صفين في سنة ٣٧ في غرة صفر.. وكان عليّ في مئة وعشرين ألفًا، ومعاوية في تسعين ألفًا، وقُتل في الحرب بينهما سبعون ألفًا منهم من أصحاب عليّ خمسة وعشرون ألفًا، ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفًا.. وكان مدة المقام بصفين مئة يوم وعشرة أيام، وكانت الوقائع تسعين وقعة».

واختتمت تلك الحروب الهائلة في ذلك السبب التافه حتىٰ اتفق الفريقان علىٰ تحكيم رجلين منهما والرضىٰ بما يتفقان عليه فاختار معاوية وأصحابه عمرو بن العاص القائد الداهية، واختار أصحاب عليّ أبا موسىٰ الأشعري أحد الأشراف وكان في سن الشيخوخة؛ فخدعه عمرو في حديث طويل (تراه في تاريخ الطبري وابن الأثير) فخلع أبو موسىٰ صاحبه عليًّا، وأثبت عمرو صاحبه معاويةَ، وعليٌّ في الكوفة ومعاوية في الشام، فانصرف الناس كل فريق إلىٰ صاحبه وسلَّم أهل الشام علىٰ معاوية بالخلافة، وأسف عليّ علىٰ ما كان ثم خرجت عليه الخوارج فما زال في حروب وخطوب حتىٰ اعترضه عبد الرحمن بن ملجم المرادي في شهر رمضان لسبع عشرة خلت منه وهو واقف بباب مسجد الكوفة يصيح بالناس: «الصلاةَ الصلاةَ» فضربه بسيفه فأصاب قَرْنه وفرَّ فشدَّ عليه الناس فأمسكوه، وأُخِذَ عليّ إلىٰ منزله فجمع بنيه وأوصاهم بما يَصلُح به دينهم ودنياهم وأمرهم أنه إذا مات فليقتلوا ابن ملجم ولا يمثلوا به، ففعلوا ذلك، ودفن أمير المؤمنين بالكوفة عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة، وقال القلقشندي: دفن بالنجف.

ولم يتسع أجل عليّ (كرَّم الله وجهه) لتكون له أوَّليات كبيرة، وإنما عُرف له منها أنه أول من وضع «بيت القِصَص» وهو غرفة يُلقي بها الناس رقاعهم وشكاواهم، وتبعه بمثله بعض خلفاء بني العباس (ذكره ابن أبي الحديد).

وأما خطبه وأقواله فقد جُمعت في كتاب سُمِّي «نهج البلاغة» وربما شك بعض الناس في نسبة جميعه إلىٰ عليّ، وهو في أعلىٰ طبقة من طبقات كلام البشر يَحْسُنُ بكل مشتغل في اللغة والأدب والإنشاء أن يكثر من تلاوته، وقد شرحه أحد كبار علماء المعتزلة ابنُ أبي الحديد شرحًا وافيًا (انظر ترجمة ابن أبي الحديد)، وفي هذا الشرح الكبير تجد جميع أخبار أمير المؤمنين وجانبًا عظيمًا من أخبارِ صدر الإسلام والمباحثِ الجدلية والفلسفية النافعة.

ومن كلامه: المرء مخبوء تحت لسانه، الناس أعداء ما جهلوا، لا راحة لحسود، لا مُروءة لكذوب، الراحة مع اليأس، من كثر مزاحه لم يَخْلُ من حقدٍ عليه واستخفافٍ به، كفىٰ أدبًا لنفسك ما كرهته من غيرك، من أكثر مِن شيء عُرِف به، الناس من خوف الذل في الذل، خير أموالك ما كفاك، وخير إخوانك من واساك، من عَذُب لسانه كثُر إخوانه، بالبر يُستعبد الحر، إذا تم العقل نَقَص الكلام، النصح بين الملأ تقريع، من أكثر فكره في العواقب لم يشجع، من أُعجب برأيه ضلّ، ومن استغنىٰ بعقله زلّ.

وجاء في إحدىٰ خطبه بصِفِّين يوصي الجيش: «لا تقاتلوهم حتىٰ يقاتلوكم؛ فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مُدْبِرًا ولا تُجهزوا علىٰ جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا ولا تأخذوا مالاً ولا تَهِيجوا امرأة وإن شتمتكم؛ فإنهنَّ ضعاف الأنفس والقوىٰ».

ومن كلامه: قَصَمَ ظهري رجلان؛ عالم متهتك، وجاهل متنسك، هذا ينفِّر الناس بتهتكه، وهذا يُضل الناس بتنسكه، ما ذَبَّ عن الأعراض كالصفح والإعراض.

وقال لابنه الحسن: يا بني، ابذل لصديقك كل المودة ولا تطمئنَّ إليه كل الطمأنينة، وأعطه كل المواساة ولا تُفشِ له كل الأسرار.

وقال: من كثر دَيْنه لم تقرّ عينه، من فعل ما شاء لقي ما ساء، من استعان بالرأي مَلكْ ومن كابد الأمور هَلَكْ، من حَسُنت سياسته دامت رياسته، من ركب العَجلة لم يأمن الكبوة.

وعنه (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): الوحدة راحة، والعزلة عبادة، والقناعة غنًىٰ، والاقتصاد بُلغة، والعزيز بغير الله ذليل، والغنيّ الشرِه فقير، ولا تُعرف الناس إلا بالاختبار؛ فاختبر

أهلك وولدك في غيبتك، وصديقك في مصيبتك، وذا القرابة عند فاقتك، والتوددِ والملقِ عند عطلتك، لتعلم بذلك منزلتك.

وجاء في خطبة أثبتها له الجاحظ في البيان والتبيين:

أما بعد؛ فإن الجهاد باب من أبواب الجنة؛ فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذلة، وشمله البلاء، وألزمه الصَّغار، وسيم الخسف، ومُنع النَّصف، ألا وإني قد دعوتكم إلىٰ قتال هؤلاء القوم - يريد بني غامد - ليلاً ونهارًا سرًا وإعلانًا، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غُزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم وثقُل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهريًا، حتىٰ شُنت عليكم الغارات هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل ابن حسان البكري وأزال خيلكم من مسالحها وقتل منكم رجلاً صالحين، وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل علىٰ المرأة المسلمة والأخرىٰ المعاهدة فينتزع أحجالها وقُلبها ورعثها، ثم انصرفوا وافرين ما كلم رجلٌ منهم حلمًا فلو أن امرأ مُسلمًا مات من بعدها أسفًا ما كان عندي ملومًا، بل كان عندي جديرًا بها فيا عجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم وفشلكم عن حقكم، فقُبحًا لكم وترحًا حين صرتم غرضًا يُرمىٰ وفيئًا يُنهب، يُغار عليكم ولا تغيرون وتُغزون ولا تغزون، ويُعصىٰ الله وترضون فإذا أمرتكم بالسير إليهم في الحر قلتم حرارة القيظ أمهلنا حتىٰ ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم أمهلنا حتىٰ ينسلخ عنا القر كل هذا فرارًا من الحر والقر؟ فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفَرّ، يا أشبه الرجال ولا رجال! ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الخجال! وددت أن الله أخرجني من بين ظهرانيكم وقبضني إلىٰ رحمته من بينكم والله لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفتكم، والله حرتُ ندمًا وورثتم صدري غيظًا وجرعتموني الموت أنفاسًا وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان حتىٰ قالت قريش: إن ابن أبي طالب شجاع، ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم! وهل منهم أحد أشد

لها مراسًا وأطول لها تجربة مني؟ لقد مارستها وما بلغت العشرين فيها وقد نيفت على الستين، ولكنه لا رأي لمن لا يُطاع».

قال الجاحظ: وهذه الخطبة خطب عليٌّ بها الناس وهو جالس على باب السدة، أقول: وذلك في الكوفة؛ فإنه كان اتخذها دار إمارة له.

وروى له أصحاب المجاميع والأقاصيص شعرًا جعلوه في كتيِّب سموه (ديوان علي بن أبي طالب)، وجلّه أو كله مما ينطق ببراءته من عليّ لبعده عن بلاغة معاني أمير المؤمنين وضخامة ألفاظ ذلك الجيل العربي المحض وما يذكرونه ويعزونه إليه أشبه بشعر الفقهاء والمؤدبين فأين هو من ناشر لواء البلاغة (عليه رضوان الله وسلامه)، وقرأت في تاريخ النحاة للسيوطي كلمة نقلها عن المرزباني قال: ما صح عندنا ولا بلغنا أن عليّ بن أبي طالب قال شعرًا إلا هذين البيتين:

تلكم قريش تمنتني لتقتلني ... فلا وربك ما بـرُّوا ولا ظفروا

فإن هلكتُ فرهنٌ ذمتي لهم ... بذات روقين لا يعفو لها أثر



بنو أميةً في الشام

توطئة

مضىٰ الكلام في الصحف السالفة علىٰ القسم الأول من كتاب الملوك والأمراء، وكان بها الكلام علىٰ الخلفاء الراشدين (رضوان الله عليهم أجمعين)، وهذا هو القسم الثاني نورد فيه تراجم ملوك بني أمية في الشام وهم الذين ورثوا الخلافة الإسلامية عن الحسن بن علي بن أبي طالب كما جاء في الكلام عليه، وإنما خُص بالذكر من كان في الشام منهم إعلامًا بأن ملوك الأندلس الذين من أصل أمَوي سيجري البحث عن رجالهم في فصل آت.

والدولة الأموية أسسها في الشام [و] أول أمرائها معاوية بن أبي سفيان، وكان كما سترىٰ في ترجمته أميرًا علىٰ الشام من قِبَل عمر ابن الخطاب، ثم أقرَّه علىٰ ولايته عثمان بن عفان وأراد علي بن أبي طالب عزله عنها فوثب عليه وألبس السياسة ثوبًا دينيًا فادعىٰ أنه لا يحارب عليًا مِن أجل مُلك أو رياسة، وإنما هو يعتقد أن عليًا قَتَلَ عثمان أو اشترك بدمه فهو يريد قتله ويطلب دمه علىٰ نحو ما أوردنا في ترجمة عليّ وانتهىٰ الأمر بأن كان في المسلمين خلافتان في زمن واحد: راشدية في العراق، وصاحبها علي بن أبي طالب، وأمَوية في الشام وصاحبها معاوية بن أبي سفيان، فلما قُتل عليّ بايع أصحابُه ابنه الحسنَ فصالحَ الحسنُ معاوية وولاه الخلافة فصفت لابن أبي سفيان يتوارثها بنوه من بعده، وبنو هاشم في معزل عنها يتطالُون إليها، ولا يطولونها، حتىٰ آلت إلىٰ بني مروان وهم فرع من بني أمية وسنذكرهم في المبحث القادم بعد الكلام علىٰ معاوية وبنيه إن شاء الله ولا قوة إلا به.

معاوية بن أبي سفيان

ولد سنة ٢٠ق.هـ وتوفي سنة ٦٠هـ

بنو أمية بطن من قريش كبني هاشم، وهم من ذوي السيادة والرياسة في هذه القبيلة، وإنما قُدِّم عليهم الهاشميون برسول الله (ﷺ)؛ فلما لقي ربه طمحوا نحو الإمرة من بعده، فتولاها أبو بكر فصبروا، وعمر فانكمشوا، وصارت إلىٰ عثمان فأحياهم وأنعش آمالهم وفرقهم ولاة وحكامًا في البلاد.

أما معاوية وهو صاحب هذه الترجمة، فأبوه أبو سفيان صخرٌ بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: ولد بمكة وأسلم يوم فتحها (سنة ٨هـ)، وكان من ذوي الرأي والدهاء عارفًا بالكتابة وهي فضل كبير في ذلك الحين فجعله رسول الله (ﷺ) في كتَّابه.

ولما ولي أبو بكر ولاه قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي سفيان فكان علىٰ مقدمته في فتح مدينة صيدا، وعرقة، وجبيل، وبيروت.

وآل الأمر إلىٰ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فولاه ولاية الأردن، فرأىٰ فيه معرفةً وحزمًا؛ فلما مات أخوه يزيد وكان واليَ دمشق ولَّاه عمر بدلاً منه.

وجاء عثمان وصلةُ النسب تربطهما فجمع له الديار الشامية معها وجعل ولاة أمصارها تابعين له، فشرع معاوية يتحبب إلىٰ أهل الشام ويدني رؤساؤهم من حضرته حتىٰ استألفهم واستمالهم إليه، ومات عثمان فقام عليٌّ مقامه، وهو الأمر الذي تكرهه أمية لعلمها بأن الخلافة متىٰ توارثتها قريش حُرمت هي منها: فأعدَّ معاوية العدة واتخذ قتل عثمان ذريعةً له يستحث به الجموع علىٰ قتال عليٍّ وأصحابه وكان بينهما ما أسلفنا ذكره في ترجمة عليٍّ من الحروب والوقائع بصفِّين وانتهىٰ الأمر بإمامته علىٰ الشام وإمامة عليٍّ في العراق، ثم قُتل عليٌّ

وبويع بعده ابنهُ الحسنُ فسلَّم الخلافة إلىٰ معاوية (انظر ترجمته الحسن بن علي)، وذلك في عام ٤١هـ، وهو المعروف بعام الجماعة لاجتماع المسلمين فيه يدًا واحدةً علىٰ إمام واحد، ودامت له الخلافة حتىٰ بلغ سن الشيخوخة فعهد بها إلىٰ ابنه يزيد. ومات بدمشق فدفن في مقبرة باب الصغير.

ذلك إجمال في سيرة معاوية مؤسس دولة بني أمية، ومن عظماء ملوك العرب وخلفائهم، وهو أحد كبار الفاتحين، بلغت فتوحاته المحيط الأتلانطيقي [الأطلنطي]، وكان واليه علىٰ مصر عمرو بن العاص (الآتي ذكره) فافتتح السودان سنة ٤٣هـ، وفي هذه السنة غزا عبد الله بن سوار العبدي القيقان من بلاد السند فأصاب مغانم كثيرة عاد بها إلىٰ معاوية ورجع إلىٰ الغزو فَقُتِلَ في بعض بلاد السند، وكان عدد السفن في أيام معاوية ١٧٠٠ سفينة كاملة العدة، وهو أول مسلم ركب بحر الروم للغزو، وذلك حينما كان عاملاً علىٰ الشام في خلافة عثمان بن عفان، وفي أيامه فتح كثير من الجزائر اليونانية والدردنيل وحاصر القسطنطينية بحرًا وبرًا سنة ٤٨هـ فلم يتمكن من فتحها وأُصيبت سفنه بخسائر فادحة فعاد ما بقي منها، وهو أول من جعل دمشق مقر خلافة، وأول من اتخذ المقاصير (وهي الدور الواسعة المحصَّنة)، والحرس والحجاب، ولم يكن ذلك للخلفاء الراشدين لازدرائهم تلك المظاهر والزخارف وبُعْدهم عن أُبَّهة المُلك وقناعتهم بما كانوا عليه قبل الخلافة من السذاجة والتقشف وأما معاوية فلم يتسنَّ له ذلك في بلاد ألفت أنظارُها ما كان عليه ملوكها السابقون من الروم، وربما سَخِرت بمن كان دونهم وعَدَّته دخيلاً علىٰ الرياسة، حديث عهد بالإمارة، وهو أول من خطب قاعدًا لأنه كان بطينًا بادنًا، وأول من قدَّم الخطبة علىٰ الصلاة في يوم الجمعة، وكانت الخطبة بعد الصلاة فخاف معاوية أن يتفرق الناس عنه قبل أن يُتم ما يريد أن يقول فقدَّمها: وتابعه المسلمون حتىٰ اليوم، وهو أول من جلس بين الخطبتين: وبقيت بعده إلىٰ يومنا هذا، وفي أنساب

العرب للقلقشندي أنه كان طويلاً أبيض جميلاً مهيبًا، قال: وكان عمر ينظر إليه فيقول: هذا كسرىٰ العرب!

وفي سنة ٥٠هـ سار إلىٰ المدينة بموكب حافل فألقىٰ بها عدة خطب وكان قويّ المنطق جيّد البديهة سريع الخاطر، ومن أحسن ما تتمثل به سياسته في قوله في بعض خطبه:

«يا أهل المدينة إني لست أحب أن تكونوا خلقًا كخلق العراق يعيبون الشيء وهم فيه: كلُّ امرئ منهم شيعة نفسه، فأقبلونا بما فينا؛ فإنَّ ما وراءنا شرٌّ لكم، وإن معروف زماننا هذا مُنكر زمان قد مضىٰ، ومُنكر زماننا معروف زمان لم يأتِ ولو قد أتىٰ، فالرتق خير من الفتق، وفي كل مقال بلاغ ولا مقام علىٰ الرزية».

ودخل دار عثمان بن عفان - في المدينة - فصاحت عائشة بنت عثمان وبكت ونادت أباها، فقال معاوية: «يا ابنة أخي إنَّ الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانًا وأظهرنا لهم حلمًا تحته غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحته حقد، ومع كل إنسان سيفه ويرىٰ موضع أصحابه؛ فإن نكثناهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرض الناس».

وخطب في المدينة أيضًا فقال: «أيها الناس، إن أبا بكر (رضي الله عنه) لم يُردِ الدنيا ولم تُرده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يُردها، وأما عثمان فنال منها ونالت منه، وأما أنا فمالت بي وملت بها؛ فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم».

وكان يُضرب المثل بحلم معاوية ومن أخباره أنه كان لعبد الله بن الزبير أرض مجاورة لأرض فيها عبيد لمعاوية من الزنوج يعمرونها فدخلوا في أرض عبد الله فكتب إلىٰ معاوية: «أما بعد؛ فإنه يا معاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول في أرضي كان لي ولك شأن!»، فلما وقف معاوية علىٰ الكتاب دفعه إلىٰ ابنه يزيد فلما قرأه قال له: ما ترىٰ؟ قال: أرىٰ أن تنفذ إليه جيشًا أوله عنده وآخره

عندك يأتونك برأسه، فقال: يا بني عندي خير من ذلك عليّ بدواة وقرطاس، وكتب: «وقفت علىٰ كتابك يا ابن حواري رسول الله (ﷺ) وساءني والله ما ساءك، والدنيا هينة عندي في جنب رضاك، وقد كتبت علىٰ نفسي برقمًا بالأرض والعبيد، وأشهدت عليّ فيه ولتُضَف الأرض إلىٰ أرضك والعبيد إلىٰ عبيدك والسلام»، فلما وقف عبد الله علىٰ كتاب معاوية كتب إليه: «وقفتُ علىٰ كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام»، فلما وقف معاوية علىٰ كتاب عبد الله رماه إلىٰ ابنه يزيد فلما قرأه أشرق وجهه، فقال: «يا بني إذا رُميت بهذا الداء داوه بهذا الدواء».

ويُذكر في الاتفاقات الغريبة أن أول ملوك بني أمية اسمه معاوية وآخرهم معاوية، وأول ملوك الدولة الأيوبية صلاح الدين يوسف وآخرهم صلاح الدين يوسف، وأول ملوك بني العاص مروان وآخرهم مروان وأول ملوك الفاطميين عبد الله وآخرهم عبد الله.

يزيد بن معاوية

ولد سنة ٢٥ وتوفي سنة ٦٤هـ

ما ينسَ المسلمون لا تَرَهُم ناسين فاجعتهم الكبرىٰ بابن بنت نبيهم وفادحتهم العُظمىٰ بأحب الناس إليهم تلك الجريمة المؤلمة التي اقترفها صاحب هذه الترجمة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ثاني ملوك بني أمية: عهد معاوية إلىٰ يزيد بالخلافة فلما مات تولاها وانضم إليه من أخلصوا في حب أبيه وفاءً لهُ وتنفيذًا لعهده، وكان يزيد فتىٰ لهو وقصف، ولكنه عارف بالأدب رُوي له من الشعر رقيقه، ولم تصفُ له الخلافة، بل كثرت في عهده الثورات وامتنعَ كثير من الناس عن مبايعته والرضىٰ بخلافته، فقامت الفتنة في العراق ودعا أهلُ الكوفة الحسين ليبايعوه؛ فلما ارتحل إليهم اعترضه بكربلاء عَمرو بن سعد ابن أبي وقاص قادمًا

من قِبَل عبيد الله بن زياد، وكان يزيد قد كتب إليه يأمره بتوجيه من يقاتل الحسين قبل أن يبلغ الكوفة، فحاربوه، وقتله شمر بن ذي الجوشن، وأُتي برأسه إلىٰ دمشق علىٰ ما قدمنا في ترجمته (انظر ترجمة الحسين)، فلما ذاع خبره كان عبد الله بن الزبير بمكة فحض أهل مكة والحجاز علىٰ الثورة فبايعوه، واتفق أهل المدينة علىٰ خلع نائب يزيد، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان فطردوه من المدينة، وعلم يزيد بما حدث فوجَّه مسلم بن عقبة في عشرة آلاف مقاتل فساروا إلىٰ المدينة فافتتحوها وجعلها مسلمٌ مباحة للسلب والنهب ثلاثة أيام، ثم رحل عنها يريد مكة؛ فمات في طريقه بموضع يُعرف بالمشلّل، وأقام نائبًا عنه الحصين ابن نمير، فقدم مكة، فقاتله ابن الزبير فلم يزل بها حتىٰ جاءه خبر موت يزيد فعاد بجيشه إلىٰ الشام.

هكذا تجد المسلمين بعد اشتغالهم بفتح البلدان وتوسيع سلطة الدولة الإسلامية وتوطيد أركانها عادوا فشُغلوا بأنفسهم، يقتل بعضهم بعضًا، ويحارب الرجل قريبه ونسيبه وحبيبه، ثورات في البلاد علىٰ كل مستخلف فيهم وخروج وعصيان وخوف مستمرٌ:

كأنما القوم عادت جاهليتهم لهم فما أغنت الآياتُ والنذرُ

وفي أيام يزيد فُتح المغرب الأقصىٰ علىٰ يد الأمير عقبة بن نافع، وكان قد وجَّهه يزيد إلىٰ إفريقية فلما بلغ القيروان جمع من بها من الجند ودخل مدينة باغاية فحاربه أهلها وكانوا من الروم، ثم أغلقوا أبوابها، فأراد حصارهم ولكنه اختار قَصْد غيرها، فسار إلىٰ بلاد الزاب فامتلك مدينتها العظمىٰ إربه، وسار إلىٰ طنجة ومنها عاد بغنائم وافرة.

فانظر هداك الله إلىٰ المسلمين في ذلك الحين لو وجّهوا سيوفهم التي يضربون بها وجوههم إلىٰ بلاد الأعداء وأمصار الروم وغيرهم هلا كانوا بلغوا أقاصي

الأرض وأطاعهم الناس أجمعون؟ وأنت ترىٰ أنَّ جيشًا قليل العَدد قليل العُدد يتوغل يحارب البرابرة والروم ويرجع ولواؤه يخفق بالظفر والغُنم والرّبح.

وكانت وفاة يزيد بجوار أبيه من أرض حمص لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأولىٰ، وعمره تسع وثلاثون سنة، وخلّد في صحيفة بني أمية تلك النقطة السوداء التي لن تزول، وقد سبق القول بأن ليزيد شعرًا مرويًا فلا نرىٰ بأسًا من ذكر شيء منه، وإن كنت لا أثق بصحة كل ما يُنقل عنه من هذا النوع؛ فمن ذلك قصيدة تنمىٰ إليه في كتب الأدب قال:

خذوا بدمي ذاتَ الوشاح فإنني رأيت بعيني في أناملها دمي
ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها بلىٰ خبروها بعد موتي بمأثمي
لها حكم لقمان وصورة يوسف ونغمة داود وعفة مريم
ولي حزن يعقوب ووحشة يونس وآلام أيوب وحسرة آدمِ

إلىٰ أن يقول:

ولما تلاقينا وجدتُ بنانها مخضّبة تحكي عصارة عندمِ
فقلت: خضبت الكفَّ؟ بعدىٰ، وهكذا يكون جزاء المستهام المتيَّمِ
فقالت وأبدت في الحشا حرق الجوىٰ مقالة من في القول لم يتبرَّمِ
وعيشك ما هذا خضابا عرفته فلا تك بالبهتان والزور متهمي
ولكنني لما رأيتك نائيًا وقد كنت لي كفي وزندي ومعصمي
بكيت دمًا يوم النوىٰ فمسحته بكفي وهذا الأثر من ذلك الدمِ
ولو قبل مبكاها بكيت صبابة بسعدي شفيتُ النفس قبل التندمِ
ولكن بكت قبلي فهيَّج لي البكا بكاها فكان الفضل للمتقدمِ

وتُنسب له القصيدة المشهورة التي مطلعها:

نالت علىٰ يدها ما لم تنله يَدي ... نقشا علىٰ معصم أوهت جَلَدي

ويُروىٰ له هذان البيتان:

دعـــوتُ بـمـاء في إنـــاء فـجاءني ... غـلامٌ بـه خـمرًا فـأوسعتُه زجـرا
فـقـال: هـو الـمـاء الـقـراح وإنـمـا ... تـبـدّىٰ بـه خـدي فأوهمك الخمرا

وهو صاحب الأبيات التالية قالها حين جاءه النبأ بموت أبيه، وكان غائبًا عن دمشق:

جـاء الـبريـد بـقـرطـاس يـخـبّ به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا: لك الويل ماذا في صحيفتكم ... قـالـوا الخليفة أمسىٰ مثبتًا وجعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كـأن أغـبـر مـن أركـانهـا انـقـلـعا
ثـم انـبـعـثـنـا إلـىٰ خـوص مزممةٍ ... نرمي العجاج بها ما نأتلي سرعا
فـمـا نـبـالـي إذا بـلـغـن أرحـلـنـا ... مـا مـات منهنَّ بالموماة أو طلعا
أودىٰ ابن هند وأودىٰ المجد يتبعه ... كـذا [ك] كنا جميعًا قاطنين معا
أغــرُّ أبـلـج يُـسـتـسقىٰ الـغـمـام به ... لو قـارع الناس عن أخلاقهم قرعا
لا يرقع الناس ما أوهىٰ ولو جهدوا ... أن يـرقـعـوه ولا يـوهـون مـا رقعا

قال الشافعي: والبيتان الأخيران سرقهما من الأعشىٰ.

معاوية بن يزيد

ولد سنة ٤١ ومات سنة ٦٤هـ

لما مات يزيد بايع أهلُ الشام ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية ثالث ملوك بني أمية وأضعفهم: فتولىٰ الملك ثلاثة أشهر بعد أبيه وأُصيب بأمراض حالت بينه [وبين] شؤون الخلافة والنظر في مصالح الناس فأمر فنودي: «الصلاة جامعة» فاجتمع الناس فقام فيهم خطيبًا فحمد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال: «أما بعد؛ فإن جدي معاوية نازع الأمر من كان أولىٰ به، ثم تقلده أبي، ولقد كان غير خليق به، وصرت أنا الثالث والساخط عليّ أكثر من الراضي، وقد ضعفتُ عن أمركم، ولا أحب أن ألقىٰ الله (عز وجل) بتبعاتكم، فابتغيتُ لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورىٰ فلم أجدهم، فأنتم أولىٰ بأمركم، فاختاروا له من أحببتم، فقد خلعتُ بيعتي من أعناقكم».

ثم دخل منزله وأغلق بابه وأقام يعبد الله حتىٰ مات، ولم يعش في الرواية المشهورة أكثر من أربعين يومًا.



ملوك بني مروان

صلة

رأيت في ترجمة «معاوية بن يزيد» آخر أبناء معاوية بن أبي سفيان، كيف ترك الخلافة للناس دون أن يعهد أو يوصي واعتذر عن نفسه بأنه لم يجد الرجل الذي يُحق له أن يركن إليه ويعتمد في أمور المسلمين عليه، وأنت ترىٰ أن المسلمين كانوا علىٰ عهد والده في نفور واضطراب وسُخط فلما بلغهم موته، وتولية ابنه معاوية المعروف بالضعف وقِصَر اليد قويت شوكة الثائرين، فبويع لابن الزبير بالخلافة في الحجاز وامتدت سُلطته إلىٰ المدينة ومصر فسيَّر إلىٰ المدينة أخاه عبيد الله بن الزبير، وإلىٰ مصر عبد الرحمن بن جحدم الفهري، واليين عليهما، وأبعدَ بني أمية ومروان بن الحكم إلىٰ الشام، وانبثَّت الدعاة إلىٰ ابن الزبير بحمص وقنسرين وفلسطين والعراق، ولا سيما حين استقال معاوية من المُلك وتركه لمن لا يُعرف مَن يكون، واختلف أهل دمشق وفيهم مريدون لابن الزبير. ومبايعون لمروان بن الحكم، ثم انتهىٰ الأمر باجتماع الشاميين علىٰ مروان وهو ابن الحكم بن العاص بن أمية، أمويٌّ ولكنه غير مُعاويّ فكان أول من مَلَكَ مِن هذا البيت وترادفت أبناؤه من بعده وبويع ابن الزبير في الحجاز والعراق فاجتمع للمسلمين خليفتان حتىٰ كان زمن عبد الملك بن مروان فوجَّه الحجاج إلىٰ ابن الزبير فقتله وصلبه، ثم نشأت الثورة العباسية علىٰ ما سيُذكر إن شاء ربك.

***

مروان بن الحكم

ولد سنة ٢ وتوفي سنة ٦٥هـ

علمتَ ما كان في أيام معاوية بن يزيد من تركه للملك علىٰ ما تقدم بيانه وقلنا: إن أهل الشام اتفقوا علىٰ مروان بن الحكم بن العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وهو أمويٌّ قرشي.

وكان شيخًا كبير السنّ، ولد بمكة وانتقل إلىٰ المدينة حتىٰ كانت أيام عثمان ابن عفان جامع شتات بني أمية بن عبد شمس فقرَّبه عثمان إليه وجعله أحد خاصته الذين يرجع إلىٰ آرائهم ويعتمد عليهم في المعضلات ولما قُتل عثمان انصرف إلىٰ مكة وأقام يتردد بين الحجاز والشام حتىٰ طرده ابن الزبير من مكة، فانصرف إلىٰ الشام وهي بلا خليفة بعد انفصال معاوية بن يزيد عن الخلافة، فبويع مروان بها لسنِّه وقُربه من عثمان وأُمويته فهدأ الشام وخرج إلىٰ مصر فصالحه أهلها، وكانت قد فشت فيها البيعة لابن الزبير فوثق منهم مروان وولىٰ عليهم ابنه عبد العزيز وعاد إلىٰ الشام، ورجا أن تصفو الخلافة لبنيه إلا أنه خاف مطالبة خالد بن يزيد بن معاوية بها متىٰ كَبُر، وكان آنئذ صغيرًا فرأىٰ أن يستميله فتزوج أمه.

وبقي مروان في الملك تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا، حتىٰ دخل عليه يومًا خالد بن يزيد في شأن له فشتمه مروان وسبّ أمه فانحرف إليها ونقل لها الكلام فانتظرته حتىٰ أقبل فوضعت علىٰ وجهه وسادة ضخمة بعد أن اضطجع وأمرت الجواري فقعدن عليها فصاح واستنجد فلم يغثه فمات مخنوقًا (قاله ابن الأثير)، وقال القلقشندي: توفي بالطاعون بدمشق.

عبد الملك بنُ مروان

ولد سنة ٢٦ وتوفي سنة ٨٦هـ

ما انفكت خلافة الأمويين في اضطراب وتزلزل منذ غادر الحياة معاوية الأول حتىٰ انقلبت ألعوبة في أيدي الرجال، فقاذفٌ لها زاهدُ بها، ومتلقف لها راغب فيها ومشرئبُّ إليها طامع بانتقالها إليه، بحيث لم تستقر علىٰ حال واحدة إلا في زمن صاحب هذه الكلمة وهو: أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم الأمويّ القرشي، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه مروان سنة ٦٥هـ فبويع في دمشق وأعظم ما يهدد مُلكه استفحال أمر عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق، فلما بويع قام في الناس خطيبًا فقال:

«أيها الناس إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا بالخليفة المداهن - يريد معاوية الأول - ولا بالخليفة المأفون - يريد يزيد بن معاوية - فمن قال برأسه كذا - أي امتنع - قلنا له بسيفنا كذا - أي ضربناه - ثم نزل».

وعلم عبدُ الملك أن ابن الزبير وجَّه المختار الثقفي إلىٰ الكوفة أميرًا عليها فجهز عبد الملك جيشًا فيه عبيد الله بن زياد ورجال من كبار القادة عنده فأرسل المختارُ جيشًا لقتال عبيد الله بقيادة إبراهيم ابن الأشتر، فالتقىٰ الجيشان بالجازر (قرية من نواحي النهروان من أعمال بغداد قرب المدائن) فقُتل عبيد الله بن زياد وأصحابه وأخذت رؤوسهم إلىٰ ابن الزبير، فلما بلغ عبد الملك ذلك عظم عليه فنادىٰ أهل الشام فلم يلبوه، وكان في رجال شرطته الحجاج بن يوسف، وهذا أول ما اشتهر به: فتقدم إلىٰ عبد الملك فسأله أن يسلطه عليهم، فقال: قد سلطتك!! فانصرف من مجلسه لا يمر علىٰ رجل من أهل الشام قد تخلف عن القيام إلا أحرق عليه داره، فجزع الناس واتجهوا إليه فجهزهم عبد الملك وسار بهم يريد العراق، وخرج إليه مصعب بن الزبير بأهل البصرة والكوفة فالتقوا بين

الشام والعراق، وكان عبد الملك كتب كُتبًا إلىٰ رجال من وجوه أهل العراق يدعوهم إلىٰ نفسه ويجعل لهم الأموال، فلما تلاقىٰ الفريقان انضم رجال مصعب إلىٰ عبد الملك، وبقي مصعب في قليل من أصحابه فأتاه غلام لعبيد الله ابن ظبيان فأعان عليه مولاه عبيد الله بن ظبيان فقتلاه (وستأتي ترجمة مصعب في القوّاد)، ودخل عبد الملك الكوفة، فبايعه الناس فجاءه الحجاج فقال: رأيت في المنام كأني أسلخ ابن الزبير من رأسه إلىٰ قدميه، وكان عبد الملك قد رأىٰ من الحجاج حزمًا وشدة بأس فقال له: أنت له، فخرج الحجاج بجيش كثيف يريد عبد الله بن الزبير.

وفي سنة ٧٢هـ كان في منًىٰ ثم حصر ابن الزبير في مكة ونصب المجانيق علىٰ جبالها ونواحيها يرمي أهلها بالحجارة، وانتهىٰ القتال بقتل عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين في العراق والحجاز، فأرسل الحجَّاج رأسه إلىٰ عبد الملك بن مروان في دمشق، ونصب للناس راية الإمارة فجعلوا يغدون عليه، فلم ينصرف عن الحجاز إلا وهي مبايعة لعبد الملك وبهذا سكنت الفتنة واجتمع المسلمون مع عبد الملك واستتب له الأمر فيهم، ودامت له الخلافة العامة بعد مقتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر.

وكان يقال: معاوية للحكم، وعبد الملك للحزم، وكان ملكًا جبارًا علىٰ من عانده وقويّ الهيبة شديد السياسة، حَسَن التدبير، جمع بين العلم والعقل.

قال الشعبي: ما ذاكرت أحدًا إلا وجدتُ لي الفضل عليه إلا عبد الملك فإني ما ذاكرته حديثًا ولا شعرًا إلا زادني فيه.

وقال نافع وهو من مشاهير القراء: لقد رأيت أهل المدينة وما بها شابٌّ أشدُّ تشميرًا ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان.

وفي أيامه كانت تُكتب الدواوين باللغتين الفارسية والرومية فأمر بترجمتها

ونُقلت إلىٰ العربية، وهي مأثرة تذكر، وكانت الرعية كما علمت من ترجمة عمر ابن الخطاب وغيره تتكلم بحضرة الخلفاء وترجع إليهم في جميع أمورها؛ فنهاهم عبد الملك عن ذلك وجعل الكلام لخاصته ومن أراد من العلماء والأمراء.

وهو أول من سكَّ الدنانير في الإسلام، وكان عمر قد سكَّ الدراهم كما أسلفنا، وكأني بعبد الملك اتخذ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إمامًا له يقتدي به في سياسته وأعماله فإنه أتمّ مشروعين جليلين بدأ بهما عمر، وهما: الدواوين، وضعها عمر علىٰ نسق الفرس بلغتهم ونقلها عبد الملك إلىٰ العربية، والدراهم: نقشها عمر فتابعه عبد الملك بنقش الدنانير، ولعل هذا كان سرّ صفاء الأمر له وخلوّه من المكدّرات.

وفي مراسلاته وكتبه تجد عقلاً كبيرًا وحبًا للخير جمًّا: كتب إليه الحجاج بن يوسف عامله علىٰ العراق في شأن عروة بن الزبير عامل اليمن، وكان قد لجأ إلىٰ عبد الملك:

«بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛ فإن لو ذان المعترضين بك وحلول الجانحين إلىٰ المكث بساحتك واستلافتهم دمث أخلاقك وسعة عفوك كالعارض المبرق لأعدائه، لا يعدم له شائمًا رجاء استمالة عفوك، وإذا أُدني الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمرينًا لهم علىٰ إضاعة الحقوق مع كل ضال، والناس عبيد العصا هم علىٰ الشدّة أشد استباقًا منهم علىٰ اللين ولنا قِبَل عروة بن الزبير مال من مال الله، وفي استخراجه منه قطع لطمع غيره فليبعث به أمير المؤمنين إن رأىٰ ذلك والسلام».

فأجابه عبد الملك: «بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين رآك مع ثقته بنصيحتك خارطًا في السياسة ضبط عشواء الليل؛ فإنَّ رأيك الذي يُسوّل لك أن الناس عبيد العصا هو الذي أخرج رجالات العرب إلىٰ الوثوب

عليك، وإذا أخرجت العامة بعنف السياسة كان أوشك وثوبًا عليك عند الفرصة ثم لا يلتفتون إلىٰ ضلال الداعي ولا هداه إذا رَجَوْا بذلك إدراك الثأر منك، وقد وُلِيَتْ العراق قبلك ساسة وهم يومئذ أحمىٰ أنوفًا وأقرب من عمياء الجاهلية وكانوا عليهم أصلح منهم عليك، وللشدة واللين أهلون، والإفراطُ في العفو أفضل من الإفراط في العقوبة والسلام».

وفي أيام عبد الملك ضُبطت الحروف العربية النقط والحركات؛ فعل ذلك نصر بن عاصم النحوي المتوفي سنة ٩٠هـ، ولما حضرت عبد الملك الوفاة جمع أبناءه وقال يعظهم:

«أوصيكم بتقوىٰ الله؛ فإنها عصمة باقية، وجنة واقية وهي أحصن كهف وأزين حلية، وليعطف الكبير منكم علىٰ الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير مع سلامة الصدور والأخذ بجميل الأمور، وإياكم والفرقة والخلاف، فبهما هلك الأولون، وذل ذوو العز المعظَّمون كونوا بني أم بَرَرَة لا تدبّ بينكم العقارب، وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب؛ فإنهم أصون له وأشكر لما يؤتىٰ إليهم منه، وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب فإن استقالوا فأقيلوا، وإن عادوا فانتقموا»، ثم أقبل علىٰ ابنه الوليد وليّ عهده فقال: «لا أُلفينَك إذا متُ تعصر عينيك! وتحنُّ حنين الأمة! ولكن شَمِّر واتزر والبس جلد نمر! وذلِّني في حفرتي وخلِّني وشأني وعليك وشأنك، ثم ادعُ الناس إلىٰ البيعة؛ فمن قال برأسه كذا (لا) فقل بالسيف كذا (اضرب عنقه)»، والجملة الأخيرة أثبتها مترجموه له مرَّتين، حين وُلِّيَ وحين وَلَّىٰ، كما رأيت، ومات في منتصف شوال فدفن خارج باب الجابية.

لخصت هذه الترجمة من الكامل لابن الأثير (المجلد الثالث)، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح، والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج٢)، وفوات الوفيات (ج٢)، والمعارف لابن قتيبة وغيره.

الوليد بن عبد الملك

ولد سنة ٤٨ وتوفي سنة ٩٦هـ

اتصف أكثر الملوك من بني مروان بصفات جعلت لهم فضلاً كبيرًا علىٰ العالم الإسلامي؛ ففيهم الزاهد الناسك في غير ضعف، والمُوَطِّد السائد في غير عنف، والعمراني الفاتح، والرجل الصالح، مما لا يُنكره المنكِر ولا يجحده الجاحد، وكان عمرانيَّهم الأكبر وصاحب الآثار فيهم مترجمُنا هذا.

وهو: أبو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، الأمويُّ القرشي، ولي الخلافة بعهد من أبيه عبد الملك (سنة ٨٦هـ)، والبلاد مطمئنة والمسلمون ساكنون، فوجَّه القُوَّاد لفتح البلاد فكان من رجاله موسىٰ بن نصير، ومولاه طارق بن زياد، فسيَّره الوليد إلىٰ بلاد المغرب (سنة ٨٩هـ)، وموسىٰ سيَّر طارقًا، فاجتاز طارق جبال إلبيرة، وهي سلسلة جبال تفصل بين مملكة أسبانيا (الأندلس) وفرنسا، وافتتح الجانب الجنوبي من فرنسا، وأوشك يتوغل في أوروبا، إلا أن موسىٰ حسده ولحق به وأهانه وأوقفه عن السير وقيل: إنه سجنه فبلغ الوليد ذلك فطلب موسىٰ إلىٰ الشام وضربه وطرده إلىٰ مكة، حيث كانت وفاته، وأصبحت جبال إلبيرة (أو البرينات) حدًّا بين العرب والعجم.

وامتدت في زمنه المملكة العربية شرقًا إلىٰ بلاد الهند فتركستان فحدود الصين، بحيث بلغت مسافتها ستة أشهر بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، قال أحد المؤرخين: فتح المسلمون في ثمانين عامًا ما لم تفتحه الرومان في ثمان مئة.

أما ولوع الوليد بالبناء والعمران فكان غريبًا جدًّا، قال ابن الأثير في حوادث سنة ٨٨هـ: «وفي هذه السنة كتب الوليد إلىٰ عمر بن عبد العزيز - والي المدينة - يأمره بتسهيل الثنايا وحفر الآبار وأن يعمل الفوارة بالمدينة فعملها وأجرىٰ ماءها

فلما حج الوليد ورآها أعجبته فأمر لها بقُوَّام يقومون عليها، وأمر أهل المسجد أن يستقوا منها وكتب إلىٰ البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار، ومنع المجذومين من الخروج علىٰ الناس وأجرىٰ لهم الأرزاق. اهـ.

والوليد أول من أحدث المستشفيات في الإسلام وأمر ببنائها مؤاساة للمرضىٰ والمصابين بعقولهم، وجعل لكل أعمىٰ قائدًا يتقاضىٰ نفقاته من بيت المال ولا عمل له إلا قيادته والنظر في شأنه، وأقام لكل مقعد خادمًا، ونشّط القراء المشتغلين بحفظ القرآن الكريم فخصص لهم أموالاً تكفيهم وتمنعهم من أن يكونوا عالة علىٰ الناس أو يتخذوا القرآن حرفة يعيشون بها كما هو الحال اليوم في بلاد المسلمين من تكسب القُرَّاء بالقراءة، حتىٰ دخلت علينا بدعة من أسوأ البدع في الإسلام، وهي بيع الخُتْمة بقيمة محتومة وهم يحتالون علىٰ الله فيجعلون الدراهم هبة ويهبون الخُتْمة لروح الميت ولو امتنعت من بذل المقابل من الأجرة لضنوا علىٰ دفينك بالكلمة يتلونها والحرْف يجوّدونه، وهذا بحث يجر إلىٰ سواه فلنتركه إلىٰ الباحثين من علماء الدين.

وأقام الوليد بيوتًا ومنازل تأوي إليها الغرباء وتهوي عليها الضيفان كما هو الشأن في قبائل العرب والآخذين إخذهم، وهدم مسجد المدينة والبيوت المحيطة به ثم بناه بناء جديدًا، فجعل مساحته مئتي ذراع في مئتين (ذراعًا هاشميًا، وهو نحو نصف الذراع الشامي)، ودفع أثمان البيوت من بيت مال المسلمين، وصفّح الكعبة والميزاب والأساطين في مكة، وبنىٰ المسجد الأقصىٰ في القدس، أرسل إليه الصُنَّاع والعملة من الشام، والمأثرة الخالدة للوليد بناؤه مسجد دمشق المعروف بالجامع الأموي وهو من أشهر مساجد البلاد الإسلامية وفيه قبر ماريوحنا، وكان كنيسة لنصارىٰ الشام فلما فتح خالد بن الوليد دمشق ودخلها عنوة من جانبها الشرقي دخل الكنيسة، وقد علم أن أبا عبيدة بن الجراح دخلها صُلحًا من الجانب الغربي فاتفق المسلمون مع الروم علىٰ أن يجعلوا النصف

الشرقي مسجدًا ويبقىٰ النصف الغربي كنيسة، فلما استُخلف الوليد الأُمويُّ دعا النصارىٰ إلىٰ أن يعوضهم عن ذلك الجانب الغربي الذي بأيديهم مكانًا غيره في دمشق، فأبوا فانتزعه قهرًا وضمه إلىٰ النصف الأول.

وكتب إلىٰ ملك الروم والقسطنطينية أن يوجه إليه اثنىٰ عشر ألفًا من صناع بلاده فأبىٰ فهدده فأذعن وبعث بهم وأنفق علىٰ بنائه، كما نقل ابن جبير في حلته عن ابن المعلىٰ الأسدي (١١,٢٠٠,٠٠٠) أي نحو ستة ملايين ليرة إنكليزية من نقود زماننا، وعلَّق فيه ست مئة سلسلة ذهبية للمصابيح، وملأ جدرانه كلها بفصوص الفسيفساء ممزوجًا بها أنواع من الأصبغة الغريبة تمثّل أشجارًا وأغصانًا بديعة الصنع، بدأ فيه سنة ٨٨هـ، ومات ولم يكمله فأتمه أخوه سليمان، وقد وصف ابن جبير هذا المسجد وصفًا شاملاً فارجع إليه إن شئت ولا بأس بنقل النبذة التاريخية الآتية عنه قال:

«وله - أي الجامع الأمويّ - أربعة أبواب: باب قبلي، ويُعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير متسع له أعمدة عظام وفيه حوانيت للخرزيين وسواهم، وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين - لعلها المعروفة بالصاغة اليوم - وهي كانت دار معاوية (رضي الله عنه) وتُعرف بالخضراء، وباب شرقي، وهو أعظم الأبواب ويُعرف بباب جيرون، وباب غربي، ويُعرف بباب البريد، وباب شمالي، ويُعرف بباب الناطفيين، وللشرقي والغربي والشمالي أيضًا من هذه الأبواب دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها إلىٰ باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة فبقيت علىٰ حالها وأعظمها منظرًا الدهليز المتصل بباب جيرون، ليخرج من هذا الباب إلىٰ بلاط طويل عريض قد قامت أمامه خمسة أبواب مقوَّسة لها ستة أعمدة طوال، وفي وجه اليسار منه مشهد كبير حفيل كان فيه رأس الحسين بن علي (عليهما السلام)، ثم نُقل إلىٰ القاهرة وبإزائه مسجد صغير يُنسب لعمر بن عبد العزيز... إلخ».

وبالجملة فقد كان هذا المسجد من مفاخر الأبنية الإسلامية ولما وَلي عُمر ابن عبد العزيز أتاه جمع من النصارىٰ وأروه عهدًا في أيديهم من الصحابة بإبقاء جانب الغربي لهم فهمَّ بإعادته إليهم، ثم عوضهم منه بمال عظيم أرضاهم به فقبلوه.

وأُحرق هذا الجامع مرات متواليات آخرها في عهدنا هذا، وبناؤه اليوم يختلف كثيرًا عن شكله الأول؛ فإنه الآن مسجد متَّسع عمارته لا تزيد عن عمارة غيره من المساجد العظيمة المبنية في الأزمنة المتأخرة وفيه كثير من آثاره لا تزال كمشهد الحسين وبعض الأعمدة وشيء من الفسيفساء في الجانب الشمالي من داخله، وقد أطلنا في الكلام عليه حتىٰ كدنا نخرج عن موضوعنا.

وامتدت الخلافة للوليد تسع سنين وثمانية أشهر أبقىٰ فيها آثارًا جليلة وذكرًا حسنًا، وكان محبًا للنساء كثير الزوجات، قيل: إن عدد اللواتي تزوجهنَّ ينيف علىٰ الستين، وكان كثير الصدقات والمبرات والخيرات، وكانت وفاته بدير مران في غوطة دمشق، ودُفن بها وقيل في خارج الباب الصغير.

وهذه الترجمة لخصتها من كتب كثيرة أوثقها: (الكامل: ج٤، ٥)، وشذرات الذهب، والفخري لابن الطقطقي، ورحلة ابن جبير، وتاريخ الشام لابن عساكر.. وغيرها.

سليمان بن عبد الملك

ولد سنة ٥٤ وتوفي سنة ٩٩هـ

لم يكن صاحب هذه الترجمة من أولئك الرجال الذين حالفهم التوفيق فشادوا وسادوا ولكنه قصُرت مدته وحاول القيام بعمل عظيم فلم يفلح وكان الناس قد استبشروا بتوليه بعد أخيه، وذلك أنه بويع يوم وفاة أخيه الوليد وهو بالرملة سنة ٩٦هـ فلم يتخلف عن مبايعته أحد لرسوخ قدم هذه الأسرة في منصب الخلافة

ولكُرْه الناس المشاغب بعد ما قاسَوْا وما عانوا في أيام مروان ومن تقدمه، وكان الحجاج بن يوسف قد توفي سنة ٩٥هـ، أي قبل تولية سليمان بسنة والناسُ له كارهون، ومن شدته مشتكون، فسرَّهم موته ثم استُخلف سليمان فأمَّلوا به خيرًا؛ فإنه أطلق الأسرىٰ وأمر بإخلاء السجون والعفو عن المجرمين وأحسن إلىٰ الناس بما علَّقهم بحبه، وعهد أولاً بالخلافة إلىٰ ابنه أيوب، فمات في حياته فعهد إلىٰ وزيره ومشيره ابن عمه عمر بن عبد العزيز الملك الصالح، وكان الناس يعرفون صلاحه وحُسن دينه وفضله، فشملهم السرور وسمَّوا سليمان: مفتاح الخير.

وهو أبو أيوب سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشيّ، وكان موصوفًا بالفصاحة وجودة الفهم والفطنة وحب الخير والعدل والميل إلىٰ فتح البلدان والغزو.

وفي سنة ٩٨هـ أراد أن يقرن اسمه بأسماء كبار الفاتحين فجهز الجيوش والسفن وسيَّرها بقيادة أخيه مَسْلَمَة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية فلما بلغها خدعته الروم وأصاب الجيش جوع شديد ومحنة وبلاء ولم يزل بها حتىٰ بلغه موت أخيه سليمان، وتولية عمر بن عبد العزيز فكتب إليه عمر أن يعود فعاد، ولم يُصبْ نجاحًا، وفي أيام سليمان فُتحت جرجان وطبرستان من بلاد الترك ولم تكن أمصارًا، بل هي جبال ومخارم وأبواب يقوم الرجل علىٰ باب منها فلا يُقدِم عليه أحد.

وكانت عاصمة دمشق عاصمة آبائه، وأما إقامة مدة خلافته فأكثرها كان في دابق من أرض قنسرين، وبها مات ودفن ولم يحكم غير سنتين وثمانية أشهر إلا أيامًا، وكان مُعجبًا بنفسه، لبس يومًا حلة خضراء وعمامة خضراء ونظر في المرآة فقال: أنا الملك الفتي! فمات قبل تمضي عليه جمعة، ونظرت إليه جارية فقال: ما تنظرين؟ فقالت:

أنت نعم المتاع لو كنتَ تبقىٰ غير أنْ لا بقاء للإنسانِ
ليس فيما علمته فيك عيب كان في الناس غير أنك فانِ

عمر بن عبد العزيز

ولد سنة ٦٢هـ وتوفي سنة ١٠١هـ

لعلك تجد في بعض كتب التاريخ والسيَر اسم هذا الخليفة الأمويّ مقترنًا بلقب: خامس الخلفاء الراشدين؟ وأنت تعلم أن زمرة الراشدين قد ذهب بهم وذهبوا به فكيف عادت تلك النغمة المحبوبة والذكرىٰ المصطفاة؟ فاعلم أن صاحب هذه الصحيفة وهو:

أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم: الخليفة المرواني الأمويّ القرشي: هو الرجل الفذُّ الذي سلك طريقة الراشدين واهتدىٰ بهديهم ونسج علىٰ منوالهم، هو الملك الناسك والخليفة الصالح والإمام العابد، مولده بحلوان قرب القاهرة، ولما شبَّ وُلِّيَ إمارة مصر، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك، وولي الخلافة بعهد من سليمان ولم يكن يعلم به؛ فلما مات سليمان (سنة ٩٩هـ) أقبل رجاء بن حياة أحد المقرَّبين من سليمان وكان ذا رأي وفضل فنادىٰ بالناس فاجتمعوا إليه في مسجد دمشق فابتدأ يقرأ عليهم عهد سليمان إلىٰ عمر، وعمر بناحية من المسجد يستمع كغيره فلما ذُكر اسمه وكان يخشىٰ أن يكون هو المولّىٰ وهذه صورة العهد:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر ابن عبد العزيز: إني قد وليتك الخلافة بعدي ومن بعدك يزيدَ بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم».

فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون. فأسرع إليه رجل من ثقيف يقال له سالم، من أخوال عمر، فأخذ بضبعيه فأقامه، فالتفت إليه قائلاً: أما والله ما اللهَ أردتَ بهذا ولن تُصيب بها مني دنيا! ثم أجلسه رجاء بن حياة على المنبر فأقبلت الناس تبايعه وهم يبكون على سليمان، ثم وقف عمر فحمد الله وصلى على نبيه وقال:

«أيها الناس، إني ابتُليت بهذا الأمر من غير رأي مني فيه ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين، إني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم غيري»، فصاحوا كلهم: قد اخترناك ورضيناك، فقال: «أوصيكم بتقوى الله؛ فإنَّ تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء وليس من تقوى الله خَلَف واعملوا لآخرتكم فإنَّ من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه وآخرته وأصلحوا سرائركم يُصلح الله علانيتكم، والله إني لا أعطي أحدًا باطلاً ولا أمنع أحدًا حقًا، من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعتُ الله؛ فإن عصيتُه فلا طاعة لي عليكم».

ولما نزل أُتي بمراكب الخلافة ولكل دابة سائس، فقال: ما هذا؟ فقيل: مراكب الخلافة. قال: دابتي أوفق لي، وركب دابته وصُرفت تلك الدواب، فقيل له: أمنزلَ الخلافة نبغي؟ قال: لا؛ فإن فيه عيال أبي أيوب - يعني سليمان بن عبد الملك - وفي فسطاطي كفاية حتى يتحوَّلوا، ولما استقرَّ به مجلسه دعا بكاتب واحد فجعل يُملي عليه الرسائل إلى العمال، فكان فيما كتبه كتاب إلى عبد الرحمن بن نعيم:

«... أما بعد؛ فاعمل عمل من يعلم أن الله لا يُصلح عمل المفسدين».

وإلى سليمان بن أبي السرى: «.. واعمل خانات فمن مرَّ بك من المسلمين فاقروه يومًا وليلة وتعهدوا دوابَّهم، ومن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين، وإن كان منقطعًا به فأبلغه بلده».

وكتب إلى عامل الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب:

«.. أما بعد؛ فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنةٌ خبيثة سنَّها عليهم عمال السوء، وإن قوام الدين العدلُ والإحسان فلا يكوننَّ شيء أهم إليك من نفسك فلا تحمِّلها قليلاً من الإثم، ولا تحمل خرابًا علىٰ عامر - يريد في أمر الجباية - وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتىٰ يعمر ولا يؤخذنَّ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض، ولا تأخذنَّ أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت، ولا درهم النكاح ولا خراج علىٰ من أسلم من أهل الأرض فاتبع في ذلك أمري فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتىٰ تراجعني فيه، وانظر مَن أراد من الذرية أن يحج فعجل له مئة ليحج بها والسلام».

وقال في إحدىٰ خطبه وقيل في خطبته الأولىٰ:

«أيها الناس، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفعُ إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا علىٰ الخير بجهده، ويدلنا من الخير علىٰ ما نهتدي إليه ولا يغتابنَّ أحدًا ولا يعترض فيما لا يعنيه».

ودخلت عليه امرأته فاطمة فرأته يَبكي وهو في مصلاه فقالت: أحدث شيء؟ فقال: إني تقلدت أمر أمة محمد فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع، والغازي والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذوي العيال الكثير، والمال القليل وأشباههم في أقطار الأرض فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة فخشيت أن لا تثبت حجتي فرحمت نفسي فبكيت.

وأول حسنة قام بها عمر أنه مَنع سبَّ علي بن أبي طالب وكان الخلفاء من بني أمية يسبونه ويعزون إليه أمورًا مستكرهة فكتب عمر ابن عبد العزيز إلىٰ عماله أن يستعيضوا عنها بآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ

عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠).

فكان (رحمه الله) من الخلفاء الأتقياء سَكن إليه الناس واطمأنوا وآمنت الرعية في زمنه؛ لأنه كان لا يحابي ولا يراعي وإنما الناس في الحقوق سواءٌ عنده كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم، سيدهم وحقيرهم.

كتب إليه عامل حمص يقول: إن هذه المدينة تحتاج إلىٰ حصن، فوقَّع له في الكتاب: حصِّنها بالعدل.

ومن كلامه: الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، وقوله: لولا أنَّ ذِكر الله فرض عليَّ لما ذكرته إجلالاً له.

وكان قد شرع بأمر لا يصدر عن غيره ولو طالت مدته لأتمَّهُ ولكن المنية التي لم تمكنه من المكوث في منصب الخلافة غير سنتين وخمسة أشهر ونصف شهر حالت بينه وبين ما أراد، وذلك أنه همَّ بنزع الأموال والزخارف التي كان يملكها رجال من بني أمية وهو يعلم أنها إنما أُخذت سِلابًا وانتهابًا من بيت مال الأمة فرأىٰ أن يعيدها إلىٰ مصدرها، ولكنه خاف الفتنة وقيام الثورة فجعل يمهِّد السبُل رجاءَ أن يعيش فيُظهر ما عوَّل عليه، وشعر بذلك بعض أهله فدسوا له السُّمَّ في الدسم فمرض أيامًا، وتوفي (رحمه الله) وهو بدير سمعان من أرض المعرة فدفن به وقبره يُزار إلىٰ اليوم. قال الشاعر:

ديرِ سمعان لاعدتك الغوادي خيرُ ميْت من آل مروان مَيْتُكْ

وقد جمعت سيرته وأخباره في عدة مصنفات منها كتاب بقي بن مخلد الأندلسي، وهو مفقود فيما أحسب، وكتاب أبي الفرج ابن الجوزي: سماه سيرة عمر بن عبد العزيز وهو مطبوع في مصر صفحاته تقارب ست مئة، وترجمه أكثر أصحاب التراجم والتواريخ.

ذيـــل

لما توفي عمر بن عبد العزيز تولىٰ الخلافة من بعده، يزيد بن عبد الملك ابن مروان بعهد من أخيه سليمان كما تقدم في ترجمة عمر، وكان يزيد يتواضع ويتظاهر بالصلاح فلما صار إليه المُلك رجا به الناس أن يتابع سيرة سلفه فخاب رجاؤهم ولم يكن الرجلَ العظيم الذي يبقي المآثر، بل خالف مظهره الأول ومال إلىٰ لذائذه، ولد سنة ٧٦هـ وتولىٰ سنة ١٠١هـ، ومات سنة ١٠٥هـ، وليس في أخباره ما يجعله في عظماء الرجال الذين أُلف هذا الكتاب ليذكرهم، وقد كانت في أيامه حروب وغزوات تجدها في تراجم أخبار السنين والعصور كتاريخ العبر والكامل والطبري فارجع إليها.

وعهد يزيد هذا بالمُلك إلىٰ أخيه هشام بن عبد الملك ثم ابنه الوليد ابن يزيد ابن عبد الملك، فلما مات تولىٰ هشام الآتي خبره.

هشام بن عبد الملك

ولد سنة ٧١ وتوفي سنة ١٢٥هـ

امتاز صاحب هذه الترجمة برجاحة العقل وضبط الأمور بالحزم والأخذ بقوة البطش وجلال الهيبة، مات أخوه يزيد والأطماع ممتدة إليه، وهشام بحمص فبويع بها وأقبل علىٰ دمشق وذلك سنة ١٠٥هـ، وكانت في عهده أمور كثيرة منها، خروج زيد بن علي بن الحسين بن علي سنة ١٢٠هـ بأربعة عشر ألفًا من أهل الكوفة قد بايعوه وعاهدوه علىٰ قتال جيوش الشام وما يرد عليهم من ملوك بني أمية قال ابن خلدون في العبر:

ظهر زيد بن علي بالكوفة خارجًا علىٰ هشام: داعيًا للكتاب والسنة، وإلىٰ جهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، والعدل في

قسمة الفيء، ورد المظالم، وأفعال الخير، ونصر أهل البيت.اهـ.

وكان العامل علىٰ العراق يوسفُ بن عمر الثقفي وهو حينذاك في الحيرة فكتب إليه هشام، بعد أن أعلمه يوسف بالأمر، يأمره أن يقاتل زيدًا، فكتب يوسف إلىٰ الحكم بن الصلت وهو في الكوفة، فطلب الحكم زيدًا، ثم اجتمع الثائرون من أصحاب زيد، والعساكر من جنود الحكم، فنشب قتال أظهر فيه زيد بن علي شجاعة خارقة وجَلَدًا علىٰ الحرب عجيبًا، وأصابه سهم في جبهته فلما عاد إلىٰ منزله في المساء نزعه وقد بلغ دماغه فنزف دمه فمات من ساعته ودفنه أصحابه.

وفي اليوم الثاني تفرق جمعه وبحث عنه الحكم فعثر عليه فقطع رأسه وأرسله إلىٰ يوسف في الحيرة ويوسف بعث به إلىٰ هشام في الشام فنصبه علىٰ باب دمشق، وانطفأت الفتنة.

وفي أيامه حدثت حروب كثيرة مع خاقان الترك في ما وراء النهر، انتهت بقتله خاقان وملكوا بعض بلاده وفازوا بغنائم وافرة.

وتحرك فريق من الخوارج يريدون الظهور فعلم بهم هشام فوجَّه إليهم جندًا فكان قتال خُتم بقمع ثائرتهم وتخضيد شوكتهم واستتباب الأمر له.

وكان هشام محبًا لجمع الأموال منعوتًا بالبخل، قيل لم يجتمع في خزانة أحد من ملوك بني أمية من المال ما اجتمع في خزائنه.

قال الثعالبي في الإعجاز والإيجاز: قيل لهشام - قبل أن يلي المُلك -: أتطمع في الخلافة وأنت جبان بخيل؟ فقال: كيف لا أطمع بها وأنا عفيف حليم.. قال: وكتب إلىٰ أخيه مسلمة بن عبد الملك: «طهِّر عسكرك من أهل الفساد فإن الله لا يُصلح عمل المفسدين».

ونقل ابن الأثير في الكامل عن مجمع بن يعقوب الأنصاري نبذة تدل علىٰ

حلم هشام وحُسن أخلاقه قال: شتم هشامٌ رجلاً من الأشراف فوبخه الرجل وقال: أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاستحيىٰ هشام منه، وقال: اقتصَّ مني! قال: إذًا أنا سفيه مثلك! قال: فخذ مني عوضًا من المال! قال: ما كنتُ لأفعل! قال: فهبها لله! قال: هي لله ثم لك! فنكَّس هشام رأسه واستحيىٰ وقال: والله لا أعود إلىٰ مثلها أبدًا!

ولما كانت سنة ١٢٥هـ مرض هشام بن عبد الملك وهو في الرصافة (قال ياقوت: رُصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرَّقة بينهما أربعة فراسخ علىٰ طرف البرية بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام، وكان يسكنها في الصيف، فهي غير رصافة بغداد والبصرة) ففكَّر في أمر من يلي الخلافة بعده، وكان أخوه يزيد قد عهد بها إلىٰ ابنه الوليد بن يزيد، فرأىٰ هشام أن الوليد لا يصلحُ لها ولا هو من رجالها؛ فحاول خلعه وتولية من يكون أولىٰ منه بها فلم يستطع، ومات في الرصافة.

ومدة خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وأيام.

الوليد بن يزيد

ولد سنة ٨٤ وقُتل سنة ١٢٦هـ

قلتُ في آخر سيرة هشام السالفِ ذِكرُه: إن هشامًا رأىٰ الوليد لا يصلح للخلافة، وذلك لما كانوا يصفونه به من حب المجُون والميل إلىٰ اللهو وإيثار اللذائذ علىٰ التفكير بشؤون المُلك، وأوشكتُ أن أضرب صفحًا عن إلحاقه بعظماء الرجال الذين عقدت النية علىٰ إثباتهم في هذا المصنَّف، ثم رأيت بعض المؤرخين يذهبون إلىٰ الثناء علىٰ الوليد ويَعُدُّون ما قيل فيه افتراءً عليه وهم يروون له شعرًا حسنًا يصلح لنا أن ندعوه به شاعر الملوك الأمويين، وعلماء الأدب يذكرون أن كثيرًا من الشعراء والكبار كأبي نواس وطبقته يسرقون معاني

الوليد ويدمجونها في أشعارهم، فقلت: إذا لم يكن الوليد ملكًا همامًا فهو شاعر مجيد، ولم أر أخلاء الكتاب من وصفه.

وهو: الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ولي الخلافة بعد عمه هشام بعهدٍ من أبيه يزيد. قال ابن الأثير المؤرخ بعد أن ذكر أخباره ونسبه: وكان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم منهمكًا في اللهو والشرب وسماع الغناء، ومن جيّد شعره قوله لما بلغه أنَّ هشامًا يريد خلعه وكتب إليه بالأبيات:

رأيتك تبني دائبًا في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدَّمتَ ما تبني
تثير على الباقين مَجْنَى ضغينة فويل لهم إن متَّ من شرِّ ما تجني
كأني بهم والليتُ أفضل قولهم ألا ليتنا والليتُ إذ ذاك لا يُغني
كفرتَ يدًا من منعم لو شكرتَها جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمنِّ

يشير إليه بأنه لو صرف الخلافة عنه ومات لحدثت حروب ووقائع وفتن، ولما مات هشام أتىٰ خبرُهُ الوليدَ، وهو في مجلس طرب فأصغىٰ قليلاً وأمر مغنيه أن يغنيه:

طاب يومي ولذَّ شُرْب السُّلافَهْ وأتانا نعيُّ مَن بالرصافَهْ
وأتانا البريد ينعي هشامًا وأتانا بخاتم للخلافَهْ
فاصطحبنا من خمر عانة صرفًا وَلَهَوْنا بقينة عزَّافَهْ

فغناه بها وفي صبيحة اليوم الثاني من توليته أجرىٰ علىٰ الزمني من أهل الشام الجرايات وكسا المعوزين وأمر بإحصاء العميان، وأن يُدفع إلىٰ كل واحد منهم خادم يخدمه وفرَّق علىٰ الناس العطايا والمنح ولم يُسأل شيئًا إلا سمح به،

وقال:

ضمنتُ لكم إن لم يَعقني عائق ... بأن سماء الضر عنكم ستُقلعُ
سيوشك إلحاق معًا وزيادة ... وأعطية مني عليكم تبرعُ
فيجمعكم ديوانكم وعطاؤكم ... به تكتب الكتَّاب شهرًا وتطبعُ

وهو الذي قتل خالد بن عبد الله القسري وقال في ذلك قصيدته العامرة يوبخ أهل اليمن، وكانوا قد حاولوا نصرة خالد، ثم تخلوا عنه، وقيل: إن القصيدة لأحد شعراء اليمن جعلها على لسان الوليد ولا أراه حقيقة، قال الوليد:

ألم تُهْتَجْ فتذَّكرَ الوصالا ... وحبلاً كان متصلاً غزالا[1]
بلىٰ فالدمع منك إلىٰ انسجام ... كماء المزن ينسجل انسجالا
فدع عنك أدّ كارك آل سُعدىٰ ... فنحن الأكثرون حصًىٰ ومالا
ونحن المالكون الناس قسرًا ... نسومهم المذلة والنكالا
وطئنا الأشعريّ بعزٍّ قيس ... فيالكِ وطأة لي تُستقالا
وهذا خالد فينا أسير ... ألا مَنَعُوه إن كانوا رجالا
عظيمهمُ وسيدهم قديمًا ... جعلنا المخزياتِ له ظِلالا
فلو كانت قبائلَ ذاتَ عزٍّ ... لما ذهبتْ صنائعه ضلالا
ولا تركوه مسلوبًا أسيرًا ... يعالج من سلاسلنا الثقالا
ولكنَّ الوقائع ضعضعتهم ... وجذَّتهم وردَّتْهم شلالا

وأثَّرت هذه القصيدة في اليمانية فأخذوا يسعون في قتله وقال حمزة ابن بيض الشاعر يرد علىٰ الوليد في أبياته السابقة:

وصلت سماء الضر بالضر بعدما ... زعمتَ سماء الضر عنا ستُقلِعُ

---

(١) القصيدة أوردتها مصادر كثيرة.. وقد ورد الشطر الثاني برواية: ... كان متصلًا فزالا.

فليت هشامًا كان حيًا يسومنا وكنا كما كنا نرجىٰ ونطمعُ

ثم أتوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادوه علىٰ البيعة فأطاعهم فبايعوه وانعقدت له البيعة سرًا وفشت الدعوة إليه في الناس واستفحل أمره وشعر بهم الوليد فأراد تجهيز جيش فرأىٰ الناس عنه راغبين فنهض برجاله يقاتل يزيد وأشياعه فنشب القتال، ثم انهزم الوليد فدخل قصر النعمان بن بشير في البخراء بظاهر دمشق وأغلق الباب، ثم أطل علىٰ الجماهير، وقال: أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه؟ فأجابه رجل من أصحاب يزيد، فقال: ألم أزد في أعطياتكم، ألم أرفع المؤن عنكم، ألم أعطِ فقراءكم، ألم أخدم زمناكم، قالوا: بلىٰ! ولكنك انتهكت حرمة الله وشربت الخمر واستخففت بأمر الله، فعلم أنه لا سبيل لإقناعهم فعاد فأخذ مصحفًا وجلس يتلو، فدخلوا عليه، فقال: يوم كيوم عثمان! فقتلوه.

وذلك سنة ١٢٦هـ، ومدة خلافته سنة وستة أشهر، وله من الكلام ما هو غاية في بلاغته: يُذكَر أنه لما مات مسلمة بن عبد الملك قعد هشام للعزاء فأتاه الوليد يجرّ مطرف خز عليه، فوقف علىٰ هشام فقال: «يا أمير المؤمنين إن عُقبىٰ من بقيَ لحوقُ مَن مضىٰ، وقد أقفر بعد مسلمة الصيدُ لمن رمَىٰ واختل الثغر فهوىٰ، وعلىٰ أثرِ من سلف يمضي مَن خَلَف، فتزودوا فإنَّ خير الزاد التقوىٰ»، فأُفحم هشام ولم يُجبه، ومن شعره قوله في نصرانية اسمها شقراء:

أضحىٰ فؤادك يا وليد عميدا صبًا قديمًا للحسان صيودا
من حب واضحة العوارض طفلة برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
ما زلت أرمقها بعيني وامق حتىٰ بَصُرْتُ بها تقبِّل عودا
عود الصليب فويح قلبي من رأىٰ منكم صليبًا مثله معبودا
فسألتُ ربي أن أكون مكانه وأكونَ في لهب الجحيم وقودا

تتمة

لما قُتل الوليد ولي الخلافة ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك؛ فكانت أيامه علىٰ قصرها أيام شرور وفتن وثورات وإحن وليس له ما يدل علىٰ عَظمة أو كِبَر نفس أو فضل إلا قوله حين ولي؛ فإنه خطب الناس بعد أن قُتل الوليد فذكر لهم زيد ما كان عليه ابن عمه من الخلاعة والفسق ثم قال:

«أيها الناس، إن لكم عليَّ أن لا أضع حجرًا علىٰ حجر ولا لبنة ولا أكتري نهرًا، ولا أكثر مالاً، ولا أعطيه زوجة وولدًا، ولا أنقل مالاً عن بلد حتىٰ أسد ثغره وخصاصةَ أهله بما يغنيهم فما فضل نقلته إلىٰ البلد الذي يليه ولا أحجركم في ثغوركم كأفتنكم، ولا أغلق بابي دونكم، ولا أحمل علىٰ أهل جزيتكم، ولكم أعطياتكم كل سنة وأرزاقكم في كل شهر حتىٰ يكون أقصاكم كأدناكم؛ فإن وفيتُ لكم بما قلتُ فعليكم السمع والطاعة وحُسن الوزارة، وإن لم أَفِ فلكم أن تخلعوني إلا أن أتوب، وإن علمتم أحدًا ممن يُعرف بالصلاح يُعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه، أيها الناس لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

كان الوليد قد زاد في أعطيات الناس (أي رواتبهم) عشرةً عشرةً من الدراهم فلما ولي يزيد نَقَصها فلقبوه «يزيد الناقص».

وكان مولده سنة ٨٦هـ، وتولىٰ الخلافة سنة ١٢٦هـ فأقام خليفةً خمسة أشهر وثمانية أيام ومات في هذه السنة وليس في تاريخ حياته ما يجعله في العظماء، أما أخبار أيامه فكثيرة كما قلنا وهذه ليست من خصائص هذا الكتاب فارجع إليها في تواريخ الأزمنة والعصور.

* *

ولما مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك قام بعده بالأمر أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك، وكان ضعيفًا مغلوبًا علىٰ أمره مغلولَ اليد فازدراه أتباعه، فكانوا تارةً يسلمون عليه بالخلافة، وتارة بالإمارة، وتارة لا يُسلِّم عليه بواحدة منهما، فمكث سبعين [يومًا] (وذلك سنة ١٢٦هـ - ١٢٧هـ) فثار عليه مروان ابن محمد بن مروان، وكان واليَ أذربيجان ودعا إلىٰ نفسه بالخلافة وسار إلىٰ الشام؛ فأنفق أموالاً استمال بها الجند إليه، وعرف إبراهيم عجزه عن دفع هذه الغائلة، وكان علىٰ ما عرفتَ من الضعف، ففرَّ واختفىٰ، فاستولىٰ مروان علىٰ الشام، ثم أمَّن إبراهيم فظهر، واستقرت الخلافة لمروان سنة ١٢٧هـ.

مروان بن محمد

ولد سنة ٧٣ وقُتل سنة ١٣٢هـ

قدَّمنا أن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وثب علىٰ إبراهيم بن الوليد فاغتصب المُلكَ منه، ونرىٰ أن لمروان هذا ذكرًا كثير الورود في التاريخ فلا ينبغي إغفاله، وإن لم يكن قد أبقىٰ من الآثار ما يُذكر به، فأيامه ليست من أيام إبقاء الآثار وتخليد الذكر، ولَّاه هشام بن عبد الملك علىٰ إرمينية (سنة ١١٤هـ) فسار إليها وافتتح بلادًا وقلاعًا، واستولىٰ علىٰ ولايات كثيرة من إرمينية إلىٰ طبرستان، وفي سنة ١٢٧هـ كان عاملاً علىٰ أذربيجان فبلغه ما أصاب الدولة الأموية، وهي علىٰ ما رأيت من ضعف الكلمة وتقهقر السلطان واضطراب الحال، فدعا الناس إلىٰ البيعة له فبايعوه وقَدِم بجيش كثيف إلىٰ الشام فخلع إبراهيم واستوىٰ علىٰ عرش بني مروان، فكثرت في أيامه فتن الثائرين والمخالفين لما انبث بهم من روح الشقاق والخروج عن طاعة هذه الطائفة المالكة فكان كلما رأب صدعًا انصدع رأب، وكلما داوىٰ جرحًا سال جرح، وسترىٰ في الكلام علىٰ خلفاء بني العباس ما صنعوه من بث الدعوة إليهم وتحريض الناس علىٰ نزع بيعة بني أمية والناسُ عبيدُ

القوة؛ فلما رأوا أن أبا مسلم الخراساني وهو القائد الأعظم الذي أقام العباسيين في خراسان أولاً، ثم بمرو وغيرها من بلاد فارس والعراق يدعو إلىٰ بني العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي انضموا إليه وعطفوا عليه وفُتَّ في عضد مروان ومن والاه فجمع ما استطاع جَمْعه من الجيوش، وذلك سنة ١٣٢هـ وقصد قتال قحطبة به شبيب الطائي: وكان أبو مسلم الخراساني قد سيَّره إلىٰ طوس فلما عظم شأنه سار إليه مروان بعسكره فنزل بالزاب، وهناك جيش من عسكر قحطبة عليه عبد الله بن علي فاشتعلت بينهما نار الحرب، فانهزم جنود مروان، وفرَّ مروان إلىٰ الموصل، ثم إلىٰ حران ومنها إلىٰ حمص فدمشق ففلسطين، وانتهىٰ إلىٰ بوصير من أعمال مصر.

وكان السفاح (أول الخلفاء العباسيين) قد كتب إلىٰ عبد الله بن علي يأمره بأن يتعقب مروان فلحقه حتىٰ أدركه ببوصير فقتله وبعث برأسه إلىٰ السفاح، وهو في الكوفة سنة ١٣٢هـ وهو آخر ملوك بني مروان وبه انقرضت دولتا بني أمية: المعاوية والمروانية؛ في الشام، وصفا الملك لبني العباس علىٰ ما سنذكره إن شاء الله.

ومن كلام مروان: كنزنا الكنوز فما وجدنا كنزًا أنفع من كنزِ معروفٍ في قلب حر. أيام القدرة، وإن طالت، قصيرة والمتعة بها وإن كثرت قليلة.

وكان مروان حازمًا مدبرًا فلم ينفعه حزمه وتدبيره عند إدبار المُلك وانحلال السلطان.

الدولة العباسية

تمهيد

قُتل الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي والأبصارُ حائمة علىٰ شخصه المحبوب، فانقلبت القلوب تبكيه والألسن تنعاه وترثيه واتخذ بنو هاشم مقتله وما عمَّ من الحزن عليه ذريعة لبثّ الضغينة في المسلمين علىٰ بني أمية وأحلافهم ومحضًا يثيرون به نار الحُقُود والبغضاء؛ فكانوا كلما آنسوا من أنفسهم قوةً هيَّجوا فريقًا من أشياعهم فثار علىٰ من عاصره من خلفاء بني أمية فلم يظفروا بدأَةَ ذي بدءٍ لِمَا كان أولئك قد اتخذوه لأنفسهم من الوقاية وما عدُّوه من العدة حتىٰ كان العام الأخير من القرن الأول للهجرة فكثرت أنصارهم ونبغت نابغتهم وعُدِّدت مثالب الدولة المالكة وأُحصيت هَفَواتها وزلَّاتها وكان مرجع الهاشميين في ذلك الحين إلىٰ رجلين هما: محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، ثم مات أبو هاشم مسمومًا قيل سمَّه سليمان بن عبد الملك وأوصىٰ أصحابه والدعاة إليه بمتابعة محمد ابن علي، وكان محمد ينزل أرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام فأقبلوا عليه فبايعوه سرًّا كما كانوا يبايعون مَن قبله فاختار منهم رجالاً وثق بهم فسيرَّهم إلىٰ الآفاق لبثّ الدعوة إليه، وكتب لهم كتابًا يكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها وهو أشبه بنظام جمعية سرية ثورية، فانصرفوا وهم كلما شكَّ فيهم شاكٌّ من ولاة بني أمية أظهروا أنهم يشتغلون في التجارة وفي سنة ١٠٧هـ وشىٰ بجماعة منهم في خراسان واشٍ إلىٰ أميرها أسد بن عبد الله فقطَّع أيدي من ظفر به منهم وصلبهم

فكتب بعضهم بذلك إلىٰ محمد بن علي فأجابه: الحمد لله الذي صدَّق دعوتكم وحقق مقالتكم وقد بقيت منكم قتلىٰ ستُعَدُّ.

ومن غريب أمرهم أن أسد بن عبد الله علم بدعاة منهم سنة ١٠٩هـ فقبض علىٰ أحد عشر رجلاً برأسهم زياد أبو محمد مولىٰ همدان فقتله أسد وعرض البراءة منه علىٰ أصحابه فمن تبرأ خلَّىٰ سبيله، فتبرأ اثنان فتُركا، وأبىٰ البراءة ثمانية فقُتلوا، فلما كان الغد أقبل أحد الاثنين إلىٰ أسد فقال: أسألك أن تُلحقني بأصحابي! فقتله.

وسنة ١٢١هـ أعلن العصيان زيد بن علي بن الحسين في الكوفة فكان من أمره ما ذكرناه في ترجمة هشام وقُتل سنة ١٢٢هـ، وفي سنة ١٢٥هـ توفي محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس وأوصىٰ إلىٰ ابنه إبراهيم بن محمد بالقيام بأمر الدعوة، وفي سنة ١٢٦هـ وجَّه إبراهيم ابن محمد الإمام أبا هاشم بكير بن ماهان وهو من أمنائه إلىٰ خراسان، فقدم مرو وجمع النقباء والدعاة فنعىٰ محمد بن علي، ودعا إلىٰ ابنه إبراهيم فقبلوه ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من الأموال وكانت الشيعة تدفع إلىٰ النقباء في كل سنة خمس أموالها يستعينون به علىٰ بث الدعاة في البلاد، فعاد بكير إلىٰ إبراهيم بالأموال.

وفي سنة ١٢٨هـ كان قد اتصل بإبراهيم بن محمد أبو مسلم الخراساني واسمه عبد الرحمن بن مسلم (انظر ترجمته) ورأىٰ منه ما جعله يثق به فوجَّهه إلىٰ خراسان وكتب إلىٰ من بها من الشيعة أن يأتمروا بأمره ويطيعوه، فأبوا ذلك واستصغروا سنه، وكان في التاسعة عشرة، ثم شافههم به إبراهيم فأطاعوه، وفي شهر شعبان من سنة ١٢٩هـ نزل أبو مسلم قرية من قرىٰ مرو يقال لها فنين، فجمع حوله النقباء ورؤساء الشيعة وفرقهم في البلاد، وأمرهم أن يُظهروا الدعوة في الليلة الخامسة والعشرين من شهر رمضان في جميع الآفاق بيوم واحد، ومن خالفهم قاتلوه، وذلك بعد أن اعتقد ضعف خلفاء بني أمية ونفرة الناس منهم

وكثرة عدد الشيعة في الأقطار، فتفرَّق أصحابه في طخارستان، ومرو، الروذ، والطالقان، وخوارزم، ثم انصرف هو [إلىٰ] منزل قرية سفيذنج من قرىٰ مرو في الليلة الثانية من رمضان، فبث الدعاة في الناس وأظهر أمره فأتاه أهل ستين قرية من قرىٰ خراسان، وأمير خراسان نصر بن سيار مشتغل في قتال جماعة خرجوا عليه، ولما كانت ليلة الخميس في ٢٥ رمضان سنة ١٢٩هـ، وهو اليوم الموعود المتَّفق عليه عقد أبو مسلم لواءً كان إبراهيم الإمام قد بعث به إليه يُدعىٰ الظل علىٰ رمح طوله أربع عشرة ذراعًا ونشر راية تُدعىٰ السحاب ولبس هو وأصحابه السواد، وأوقد النيران في الليل وكانت علامتهم، فاجتمعت إليه شيعته وقدمت عليه الرجال وكتب كتابًا إلىٰ نصر بن سيار فوجَّه إليه نصر جيشًا عليه مولاه يزيد، وعلم به أبو مسلم فسيَّر إليه جيشًا عليه مالك بن الهيثم الخزاعي فتلاقيا بقرية تعرف بالين فأُسر يزيد وانهزم من معه وجيء به إلىٰ أبي مسلم فأحسن أبو مسلم إليه وعالجه حتىٰ اندملت جراحه وخيَّره بين البقاء معهم أو الرجوع إلىٰ نصر علىٰ أن يعاهدهم أنه لا يحاربهم ولا يكذب عليهم، بل يقول فيهم ما رأىٰ فعاهده وعاد، فَلِيْمَ أبو مسلم علىٰ تركه فقال: إن هذا سيردُّ عنكم أهل الورع والصلاح فما نحن عندهم علىٰ دين الإسلام، وكان الأمر كذلك فإنهم كانوا يُرجفون بأنهم يعبدون الأوثان ويستحلون الدماء والأموال، فلما انصرف إليهم يزيد نفىٰ عنهم ما يقال، وشهد فيهم بشهادة حسنة، ثم اجتمع الناس علىٰ قتال أبي مسلم فقاتلهم.

وفي سنة ١٣٠هـ دخل مرو وهرب نصر بن سيار إلىٰ سرخس وطوس ونيسابور وانتهىٰ إلىٰ ساوة من قرىٰ الريّ فمرض فمات بها، وبعث أبو مسلم الرجال إلىٰ الجهات حتىٰ امتلك كل ولاية خراسان وسيَّر الجيوش إلىٰ الشام والعراق، وكان مروان بن محمد بن مروان قد عثر علىٰ كتاب من إبراهيم الإمام إلىٰ أبي مسلم عرف فيه ما بينهما، فكتب إلىٰ عامله بالبلقاء أن يوثق إبراهيم

ويرسله إليه فأتي به فحبسه مروان في حران، وأرسل إبراهيمُ إلىٰ أهل بيته يأمرهم بإطاعة أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وأن يرحلوا إلىٰ الكوفة، فارتحل بهم أبو العباس، ولما علم مروان بما صنع أبو مسلم في خراسان أرسل إلىٰ إبراهيم فقتله سنة ١٣٢هـ.

وفي هذه السنة عَظُم أمر أبي مسلم ووصل إلىٰ الكوفة أبو العباس أخو إبراهيم فبويع بالخلافة جهرًا، وأمر أبو العباس عبدَ الله بن علي أن يلحق مروان فقصده وقاتله بالزاب فانهزم مروان إلىٰ بو صير كما قدمنا في الكلام عليه وتبعه عبد الله فقتله في بوصير.

وصَفَت الخلافة الإسلامية لأبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم فتتابع أبناء العباس علىٰ ما سيلي.



أبو العباس السفاح

ولد سنة ١٠٤هـ وتوفي سنة ١٣٦هـ

أصبح المُلك بعد بني أمية ثابت الأساس لبني العباس وأولهم: أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد [الله] بن العباس عمّ النبي (ﷺ)، وذلك علىٰ ما بيناه في التمهيد السالف: تولىٰ بالكوفة سنة ١٣٢هـ بعد أن قتل مروان بن محمد آخرَ ملوك بني مروان، وكان أبو العباس هذا شديد العقوبة حازمًا مفكرًا، لم يأل جهدًا في الانتقام من بني أمية، بل أخذ يقتل ويصلب ويحرق كل من ظفر به منهم حتىٰ تشتت شملهم واختفت آثارهم ولم يسلم منهم غير الأطفال، ومن ذهب إلىٰ الأندلس، ونبش قبورهم فرأىٰ معاوية بن أبي سفيان قد فني وابنه يزيد رمادًا، وعبد الملك بن مروان لم يبق إلا جمجمته، ووجد هشام بن عبد الملك لا يزال عليه لحمه فأخرجه وصلبه وضربه بالسياط حتىٰ تناثر لحمه، ثم أمر به فأُحْرِق وذرَّ رماده في الفضاء، ولم ينفرد أبو العباس بعمله، بل كان جميع أمرائه وولاته الذين وجَّههم إلىٰ الأمصار يصنعون صنيعه لِمَا كان الأمويون قد جعلوه في قلوبهم من الأحقاد الكامنة؛ فإن عبد الله بن علي دعا من بني أمية تسعين رجلاً إلىٰ الطعام فلما كانوا عنده أنشده شبل بن عبد الله مولىٰ بني هاشم أبياتًا حرَّضه بها علىٰ قتلهم وذكَّره بما صنعوا فثارت ضغينتهُ وأمر بهم فضربوا بالعمد، وبُسطت عليهم الانطاع فجلس هو وأصحابه عليهم يأكلون وهم يسمعون أنيهم من تحتهم حتىٰ ماتوا جميعًا.

وسليمان بن علي بن عبد الله بن عباس قَتَل منهم بالبصرة جمعًا وافرًا وألقاهم للكلاب فأكلتهم، وامتدت إليهم الأيدي من كل ناحية وصوب حتىٰ فني أكثرهم، ونجا من فرَّ إلىٰ الأندلس حيث أُسست الدولة الأموية الثانية هنالك وسنتكلم في الفصل الآتي علىٰ رجالها.

ولُقِّب أبو العباس «السفاح» لكثرة ما سفح من دماء بني أمية، وبني في الأنبار مدينة سماها «الهاشمية» وجمعها مقر خلافته، واتخذ الوزراء، وهو أول من أحدث الوزارة في الإسلام، فإن الأمويين لم يكن لهم من يطلقون عليه هذا [الاسم]، وإنما كانوا يقرِّبون منهم رجالاً يستشيرونهم في بعض شؤونهم ويعولون علىٰ آرائهم.

وكان السفاح من أسخىٰ الناس يدًا لا يعد وعدًا ويؤخره عن وقته، وهو أول خليفة في الإسلام وصل بمبلغ مليوني درهم، وكان يلبس خاتمه باليمين، وذلك أن رسول الله (ﷺ) كان يتختم في يمينه، وكذلك الخلفاء بعده، ولما ولي معاوية جعله في يساره واقتدت به بنو أمية فلما استولىٰ السفاح أعاده إلىٰ اليمن وتابعه الكثيرون، وبقىٰ يُستعمل في اليمين حتىٰ كانت أيام الرشيد فنقله إلىٰ اليسار وتبعته الناس حتىٰ الآن، وكان فصيحًا متأدبًا.

ومن كلامه: «لأُعملنَّ اللين حتىٰ لا ينفع إلا الشدة، ولأُكرمنَّ الخاصة ما أمِنْتُهُمْ علىٰ العامة، ولأُغمدنَّ سيفي حتىٰ يسلَّه الحق ولأُعطين حتىٰ لا أرىٰ للعطية موضعًا».

- «ما أقبح بنا أن تكون الدنيا لنا، وأولياؤنا خالون من حُسن آثارنا»

- «إذا عظُمت القدرة قلَّت الشهوة».

مرض بالجدري وهو شاب في الثانية والثلاثين من عمره، ومات بالأنبار فدفن بها وقد عهد بالخلافة إلىٰ أخيه أبي جعفر المنصور، وكانت في أيامه ثورات فمنعها بالقوة وشدَّة الجدَّة ونشاط فتوَّة المُلك.

أبو جعفر المنصور

ولد سنة ٩٥ وتوفي سنة ١٥٨هـ

قال صاعد الأندلسي في طبقات الأمم: «أول من عُني بالعلوم من ملوك العرب الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، فكان مع براعته في الفقه، وتقدمه في علم الفلسفة، وخاصةً في علم صناعة النجوم كلفًا بها وبأهلها»، وكان مولده بالشراة (كما في المعارف)، وولي الخلافة بعد أخيه السفاح، بويع يوم وفاته وهو بطريق مكة آتيًا من الحج (سنة ١٣٦هـ)، فقدم عليه أبو مسلم الخراساني وكان السفاح قد ولَّاه علىٰ خراسان، فلما ولي المنصور كان حاقدًا علىٰ أبي مسلم خائفًا من شرِّه لما رآه من ميل الناس إليه والتفافهم حوله، فاستدعاه، فامتنع أبو مسلم ثم أطاع، وجاء المدائن مخدوعًا يحسب أن المنصور سيحبوه ويكرمه، فلما تمكن منه أبو جعفر قتله شر قتلة (انظر ترجمة أبي مسلم)، وذلك عام ١٣٧هـ وهو لعمر الله بئس الجزاءُ جزىٰ به آلُ عباس، مشيد دولتهم، ورافع لوائهم ومؤسس ملكهم، ولكن رحم الله المتنبي إذ يقول:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلمُ!

وكان أبو جعفر يُتهم بالبخل لحرصه ولأنه لم يكن يضع الأموال في غير موضعها، ولا يبذلها إلا في منفعته، فجمع مالاً وفيرًا، وكانت في أيامه أمور كثيرة لا علاقة لها بموضوع كتابنا هذا؛ لأنه لا يُكتب فيه إلا ما يتعلق بترجمة صاحب الترجمة وأما ما كان في زمنه من الأحداث والخطوب فمرجعها كتب الأخبار وتواريخ الأعصار.

وهو باني بغداد، بدأ بنائها سنة ١٤٥هـ لجعلها مقرًا الملكه بدلاً من «الهاشمية» التي لم تكن من الحصانة علىٰ ما يروم، وفي عصره شرع العرب يطلبون علوم

اليونان والفرس ويترجمونها إلىٰ العربية، وفي زمنه عُمل أول اسطرلاب في الإسلام صنعه محمد بن إبراهيم الفزاري، وكان أبو جعفر بعيدًا عن اللهو والعبث كثير الجدِّ والتفكير في الأمور، وله تواقيع هي غاية في البلاغة منها:

- أن رجلاً رفع إليه شكايةً علىٰ بعض عمَّاله فوقَّع فيها العامل: «اكفني أمره وإلا كفيته أمرك»، ووقَّع إلىٰ عامل آخر: «قد كثر شاكوك، وقلَّ شاكروك فإما اعتدلت، وإما اعتزلت».

- وكتب إليه سوار بن عبد الله القاضي: «إنَّ عندنا رجلاً شديد الترفض يُدعىٰ السيد الحميري» فوقَّع في كتابه: «إنا بعثناك قاضيًا لا ساعيًا!».

- ووقَّع في كتاب بليغ استماحهُ: «إن البلاغة والغنىٰ إذا اجتمعا في رجل أطغياه، وقد رُزقتَ إحداهما، فاكتف بها واقتصر عليها»، ورُفع إليه في بناء مسجد فوقَّع: «إن من أشراط الساعة أن تكثر المساجد فزد في خُطاك يُزَدْ في أجرك».

- وأوصىٰ ابنه المهديّ قبل وفاته فقال:

«لقد جمعتُ لك من الأموال ما إن كُسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لإرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث، فإياك والأثرة والتبذير بأموال الرعية، واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمِّن السُبل العامَّة، وأدخل المرافق عليهم، وادفع المكاره عنهم، وأعدَّ الأموال واخزنها فإنَّ النوائب غير مأمونة، وهي من شيَمَ الزمان، وأعدَّ الكراع والرجال والجند ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلىٰ الغد فتتدارك عليك الأمور وتضيع، وأعدَّ رجالاً في الليل لمعرفة ما يكون في النهار، ورجالاً في النهار لمعرفة ما يكون في الليل، وباشر الأمور بنفسك، ولا تضجر ولا تكسل، واستعمل حُسن الظنّ، وأسئ الظن بعُمَّالك وكتَّابك، وخذ نفسك بالتيقظ».

وفي سنة ١٥٨هـ أراد المنصور الحج فسار فلما كان في الكوفة مرض فمات ببئر ميمون من أرض مكة المكرمة.

قال القلقشندي: ودُفن بالحجون، وكانت مدة خلافته اثنين وعشرين عامًا.

هارون الرشيد

ولد سنة ١٢٦هـ وتوفي سنة ١٩٣هـ

مات أبو جعفر المنصور وتولىٰ من بعده بعهده ابنه أبو عبد الله محمد المهدي فكانت خلافته عشر سنين لم يأت فيهن بعمل يدل علىٰ ما يجعلنا نُلمزه في قرنٍ مع عظماء الرجال، وكان مولده سنة ١٢٦هـ وخلافته سنة ١٥٨هـ وموته سنة ١٦٩هـ بما سبذان.

* وبعد المهدي تولىٰ ابنه **الهادي موسى** بن محمد المهديِّ، وكان ضعيفًا فاستبدت الخيزران بالأمور فلم يشعر إلا والقوَّاد والرؤساء يغدون ويروحون إلىٰ بابها فنهاها عن الدخول في شؤونه وقال لها: ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلىٰ بابك أما لكِ مغزل يشغلك أو مصحف يذكّركِ أو بيت يصونك، إياك أن تفتحي بابك لمسلم، أو ذمي فإني ضاربٌ عنقه وقابضٌ ماله، فانصرفت وهي مغضبة وأمرت جواريها أن يقتلنه: فجلس علىٰ وجهه وهو نائم فمات، وكان مولد سنة ١٤٤هـ وخلافته سنة ١٦٩هـ وموته سنة ١٧٠هـ وليس بذي بال.

أما الرجل الذي امتلأت بأحاديثه صحائف الأخبار وشُحنت بآثار سفائن الآثار فهو صاحب هذه الترجمة:

أبو جعفر هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور: خامسُ الخلفاء العباسيين وأشهرهم علىٰ الإطلاق، خدم العلم وقرَّب العلماء من مجالسه رافعًا من شأنهم وموسعًا عليهم في العطاء، وكان عالمًا بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه وله محاضرات مع علماء عصره، شجاعًا مقدامًا كثير الغزوات، حازمًا كريمًا متواضعًا لأولي العلم والفضل، وكان يحج سنة، ويغزو سنةً حتىٰ قال فيه بعضهم:

فمن يطلب لقاءَك أو يُردهُ ... ففي الحرمين أو أقصىٰ الثغور

ولي قبل الخلافة أعمالاً لأبيه وأخيه، وغزا الروم في القسطنطينية فصالحته الملكة إيريني (Jrene: marte en803)، علىٰ أن تفتدي منه المملكة الرومانية بسبعين ألف دينار تدفعها إليه في كل عام، ولما بويع بالخلافة وله من العمر أربع وعشرون سنة قام بأعباء الملك أحسن قيام وتشبه في أفعاله بالمنصور [إلا] في بذل المال؛ فإنه لم يُرَ خليفة أجود من الرشيد، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يُؤَخر، وكان يحب الشعر والشعراء ويجزل لهم العطاء، وكانت دولته من أحسن الدول وأكثرها وقارًا ورونقًا وخيرًا، ولم يجتمع علىٰ باب خليفة من العلماء والشعراء والكُتَّاب والندماء ما اجتمع علىٰ بابه.

جاءته البيعة ليلة وفاة أخيه الهادي وفي تلك الليلة وُلد ابنه المأمون؛ فكانت ليلةً، وُلد فيها خليفة، ووُلِّيَ خليفة، ومات خليفة.

وكانت بينه وبين ملك فرنسا كارلوس الكبير المُلقب بشارلمان (bharlemagne: 742-814) صلةٌ موثقة العرىٰ، وكثيرًا ما كان الرشيد يتحفه بالهدايا، ومن جملة ما أهداه ساعة شمسية دقاقة، وشطرنج ثمين، وأرسل إليه مفاتيح كنيسة القمامة في القدس مع أمر لنوابه بأن يعاملوا زائري الأراضي المقدسة أحسن معاملة.

وكان الرشيد يطوف في أكثر الليالي مستترًا بألبسة العامة في أسواق بغداد وشوارعها فيعلم من أمر رعيته ما خفي عنه من ظالم يزجره أو مظلوم ينصره أو عالم يقرِّبه، وهو أول خليفة عربي لعب بالكرة والصولجان، وهو صاحب وقعة البرامكة وكانوا طائفة فارسية الأصل استولت علىٰ المُلك إدارته وسياستِهِ ومالِهِ ورجاله، فخاف الرشيد بادرة تبدر منهم نحوه ففتك بهم تلك الفتكة الهائلة فقتل بعضهم وشرَّد بعضًا وسجن آخرين في ليلة واحدة لم يتمكنوا بها من أقل حركة يقومون بها علىٰ قوّتهم وتصرفهم في الدولة والأعمال والأموال، وذلك سنة ١٨٧هـ، وسيأتي الكلام عليهم أيضًا في أخبارهم.

وكان الخراج يُحمل إليه من القسطنطينية منذ غزاها في أيام أبيه؛ فلما كانت سنة ١٨٧ هـ خلع الرومانيون ملكتهم «إيريني» وولوا عليهم ملكًا يدعىٰ نيقيفور، فكتب «نيقيفور» إلىٰ الرشيد كتابًا ترجمته: «من نيقيفور ملك الروم إلىٰ هارون ملك العرب أما بعد؛ فإن الملكة إيريني حملت إليك من أموالها ما كنتَ حقيقًا بأن تحمل أضعافه إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهنَّ فإذا قرأتَ كتابي هذا فاردد ما أخذتَ وإلَّا فالسيف بيننا وبينك»، فقرأ الرشيد الكتاب فغضب وأجابه علىٰ ظهر كتابه: «من هارون أمير المؤمنين إلىٰ نيقيفور كلب الروم؛ قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه»، وجهَّز جيشًا جرارًا وسار يحرق المدن ويدمّر المعاقل حتىٰ قرب من القسطنطينية فارتاع ملك الروم وألقىٰ السلاح فضرب عليه الرشيد الجزية وعاد فلم يبلغ بغداد حتىٰ بلغه أن نيقيفور نكث عهده، فرجع إليه ولم يبال ببرد تلك البلاد وثلجها فدمَّر وأضرب حتىٰ بلغ البوسفور فتذلل نيقيفور له فصفح عنه ثم أخلف، وغدر ثالثةً فضربه الرشيد ضربة كادت تكون قاضية قُتل بها من جيش الروم أربعون ألفًا في وقعة واحدة، وجُرح نيقيفور، فانتهب الرشيد ماله وسلاحه ثم جعل عليهم مالاً يبعثون به في كل سنة فأطاعوا وأقبل الرشيد علىٰ بغداد ظافرًا قاهرًا.

وأخبار الرشيد مع الأدباء والشعراء كثيرة تجدها في مظانها من كتب الأدب وله كلم مأثورة منها:

إيَّاك والدالَّة فإنها تُفسد الحزمة، وقال يومًا لبنيه: ما ضرَّ أحدكم لو تعلَّم من العربية ما يُصلح به لسانه، أَيَسُرُّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأَمَتِهِ؟ وسأل جلساءه: من أرغد الناس عيشًا؟ قالوا: أمير المؤمنين. فقال لهم: كلَّا، إنَّ لأعواد المنابر لهيبةً، وإنَّ لقعقعة اللجم لفزعة، وإن أهنىٰ الناس عيشًا رجل له دار يسكنها، وزوجة يأوي إليها، في كفاف من العيش، لا يعرفنا ولا نعرفه؛ فإن من عَرَفَنا وعرفناه، أفسدنا عليه دينه ودنياه!

وكان قد أرسل رافع بن الليث عاملاً علىٰ خراسان فلما اطمأن بها خلع الطاعة وأظهر العصيان وتبعه كثيرون فأغار علىٰ مدينة سمرقند فملكها وقتل عاملها فبلغ الرشيدَ ذلك فأغضبه فركب في عسكر ضخم فمرض في الطريق ولما وصل إلىٰ مدينة طوس من أعمال خراسان مات بها فدفن هناك، وأوصىٰ بالخلافة من بعده لأبنائه الأمين، ثم المأمون ثم المؤتمن، ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة، وكانت عاصمة ملكه بغداد.



ولما توفي الرشيد بطرس بايع الناس ابنه **محمدًا الأمين** وهو ببغداد سنة ١٩٣هـ، وكان ضعيف الرأي منهمكًا بالملذات والشهوات وحسَّنَ له بعض وزرائه خلع المأمون أخيه من ولاية العهد وتولية ابنه موسىٰ وفي سنة ١٩٤هـ أمر بالدعاء علىٰ المنابر لابنه موسىٰ وإبطال الدعاء للمأمون، وكان المأمون بمرو فغاظه ما صنع أخوه وجاءته رسالة من الأمين يدعوه بها إلىٰ المسير إليه فاستشار المأمون أخصاءه فحذَّروه شرَّ الذهاب، فرجع الرسول بخبر امتناعه، فجيش الأمين جيشًا أراد توجيهه إلىٰ مرو لقتال المأمون وكانت للمأمون عيون ببغداد تأتيه بأخبار الأمين فلما جاءه النبأ جهز جيشًا ممن كانوا قد انضموا إليه بعد إعلانه العصيان علىٰ أخيه، وسيَّره بقيادة طاهر بن الحسين؛ فالتقىٰ الجيشان بقرب الريّ فانهزم جيش الأمين وقُتل قائده علىٰ بن عيسىٰ بن ماهان، وسار طاهر بن الحسين حتىٰ بلغ بغداد فحاصرها ثم افتتحها، وفرَّ الأمين فقبض عليه بعض جنود طاهر فقتلوه وأخذوا إليه رأسه فبعث به إلىٰ المأمون، وابتدأت خلافة المأمون علىٰ ما سيأتي، وكان مولد الأمين سنة ١٧٠هـ وتولىٰ الخلافة سنة ١٩٣هـ وقُتل سنة ١٩٨هـ.

المأمون

ولد سنة ١٧٠هـ وتوفي سنة ٢١٨هـ

سعدت الدولة الإسلامية في أزمان رجال كانوا خير من أخرجتهم بطون الأمهات، ظفرت بهم الأمة برافعي شأنها ومشيِّدي ذِكرها، ومؤسسي مجدها، وكان من الطراز الأول فيهم صاحب هذه الصحيفة الذي كان قصارىٰ الملوك من بعده أن يتشبهوا به ويتخذوه قدوة في إحياء دارس المعارف ونشر لواء العلوم وإكرام النابغين بما ينشط المشتغلين بالدرس المنقطعين إلىٰ البحث والتنقيب والتأليف والتصنيف علىٰ متابعة السير في ذلك السبيل الحميد والمنهج الرشيد.

قال صاعد الأندلسي في طبقات الأمم: لما أفضت الخلافة إلىٰ الخليفة السابع - من الخلفاء العباسيين - عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهديّ ابن أبي جعفر المنصور تمم ما بدأ به جده المنصور، فأقبل علىٰ طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس، وغيرهم من الفلاسفة، فاستخار لها مَهَرة التراجمة، وكلَّفهم إحكام ترجمتها، فتُرجمت له علىٰ غاية ما أمكن، ثم حضَّ الناس علىٰ قراءتها، ورغَّبهم في تعلمها، فنفقت سوق العلم في زمانه، وقامت دولة الحكمة في عصرهِ، وتنافس أولو النباهة في العلوم، لما كانوا يرون من إحظائه لمنتحليها، واختصاصه لمتقلديها، فكان يخلو بهم، ويأنس بمناظرتهم، ويلتذ بمذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة، والمراتب السنية، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدّثين والمتعلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب، فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيرًا من أجزاء

الفلسفة، وسنُّوا لمن بعدهم منهاج الطب، ومهَّدوا أصول الأدب، حتىٰ كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومانية أيام اكتمالها، وزمانَ اجتماع شملها..

تولىٰ أبو العباس المأمونُ الخلافة سنة ١٩٨هـ وصفت له بعد مقتل أخيه الأمين عشرين سنة خدم بها الأمة الإسلامية والعالم العربي خدمةً لا تُنسىٰ علىٰ وجه الدهر، وكان أفضل بني العباس علىٰ الإطلاق، وأكثرهم حزمًا وفطنة واعتناءً بنشر العلوم والاشتغال في الفنون، وأطلق في أيامه حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة، ونشر الأمان لكل بائح برأته مُعلن لمذهبه وإن خالف الجمهور أو كُفِّر أو زُندق فكانت بغداد في أيامه أشبه بمدينة راقية من بلاد الغرب اليوم تُقام فيها الاجتماعات لخوض المباحث المختلفة دون مسيطر أو رقيب، وعلىٰ ذلك آخذه أمام الحرمين الجويني، قال في كتابه: «غياث الأمم»:

«وقد اتفق للمأمون وكان من أنجد الخلفاء وأقصدهم خطةٌ ظهرت هفوته فيها وَعسُر علىٰ مَن بعده تلافيها؛ فإنه رأىٰ تقرير كل ذي مذهب علىٰ رأيه فنبغ النابغون وزاغ الزائغون وتفاقم الأمر وتطوَّق خطبًا هائلاً وانتهىٰ زلله وخطله؟ إلىٰ أن سوَّغ للمعطّلة أن يُظهروا آرائهم، ورتب مترجمين ليردوا كتب الأوائل إلىٰ لسان العرب وهلمَّ جرًا إلىٰ أحوال يقصر الوصف عن أدناها ولو قلت إنه مطالب بمغبات البدع والضلالات في الموقف الأهول في العرصات لم أكن مجازفًا».

وقد جُمعت أخبار المأمون في مجلد كامل (صفحاته ٣٨٤) من تاريخ بغداد لأبي الفضل طيفور (انظر ترجمته والكلام علىٰ تأريخه)، قال طيفور: وكان المأمون قد همَّ بلعن معاوية وأن يكتب بذلك كتابًا فثناه عن ذلك يحيىٰ بن أكتم قائلاً: يا أمير المؤمنين، إن العامة لا تحتمل هذا، ولا سيما أهل خراسان ولا تأمنُ أن تكون لهم نفرة وإن كانت لم تدر ما عاقبتها، والرأي أن تدع الناس

علىٰ ما هم عليه ولا تظهرَ لهم أنك تميل إلىٰ فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وأحرىٰ في التدبير، فرجع المأمون عن رأيه.

وكان شعار العباسيين السواد فأراد المأمون أن يستبدله بشعار العلويين وهو الأخضر فأمر قواده وخاصته أن يخلعوا الثياب السود ويلبسوا ثيابًا خُضرًا ففعلوا فخاطبه بنو العباس وقواد خراسان في الأمر فخاف الفتنة فعاد إلىٰ شعار آبائه، وكان مُولعًا بالصفح محبًا للعفو حبًا عجيبًا حتىٰ إنه ربما ضُرب به المثل فيه ومن كلامه:

لو علم المذنبون ما أجد في العفو من اللذة لتقرَّبوا إليَّ بالذنوب دون رهبة، وفي شرح النهج أنَّ أحد كُتَّاب المأمون أذنب ذنبًا فتقدم ليحتج لنفسه ويعتذر، فقال له المأمون: يا هذا قف مكانك، فإنما هو عذر أو يمين، وقد وهبتهما لك، وقد تكرر منك ذلك، فلا تزال تسيء ونحسن، وتذنب ونغفر، حتىٰ يكون العفو هو الذي يُصلحك.

وقد نقلت بعض أخباره في العفو في كتابي «الصَّيب المنثال في شرح أرجوزة الأمثال» فارجع إليه إن شئت، وله كلم رائعة يُؤْثَر عنه منها قوله:

- لله در القلم كيف يحوك وشي المملكة، إنما تُطلب الدنيا لتُملك فإذا مُلكت فلتوهَب.

- الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حسد.

- النساء شرٌّ كلهنَّ ومن شرِّ ما فيهنَّ قلَّة الاستغناء عنهنّ.

- الناس أربعة: ذو سيادة أو صناعة أو تجارة أو زراعة فمن لم يكن منهم كان عيَّالاً عليهم.

- النميمة لا تقرب مودَّة إلا أفسدتها ولا عداوة إلا جدَّدتها ولا جماعة إلا بددتها ثم لابد لمن عُرف بها ونُسب إليها أن يُجتنب ويُخاف من معرفته ولا يُوثَق بمكانه.

وله تواقيع تدلّ علىٰ مقدرة وإبداع منها ما وقَّع به إلىٰ الرستمي أحد عُمَّاله وقد تظلم منه غريم له: «ليس من المرءوة أن تكون أوانيك من الذهب والفضة وجارك طاوٍ، وغريمك عاوٍ».

وتوقيعه إلىٰ حميد بن قحطبة من عماله أيضًا في قصة متظلم منه: «يا أبا حامد لا تتكل علىٰ حُسن رأيي فيك فإنك، وأحدَ رعيتي عندي في الحق سواء»، وفي قصة متظلم من علي بن هشام: «يا أبا الحسين الشريف مَن يَظلم مَن فوقه ويظلمه مَن دونه فانظر أيُّ الرجلين أنت؟».

ورفع إليه أهل السواد قصة في إتيان الجراد علىٰ غلاتهم فوقَّع فيها: «نحن أولىٰ بضيافة الجراد من أهل السواد فليُحَطَّ عنهم نصف الخراج»، وجاءته قصة يتظلم كاتبها من عمرو بن مسعدة أحد كُتَّاب المأمون وخاصته فوقَّع بها: «يا عمرو عَمِّر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها».

وتظلم رجل من أبي عيسىٰ وهو أخو المأمون فوقَّع في قضيته: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠١)، وأخباره مع أهل الأدب والظَّرف والعلم والشعر كثيرة لا مجال هنا للإلمام بها، وله شعر رقيق منه قوله:

لساني كتوم لأسراركم ودمعي نَمُوم لسرِّي مُذيعُ
فلولا دموعي كتمتُ الهوىٰ ولوا الهوىٰ لم تكن لي دموعُ

وفي سنة ٢١٨هـ مرض فخلع أخاه المؤتمن من ولاية العهد وأخذ البيعة لأخيه أبي إسحق المعتصم ومات (رحمه الله) بطَرَسوس فدفن بها في دار خاقان خادم الرشيد.

المعتصم بالله

ولد سنة ١٧٩هـ وتوفي سنة ٢٢٧هـ

لم يكن أبو إسحق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي من حَمَلة العلم أوناشري لواء العرفان، ولكنه اشتهر في ملوك بني العباس بما أحرزه من قوة البأس والشجاعة والإقدام فقد كان خارقة زمنه في قوة الساعد ومتانة الأضلاع، يكسر زند الرجل بين إصبعيه، ويحمل عشرة قناطير، ولا تعمل في جسمه الأسنان، وكان في صغره يكره التعلُّم وضعه والده الرشيد مع مملوك له صغير عند أحد المؤدبين فمات مملوكه فلما رأىٰ أباه تأوَّه فجعل أبوه يسلّيه عن المملوك وهو يحسب أنه حزين عليه فقال: لا يا أبي أنا لا أتأوه لموته، ولكني سُررت له لأنه استراح من التعليم! فعلم أبوه أنه لن يكون من رجال العلم فأعفاه منه فنشأ ضعيف القراءة يكاد يكون أميًا.

وهو فاتح عمورية من بلاد الروم في غلاطية، وذلك أنه كان في أحد أيام سنة ٢٢٣هـ جالسًا يتناول كأسًا من الشراب، وإذا برجل دخل عليه فحدثه أن امرأة هاشمية سباها أحد ملوك الروم ووضعها في عمورية فلطمها يومًا فصاحت: وامعتصماه! فهزئ بها الرومي وقال: دعيه يأتي علىٰ فرس أبلق، فنهض المعتصم فختم الكأس وقال: والله لأشربتهُ إلا بعد إطلاقها والتفريج عنها، ونادىٰ رجاله أن يركبوا الخيول البُلْق فسار في سبعين ألف فارس حتىٰ بلغ عمورية فحاصرها ثم هدمها ودخل علىٰ الأسيرة وهو يقول: لبيكِ لبيكِ، ثم ضرب عنق الرومي بيده ودعا بالكأس ففك ختامها وشربها.

وهو باني مدينة سامرَّاء حين ضاقت بغداد بجنده فخطَّطها وأمرهم بسكناها فدُعيت «سُرَّ من رأىٰ» ثم حُرِّفت فقالوا: «سامرَّاء، وسامرا، وسرَّمن را، وسرمن راء» - راجع معجم البلدان.

ولقَّبه بعض المؤرخين «بالمثمَّن»؛ لأنه ولي سنة ٢١٨هـ وتوفي ثامن عشر رمضان، وعمره ثمان وأربعون سنة، وهو ثامن الخلفاء من بني العباس، وفتح ثمانية فتوح، واستُخلف ثمانيَ سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وخلَّف ثمانية بنين وثماني بنات، وخلَّف من الذهب ثمانين مليون دينار ومن الدراهم مئة وثمانين مليونًا، ومن الخيل ثمانين ألف فرس، ومن المماليك ثمانية آلاف، ومن الجواري ثمانية آلاف جارية، وبنىٰ ثمانية قصور؛ وقد ذُكر هذا الاتفاق في كثير من مصنفات التاريخ وهو إن صح من غريب الموافقات.

وهو أول من أضاف إلىٰ اسمه اسم الله تعالىٰ فقيل: المعتصم بالله»، وكانت وفاته بسامراء ودفن بها، ومن كلامه:

إذا نُصر الهوىٰ بَطلَ الرأي، وذُكر التيه عنده فقال: حظ صاحبه من الله المقت ومن الناس اللعن، ولما احتُضر قال: ذهبت الحيلة، وذكرها حتىٰ صمت، وكان موصوفًا بلين العريكة وطيب الأخلاق، عهد بالخلافة إلىٰ ابنه الواثق بالله.

ولما مات ولي ابنه أبو جعفر **الواثق بالله** واسمه هارون بن محمد المعتصم ابن هارون الرشيد وكان كريمًا أديبًا، أُصيب بعلة الاستسقاء فمات بها: مولده سنة ٢٠٠هـ وخلافته سنة ٢٢٧هـ ووفاته سنة ٢٣٢هـ، وكانت في زمنه أمور غير ذات بال فهو غير جدير بالترجمة الواسعة.

ومثله أخوه **المتوكل** علىٰ الله جعفر بن المعتصم ولد سنة ٢٠٦هـ وبويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢هـ وقُتل سنة ٢٤٧هـ طالت مدته فلم يُحدث بها ما يجعله في طبقة عظماء الملوك ولكنه كان يحب العمران فبنىٰ «المتوكلية» وأنفق عليها أموالاً كثيرة، وأراد نقل العاصمة العباسية من بغداد إلىٰ دمشق، فأقام بها شهرين وأيامًا فلم يطب له مناخها فعاد إلىٰ سامرَّاء، وكان يلبس في زمن الورد الثياب الحمر ويأمر بالفُرُش الحمر، ولا يُرىٰ الورد إلا في مجلسه، وكان يقول:

أنا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين وكلٌّ منا أولىٰ بصاحبه.

وكثرت الزلازل في أيامه فخرَّت أماكن كثيرة فعمر بعضها.

وقتله غلام تركي اسمه باغر بإيعاز من ابنه المنتصر، فدفن في سامراء.

وولي بعده ابنه **المستنصر بالله** أبو جعفر محمد بن المتوكل علىٰ الله بن المعتصم: مولده سنة ٢٢٣هـ وخلافته بعد أبيه المتوكل سنة ٢٤٧هـ ومات بسامرّاء سنة ٢٤٨هـ، لم تطل مدته غير ستة أشهر، وكان حليمًا عاقلاً غزير المعروف راغبًا في الخير إلا أنه قويت في أيامه سلطة الغلمان فحرضوه علىٰ خلع أخويه المعتز والمؤيد وكانا وليّ عهده فخلعهما وأهانهما فعاش أشهرًا.

وقيل: مات مسمومًا بمبضع أحد أطبائه، توفي بسامراء ومولده بها، قال ابن الأثير: وهو أول خليفة من بني العباس عُرف قبره، وذلك أن أمه طلبت إظهار قبره، وكانوا لا يحفلون بقبور موتاهم.

وكان قوَّاد الأتراك قد تحكَّموا بالدولة والأموال فلم يَرُقْ لهم أن يجعلوا الخلافة في أبناء المتوكل وهم قاتلوه، فلما مات المستنصر اتفقوا علىٰ مبايعة أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه **المستعين بالله** فولوه الخلافة فلم يكن له منها غير اسمه وكثرت فتن الغلمان المتسلطين في زمانه، وكان مولده بسامراء سنة ٢٢١هـ، وولي الخلافة الموهومة سنة ٢٤٨هـ ونقم عليه قوَّاده الأتراك فخلعوه سنة ٢٥٢هـ، ثم قتلوه في هذه السنة بواسط.

وبايعوا بعده **المعتز بالله** بن المتوكل وكان في سجن المستعين فأخرجوه وولوه سنة ٢٥٢هـ ومولده سنة ٢٣١هـ فلم يكن له من المُلك إلا الزخرف الباطل، ولبث وليس في يده عقد ولا حلّ إلىٰ سنة ٢٥٥هـ فجاؤوه فطلبوا مالاً لا يملكه المعتز فانزلوا مقداره إلىٰ خمسين ألف دينار، وكانت أم المعتز قد قبضت علىٰ أمواله فسألها أن تعطيه ما يرضيهم فامتنعت فدخلوا عليه فضربوه، فخلع

نفسه فسلَّموه إلىٰ من يعذبه، فمات بعد أيام، وذلك سنة ٢٥٥هـ، وكان فصيحًا وله خطبة ذكرها ابن الأثير في حوادث هذه السنة.

وفي اليوم الثاني من خلع المعتز أسندوا منصب الخلافة إلىٰ محمد ابن الواثق ولقبوه **المهتدى بالله** وكان يكنىٰ أبا عبد الله، فلم يقبل بيعته أحد فأُتي بالمعتز فخلع نفسه أمام الناس وأقر بالعجز عما أُسند إليه، وبالرغبة في تسليمها إلىٰ ابن الواثق فبايعه الخاصة والعامة: مولده في القاطول سنة ٢٢٢هـ، وخلافته سنة ٢٥٥هـ، فكان كأسلافه وأقرب الخلفاء عهدًا منه، ولكنه أخذته في آخر أيامه حَمِيةٌ القويّ المستضعَف فخرج لقتال جمع من الأتراك كان قد أعلن العصيان فلما تقابل الفريقان خانه من كان معه من الأتراك، وانضموا إلىٰ أصحابهم فبقي المهتدي وحده وتخلَّىٰ عنه أنصاره فولَّىٰ منهزمًا وبيده السيف وهو ينادي يا معشر المسلمين أنا أمير المؤمنين قاتلوا عن خليفتكم فلم يجبه أحد من العامة، وأُصيب بطعنة فمات علىٰ أثرها سنة ٢٥٦هـ في بغداد ومدة خلافته أحد عشر شهرًا ونصف، وكان محمود السيرة يأخذ أخذ عمر بن عبد العزيز في الصلاح وإطراح الملاهي وتحريم الغناءِ والشراب علىٰ نفسه ومنع أصحابهِ وخاصتهِ عن الظلم ومن كلامه:

عاون علىٰ الخير تسلم ولا تؤخره تندم.

وقبل قتل المهتدي بيومين بويع بالخلافة أبو العباس أحمد بن جعفر المتوكل، وكان محبوسًا بالجوسق في سامرَّاء فأطلقت الأتراك سراحه وبايعوه ولقبوه **المعتمد** علىٰ الله فاستولىٰ علىٰ مراسم الخلافة وزخارف الإمارة وهو يعتقد أنه سيدخلها ويخرج منها، لا عليه ولا له، آلة تديرها قوة فتُدار، مولده سنة ٢٢٩هـ وخلافته سنة ٢٥٦هـ وطالت أيام ملكه وظهر فيه الضعف والعجز عن إدارة الشؤون والتفكير في الأمور فاتجه أخوه أبو أحمد الموفَّق بالله وأعانه علىٰ

بعض العصاة وكُفَّت يد المعتمد عن كل قول وعمل، حتىٰ إنه احتاج في بعض الأوقات إلىٰ ثلاث مئة دينار فلم ينلها، فقال في ذلك:

أليس من العجائب أن مثلي ... يرىٰ ما قلَّ ممتنعًا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعًا ... وما من ذاك شيء في يديه

إليه تُحمل الأموال طرًّا ... ويُمنع بعض ما يُجبىٰ إليه

وكان الخلفاء من قبله يقيمون في سامراء فانتقل المعتمد منها إلىٰ بغداد، ولم يعد إليها أحد من بعده، وكانت في أيامه شؤون وشجون تجد الكلام عليها في تصانيف الأخبار.

ومات المعتمد سنة ٢٧٩هـ ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وستة أشهر، ومات أخوه الموفق في السنة التي قبلها، وكانت ولاية العهد للمعتضد الآتي خبره.

المعتضد بالله

ولد سنة ٢٤٢هـ وتوفي سنة ٢٨٩هـ

مضىٰ الكلام فيما أسلفنا علىٰ عدد كثير من خلفاء بني العباس لم يكونوا من نباهة الذكر وجلالة القدر وارتفاع الشأن بحيث يُقرنون مع أسلافهم الأولين كالمنصور والرشيد والمأمون، وجاء في عَرَض كلامنا إشارات واضحة إلىٰ أن أولئك الخلفاء كانوا موثقين عن العمل غير مُطلقين، ومسيَّرين غير مخيَّرين، لعبت بهم طوائف الغلمان والمماليك حتىٰ استولت علىٰ عقولهم ثم علىٰ أموالهم وانتهت إلىٰ التحكم بهم واجتياز تدبير المملكة دونهم فإذا المال في خزائنهم، والرجال طوع أيديهم، والبلاد منقادة لهم فاستراح ضعفاء الخلفاء، بحيث يتعب العظماء، واستمر الأمر جاريًا في منهاجه حتىٰ قضىٰ علىٰ هذه

الدولة العباسية بعجز ملوكها وخَوَر عزائمهم وهو الذي قوَّض بعد ذلك أركانها وهدَّم بنيانها وزلزل سلطانها وفرَّق أعوانها، وكان حَسْبُ الرجل العظيم منهم أن يستميل بعضَ أولئك الدخلاء إليه ويجعل لكلمته بعضَ النفوذ ولقوته بعض التأثير كما كان شأن صاحب هذه الترجمة وأبيه من قبله وإليك طرفًا من حديثهما:

لما تولىٰ المعتمد (سنة ٢٥٦هـ) وهو الخليفة المتقدمُ ذكره أراد أن ينهض بأعباء المُلك فأثقلته فلجأ إلىٰ أخيه أبي أحمد طلحة بن المتوكل فعهد إليه بالخلافة ولقَّبه الموفَّق بالله واستعان به علىٰ أعدائه فكان الموفق من كبار الرجال صدَّ عن أخيه المعتمد غارات الطامعين بملكه، ولكنه اختص بأمور المملكة نفسه وحجر علىٰ المعتمد حتىٰ كان يتمنىٰ الشيءَ اليسير فلا يناله، وكان الموفَّق شجاعًا كثير الحروب موفقًا في جميع أعماله، عادلاً حسن السيرة يجلس للمظالم وعنده القضاة وغيرهم فينتصف الناس بعضهم من بعض، وهو عالم بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك وأخباره مستطابة (راجع الكامل ج٧)، ولم تخدم الموفق السعادةُ فيتولىٰ الخلافة اسمًا كما تولاها فعلاً فإنه توفي في أيام أخيه المعتمد بعلة النقرس سنة ٢٧٨هـ ودفن ببغداد، ولما مات الموفق بايع القوَّاد بولاية العهد بعد المفوِّض [إلىٰ الله] بن المعتمد للمعتضد بالله أحمد ابن الموفق.

وفي مبدأ سنة ٢٧٩هـ خلع المعتمدُ علىٰ الله ابنَه جعفر الملقَّب بالمفوِّض إلىٰ الله من ولاية العهد وعهد بالخلافة من بعده للمعتضد ابن أخيه الموفق، فأُسقط اسم المفوض من السكة والخطبة وأثبت اسم المعتضد وهو صاحب هذه الترجمة:

أبو العباس المعتضد بالله أحمد بن أبي أحمد الموفَّق بالله طلحةَ بن المتوكل: ولد ببغداد ونشأ بها، فكان عَضُد أبيه الموفَّق وساعِدَه في حياته أيامَ خلافة

المعتمد وأظهر بسالة ودراية في حروبه مع الزنج والأعراب وهو في سن الشباب وبويع بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد سنة ٢٧٩هـ: فحلَّ عن بني العباس عقدة المتغلبين وظهر بمظهر الخلفاء العاملين، ثم جعل يتوجه بنفسه إلىٰ المفسدين في البلاد وأصحاب الشغْب فيقمع ثائرتهم ويفرق عصبتهم ويعود ظافرًا فاخرًا.

قال ابن الأثير: «وكان المعتضد شهمًا شجاعًا مقدامًا، وكان ذا عزم مهيبًا عند أصحابه يتقون سطوته ويكفّون عن الظلم خوفًا منه».

وكانوا يقولون: قامت الدولة بأبي العباس وجُدِّدت بأبي العباس، يريدون بالأول السفاح وبالثاني المعتضد، قال ابن الرومي:

هنيئًا بني العباس أنَّ إمامكم ... إمام الهدىٰ والجود والناس أحمدُ
كما بأبي العباس أُنشئ مُلكُكم ... كذا بأبي العباس أيضًا يُجَدَّدُ

وكان المعتضد عارفًا بالأدب والشعر، قال ابن خلكان في وفيات الأعيان (ج١، ص٢٠٣ من طبعة باريس): «كان أبو بكر المعروف بابن العلاف النهرواني الشاعر ينادم الإمام المعتضد بالله قال: بتّ ليلة في دار المعتضد مع جماعة من ندمائه فأتانا خادم ليلاً فقال: أمير المؤمنين يقول: أرقتُ الليلة بعد انصرافكم فقلت:

ولما انتبهنا للخيال الذي سرىٰ ... إذا الدار قَفْرىٰ والمزارُ بعيدُ

وقد أُرْتِجَ عليَّ تمامه فمَن أجازه بما يوافق غرضي أمرت له بجائزة، قال: فأُرتج علىٰ الجماعة وكلهم شاعر فاضل فابتدرت وقلت:

فقلتُ لعيني عاودي النوم واهجعي ... لعلَّ خيالاً طارقًا سيعودُ

فرجع الخادم إليه ثم عاد فقال: أمير المؤمنين يقول: قد أحسنتَ وأمر لك بجائزة».. والمعتضد ممن اتصف بالحِلْم العجيب، نَقَل صاحب تاريخ دول

الإسلام (ج١، ص١٢٨) عن أحد وزراء المعتضد عبد الله بن سليمان قال: كنتُ عند المعتضد يومًا، وخادم بيده المِذَبَّة (المِرْوَحَة)، إذ ضربتْ قلنسوة المعتضد، فسقطتْ، فكدتُ أختلط إعظامًا للحال، ولم يتغير المعتضد، وقال: هذا الغلام قد نعس، ولم يُنكر عليه، فقبلتُ الأرض وقلتُ: والله يا أمير المؤمنين ما سمعتُ بمثل هذا، ولا ظننتُ أن حلمه يسعه، فقال: وهل يجوز غير هذا؟ أنا أعلم أنَّ هذا الصبيّ البائس لو دار في خَلَده ما جرىٰ لذهب عقله وتلف، والإنكار لا يكون إلا علىٰ [المتعمد] دون الساهي الخاطئ، ولم يكن حلمه فيما يَحسُن به الحلم دونه شدته فيما تجب به الشدة؛ فإنه كان صارم العقوبة اتخذ للمجرمين وذوي المفاسد مطامير تحت الأرض، (وهي حفائر كانت تخبأ فيها الحبوب)، فجعل يزجّهم بها ولما مات وولي ابنه المكتفي أمر بهدمها، ومرض المعتضد في بغداد فجدَّد البيعة لابنه المكتفي بالله ومات بها ومدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر، ونصف شهر إلا يومين.

مات المعتضد، وابنه أبو محمد علي الملقَّب **بالمكتفي بالله** في الرقة فلما جاءه الخبر أخذ البيعة علىٰ من عنده من الأجناد، وقدم بغداد فاستلم زمام الملك فقام به قيامًا حسنًا وظفر في أكثر ما كان بينه وبين العصاة والثائرين من الوقائع، مولده سنة ٢٦٣هـ وخلافته سنة ٢٨٩هـ ووفاته سنة ٢٩٥هـ، وعاصمته بغداد مقرّ آبائه وهو:

المكتفي بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل، مرض وهو شاب في الثانية والثلاثين من عمره وطال مرضه فعهد بالخلافة إلىٰ أخيه جعفر المقتدر، ومات ومدة حكمه ستة سنين وستة أشهر وتسعة عشر يومًا، ولم يكن كأبيه.

وبويع أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالخلافة ولَقَّبِ نفسه **المقتدر بالله** بعد وفاة أخيه المكتفي، وكان صغير السنّ لا يتجاوز الثالثة عشرة فاستُصغر وتكلم الناس في أمره فخلعوه.

وولوا أبا العباس عبد الله بن المعتز بالله ولُقِّب **بالمرتضى بالله** ثم خذله أصحابه وهجم عليه بعض غلمان المقتدر فانهزم واختفىٰ ثم عثروا عليه فقُتل وستأتي ترجمته في ديوان الشعراء.

وصفا الملك **للمقتدر** وطالت أيامه علىٰ ما ضمَّت من الفتن والمحن وكان يستعين في أكثر شؤونه بخادم له يُدعىٰ مؤنسًا، فبلغ هذا الخادم أن الخليفة يريد به الشر فأعلن عصيانه فأرسل إليه المقتدر يحلف له أن ما بلغه كذب فعاد إلىٰ الطاعة، ثم نكث وجمع أنصاره ودخل بهم دار المقتدر فأخرجوا المقتدر وأمه وأولاده وخواص جواريه من دار الخلافة إلىٰ دار مؤنس فاعتُقلوا بها وبايعوا أخاه **المقتدر** وهو القاهر بالله محمد بن المعتضد فاستُخلف يومين ثم ثارت فرقة من الجيش تُعرف بالرجَّالة فقتلت بعض رؤساء الغلمان ودعت بالخلافة للمقتدر فأعيد إلىٰ المُلك ثانية وخرج مؤنس من بغداد وقد علم أن قلب الخليفة لن يصفو عليه فاجتمعت عليه العساكر والغلمان وقصد الموصل فاحتلها، ثم سار بمن معه يريد بغداد فخرج له المقتدر بعسكره فانهزم أصحاب المقتدر وبقي منفردًا فرآه جماعة من المغاربة فقتلوه وسلبوه ثيابه وزينته، ثم دفن في موضعه، وكان مولده سنة ٢٨٢هـ وخلافته سنة ٢٩٥هـ وخُلع **بابن المعتز** سنة ٢٩٦هـ، وأُعيد بها ثم خُلع ثانية **بالقاهر** سنة ٣١٧هـ، وأُعيد فقتله بعض أصحاب خادمه مؤنس الملقَّب بالمظفر سنة ٣٢٠هـ، وكان المقتدر ضعيفًا في إرادته وقوته وسياسته فاستولىٰ علىٰ المُلك خدمُه ونساؤه وخاصته وكان مبذرًا كثير الإنفاق علىٰ البذخ والجواري والندماء مضياعًا لماله، والبون شاسع بينه وبين أبيه المعتضد: ذاك أعاد للدولة العباسية شأنها، وهذا هدَّم ركنها، وقد أطلنا في هذه الكلمة عليه وكان يجدر بناء إغفاله؛ لأنه لا يدخل في رجال هذا الكتاب ضعفاءُ الرجال وصغارهم.

قرَّ الرأي بعد المقتدر علىٰ إعادة أخيه لأبيه محمد بن المعتضد الملقَّب

بالقاهر فلما وُلِّيَ ساء السياسة فأحضر أم المقتدر وطلب منها أموال ابنها فأقسمت له أنها لا تملك غير ما في منزلها من متاع الزينة والثياب والأثاث فضربها وعذَّبها وصادر جميع أصحاب المقتدر وباع أملاكهم وأوقافهم وبلغه أن بعض وزرائه ساءهم ما صنع فهم يتآمرون عليه فقتل مؤنسًا، وعلي بن بليق وأباه، وطلب ابن مقلة، وكلهم من خاصته، فاختفىٰ وهيَّج عليه الجند فزحفوا إلىٰ دار الخلافة ببغداد فاستيقظ القاهر، وفرَّ فقبضوا عليه، وحبسوه وسحلت عيناه فبقي أعمىٰ لا يبصر إلىٰ أن مات، ومولده سنة ٢٨٧هـ وخلافته الثانية سنة ٣٢٠هـ وخلعه سنة ٣٢٢هـ ومدة حكمه سنة وسبعة أشهر ووفاته سنة ٣٢٢هـ.

الراضي بالله

ولد سنة ٢٩٧ وتوفي سنة ٣٢٩هـ

علمت كما أسلفناه ما صارت إليه حال الدولة العباسية من الضعف وتحكّم الخاملين، مما أدىٰ بها إلىٰ عصيان أمراء البلاد واستقلال كثير من العمال بما كانوا يلون، وانتهىٰ أمرها إلىٰ صاحب هذه الكلمة.

وهو: أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله، وكان محبوسًا مع والدته في أيام القاهر فلما خُلع أخرج وبويع بالخلافة سنة ٣٢٢هـ ولُقِّب بالراضي بالله وكان فاضلاً أديبًا سمحًا يحب محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم.

وختم الخلفاء في أمور عدة منها: أنه آخر خليفة له شِعر يدوَّن، وآخر خليفة كان يجيد الخطبة علىٰ المنبر ويُطيلها، وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل إليه الندماء، وآخر خليفة كانت نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه ومجالسه وخدمه وحُجَّابه وأموره علىٰ ترتيب الخلفاء المتقدمين، وشعره رقيق جيد منه قوله:

يصفرُّ وجهي إذا تأمله طرفي ويحمرّ وجهه خجلا
حتىٰ كأن الذي بوجنته من دم جسمي إليه قد نُقلا

وقوله في رثاء أبيه المقتدر:

ولو أن حيًا كان قبرًا لميتٍ لصيرت أحشائي لأعظُمه قبرا
ولو أن عمري كان طوع مشيئتي وساعدني في التقدير قاسمته العمرا
بنفسي ثرًىٰ ضاجعتَ في تربة البلىٰ لقد ضم منك الغيث والليث والبدرا

وولي الخلافة فحاول رتق ما فتق أسلافه فلم يستطع، ولكن البلاد زاد اضطرابها واتسع خرقها فكتب إلىٰ محمد بن رائق عامله علىٰ واسط والبصرة والأهواز يستقدمه إلىٰ بغداد وقلده إمارة الجيش وجعله أمير الأمراء وولاه الخراج والدواوين، وذلك سنة ٣٢٤هـ فاستولىٰ ابن رائق علىٰ جميع ما ذُكر، وأصبح الحاكم المطلق فتصرف بالأمور والأموال والخليفة الراضي راضٍ بما وقع لا يملك لنفسه قوة يدفع بها ما أصابه، وتفاقم أمر العمال فلم يبق اسم للخليفة في غير بغداد وأعمالها، فكانت بلاد فارس في أيدي بني بويه، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج [الإخشيدي]، والمغرب وإفريقية في يد أمير المؤمنين القائم بأمر الله العلوي، والأندلس في يد الناصر من ملوك بني أمية، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر ابن أحمد الساماني، وطبرستان وجرجان في يد الديلم.

وهكذا تفرقت هذه المملكة وانحلت رابطتها وانفرط عقدها، ولبث الخليفة الراضي يتلهّىٰ بمن كانوا يسامرونه وينادمونه من رجال الأدب وأعيان البيان حتىٰ كانت سنة ٣٢٩هـ فتوفي في بغداد ودفن بالرصافة وخلافته ست سنين وعشرة أيام.

* *

ونودي من بعده باسم أخيه أبي إسحق إبراهيم بن المقتدر ولُقِّب **المتقي لله** مولده سنة ٢٩٧هـ وخلافته سنة ٣٢٩هـ، ودامت خلافته أربع سنين إلا شهرًا أو أيامًا فلم يصنع شيئًا إلا أنه تغيرت في أيامه بعض أسماء قواده أو بكلمة أجمع أسماء المسيطرين علىٰ المُلك الذين كان هو وأشباهه آلة صماء في أيديهم، وكان موصوفًا بالصلاح والتقىٰ وفي أيامه قُتل محمد بن رائق قَتَله ناصر الدولة بن حمدان (سنة ٣٣٠هـ) وفي سنة ٣٣١هـ تولىٰ إمارة الأمراء تورون (أوطوزون) التركي ثم خافه المتقي علىٰ نفسه فخرج في أهله من عاصمته بغداد إلىٰ الموصل ومنها إلىٰ الرقة وتورون يأمر وينهىٰ، وفي سنة ٣٣٣هـ بعث إلىٰ تورون يستأمنه فأقسم له بالأمان، فركب الفرات حتىٰ إذا وصل السندية قبض عليه تورون وخلعه، وسمل عينيه فعمي، وأتىٰ به إلىٰ بغداد فأقام وهو أعمىٰ حتىٰ مات سنة ٣٥٧هـ.



وبايع تورونُ وأصحابه يوم خلع المتقي لأبي القاسم عبد الله **المستكفي بالله** بن المكتفي بالله بن المعتضد، وكان مستترًا فلم تطل مدته غير سنة وأربعة أشهر مات في خلالها تورون (سنة ٣٣٤هـ) وقدم عليه معز الدولة بن بويه الديلمي والي الأهواز، فخلع عليه المستكفي ولقّبه منذ ذلك اليوم معز الدولة ولقّب أخاه عليًا عماد الدولة، وأخاه الحسن ركن الدولة وأمر أن تُضرب ألقابهم وكناهم علىٰ الدنانير والدراهم: فعل ذلك كله اتقاءً لشرهم وخوفًا من بطشهم به، ثم تغيَّر عليه معز الدولة؛ فبينما كان المستكفي جالسًا وحوله معز الدولة وبعض الأعيان أقبل رجلان من الديلم فتناولا يد المستكفي فظّن أنهما يريدان تقبيلها فجذباه عن السرير وجعلا عمامته في رقبته وقاداه إلىٰ منزل معز الدولة ثم سُحِل فعَمِي وسُجن إلىٰ أن مات، وكان مولده سنة ٢٩٦هـ، وخلافته سنة ٣٣٣هـ، وخلعه سنة ٣٣٤هـ ووفاته سنة ٣٣٨هـ.



وكان للمقتدر ابنٌ آخر اسمه الفضل وكنيته أبو القاسم يطمع بالخلافة بعد أخيه المتقي؛ فلما خلع أخوه وولي المستكفي خاف الفضل واستتر فطلبه المستكفي فلم يظفر به، فلما قدم معز الدولة بغدادَ انتقل إليه وأغراه بالمستكفي حتىٰ فعل به ما فعل، وقدَّمه معز الدولة للخلافة فبايعه الناس ولُقِّب **المطيع لله** وازداد أمر الخلافة العباسية إدبارًا في توليته ولم يبق للخلفاء من الأمر شيء البتة وقد كانوا يراجَعون ويؤخذ أمرهم فيما يُفعل والحرمة قائمة بعض الشيء فلما كانت أيام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث إن الخليفة لم يبق له وزير إنما كان له كاتب يدبر إقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد.

قال ابن الأثير (في حوادث سنة ٣٣٤هـ): وكان من أعظم الأسباب في ذلك أن الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع ويعتقدون أن العباسيين قد أغصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها فلم يكن عندهم باعث ديني يحثهم علىٰ الطاعة... إلخ.

وكان مولد المطيع سنة ٣٠١هـ وخلافته سنة ٣٣٤هـ وفي سنة ٣٥٦هـ مات معز الدولة وقد عهد إلىٰ ابنه بختيار الملقَّب بعزَ الدولة فأساء السيرة وزاد أمر الدولة تقهقرًا وضعفًا ثم مرض المطيع لله وفُلج وثقُل لسانه، وتعذرت الحركة عليه فدعاه سبكتكين وهو حاجب بختيار إلىٰ أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها إلىٰ ولده ففعل ذلك، واشهد علىٰ نفسه بالخلع في أواخر سنة ٣٦٣هـ بعد أن أقام يدعىٰ بلقب الخليفة تسعًا وعشرين سنة وخمسة أشهر ومات بعد شهرين من استقالته وذلك سنة ٣٦٤هـ.



وعلىٰ أثر خلع المطيع بويع ولده أبو الفضل عبد الكريم ولقّب **الطائع لله** سنة ٣٦٣هـ وفي أيامه ثار الأتراك ببختيار لتبديده الأموال وتأخيره مرتباتهم

فكتب إلىٰ ابن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه يستنصره فدخل عضد الدولة بغداد.

ثم أخرجه بختيار وابنه المرزبان منها، وفي سنة ٣٦٧هـ طمع عضد الدولة ببختيار وأقبل علىٰ بغداد فانهزم بختيار منها إلىٰ تكريت فأدركه عضد الدولة وأسره ثم قتله وعاد إلىٰ بغداد فعمَّر منها ما خربته وفرق الأموال وأجرىٰ الجرايات علىٰ الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والشعراء والأطباء والمهندسين، وزوَّج ابنته للطائع ليكون لها عقب منه وتكون الخلافة فيهم، ثم مات عضد الدولة سنة ٣٧٢هـ فقام مقامه ابنه بهاء الدولة.

وفي سنة ٣٨١هـ قبض بهاء الدولة علىٰ الطائع وحبسه في داره وأشهد عليه بالخلع ونهب دار الخلافة، ومولد الطائع سنة ٣١٥هـ وولي سنة ٣٦٣هـ. وخُلع سنة ٣٨١هـ ومات سنة ٣٩٣هـ.

القادر بالله

ولد سنة ٣٣٦هـ وتوفي سنة ٤٢٢هـ

لقد هُزلت دولة بني العباس حتىٰ استامها الديلم والأتراك وضعفت قوىٰ ملوكها حتىٰ طمع بها المتغلبون وامتدت إليها الأيدي وانصرفت نحوها وجوه الطامعين وأصبح بهاء الدولة بن عضد الدولة الديلمي بعد أن خلع الخليفة الطائع حاكمًا مطلقًا لا يد تعلو يده، غير أنه خاف ثورة الجند إذا علموه قد استقل بالمُلك فلم يرَ إلا أن يَنصُب في مقام الخلافة رجلاً يكون له مطيعًا ولأمره سميعًا فشاور خاصته في الأمر فاتفقوا علىٰ: أبي العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر بن المعتضد، وكان بالبَطِيحة (وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة)؛ فأرسل إليه بهاء الدولة خواص أصحابه فقدموا عليه وأخبروه فركب وأتىٰ بغداد فبايعه الناس، وخُطب له في اليوم الثالث عشر من شهر رمضان سنة ٣٨١هـ، ولقّب القادر بالله، فأقام بضعة أشهر

ينظر في أمور الدولة ويبحث عن أسباب وهنها، ثم طلب الخليفة المخلوع الطائع لله فسلمه إليه بهاء الدولة وكان قد سجنه في منزل منفرد، فأكرمه القادر بالله وأنزله في حجرة من أفضل حجره وَوَكَّل به من يقوم بخدمته وحُسْنِ ضيافته بحيث لم يختلف أمره بين خلافته وخلعه إلا بالخطبة له.

وطالت أيام القادر، وكان حازمًا مطاعًا فألقىٰ الله هيبته في القلوب فأطاعه الذين كانت لهم السيطرة والغلبة علىٰ الخلفاء أحسنَ إطاعة وكان موصوفًا بالحلم والكرم وحب الخير والبعد عن الشر إلا فيما يتعلق بالأمور السياسية فأحبه الناس وصفا له المُلك، وأصلح من شؤون الدولة ما استطاع إلىٰ إصلاحه سبيلاً وحَسْبه أنه كفَّ عنها آمال المشرئبين بأعناقهم إلىٰ التسلط والتملك عليها، وكان محبًا للعلم فاضلاً في نفسه، وقد أَلَّف كتابًا في اعتقاد أهل السنة، فُقِد مع ما فُقِد من قديم الكتب وحديثها، وكان الخليفة القادر كثيرًا ما يلبس لباس العامة ويخرج يتجول في دار السلام يزور قبور الصالحين ويتفقد أمور الأمة.

ودامت له الخلافة إحدىٰ وأربعين سنة وتوفي ببغداد عن سبع وثمانين سنة إلا شهرين، ومات في أيامه بهاء الدولة (سنة ٤٠١هـ)، وانتهىٰ أمر رئاسة الأمراء إلىٰ ابنه أبي طاهر جلال الدولة، وتوفي الخليفة في أيامه بعد أن عهد بالمُلك من بعده إلىٰ ولده الذي لُقِّبَ القائم بأمر الله الآتي خَبَرُه.

القائم بأمر الله

ولد سنة ٣٩١هـ وتوفي سنة ٤٦٧هـ

كان الخليفة القادر بالله قد عهد بالخلافة إلىٰ ابنه أبي جعفر عبد الله ولقَّبه القائم بأمر الله سنة ٤٢١هـ، ولما كانت سنة ٤٢٢هـ توفي القادر علىٰ ما تقدم ذكره فصلىٰ عليه ابنه القائم واتَّبع سنته في إدارة شؤون ما بقي له من مُلك بني

العباس، وكان ورعًا دينًا له فضل وعناية بالأدب ومعرفة حَسَنة بالكتابة ولم يكن يرتضي أكثر ما يُكتب من الديوان فكان يُصلح فيه أشياءَ وكان مؤثرًا للعدل والإنصاف يريد قضاء حاجات الناس لا يرىٰ منعهم من شيء هُوَ لهم ولا يضجر من إلحاحهم وتكاثرهم علىٰ بابه، قال ابن الأثير:

قال محمد بن علي بن عامر الوكيل: دخلت يومًا إلىٰ المخزن فلم يبق أحد إلا أعطاني قصة (عرض حال) فامتلأت أكمامي منها، فقلت في نفسي: لو كان الخليفة أخي لأعرض عن هذه كلها فألقيتها في بركة والقائم ينظر ولا أشعر فلما دخلت إليه أمر الخدم بإخراج الرقاع من البركة فأُخرجت ووقف عليها، فوقَّع فيها بأغراض أصحابها، ثم قال لي: يا عامّي! ما حملك علىٰ هذا؟ فقلت: خوف الضجر منها، فقال: لا تعد إلىٰ مثلها فإنا ما أعطيناهم من أموالنا شيئًا إنما نحن وكلاء!..

هذه ترجمة القائم بأمر الله في نفسه وأما مُلكه فلم يزد علىٰ ما كان لأبيه ومن تقدمه، وقد طال عمره وحدثت في أيامه أمور ليست من أمور هذا الكتاب فارجع إليها في تواريخ الممالك والأزمنة إن أردتها، وكانت مدة خلافته أربعًا وأربعين سنة وثمانية أشهر، وعهد بالخلافة إلىٰ ابن ابنه أبي القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله، ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه؛ لأن ابنه أبا العباس محمدًا توفي في أيامه ولا عقب له إلا أن إحدىٰ جواريه واسمها أرجوان كانت حاملاً فوضعت بعد ستة أشهر من موت محمد بن القائم ولدًا سمي عبد الله وكُنِي أبا القاسم وسيأتي الكلام عليه.

المقتدي بأمر الله

ولد سنة ٤٤٩هـ وتوفي سنة ٤٨٧هـ

مات القائم بأمر الله بعد أن عهد إلىٰ حفيده أبي القاسم عبد الله بن محمد بن القائم، ولقَّبه المقتدي بأمر الله، وذلك سنة ٤٦٧هـ وعمره ثماني عشرة سنة، فانصرف إلىٰ عمران بغداد وخدمة الأمة فكانت أيامه أيام خير وسعةٍ وعظمت في عهده الخلافة أكثر مما كانت قبله وبني في بغداد عدة محالّ منها ما لا يزال عامرًا حتىٰ اليوم.

وأمر بنفي المغنيات والمفسدات من بغداد وبيع دورهنّ فنُفين، وكان المغتسلون ربما دخل بعضهم الحمام غير مؤتزر فأمر بالاتّزار والاستتار، وأمر بقلع أبراج الطيور ومنع الناس من اللعب بها حفظًا للحرم المصونات في الخدور من اطلاع أولئك عليهنّ، ومنع من إجراء ماء الحمَّامات إلىٰ دجلة وألزم أربابها بحفر آبار للمياه، ومنع الملاحين أن يحملوا في زوارقهم الرجال والنساء مجتمعين، وكان قويّ النفس عظيم الهمة أحبه الناس وودوا لو طال عمره؛ فإنه حَكَمَ تسع عشرة سنة وثمانية أشهر ومات فجأة وهو شاب لم يبلغ الأربعين، ولادته ووفاته ببغداد.

المستظهر بالله

ولد سنة ٤٧٠هـ وتوفي سنة ٥١٢هـ

لما توفي المقتدي بأمر الله أحضر ولده أبو العباس أحمد المستظهر بالله وهو ولي عهده فأعلم بموته وبايعه من حضر وله من العمر ست عشرة سنة وشهران، واتسق له الأمر علىٰ ما كان لأبيه وجده، أما أخلاقه فكان ممدوحها.

قال صاحب الكامل: كان المستظهر لين الجانب كريم الأخلاق يحب

اصطناع الناس ويفعل الخير ويسارع إلىٰ أعمال البر والمثوبات مشكور المساعي لا يردّ مكرمة تطلب منه، وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ إلىٰ سعاية ساعٍ ولا ملتفت إلىٰ قوله واشٍ، ولم يُعرف عنه التلون أو انحلال العزم بأقوال أصحاب الأغراض، وهذه من أحسن خصال الحزم؛ فإن الملك والآمر إذا ضعفت ثقته برجاله تلاعب فيه الناس وسلكوا به كل مسلك ولم تبقَ له إرادة يعزم بها علىٰ المهمات وكيف يُخلص الوزير أو المستشار في خدمة مولاه وهو يعتقد أن كلمة من عدو أو وشاية من حاسد تزلزل منزلته وتذهب بإخلاصه وخدمِه، علىٰ أنَّ هذه الحسنة ربما انقلبت سيئة إذا لم تتخذ الحيطة في شأنها، فإن صاحب الأمر لا ينبغي له إذا وثق أن يُفرغ ثقته ويستنيم إلىٰ صاحبه بحيث لا ينظر في شيء يَرِد عنه، بل لابد لمن وليَ من أمور الناس جانبًا أن يكون شديد الثقة في غير اطمئنان، كثير الحذَر في غير استرابة، وإلا فلا يتم له أمره، وكان المستظهر عارفًا بالأدب والإنشاء والشعر، وله توقيعات لا يقاربه فيها أحد تدل علىٰ فضل غزير وعلم واسع، وباسمه أَلَّف العلامة الغزالي كتابه في التاريخ الذي سماه «المستظهري».

وكانت خلافته أربعًا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يومًا، ومات ببغداد وله من العمر واحد وأربعون عامًا وستة أشهر، ودُفن في حجرة له كان يألفها وقد عهد بالخلافة من بعده إلىٰ ولده الفضل الملقَّب بالمسترشد بالله.

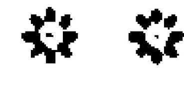


وكان **المسترشد بالله** شهمًا شجاعًا بعيد الهمة فصيحًا بليغًا جيِّد التوقيعات واسمه الفضل وكنيته أبو منصور، إلا أنه ارتكب خطأ ذهب بحياته وأخَّر دولته بعد تقدمها، وذلك أنه بلغ من أمر الخلافة العباسية أن أصبح الحكم فيها لرجلين أحدهما الوازع السياسي المنفذ وهو صاحب الحل والعقد والأمر والنهي في

شؤون الدولة داخلها وخارجها وكان يسمىٰ أمير الأمراء، ثم صار من أُسندت إليه هذه الإمارة يُلقب بملك أو سلطان، والثاني وهو صاحب الاسم الديني يُبايع وتُعرض عليه الأمور قبل عرضها علىٰ الأول فيرىٰ فيها رأيه وهو الخليفة، فكأن الدولة في ذلك العهد بين سُلطتين: نظرية وتنفيذية.

فالنظرية يتولاها الخليفة، والتنفيذية يتولاها الملك أو السلطان أو أمير الأمراء، وكان المعاصرَ للخليفة المسترشد بالله هو السلطان مسعود بن ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي ومقره في همذان، زار بغداد فأكرمه المسترشد، ثم إن الخليفة شعر بخيانة جماعة من الأمراء فأراد عقابهم فلجأوا إلىٰ السلطان مسعود فطلبهم الخليفة منه فأبىٰ ردَّهم إليه، فحدثت بينهما النفرة والوحشة وسافر السلطان مسعود إلىٰ همذان فلما استقرَّ بها، علم الخليفة أن مسعودًا يستعد لقتاله فتجهز هو أيضًا وجاءته رسائل من الأمراء الذين انضموا إلىٰ مسعود يعرضون عليه طاعتهم ويستأمنونه فأمَّنهم الخليفة، وحضروا فأكرمهم وخرج من بغداد بجيش يريد فيه ابتداء السلطان مسعود بالقتال وجعل أولئك الأمراءَ في الميمنة وزحف عليه السلطان مسعود فتلاقيا بموضع يقال له «دايمرج» فلما حمي القتال انحازوا إلىٰ السلطان مسعود استداروا حول عساكر الخليفة المسترشد وهو ثابت في مقره وانهزم عسكره فأُخِذَ هو أسيرًا فأنزل في خيمة وترددت بينه وبين السلطان الرسل في الصلح فاتفقا علىٰ مال يؤديه الخليفة وأن لا يعود يجمع العساكر، وأن لا يخرج من داره ورضي الخليفة وعزم علىٰ الرجوع إلىٰ بغداد فدخل عليه جماعة من فرقة تسمىٰ «الباطنية» فقتلوه ومثلوا به، وذلك علىٰ باب مراغة لأن السلطان مسعودًا كان قد أخذه معه حتىٰ انتهىٰ إليها فدفنه أهل مراغة عندهم، وكان مولد المسترشد سنة ٤٨٥هـ وخلافته سنة ٥١٢هـ، وقتله سنة ٥٢٩هـ، والخطأ الذي أودىٰ به هو اعتماده علىٰ جماعة

خانوه أولاً فخانوه ثانيًا ثم خروجه من بغداد يقود جيشه، وكان الأجدر به أن يوجه قائدًا يعتمد عليه في مثل هذا الشأن.



ولما قُتل المسترشد كتب السلطان مسعود إلىٰ رئيس الشحنة ببغداد أن يبايع ابن المسترشد وكان ولي عهده واسمه المنصور وكنيته أبو جعفر ولقبه **الراشد بالله**، فبويع في بغداد علىٰ شروط كتبها للسلطان مسعود بخط يده وحلف عليها وهي أنه متىٰ جنَّد جندًا، أو خرج للقاء أحد من أصحاب السلطان بالسيف فقد وجب خلعه، فلم تطل أيامه حتىٰ وقع نفور بينهما فتهيأ الراشد لقتاله فعلم مسعود فزحف علىٰ بغداد فحاصرها حتىٰ دخلها وفر الخليفة الراشد إلىٰ الموصل ومنها إلىٰ أصفهان فأقام بها حتىٰ قُتل.

مولده سنة ٥٠٤هـ وخلافته سنة ٥٢٩هـ، وخلعه سنة ٥٣٠هـ، وقتله سنة ٥٣٢هـ، قَتَله بأصفهان بعض خدمه للتخلص منه لأنه لم يكن يستقرّ في مكان، ودُفن بظاهرها في شهرستان.

المقتفي لأمر الله

ولد سنة ٤٨٩هـ وتوفي سنة ٥٥٥هـ

لما خُلع الراشد بالله استشار السلطان مسعود جماعة من أعيان بغداد فيمن يصلح أن يلي الخلافة فاتفقوا علىٰ أبي عبد الله بن المستظهر فدعا به فحضر وأكرمه السلطان واشترط عليه ما كان يشترطه علىٰ غيره فبايعه الناس ولقب المقتفي لأمر الله، وهو:

أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي، تولىٰ الخلافة وهي علىٰ ما علمت من الوهن والضعف وذلك سنة ٥٣٠هـ فجعل لا يترك سببًا من أسباب تقوية ملكه ألا تعلق به دون أن يجاهر السلطان مسعودًا أو غيره بعداوة .

فجمع مالاً كثيرًا وقوة وسلاحًا حتىٰ كانت سنة ٥٤٧هـ، وبها توفي السلطان مسعود بهمذان فلم يتصل خبره بالخليفة المقتفي حتىٰ ثار ثورة الأسد فاستولىٰ علىٰ دار السلطان مسعود ببغداد وقبض علىٰ أصحابه وأعوانه من السلجوقيين وغيرهم وضبط أموالهم وأمر بأن يراق في الطُرُق ما في بيوتهم وبيت السلطان من الخمر فأريق مقدار غير يسير وبه نفر الناس إلىٰ الخليفة مُنكرين علىٰ أعوان السلطان ما رأوه، وشمَّر الخليفة عن ساعد الجد فاستقل بالمُلك وقهر كل مزاحم له عليه، وكان من الرجال ذوي الرأي والعقل والدهاء، وهو أول من استبد من ملوك العراق منفردًا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلىٰ أيامه، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم علىٰ عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك علىٰ الخلفاء من عهد المستنصر إلىٰ أيامه، إلا أن يكون المعتضد - قاله ابن الأثير.

وكان المقتفي شجاعًا مقدامًا مباشرًا للحروب بنفسه، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتىٰ كان لا يفوته منها شيء، وهو موصوف بالحلم والكرم والعدل وحُسن السيرة، وكانت مدة خلافته أربعًا وعشرين سنة وثلاثة أشهر صَفَت له الخلافة منها ثمانيَ سنين بعد وفاة السلطان مسعود السلجوقي، وعهد إلىٰ ابنه يوسف الملقَّب المستنجد بالله.

المستنجد بالله

ولد سنة ٥١٠هـ وتوفي سنة ٥٦٦هـ

أبو المظفَّر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله، وَلِيَ الخلافة علىٰ إثر وفاة أبيه (سنة ٥٥٥هـ) فسار سيرته وضبط الدولة ضبط الحازم العاقل وأول ما بدأ أنه أزال المكوس ورفع عن الناس الضرائب حتىٰ لم

يترك في العراق شيئًا منها، وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلاً فيهم كثير الرفق بهم شديدًا علىٰ هل العبث والفساد والسعاية بالناس.

يُذكر أنه سجن إنسانًا كان يسعىٰ بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنسانًا آخر مثله لأكفَّ شره عن الناس ولم يطلقه.

وقبض علىٰ قاض يعرف بابن المرخَّم كان سيئ المسلك وقد ثبت له أنه أخذ أموالاً كثيرة من بعض الرعية فصادر أمواله ورد للناس ما أخذه منهم، ولكنه أساء إلىٰ العلم إساءة لا تغتفر لأنه لم يكتفِ بأن صادر ذلك القاضي وحبسه وسلبه نعمته حتىٰ امتدت يده إلىٰ كتبه فأحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة وفيها كتاب الشفاء لابن سينا، وكتاب إخوان الصفا، وما يشاكلهما، فهي وصمة في تاريخ حياته سوداء.

حكم إحدىٰ عشرة سنة ثم مرض، وكان قد خانه بعض خاصته فأرغم طبيبه علىٰ أن يصف له الحمام فوصفه له فامتنع المستنجد لضعفه فما زالوا به حتىٰ أدخلوه وأغلقوا عليه الأبواب فصاح واستغاث فلم يلبوه حتىٰ مات فأعلنوا وفاته.

وفي الليلة التي مات بها المستنجد بالله بويع ابنه أبو محمد الحسن، ولُقّب **المستضيء بأمر الله** ففرق أموالاً كثيرة وحذا في الحكم حذو أبيه وكان حليمًا جدًا قليل المعاقبة علىٰ الذنوب محبًا للعفو والصفح عن المذنبين، كريم اليد، صفت له الخلافة تسع سنين وسبعة أشهر، ولا يُذكر له فيها أثر، ولد سنة ٥٣٦هـ، وبويع سنة ٥٦٦هـ، وتوفي سنة ٥٧٥هـ.

الناصر لدين الله

ولد سنة ٥٥٢هـ وتوفي سنة ٦٢٢هـ

وبويع بالخلافة بعد موت المستضيء بأمر الله ولده أبو العباس أحمد بن المستضيء بن المستنجد بن المتقي بن المقتدي بن محمد بن القائم بن القادر ابن المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور بن محمد بن عبد الله بن عباس، ولقب أحمد الناصر لدين الله، وذلك سنة ٥٧٥هـ، فلما تملك طالت أيامه حتىٰ إنه لم يلِ لخلافة من بني العباس أطولُ منه مدةً، وكان شديد السياسة داهيةً خبيرًا بشؤون الملك إلا أنه ربما تشدد في بعض الأمور فنُسب إلىٰ الظلم، والمؤرخ يحار في ما يكتب عنه لأنه لم يكن مستقيم الأطوار، فبينما تراه مولعًا بالمصلحة العامة يفتتح دور الضيافة للناس وللحجاج، ويطلق المكوس، ويرفع عن الناس الضرائب والمظالم، ويتفقد شؤونهم مختفيًا في الحنادس الداجية يجوب المنازل ويجول في الشوارع العامة والأزقة مرتديًا جلباب سوقي أو شيوخ أو غريب إذا بك تراه قد أغلق تلك الدور، وأعاد تلك الضرائب، وانصرفت همته إلىٰ اللهو واللعب برمي البندق والاشتغال بالطيور والعناية بسراويلات الفتوَّة (المعروفة اليوم باسم التبَّانات يتخذها المصارعون، واحدها تبَّان وليس بعربي)، ويقال: إنه هو الذي كاتب التتر وأطمعهم في البلاد بسبب ما كان بينه وبين خوارزم شاه السلطان محمد من العداوة ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق، ولئن صح ذلك ليكوننَّ لطخة عار تشوهت بها صحيفته، وقد شك فيه المؤرخون ورأوا أن العجم ينسبونه إليه.

وكانت خلافته ستًا وأربعين سنةً وأحد عشر شهر إلا يومين، وفي آخر عمره ذهبت إحدىٰ عينيه وضعف بصر الثانية، وفُلج فبطلت حركته ثلاث سنين ثم أصابته دوسنطاريا فمات (رحمه الله) وله من العمر نحو سبعين سنة.

* *

وولي بعده ابنه أبو نصر محمد الملقب **الظاهر بأمر الله** وكانت أيامه في عصر المؤرخ ابن الأثير فذكره وأثنىٰ عليه كثيرًا حتىٰ داخلني الشك في أنه ربما كان محسنًا إليه فقابله علىٰ الإحسان إحسانًا لأن المؤرخ مهما تمكن من الحرية وانطلاق القلم في الحق لابد له من أن تأخذه علىٰ معاصره وولي أمره عاطفة فيثني ويطرئ ويعدد المحامد ويستر المثالب دفعًا للشر أو جلبًا للخير، والذي يجدر بنا أن ننقله عن مؤرخنا مما يتعلق بهذا الخليفة أنه كان علىٰ عكس أبيه مستقيمًا محبًا للخير أطلق المكوس التي كان قد وضعها والده وخفف الأموال عن بعض رعيته، وأخرج المسجونين، ومنع جاسوسية الحرَّاس وكانوا يكتبون للخلفاء كل ما يدور بين الناس من الحديث فأعفاهم من هذا، ولم تطل مدته، ولد سنة ٥٧١هـ، وحكم سنة ٦٢٢هـ، ومات سنة ٦٢٣هـ ومدة حكمه تسعة أشهر.

المستنصر بالله

ولد سنة ٥٨٨هـ وتوفي سنة ٦٤٩هـ

البنيان أفضل ما خُلِّد به الذكر، ولا سيما إذا كان أثرًا نافعًا كمدينة أو مدرسة فخمة أو بناءٍ عظيم يأوي إليه المحاويج أو مستشفىٰ يُطَبّب فيه أصحاب العاهات والأمراض أو ما ضارعه من الأبنية النافعة وحسبك من أدلتنا أن صاحب هذه الترجمة وهو أبو جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر الملَقَّبُ بالمستنصر بالله عاش كغيره من الخلفاء أو كالمُحسنين منهم لأنه كان عاقلاً عادلاً محبًا للحق، ولكنهم إذا كرَّت الأجيال وأنكرت الأطلالَ الرجال ذهب ذكر أولئك الخلفاء وبقيت آثار مدرسة عظيمة أقيمت في بغداد، ودُعيت المستنصرية فهي ترشد الأمم التالية إلىٰ بانيها كما ترشد آثار سامراء إلىٰ المعتصم وكما أرشدت أطلال نينوي إلىٰ حمورابي، والمستنصرية هذه مدرسة كبيرة من أشهر مدارس

الإسلام بناها في بغداد مترجَمنا المستنصر بالله علىٰ شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة، وجعل عليها من الأوقاف شيئًا كثيرًا وأقام لها الأطباء والصيادلة حتىٰ ظهرت في أبهر حُلَّة من الاتساع والزخرفة وما فيها من رجال العلوم الدينية والفنون الدنيوية وهي اليوم مهملة تكاد تعفو آثارها وقد أصبح قسم منها دارًا للمكس وآخر مطبخًا وآخر قهوة تعرف بقهوة الشط.

كانت سيرة المستنصر حميدة كسيرة أبيه، وكان جده الناصر يحبه ويسميه القاضي لوفرة عقله، ولكن ما ينفع العقل والفضل والأعمال منتقضة والدولة ذاهبة إلىٰ الخراب، وفي أيامه قويت شوكة قبيلة المغول التترية (وعلا شأنها بظهور جنكيز خان سنة ٥٩٩هـ، وأصلها من جنوبي سيبريا) فاستولوا علىٰ كثير من المملكة الإسلامية حتىٰ أوشكوا يدخلون بغداد في عهده إلا أنهم دُفعوا عنها، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهرًا وإقامته ببغداد وفيها توفي ودفن.

المستعصم بالله

ولد سنة ٥٨٨هـ وتوفي سنة ٦٥٦هـ

أتىٰ علىٰ الدولة العباسية حين من الدهر كان فيه الخليفة يقنع بامتلاك دار السلام عاصمة ملكه فلا يرىٰ إلىٰ تلك الأمنية من سبيل، ذلك بعد أن ملكوا البلاد وسادوا العباد وامتدت سلطتهم وعظمت سلطنتهم، ولكنَّ الدول في رأي بعض الباحثين من علماء الاجتماع كالأناسيّ إذا أدركها الهَرِم لم تنجع في دائها الأدواء، قال ابن خلدون: «.. وإذا كان الهرم طبيعيًا في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الأمور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الأمراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي والأمور الطبيعية لا تتبدل.. وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع

عنها ويومض ذبالها إيماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهي انطفاء».

انتهىٰ أمر الخلفاء العباسيين إلىٰ السابع والثلاثين منهم وهو آخرهم في القطر العراقي، أبو أحمد عبد الله ولقبه المستعصم بالله بن المستنصر بالله، بويع بعد وفاة أبيه باتفاق آراء رجال الدولة ووزرائها عليه (سنة ٦٤٠هـ)، فلما ولي الخلافة كان مثال الضعف والوهن والانقياد إلىٰ اللهو والعكوف علىٰ الدَّد فألقىٰ زمام الملك إلىٰ الأمراء والقوّاد واعتمد في أكثر الشؤون علىٰ وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي، وكان يتشيع للعلويين، وقد علمت من ترجمة المستنصر السابقة أن المغول عظم أمرهم وخيف شرُّهم فأشار بعض الناجمين علىٰ المستعصم أن يتخذ الحيطة لدرء هجماتهم وأن يُعد جيشًا يقوىٰ به عليهم فغلبت عليه غفلته فقال: «إن هؤلاء لا يطمعون بإخراجي من دار ملكي وهم يكتفون مني بأن أترك لهم البلاد ويَدَعوا لي بغداد وهي تكفيني!».

واتفق أن فتنة حدثت في بغداد بين رجال السنة والشيعة العلويين وهذا مرض قديم في الإسلام وُلد منذ تَوفَّىٰ اللهُ نبيه محمدًا (ﷺ) وانحاز فريق من أهل الإسلام يرون أن عليًا أجدر بالخلافة بعد ابن عمه ثم اتسع ذلك الخرق بعد زَمَن فكان في المسلمين الداءَ الذي لا يُحسم والعلةِ التي لا تشفىٰ وهو حتىٰ اليوم سبب تأخر المسلمين الأعظمُ، وعلة تفرقهم، ومنشأ نزاعهم، وحكماءُ الفريقين دائبون علىٰ إصلاح ذات البين ولا أراهم يوفَّقون إليه إلا بعد أن لا يبقىٰ غير الندم والأمل الأكبر بزوال تلك الشنشنة معقود بناصية دور العلم الحديث والفنون فإذا اشتغل فيهما المسلمون وعرفوا حقائق الأديان وسبروا أغوار السياسة والاجتماع كان لهم من أنفسهم زاجر ولكنني أقول:

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوالُ

وجارت السنّة في هذه الفتنة علىٰ إخوانها من الشيعة فانتهبت بيوتها وسفكت دماءَها وذلك بتحريض أبي بكر ابن الخليفة وبعض الأمراء الكارهين لابن العلقمي الوزير، وظهر من الخليفة ضعف أو إغضاء، آثار في قلب وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي مراجل حقد كانت كامنة وحزن لما أصاب إخوانه الشيعة من الكوارث فكتب إلىٰ قائد المغول وهو هولاكو حفيد جنكيزخان يُعلمه بضعف الخليفة ويهوّن عليه أمر احتلال بغداد ويَعِده بالإعانة علىٰ خليفته، فزحف هولاكو بخيله ورحله يقود جيشًا عرمرمًا من التتر، وذلك سنة ٦٥٥هـ، وخرجت إليه عساكر الخليفة ثم انهزمت ونزل هولاكو علىٰ بغداد من الجانب الشرقي وانتشر عسكره في جميع جهاتها، فقدم عليه الوزير ابن العلقمي فتوثق منه لنفسه وعاد إلىٰ الخليفة المستعصم، وقال: إن هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم ويريد أن يزوج ابنته من ابنك أبي بكر وحسّن له الخروج إلىٰ هولاكو فخرج إليه المستعصم في جمع من أكابر أصحابه فأنزل في خيمته ثم استدعىٰ الوزيرُ الفقهاء والأماثل فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون والعلماء فلما تكاملوا أمر بهم هولاكو فأحاطت فيه العساكر وقتلوا عن آخرهم، وأبقىٰ الخليفة حيًا حتىٰ دلّهم علىٰ مواضع الأموال والدفائن ثم قتلوه ودخلوا بغداد فأعملوا السيف فيها فدام القتل بها والنهب نحو أربعين يومًا وأحرق وأغرق ما فيها من كتب العلم والتاريخ وهُدِّم كثير من الأبنية الشامخة والقصور العامرة ثم نودي بالأمان.

وبموت الخليفة المستعصم بالله انقرضت الدولة العباسية في العراق وعدة خلفائها ٣٧ خليفة ومدة مُلكهم من سنة ١٣٢هـ إلىٰ موت المستعصم سنة ٦٥٦هـ، ودام لهم المُلك يصفو ويكدر ٥٢٤ سنةً، والمُلك لله يؤتيه من يشاء.

خاتمة

انقرضت دولة بني العباس في العراق وانمحت آثارها فلم يطل أمد احتجابها غير نيّف وثلاث سنين وظهرت في مصر بوفود أبي القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر بن الناصر بن المستضيء العباسيين علىٰ الملك الظاهر بيبرس البندقداري أحد ملوك دولة المماليك في مصر، وكان أبو القاسم هذا غائبًا عند حدوث واقعة بغداد فنجا من شرها وأثبت نسبه العباسي لدىٰ الملك الظاهر بمصر أمام جمع من العلماء وأركان الدولة ففرح به الظاهر؛ لأنه وجده قوةً جديدة لملكه، ولا يخفىٰ أن المسلمين لا ينظرون أن الملوك بعين الرضىٰ والخضوع إلا إذا قرنوا إلىٰ ألقابهم السياسية لقبًا دينيًا كالخليفة أو أمير المؤمنين، وهذا اللقب لا يحرزه إلا أصحاب النسب الثابت كالعلويين والعباسيين وأشباههم، فلما ظفر الملك الظاهر بالخليفة العباسي جمع الناس وأعلن فيهم أن دولته أصبحت دولة ثابتة الأساس بانتسابها إلىٰ دولة العباسيين وبايع أبا القاسم العباسي ولُقِّب المستنصر، وكذلك بايعه أركان دولة الملك الظاهر وخطب باسمه علىٰ المنابر ونُقش علىٰ النقود وأُقيمت له المظاهر وأنزل في دار فخمة، وذلك سنة ٦٥٩هـ فهو أول الخلفاء العباسيين في الديار المصرية ولم يكن له ولا لمن بعده أثر يُذكر لأنهم إنما كان لهم من الخلافة الاسم والأبهة والخطبة ولا يحق لهم أن ينظروا في شيء من شؤون الدولة فهي خلافة كاذبة ومُلك وهمي ودام لهم ذلك بمصر ٢٥٥هـ سنةً تعاقَبَ منهم خمسة عشر رجلاً علىٰ الإمارة، وهذه خلاصة أخبارهم، اعتمدت فيها علىٰ تاريخ ابن الوردي:

١ - المستنصر: أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر العباسي، بويع سنة ٦٥٩هـ وجهز له الملك الظاهر البندقداري جيشًا زحف به إلىٰ العراق لاسترداد بغداد فحارب التتر فانهزم جيشه، وفُقد هو ولم يُعلم خبره وذلك سنة ٦٦٠هـ.

٢ - الحاكم بأمر الله: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن المسترشد بن المستظهر، ظهر في الديار المصرية بعد أن شاع خبر فقدان المستنصر فأثبت نسبه أمام الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٠هـ فبايعه الظاهر وجعل له ما كان للمستنصر وتوفي بمصر سنة ٧٠١هـ فدُفن بها.

٣ - المستكفي بأمر الله: أبو الربيع سليمان بن أحمد الحاكم، بويع بعد وفاة أبيه سنة ٧٠١هـ وتوفي بقوص سنة ٧٤٠هـ، ومولده سنة ٦٩٠هـ، وكان قد أُخرج إلىٰ الصعيد سنة ٧٣٨هـ وعلىٰ لسانه يقول ابن الوردي في تاريخه: «مثلي يعيش بالموت، ويبلغ المنىٰ بالفوت، إلىٰ كم لهمُ العيشة الرَّطْبة، ولي مجرَّد الخُطْبَة، فلهم الملك الصريح، وسليمان الريح!».

٤ - الواثق بالله: أبو إسحاق إبراهيم ابن أخي المستكفي، بويع بعد موت المستكفي سنة ٧٤٠هـ عاشر السفلة فخُلع بعد أن مكث سنة وأيامًا.

٥ - الحاكم بأمر الله (الثاني): أبو العباس أحمد بن المستكفي بالله بن الحاكم (الأول)، بويع في المحرم من سنة ٧٤٢هـ وتوفي سنة ٧٥٣هـ.

٦ - المعتضد بالله: أبو بكر بن المستكفي، بويع بعهد من أخيه الحاكم الثاني سنة ٧٥٣هـ وتوفي سنة ٧٦٣هـ.

٧ - المتوكل علىٰ الله: أبو عبد الله محمد بن المعتضد، بويع سنة ٧٦٣هـ وتوفي سنة ٨٠٨هـ، وخلف أولادًا كثيرين، قيل: إنهم نحو المئة.

٨ - المستعين بالله: أبو الفضل بن المتوكل، بويع بعهد من أبيه سنة ٨٠٨هـ وتوفي سنة ٨٣٣هـ.

٩ - المعتضد بالله (الثاني): أبو الفتح داود بن المتوكل بن المعتضد (الأول)، بويع بعد أخيه المستعين سنة ٨٣٣هـ، وتوفي سنة ٨٤٥هـ.

١٠ - المستكفي بالله (الثاني): أبو الربيع سليمان بن المتوكل، بويع بعهد من أخيه المعتضد سنة ٨٤٥هـ، وتوفي سنة ٨٥٥هـ.

١١ - القائم بأمر الله: أبو البقاء حمزة بن المتوكل، بويع بعد أخيه المستكفي الثاني سنة ٨٥٥هـ، فأقام شهرًا واثنىٰ عشر يومًا ووقع خلاف بينه وبين الملك الأشرف سلطان مصر فذهب إلىٰ الإسكندرية فأقام بها حتىٰ مات سنة ٨٦٣هـ.

١٢ - المستنجد بالله: أبو المحاسن يوسف بن المتوكل، بويع بعد انصراف أخيه القائم بالله إلىٰ الإسكندرية سنة ٨٥٥هـ، ومات مفلوجًا سنة ٨٨٤هـ.

١٣ - المتوكل علىٰ الله (الثاني): أبو العز عبد العزيز بن يعقوب، بويع سنة ٨٨٤هـ، وتوفي سنة ٩١٣هـ.

١٤ - المستمسك بالله: أبو الصبر يعقوب بن عبد العزيز، بويع بعد أبيه المتوكل الثاني سنة ٩١٣هـ، وتوفي سنة ٩٢٧هـ.

١٥ - المتوكل علىٰ الله (الثالث): محمد بن يعقوب المستمسك، بويع بعد أبيه سنة ٩٢٧هـ، وفي أيامه افتتح السلطان سليم أحد سلاطين آل عثمان، بلادَ الشام ومصر سنة ٩٢٢هـ، فاستلم من المتوكل الآثار النبوية وهي الراية والسيف والبردة ومفاتيح الحرمين الشريفين، وأخذه معه إلىٰ القسطنطينية بعد أن تنازل له المتوكل عن الخلافة، وأصبح كل سلطان عثماني يُلقب بالخلافة وإمارة المؤمنين منذ ذلك الحين فاجتمعت لهم السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وأقام المتوكل في القسطنطينية مدة ثم عاد إلىٰ مصر؛ فمات سنة ٩٤٥هـ، وهو آخر الخلفاء العباسيين في العراق والديار المصرية وبه تم الكلام عليهم.

***

بنو أمية في الأندلس

دخــول

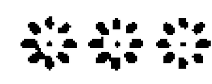
علمت مما سبق من أخبار الدولة العباسية أن مؤسسها الخراساني أبا مسلم ضرب الأمويين في المشرق ضربةً تابعه بأشد منها الخليفة العباسي الأول انتقامًا من تلك الأسرة الحاكمة لما كان لبني هاشم عند معاوية وبنيه من الثأر القديم، وسعيًا وراء توطيد الخلافة العباسية بحيث لا تطلع الشمس علىٰ مزاحم لهم عليها من آل أمية أو مروان بعد ذلك، وقد تفرَّق الناجون من القتل والحبس من الأمويين والمروانيين في أنحاء الأرض فكان منهم عبد الرحمن الأول المعروف بالداخل، وهو الذي ركب الأخطار وقصد بلاد الأندلس فأسس فيها دولة خفقت أعلامها ٢٧٦ عامًا وانتشرت مدنيتها وعلومها وصناعاتها حتىٰ كان ابن القارة الأوربية يسعىٰ إليها بالأمس كما يسعىٰ السوري، والأندلسي(١)، والمصري إلىٰ باريز [...](٢) ولوزان وموينخ اليوم.

يبتدئ تاريخ هذه الدولة في المغرب من سنة ١٣٨هـ وهي سنة إمارة عبد الرحمن الأول علىٰ قرطبة، وينتهي سنة ٤٢٢هـ، وهي السنة التي خُلع فيها آخر خلفائهم هشام بن محمد وتفرقت البلاد من بعده فاستقل كل والٍ بما ولي علىٰ نسق ما أصاب دولة آل عباس في آخر أمرها.

وقد خرجت الإمارة من أيدي الأمويين في أثناء تملكهم مدة سبع سنين وثمانية أشهر حكم فيها رجال من الفاطميين (نذكرهم إن شاء الله بعد ترجمة

(١) يقصد المغربي.
(٢) كلمة غير واضحة بالأصل.

سليمان بن الحكم الأموي)[(١)]، ثم عادت إلىٰ بني أمية فلم تطل أيامهم، وإنه ليؤلمني أن ألتزم جانب الإيجاز في البحث عن تراجم ملوك هذه الدولة ذات الحضارة العجيبة والذكر المجيد غير أن المجال يضيق عن الإسهاب والإطالة فأكتفي بانتداب مؤرخينا وأهل البحث والنظر الثاقب من علمائنا الأعلام إلىٰ وضع كتاب كبير يضم أجزاء تاريخها ويجمع ما تفرق في الكتب العربية والإفرنجية من أخبارها فهي الخدمة الجليلة والعمل النافع أثاب الله من يقوم به خيرًا.



(١) ذكرت في مقدمة الكتاب أن الزركلي كان ينوي استكمال الكتاب لأكثر من ذلك، ولكنه عدل عن ذلك، وتوقف، فلم يترجم لرجال أشار إلىٰ أنه سيترجم لهم لاحقًا، علّه اكتفىٰ بتراجمهم في كتابه الأعلام (المقدم).

عبد الرحمن الداخل

ولد سنة ١١٣هـ وتوفي سنة ١٧٢هـ

فتح المسلمون بلاد الأندلس وأخذت تتعاقب عليها ولاتهم وأمراؤهم من قِبَل دولة الأمويين في الشام أولاً حتىٰ ضعف شأنهم وتزلزل سلطانهم فاستبد الأندلسيون بأمر أنفسهم يعزلون ويولون من يشاؤون، وظهرت بينهم في أوائل القرن الثاني للهجرة ثورات واضطرابات كان أمراؤهم يعالجون منها ما يمكنهم علاجه إلىٰ أن أُصيب بنو أُمية بتلك الرائعة التي شتتت شملهم ومزَّقت مُلكهم، فتفرق من نجا منهم في بلاد الله وتملّك بنو العباس (علىٰ ما تقدم بيانه) وكان فيمن فرَّ من أيدي المسوِّدة (آل عباس) أميرٌ من سلالة ملوك بني أمية يُدعىٰ أبا المطرّف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أمه بربرية من المغرب، ولد بموضع يعرف بدير حُسَيبة[1] من دمشق، ومات أبوه وهو صغير السنّ فنشأ في جهات الشام ولما حلّ بقومه ما حلَّ انهزم وأقام في قرية علىٰ الفرات فتبعته الخيل فأوىٰ إلىٰ بعض الأدغال حتىٰ أمِن فقصد المغرب، فبلغ إفريقية فلجَّ عاملها بطلبه حين علم به، وهو حينئذ عبد الرحمن بن حبيب الفهري.

وانصرف المترجم إلىٰ مكناسة وقد لحقه مولاه بدر بنفقة وجواهر كان قد طلبها من أخت له تعرف بأم الأصبع، ولم تطب له الإقامة في مكناسة، فارتحل منها ونزل بآل نفزادة وهم جيل من البربر منهم أمه فأكرموه حين عرفوا صلته بهم ولبث مدة يكاتب الأمويين من أهل الأندلس يعلمهم بقدومه ويدعوهم إلىٰ نفسه ووجه بدرًا مولاه إليهم فأجابوه وسيّروا إليه مركبًا فيه جماعة من

---

(١) كذا في البيان المُغرب لابن عذارى، ج٢، ص٤٩، وفي تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي «دير حَمِينا» ولم يذكرهما ياقوت في معجمه.

كبرائهم فأبلغوه طاعتهم وأخذوه وعادوا إلىٰ الأندلس فأرسىٰ بهم المركب في المنكب (وذلك في شهر ربيع الأول سنة ١٣٨هـ)، ثم انتقلوا إلىٰ إشبيلية ومنها إلىٰ قرطبة فعلم بهم والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وكان غائبًا عن قرطبة بنواحي طليطلة فأقبل ونشب قتال بين عسكره ومن التفّ حول عبد الرحمن بن معاوية انتهىٰ بظفر عبد الرحمن فدخل قرطبة واستقر بها وبنىٰ فيها القصر والمسجد الجامع ومساجد للجماعات ووافاه عدد كبير من الأمويين، وكان يدعو للمنصور العباسي ويُظهر أنه لا يميل إلىٰ الخروج عن طاعة ملوك العباسيين في العراق فهدأت به ثائرة الأندلس واطمأن الناس إليه وأحبوه لعدله ورأفته ثم قطع خطبة العباسيين وجهر بالاستقلال.

وكان من أهل العلم والمعرفة بالأدب وله شعر، ووصفه صاحب البيان المغرب فقال: «أظنّ صفته: طويل القد، أصهب، أعور، خفيف العارضين، بوجهه خال، له ضفيرتان»، وكان المنصور يلقبه بصقر قريش، ولُقِّب الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من ملوك بني أمية: قال ابن الأثير في نعته:

«... وكان لسنًا شاعرًا حليمًا عالمًا حازمًا سريع النهضة في طلب الخارجين عليه لا يخلد إلىٰ راحة ولا يسكن إلىٰ دعة، ولا يكل الأمور إلىٰ غيره، ولا ينفرد في الأمور برأيه، شجاعًا مقدامًا بعيد الغور شديد الحذر، سخيًا جوادًا، يكثر لبس البياض، يُقاس بالمنصور في حزمه وشدته وضبط المملكة، وبنىٰ الرصافة بقرطبة تشبُّهًا بجده هشام حيث بنىٰ الرصافة بالشام»، وعند أول نزوله بالرصافة رأىٰ فيها نخلة منفردة فهاجت شجنه، وتذكر وطنه فقال:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلةٌ ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرُّب والنوىٰ ... وطول التنائي عن بُنَيّ وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبةٌ ... فمثلك في الإقصاء والمنتأىٰ مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسحُ ويستمري السماكين بالوبلِ

توفي الداخلُ بقرطبة ودُفن بقصرها، وكان دخوله علىٰ الأندلس وهو ابن خمس وعشرين سنةً، وبويع بقرطبة يوم الأضحىٰ من سنة ١٣٨هـ ومدة خلافته ٣٣ سنة، وأربعة أشهر ونصف، وعقد العهد لابنيه هشام ثم سليمان، ومن شعره يتشوق إلىٰ بلاد الشام:

أيها الراكب الميمم أرضي   أقر من بعضيَ السلامَ لبعضي
أن جسمي كما علمت بأرضٍ   وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قُدِّر البين بيننا فافترقنا   وطوىٰ البين عن جفوني غمضي
قد قضىٰ الله بالفراق علينا   فعسىٰ باجتماعنا سوف يقضي

هشام بن عبد الرحمن

ولد سنة ١٣٩ وتوفي سنة ١٨٠هـ

لم يكن هشام أكبر ولد عبد الرحمن فإن سليمان أكبر منه ولكن أباه كان يتوسم منه الشهامة والاضطلاع في أمر المُلك فعهد إليه قبل أخيه، ولما توفي عبد الرحمن كان هشام بماردة متوليًا لها، وأخوه سليمان بطليطلة، وكان يروم الأمر لنفسه ويحسد أخاه هشامًا علىٰ تقديم والده له ولهما أخ ثالث اسمه عبد الله ويعرف بالبلنسي كان بقرطبة عند موت والده فجدَّد البيعة لهشام وكتب إليه يخبره فحضر هشام بعد ستة أيام، فبويع سنة ١٧٢هـ، وحشد أخوه سليمان أجناده وقصد قرطبة مخالفًا لأخيه فانضم إليه أخوهما عبد الله فخرج هشام إليهما بجيشه فالتقىٰ الجيشان بجهة بلج، وانهزم سليمان وعبد الله بعد حرب شديدة [وقفل] هشام إلىٰ قرطبة ظافرًا، وكان يُكنىٰ بأبي الوليد، وصفه ابن الأثير وابن عذارىٰ فقالا: «كان أبيض، أشهل، مشربًا بحمرة، بعينيه حول»، ومن محاسن سيرته أنه كان يبعث إلىٰ الكور قومًا عدولاً يسألون الناس عن سير

العُمّال، وكان ذا حزم ورأي وشجاعة وعدل محبًا لأهل الخير والصلاح شديدًا على الأعداء، راغبًا في الجهاد.

ومن غريب ما يذكر عن أيامه من عزِّ الإسلام أن رجلاً مات وأوصى أن يُفك أسير من أسرى المسلمين من تركته فطلب ورثته ذلك فلم يوجد في دار الأعداء أسير مسلم يُشترى أو يُفك لضعف العدو وقوة المسلمين، وأهل الأندلس يعدّدون مناقبه ويبالغون فيها حتى قالوا: إنه كان يشبه في سيرته بعمر بن عبد العزيز..

خلافته سبع سنين وتسعة أشهر [وثمانية] أيام، بنى عدة مساجد، وتمم بناء جامع قرطبة الذي بدأ أبوه به.

الحكم بن هشام

ولد سنة ١٥٤هـ وتوفي سنة ٢٠٦هـ

أبو العاصي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الأمويّ، أحدُ ملوك بني أمية العظام في الأندلس، قال المقّري في نفخ الطيب: هو أول من جعل للملك أبهة بأرض الأندلس، وأول من جنّد بها الأجناد وجمع الأسلحة والعدد وارتبط الخيول على بابه، وكانت له عيون يأتونه بأخبار الناس، وكان يباشر الأمور بنفسه، ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين، وهو الذي مهّد الملك لعقبه في تلك البلاد.

ولد بقرطبة مقر مُلكه، وبها نشأ، وولي أمر المسلمين بعد أبيه هشام بعهد منه إليه سنة ١٨٠هـ، وكانت في أيامه حروب وفتن كثيرة أثارها عليه جماعات من الخوارج والثوّار فاشتغل في حسم شرورهم فجاءه نبأ مجاوريه من الفرنج، وأنهم أخذوا يعيثون فسادًا في الثغور، فسار إليهم بنفسه سنة ١٩٦هـ، فافتتح

الحصون وخرَّب النواحي، وأثخن في القتل والسبي والنهب وعاد إلىٰ قرطبة ظافرًا، وأرسل سنة ٢٠٠هـ فرقة من الجيش لصد غارات المعتدين علىٰ بلاده فأمن بذلك شرهم وتفرغ لسياسة الملك وتدبيره فنظَّم شؤونه واستقر له الأمر حتىٰ توفي، فدفن في قرطبة، وكان أفحل بني أمية بالأندلس وأشدهم إقدامًا ونجدة - قاله المقَّري.

وترك أولادًا كثيرين منهم عشرون ذكرًا، عشرون أنثىٰ، وكان أسمر طوالاً أشم نحيفًا لم يخضب ونظم الشعر الرقيق يتفكَّه به أورد بعضه صاحب البيان المغرب (ج٢، ص٧٠)، وفي نفخ الطيب قوله وأنشده بعد واقعة:

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعًا ... وقدمًا لأمتُ الشعب مذ كنتُ يافعا
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرةٌ ... أبادرها مستنضيَ السيف دارعا
تنبئك أنّي لم أكن في قراعهم ... بوانٍ وقدمًا كنتُ بالسيف فارعا
وهل زدتُ إذ وفَّيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منايا قُدِّرت ومصارعا
فهذي بلادي إنني قد تركتها ... مهادًا ولم أترك عليها منازعا

وعدَّد له صاحب الكامل صفات منها أنه تشبّه بالجبابرة، وأنه أول من استكثر من المماليك بالأندلس، وأول من جنّد بها الأجناد المرتزقين..

وقال المراكشي صاحب المعجب في تلخيص أخبار المغرب في الكلام عليه: الحكم بن هشام الملقَّب بالرَّبَضي كان طاغيًا وله آثار سوء وهو الذي أوقع بأهل الرَّبَض فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم، والرَّبَض محلة متصلة بقصره اتَهم أهلها بمكيدة يدبرونها للإيقاع به ففعل بهم ذلك فسُمي الحكم الربضي.

قال: وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض علىٰ قيام الليل في صوامع المساجد وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئًا من التعريض به مثل أن

يقولوا: يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه، المصرّ علىٰ كبره، المتهاون بأمر ربه أفق مَن سكرتك، وتنبه من غفلتك، وما نحا هذا النحو، فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم، وكان أشد الناس عليه في أمر فتنة الرَّبَض الفقهاء هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم إلىٰ أن أوقع بهم..

وجملة ما يتحصل من أقوال المؤرخين فيه أنه كان شديدًا جبارًا ضابطًا لأمر مملكته يقظًا، إذا همَّ ألقىٰ بين عينيه عزمه، لا يردّه عن سبيله رادٌّ قويّ الإرادة، وأكثر خلاله تدل علىٰ رجل كبير.

وإن شئت التوسع في أخباره فارجع إلىٰ نفح الطيب، وكامل التواريخ، والبيان المغرب، والمعجب وأشباهها.

عبد الرحمن بن الحكم

ولد سنة ١٧٦هـ وتوفي سنة ٢٣٨هـ

بعد موت الحكم بن هشام، استطاع ولده عبد الرحمن أن يقوم بالملك حق القيام، وكنيته أبو المطرِّف، وله بطليطلة أيام كان أبوه الحكم يتولاها لأبيه لهشام، وبويع بعد وفاة والده بيوم واحد، كان جسيمًا طويلاً أسمر، حسن الوجه أقنىٰ أعْيَن أكحل، عظيم اللحية، يخضب بالحناء والكَتَم.

قال صاحب البيان المغرب في وصفه: «هو أول من جرىٰ علىٰ سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة وكسا الخلافة أبهة الجلالة، فشيَّد القصور وأجلب الماء العذب إلىٰ قرطبة وبنىٰ له مصنعًا كبيرًا يردُه الناس، وبنىٰ الرصيف وعمل عليه السقائف وبنىٰ المساجد بالأندلس وعمل السقاية علىٰ الرصيف واتخذ السكة بقرطبة وفخَّم ملكه».

وزاد عليه غيره من المؤرخين فقالوا: إنه علا عن التبذل للعامة، وكانت أيامه

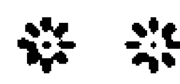
أيام سكون وعافية وكثرت عنده الأموال، وكان عالي الهمة له غزوات كثيرة، وكان أديبًا ينظم الشعر للهو به في بعض أوقات خلوّه، عالمًا بعلوم الشريعة وغيرها من علوم الفلاسفة، وهو معدود في جملة من عشق جواريه كان يأنس بهنَّ ويداعبهن كلما فرغ من عناء غزوة أو انتهىٰ من نصب حرب، وكان يميل إلىٰ جارية له اسمها طروب ونظم بها شعرًا فشُهِرَ بها وأغدق عليها الأموال وله أخبار معها، ولم يكن في بطشه كأبيه بل خالفه في كثير من أخلاقه فاستعاض باللين عن الشدة وبتهدئة الفتن عن اقتحام حروبها، وشعره جيّد، منه قوله يصف حالة المعزول:

أرىٰ المرء بعد العزل يرجع عقله ... وقد كان في سلطانه ليس يعقل

فتلفيه جهم الوجه ما كان واليًا ... ويسهل منه ذاك ساعة يُعزلُ

ومن كلامه ما وقّع به إلىٰ بعض عمّاله وقد كتب إليه يسأله عملاً لم يكن أهلاً له فذيّله بقوله: «من لم يصب وجه مطلبه كان الحرمان أولىٰ به».

ولد له نحو مئة ولد أكثرهم ذكور وخلّف خمسة وأربعين ولدًا ذكورًا[1]، وكان ممدوح السيرة، مدة ولايته ٣١ سنة وثلاثة أشهر [وستة أيام]، وتوفي بقرطبة، وكان يشبّه بالوليد بن عبد الملك في سياسته وتأنقه.



ولما مات عبد الرحمن بن الحكم ملك ابنه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، فجرىٰ علىٰ سيرته عدلاً وإحسانًا للرعية ورأىٰ الملك ثابت الأساس هادئًا مطمئنًا فصفت له أيامه، مولده في قرطبة سنة ٢٠٧هـ، ووفاته سنة ٢٧٣هـ وحكم خمسًا وثلاثين سنة إلا شهرًا، كان أبيض مشربًا بحمرة ربعة أوقص وافر اللحية يخضب بالحناء، خلّف ٣٣ ولدًا ذكرًا و٢١ بنتًا، وكان

(١) قال ابن عذاري: بنوه الذكور خمسة وأربعون، وبناته: اثنتان وأربعون (المقدم).

مثبتًا في شؤونه وفيًا لمواليه أنفسهم وأعقابهم لا يكدح عنده كادح في شيء عن أحدهم فيَسْمعه أو يُسْمعه، أحبّه أهل البلدان المستقلة في عصره حتىٰ كان بنو مدرار بسجلماسة ومحمد بن أفلح صاحب تاهرت لا يقدّمون ولا يؤخّرون في أمورهم ومعضلاتهم إلا عن رأيه وأمره، وما يُحفظ عنه أنه قال لهاشم بن عبد العزيز أحد وزرائه وقد أنكر عليه شيئًا من عدم التثبت: يا هاشم من آثر السرعة أفضت به إلىٰ الهفوة، ولو أنا أصغينا نحو زلاتك وأصخنا إلىٰ هفواتك لكُنَّا شركاءك في الزلة وقسماءك في العجلة، فمهلاً عليك رويدًا بك فإنك إن تعجل يعجل بك»... ودفن بقرطبة، وكان ذكيًا فطنًا.



ولي بعد موته بثلاثة أيام ابنه أبو الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمن، مولد سنة ٢٢٩هـ، اتصل به خبر موت أبيه وهو يحارب الفرنج محاصرًا لفريق منهم في حصن يعرف بحصن الحمامة فقفَل راجعًا إلىٰ قرطبة فجُدِّدت له البيعة، وفرَّق العطاء في الجند وتحبَّب إلىٰ أهل قرطبة والرعايا بأن أسقط عنهم عُشر ذلك العام وما يلزمهم من جميع الغرم، وكان أسمر، طويلاً، جعد الشعر، كثّ اللحية، بوجهه أثر جدري يخضب بالحناء والكَتَم، وكان جوادًا يصل الشعراء ويحب الشعر، ولم تطل مدته فتوفي وهو في غزوة له علىٰ بريشتر سنة ٢٧٥هـ فكان مُلكه سنتين إلا عشرين يومًا.

عبد الله بن محمد

ولد سنة ٢٢٩هـ وتوفي سنة ٣٠٠هـ

خالف عبد الله أباه وأخاه في سيرتهما إذ ظهر بالملك في مظهر جديد وأعاد للدولة ما كادا يَذهبان به من رونقها ونضرتها، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام، بويع يوم وفاة أخيه المنذر، وأراد النهوض

بالمملكة فاضطرب أمرها حتىٰ كانت أيامه كلها أيام ثورات تفرقت بها القلوب بعد ائتلافها وكثر عدد الخارجين عن سلطته حتىٰ صار في كل جهة متغلب أو مستقل وليس ذلك ببدع فإن الجسم إذا طال فيه أمر العلة حتىٰ أوشكت تُزمن وجتتة بالإصلاح والعلاج ثارت فيه ثائرةٌ ربما خيف منها علىٰ سائر الأضلاع ذلك مثل عبد الله بن محمد في ملكه إذ فجأ أهل الدولة وهم بين مسيطر وسلّاب ونهّاب فنزع عن نفسه حُجُب الجلالة والعظَمة وأمر ببناء ساباط بين قصره والجامع في قرطبة فكان يقعد فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرىٰ الناس ويُشرف علىٰ أخبارهم وحركاتهم ويُسرُّ بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا يخفىٰ عليه شيء من أمورهم وأخذ يقعد أيضًا علىٰ بعض أبواب قصره (سرايه) أيامًا معلومة فترفع إليه الظلامات وتصل إليه الكتب علىٰ باب حديد صُنع لذلك فلا يتعذر علىٰ ضعيف إيصالُ بطاقة بيده ولا إنهاء مظلمة علىٰ لسانه.

قال صاحب البيان المُغرب: وكان أهل المكانات والمتقرَّبون منه يتحفظون من كل أمر يوجب الشكوىٰ منهم.. وكانت اللذات مهجورة في أيامه واللهو غيرَ مقترَف من أكثر الأمة، ويسمَّىٰ أحد أبواب القصر «باب العدل» يباشر فيه أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترًا، وربما عيب علي كرهه للسرف وميله إلىٰ الاقتصاد في النفقة والعطايا إلا ما كان منها في سبيل الصدقات والمبرات فإنه لم يكن يرىٰ بأسًا بالإنفاق الغزير فيها مما يدل علىٰ أن اقتصاده الأول لا يسمَّىٰ بخلاً كما عرَّفه به بعض المؤرخين، فالبخيل الشحيح يتعلق بالدرهم والدينار فيحجبهما عن كل سبيل لا يفرق بين الصدقة والجائزة، ولا بين الإكرام والإحسان، وكان موصوفًا بالورع وصلاح القلب، متفننًا بضروب العلوم، بصيرًا بلغات قبائل العرب، فصيح اللسان، حسَن البيان؛ أما صورته فأبيض مشرب بالحمرة أصهب أزرق، أقنىٰ الأنف، ربعة إلىٰ الطول، يخضب بالسواد، عظيم الكراديس، وكان أديبًا حافظًا لأشعار العرب وأيامهم، وسيرَ

الخلفاء، راويةً للشعر يُحسن نظمه، وكانوا يعدونه من أصلح خلفاء بني أمية في الأندلس وأمثلهم طريقةً، وأتمهم معرفةً لولا ما كان ينغصه من دوام الفتن التي أُجبر معها علىٰ إظهار القوة والإرهاب بالبطش حتىٰ وصفه ابن حزم بأنه كان قتَّالاً تهون عليه الدماءُ مع كثرة إقباله علىٰ الخيرات وإعراضه عن المنكرات.

ويُذكر أنه احتال علىٰ أخيه المنذر فقتله بأن سمَّ له المِبضع الذي فُصد به بمواطأة حجّامه وهو نازل بمعسكره علىٰ ابن حفصون الثائر.

وقُتل للمترجَم ولدان وأخوان أيضًا، فولداه محمدٌ والد الناصر لدين الله ومطرّفٌ اختصما في ولاية عهده فقتل مطرّف محمدًا، ثم قتل الأمير عبد الله مطرّفًا وأخَواه أحدهما يدعىٰ هشامًا قتله بالسيف والثاني القاسم قتله بالسم.

ولم أجد فيما بين يديَّ من كتب التاريخ ما يصح أن يكون سببًا حقيقيًا لفعلته هذه إلا أن يكونا قد زاحماه علىٰ الإمرة أو حاولا إيقاظ فتنة جديدة عليه فصنع ما صنع، وتوفي في قرطبة فدفن في مدافن آبائه.

وولايتُهُ اثنتان وعشرون سنة إلا شهرًا، وخلَّف أحد عشر ولدًا ذكرًا أحدهم محمد المقتول والد عبد الرحمن الناصر الآتي ذكره.

أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر

ولد سنة ٢٧٧هـ وتوفي سنة ٣٥٠هـ

بدأ الأمير عبد الله (صاحب الترجمة السالفة) بإصلاح بلاد الأندلس بعدما كادت تؤول إليه من استبداد الوزراء والأمراء بالحكم دون أهل المُلك والسلطان؛ فكان عمله داعيةً لثورة المتحكمين وغضبهم فاشتعلت نار الفتنة في أيامه علىٰ ما تقدم ذكره ومات ولم يوفق إلىٰ إخمادها.

وتولىٰ حفيده هذا والمملكة جمرة تلتهب فكان لها كالمرهم الحاسم طُلي به

الجرح الناغل ولم يصفُ له المُلك إلا بعد نحو عشرين سنة من تملكه أمضاها في قتال المخالفين واسترضاء النافرين حتىٰ أذعنوا له واستقام أمر الدولة فعُذب له موردها وابتسمت أيامه فكانت أزهىٰ وأزهر ما عرفه الأندلسيون من أزمان الأمراء والخلفاء والملوك.

أوردتُ في الترجمة السابقة أن الأمير عبد الله كان قد عهد بولاية الأمر من بعده إلىٰ ولده محمد، وأن مطرِّفًا أخا محمد حسده فقتله ثم قتله أبوه عبد الله به، وكان لمحمد طفل وُلِدَ قبل قتله بأحد وعشرين يومًا سماه عبد الرحمن نشأ بين يدي جده عبد الله فربَّاه التربية الصالحة، وتفرس فيه النجابة فلما شبَّ قرَّبه واعتمد عليه في أموره حتىٰ كان كثيرًا ما يقعده في بعض الأيام والأعياد مقعد نفسه ويأمر الجند بالتسليم عليه بالإمارة فتعلقت آمال أهل الدولة به، ولم يشكُّوا في مصير الأمر إليه، ولما مات جده عبد الله أجلسوه مكانه دون ولده لصلبه، وكان يسكن القصر مع جده دونهم فتهيأ أجلاسه دونهم مكانه.

ولي الأندلس وهو ابن ثلاث وعشرين سنةً وحوله أعمامه فكانوا أول من بايعه ولم يعترضه أحد.

كنيته أبو المطرِّف وهو عبد الرحمن بن محمد بن الأمير عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم الرَّبَضي بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، ولي سنة ٣٠٠هـ، وانصرف إلىٰ تهدئة الثورات وإسكان القلاقل حتىٰ صفا له المُلك، ولما كانت سنة ٣١٦هـ رأي ضعف الخليفة العباسي «المقتدر» في العراق وعرف بما هنالك من الانحلال فجمع الناس وخطب فيهم ذاكرًا لهم حق بني أمية بالخلافة وأنهم أسبق إليها من بني العباس فأمر أن ينادوه أميرَ المؤمنين وأن يُخطب باسمه بالخلافة وتَلقَّبَ بلقب سلطاني وهو «الناصر لدين الله» فجرىٰ ذلك سنةً لمن بعده، وكان أسلافه يُسمَّون بني الخلائف ويُخطب لهم بالإمارة فقط.

قال ابن شفدة في المنتخب: عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء بني أمية في الأندلس، كان كبير القدر، كثير المحاسن، محبًا للعمران، مولعًا بالفتح وتخليد الآثار، أنشأ مدينة الزهراء وهي عديمة النظير في الحسن وبنىٰ بها قصر الزهراء المتناهي في الجلالة، وقال المؤرّخ المقّري في وصف القصر: أطبق الناس علىٰ أنه لم يُبن مثله في الإسلام البتة، بل لم يُسمع بمثله، بل لم يُتوهم كون مثله! والمؤرخون يبالغون في مقدار ما أُنفِقَ علىٰ الزهراء. قال ياقوت:

مدينة صغيرة قرب قرطبة بالأندلس اختطّها الناصر.. وعملها متنزهًا له وأنفق في عمارتها من الأموال ما تجاوز فيه حدّ الإسراف وجلب إليها الرخام من أقطار البلاد وأهدىٰ إليه ملوك بلاده من آلاتها ما لا يقدر قدره وكان الناصر هذا قد قسّم جباية بلاده أثلاثًا: ثلث لجنده، وثلث لبيت ماله، وثلث لنفقة الزهراء وعمارتها.. بدأ فيها سنة ٣٢٥هـ، ومات سنة ٣٥٠هـ وهو لا يزال ينفق علىٰ تحسينها وتزيينها.

كان الناصر أبيض أشهل حسن الوجه ربعة عظيم الجسم، قصير الساقين، ركاب سرجه يقارب الشبر، طويل الظهر جميلاً بهيًا يخضب بالسواد، طالت أيامه فحكم خمسين سنة وستة أشهر، وكان حريصًا علىٰ الملك يقظًا ومن عجيب أمره في هذا الشأن ما رأيته في كتاب الطبقات للسبكي (ج٢، ص٢٣٠)، قال في ترجمته عبد الله ابنه: عبد الله.. هو ابن الخليفة الناصر صاحب الأندلس كان فقيهًا شافعيًا أديبًا متنسكًا شهمًا سمت نفسه إلىٰ طلب الخلافة في حياة أبيه وتابعه قوم وأخفوا أمرهم وبيتوا علىٰ اغتيال والده وأخيه المستنصر ولي عهد أبيه، فبلغ أباه، فما لبث أن سجنه وسجن من اطلع علىٰ أمره من متابعيه، ثم أخرجه وأخرجهم يوم عيد الأضحىٰ سنة ٣٣٩هـ من الحبس وأحضره وأحضرهم بين يديه وقال لخواصّه: هذا ضحيتي في هذا العيد، ثم اضطجع له ولده وذبحه بيده، وقال لأتباعه: ليذبح كلٌّ أضحيته، فاقتسموا أصحاب ولده

عبد الله فذبحوهم عن آخرهم..!!

ومن غريب ما يؤْثَر عن الناصر ما قرأته في شذرات الذهب أنه كان يكتب في دفتر خاص أيام السرور التي كانت تصفو له من غير تكدير فيذكر تاريخها وما كان بها وقد اطّلع كثيرون عليه بعد وفاته فإذا هي أربعة عشر يومًا!! فيا لله ما أعجب ما نرىٰ! ملكٌ كالناصر صفا له الملك خمسين عامًا وضُرِبَ به المثل في ارتقاء ملكه في أيامه وخدمه السعد، لا يرىٰ من أيام السرور غير ذلك العدد اليسير؟!

ومن لطيف ما يُذْكَر في أخباره أنه استدعىٰ الطبيبَ يومًا ليفصده فأخذ الآلة وحبس يد الملك وإذا بزُرزور أشرف علىٰ المجلس، وارتقىٰ إناء ذهب وجعل يكرر هذين البيتين:

أيـهـا الـفـاصـد رفـقًـا ... بـأمـيـر الـمـؤمـنـيـنـا

إنـمـا تـفـصـد عـرقًـا ... فـيـه مـحـيىٰ الـعـالـمـيـنـا

فسُرَّ الناصر به وسأل عمن علّمه، فقيل له عن أم ولده الحكم، فوهب لها ثلاثين ألف دينار.

توفي الناصر وهو في قرطبة، وخلّف أحد عشر ولدًا ذكرًا فيهم ولي عهده، الحكم بن عبد الرحمن الملقّب بالمستنصر.

المستنصر بن الناصر

ولد سنة ٣٠٣هـ وتوفي سنة ٣٦٦هـ

ولي بعد الناصر لدين الله ولدُه الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله، ولُقِّب المستنصر بالله، وكانت البلاد ساكنة مطمئنة إلا أن ملك الأسبان في عهده «أردون بن الفونس» طمع به بعد موت أبيه فهيأ جيشًا وأراد الإغارة

علىٰ ما تملكه المسلمون من البلاد ولا سيما في عهد الناصر، فعلم المستنصر بعزم أردون فكتّب كتائبه وغزا الأسبانيين بنفسه، فبادروا إلىٰ عقد السلم معه وانقبضوا عما كانوا فيه وقوي الحكمُ وكثرت فتوحاته واتصلت الصداقة بينه وبين «أردون»، حتىٰ إنه زار الخليفة المستنصر في قرطبة وأظهر خضوعه بين يديه.

وكان الحكم محبًا للعلوم مكرمًا لأهلها، أحضرهم من البلدان البعيدة ليستفيد منهم ويحسن إليهم، جمَّاعًا للكتب في أنواعها، جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله حتىٰ قيل: إنها كانت أربع مئة ألف مجلد، وكان عالمًا نبيهًا صافي السريرة عارفًا بالأدب، يُروَىٰ عنه شعرٌ، ضليعًا بالعلم بالأنساب مُلمًّا بالتاريخ.

ولي سنة ٣٥٠هـ، ومدة حكمه خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وكان أصهب أعين أقنىٰ عظيم الصوت ضخم الجسم أفقم قصير الساقين غليظ العنق عظيم السواعد، وسيرته حسنة، وليس فيما رأيت من أخباره ما يبعث علىٰ الإطالة، توفي في قرطبة.

المؤَيَّد بن الحكم

ولد سنة ٣٥٥هـ وتوفي سنة ٤٠٣هـ

ما في ترجمة هذا الخليفة ما يجعله في عداد كبراء الأمراء إلا أنَّ أخباره كانت عجيبة في شأنها طويلة في إيرادها لا يستغنىٰ المؤرخ عن إشارة إليها فوجب أفراد ترجمة له ينتهي بها الكلام علىٰ رجال هذه الدولة.

المؤيد أبو الوليد هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، بويع يوم وفاة أبيه بعهد منه سنة ٣٦٦هـ وعمره ١١ سنة وثمانية أشهر، فتولىٰ أموره وتدبير مملكته الحاجب أبو عامر محمد بن عامر الملقَّب بالمنصور (انظر ترجمته في باب الأمراء والوزراء)، فحجبه عن الناس فلم يكن أحد يراه ولا يصل إليه فأحسن

أبو عامر المنصور سياسة المُلك إلىٰ أن توفي سنة ٣٩٢هـ فخلفه ولده عبد الملك بن محمد الملقَّب بالمظفَّر، وسار كسيرة أبيه وتوفي سنة ٣٩٩هـ فولي بعده أخوه عبد الرحمن بن محمد، ولُقب بالناصر فسلك غير طريقهما وأخذ في المجون، وكان المؤيد قد ركن إلىٰ المنصور ثم إلىٰ ابنه المظفَّر فأقرهما علىٰ تدبير المملكة والتزم بيته مستريحًا من عنائها ولما رأىٰ حال الناصر كرهه فدسَّ له الناصر جماعة خوَّفوه منه إن لم يجعله وليَّ عهده ففعل المؤيد ذلك مرغَمًا وشاع في الناس فحقدوا عليه، ولا سيما بني أمية، وأبغضوه، وغزا الناصر بعد توليته فأوغل في بلاد الجلالقة، وبينما هو راجع بلغة أن محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله قد ظهر بقرطبة واستولىٰ عليها وأخذ المؤيد أسيرًا، وشاع الخبر في عسكر الناصر فتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا خاصته فسار إلىٰ قرطبة ليتلافىٰ الخَطْبَ فخرج إليه عسكر محمد بن هشام فقتلوه، وحملوا رأسه إلىٰ قرطبة وطافوا به، وذلك سنة ٣٩٩هـ ثم صلبوه.

وكان محمد بن هشام هذا قد تلقب بالمهدي ودعا الناس إليه لما رأىٰ من ضعف المؤيد وأعلن ذلك ومعه اثنا عشر رجلاً فبايعه الناس وملّكوه وأخذ المؤيد فحبسه معه في القصر ثم لما قَتَل الناصرَ أخرج المؤيدَ ودعاه أن يعهد إليه ففعل المؤيدُ ثم أخفاه وأظهر أنه مات، وكان قد مات إنسان نصراني يشبه المؤيد فأبرزه للناس وذكر لهم أنه المؤيد فلم يشكُّوا في موته، وصلوا عليه ودفنوه في مقابر الخلفاء وبايع الناسُ ابنَ عبد الجبار الملقَّبَ (بالمهدي) ثم نقموا عليه أشياء منها أنه كان يعمل النبيذ في قصره فسموه نباذًا، ومنها بغضه للبربر فضغنوا عليه، ومنها أنه كان متلونًا سيئ الأخلاق فانقلبوا عليه.

ولما وقع في قلوب أهل الأندلس من المهدي (ابن عبد الجبار) ما وقع قصدوا هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فأخرجوه من داره وبايعوه فتلقب (بالرشيد) وذلك في أواخر سنة ٣٩٩هـ واجتمعوا بظاهر قرطبة فخرج

إليهم المهدي (ابن عبد الجبار) بأصحابه فقاتلهم، فانهزم أصحاب هشام (الرشيد) وأخذ هو أسيرًا فقتله المهدي ومن كان معه من القوَّاد واستقر أمره، وكان هشام ابنَ أخيه.

وبعد هذه الواقعة بيومين انضمَّ من انهزم من أصحاب هشام المقتول وكان معهم ابن أخ له اسمه سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر فبايعوه ولقبوه (المستعين بالله) ثم لقب (الظاهر بالله) وساروا إلىٰ من جاورهم من النصارىٰ الأسبانيين فصالحوهم واستنجدوهم فأنجدوهم وساروا معهم إلىٰ قرطبة فقاتلوا ابن عبد الجبار، فانهزم وتحصن بقصر قرطبة، ودخل سليمان (الظاهر بالله) البلدَ فحصره في القصر، وأغار البربر والروم علىٰ قرطبة فنهبوا وسبوا وقتلوا عددًا عظيمًا، ولما رأىٰ ابن عبد الجبار ما نزل به أظهر المؤيد - وكان لا يزال محبوسًا عنده في القصر - وظن أن الناس متىٰ رأوه يرجعوا إليه ويخلعوه هو وسليمان، ولكن الناس لم يسمعوا له لظنهم أن المؤيد قد مات، فهرب إذ ذاك، واختفىٰ ودخل سليمان القصر فبايعه الناس بالخلافة (سنة ٤٠٠هـ)، وكانت عدة القتلىٰ في هذه الوقعة نحو خمسة وثلاثين ألفًا.

وسار ابن عبد الجبار سرًا إلىٰ طليطلة فجاءه بعض أصحابه فجمعوا جمعًا من نَهَبة الأسبان وسَلَبتهم وخرج بهم إلىٰ سليمان فحدثت وقعة انهزم فيها سليمان إلىٰ شاطبة ودخل ابن عبد الجبار (المهدي) قرطبةَ وجدَّد البيعة لنفسه وحَجَب المؤيد الذي لم ينتبه له الناس.

وكان مع سليمان جماعة من الفتيان وعدوه خيرًا، وانصرفوا إلىٰ ابن عبد الجبار يطلبون قبول طاعتهم، وأن يجعلهم في جملة رجاله فأجابهم إلىٰ ذلك، فلما كان تاسع ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ اجتمعوا في القصر فملكوه وأخذوا ابن عبد الجبار أسيرًا وأخرجوا المؤيد بالله فأجلسوه مجلس الخلافة وبايعوه

وأحضروا ابن عبد الجبار بين يديه فعدد ذنوبه عليه، ثم أمر بقتله، فقُتل وطيف برأسه في قرطبة وعمره ثلاث وثلاثون سنة.

عاد المؤيد إلىٰ سرير الملك فسلَّم زمام تدبيره إلىٰ رجل من العامريين، فتيان الوزير أبي عامر، يدعىٰ واضحًا وأدخل أهل قرطبة إلىٰ حضرته فوعدهم ومنّاهم وأحبُّوه، وكتب إلىٰ سليمان بن الحكم وأصحابه من البربر وهم في شاطبة يدعوهم إلىٰ طاعته فلم يجيبوه فأمر أجناده بالحذر والاحتياط، ثم أن سليمان والبربر راسلوا ابن الفونس ملك الإفرنج أنهم يسلِّمون إليه حصونًا كان المنصور بن أبي عامر قد فتحها، ويستمدونه فأرسل ملك الإفرنج إلىٰ المؤيد يعرفه الحال ويطلب منه تسليم الحصون فسلَّمها إليه خيفةَ أن يعين عليه سليمان.

ولما أيس البربر من أنجاد الفرنج رحلوا فنزلوا قريبًا من قرطبة وجعلت خيلهم تغير يمينًا وشمالاً، وخربوا البلاد فعمل المؤيد سورًا وخندقًا علىٰ قرطبة أمام السور الكبير، فانتقل سليمان إلىٰ الزهراء فملكها عنوة، وطغىٰ البربر في أهلها، ثم أن واضحًا كاتَبَ سليمان يعرفه أنه يريد الانتقال عن قرطبة سرًا ويشير عليه بمنازلتها بعد مسيره عنها، ونما الخبر إلىٰ المؤيد فقتله وحدثت وقائع كثيرة بين المؤيد وسليمان راسَلَ في آخرها سليمانُ نائبَ المؤيد بسرقسطة وغيرها يدعوهم إليه فأجابوه واتفقوا معه وانتهىٰ إلىٰ قرطبة فملكها بعد حرب وحصار وشدائد وأخرج المؤيد من القصر محمولاً إلىٰ سليمان ودخل سليمانُ قرطبةَ سنة ٤٠٣هـ.

ثم حدثت للمؤيد مع سليمان أمور فخرج المؤيد إلىٰ شرق الأندلس في قول حيث قضىٰ نحبه، وفي آخر أمره غموض (راجع في [ذلك] ابن الأثير، ج٩، بحث تفرق ممالك الأندلس، وبحث ابتداء الدولة العلوية).



واستقر الملك لسليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر

المتلقب بالمستعين بالله أولاً، ثم أضاف إليه الظافر بحول الله آخرًا، وكان أديبًا شاعرًا بليغًا مولده سنة ٣٥٤هـ، وقد أريقت في أيامه دماء كثيرة كما تقدم، وكان البربر هم الحاكمون في دولة لا يقدر علىٰ خلافهم لأنهم كانوا عامة جنده وهم الذين قاموا معه حتىٰ ملَّكوه.

ولا أرىٰ بأسًا بإيراد هذه القصيدة من شعر سليمان (المستعين/ الظافر) نقلاً عن كتاب المعجب في أخبار المغرب، تفكهةً، قال:

عجبًا يهاب الليث حدّ سناني ... وأهاب لحظ فواتر الأجفانِ
وأقارع الأهوال لا متهيبًا ... منها سوىٰ الإعراض والهجرانِ
وتملكت نفسي ثلاثٌ كالدُمىٰ ... زُهر الوجوه نواعم الأبدانِ
ككواكب الظلماء لُحْنَ لناظر ... من فوق أغصان علىٰ كثبانِ
هذي الهلال تلك بنت المشترىٰ ... حسنًا وهذي أخت غصن البانِ
حاكمت فيهن السلوّ إلىٰ الصبىٰ ... فقضىٰ بسلطان علىٰ سلطانِ
وأبحن من قلبي الحمىٰ وثنينني ... في عزِّ ملكي كالأسير العاني
لا تعذلوا ملكًا تذلل للهوىٰ ... ذل الهوىٰ عزٌّ ومُلك ثاني
ما ضرَّ أني عبدهنّ صبابةً ... وبنو الزمان وهنّ من عبداني
إن لم أُطع فيهنّ سلطان الهوىٰ ... كلفًا بهنّ فلستُ من مروانِ
وإذا الكريم أحبَّ أمّن إلفه ... خطبَ القلىٰ وحوادث السلوانِ
وإذا تجارىٰ في الهوىٰ أهل الهوىٰ ... عاش الهوىٰ في غبطة وأمانِ

وهذه القصيدة إنما نظمها المستعين معارضًا بها الأبيات التي عملها العباس ابن الأحنف علىٰ لسان هارون الرشيد فنُسبت إليه وهي:

مَلَكَ الثلاثُ الأنساتُ عنا في ... وحللن من قلبي بكل مكانِ
مالي تطاوعني البرية كلها ... وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوىٰ ... وبه قوين أعز من سلطاني

وهذه القطعة أرشق وأعذب، ومن لمثل المستعين وهو لا [...][1] مشتغلًا في ثورة يطفئها أو نار يوقدها ومُلك يدبره أو عرش يحافظ عليه، فيجاري العباس ابن الأحنف وهو الشاعر الرقيق المطبوع ولا عمل له يشغل قلبه إلا ترقيق شعره وترويقه. انتهىٰ.

وكان من جملة جند سليمان (المستعين/ الظافر) عند دخوله قرطبة، رجلان من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب وهما القاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون ابن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فجعلهما سليمانُ قائدين علىٰ المغاربة ثم ولىٰ أحدهما عليًا وهو الأصغر منهما مدينتي سبتة وطنجة، وولىٰ القاسم الجزيرة الخضراء، ورأىٰ عليٌّ ما صارت إليه حال خلافة الأمويين فتحركت في نفسه غيرة العلويين فكاتب بعض العصاة من العبيد والبربر يخبرهم أن المؤيد لما كان محصورًا في قرطبة كتب إليه يوليه عهده ويَعِدهم وعودًا طائلة فاستجابوا له وبايعوه فزحف بهم إلىٰ مالقة فتملكها ثم إلىٰ قرطبة فدخلها بعد قتال عنيف، وكان ناقمًا علىٰ سليمان أشياء يضمرها له في نفسه فاستحضره إليه، وضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم (٢١ محرم) سنة ٤٠٧هـ وقتل أباه الحكم بن سليمان بن الناصر أيضًا في ذلك اليوم وهو شيخ كبير له ٧٢ سنة.

وكانت مدة ولاية سليمان منذ دخل قرطبة إلىٰ أن قتل ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر وأيامًا، وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر، وكانت مدته منذ قام مع البربر

---

(١) كلمة غير واضحة بالأصل.

إلىٰ أن قتل سبعة أعوام وثلاثة أشهر، وبمقتله أطفئ ذكر دولة بني أمية علىٰ المنابر في هذا الوقت في جميع أقطار الأندلس.

* *

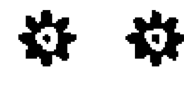
وولي علي بن حمود وتسمىٰ بالخلافة وتلقب (**بالناصر**) وقد تقدم نسبه فاستمر له الأمر في قرطبة عامًا وعشرة أشهر إلىٰ أن قتله صقالبة له في الحمام سنة ٤٠٨هـ، وخلَّف من الولد يحيىٰ وإدريس.

* *

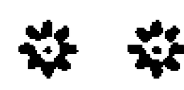
فولي بعده أخوه القاسم بن حمود، وكان أسنّ منه بعشرة أعوام، وكان وديعًا رقيقًا فلم يغير للناس عادة فأمنوا معه وبقي كذلك إلىٰ شهر ربيع الأول سنة ٤١٢هـ فقام عليه ابن أخيه يحيىٰ بن علي بن حمود بمالقة فهرب القاسم من قرطبة بلا قتال ورحل إلىٰ إشبيلية وزحف ابن أخيه يحيىٰ المذكور من مالقة بعسكره، ودخل قرطبة بلا قتال وتسمىٰ بالخلافة، وتلقَّب بيحيىٰ (**المعتلي**).

وبقي المعتلي كذلك إلىٰ أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلىٰ قرطبة فدخلها سنة ٤١٣هـ وهرب يحيىٰ (المعتلي) إلىٰ مالقة، فبقي القاسم بقرطبة شهورًا ثم اضطرب أمره وغلب ابن أخيه يحيىٰ علىٰ الجزيرة الخضراء وابن أخيه الثاني إدريس بن علي صاحب سبتة علىٰ طنجة، ورأىٰ تغيرًا من أهل قرطبة عليه فخافهم وانتقل إلىٰ إشبيلية وبها كان ابناه محمد والحسن، فلما عرف أهل إشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه إليهم طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر، وضبطوا البلد؛ فلحق القاسم بشريش، واجتمع البربر علىٰ تقديم ابن أخيه يحيىٰ فحصروه وأخذوه إلىٰ يحيىٰ أسيرًا حيث ظل عنده وعند أخيه إدريس بعده إلىٰ أن مات إدريس فقتلَ قبيل موته القاسم خنقًا سنة ٤٣١هـ، وحُمل إلىٰ ابنه محمد بن القاسم وهو بالجزيرة فدفن هناك.

فكانت ولاية القاسم منذ تسمىٰ بالخلافة بقرطبة إلىٰ أن أسره ابن أخيه ستة أعوام ثم كان مقبوضًا عليه ست عشرة سنة عند ابني أخيه يحيىٰ وإدريس إلىٰ أن قتل وعمره ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن.



وأقام يحيىٰ بن علي الفاطمي (المعتلي) نافذ الأمر في الولاية إلا أنه لم يدخل قرطبة، وإنما كان مقيمًا بقرمونة، وبينما كان محاصرًا لإشبيلية في أوائل سنة ٤٢٧هـ خرجت عليه خيل كانت كامنة له فقتلته وانقطعت دعوته[١].



وكان قد نقم أهل قرطبة علىٰ العلويين ميلهم إلىٰ البرابرة وانقيادهم لهم فأزمعوا علىٰ رد الأمر إلىٰ بني أمية فاختاروا منهم عبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ولقبوه (**المستظهر**) وكان أديبًا فهمًا رقيق النفس عارفًا بالبلاغة وأساليبها، هكذا يصفه المؤرخون ولا أراهم ينعتونه بالخبرة في السياسة والمعرفة بشؤون المُلك علىٰ أن الملوك لا يحسن البحث عن معرفتهم بالشعر والأدب والإغضاء عن بيان منزلتهم في السياسة.والدهاء ولكن ما الحيالة وجلُّ أصحاب تواريخنا إنما يُعنون بالملك إذا كانت له أخبار مع جواريه حسانٌ، أو كان له اشتغال بالأدب وعلم بالمنظوم والمنثور!

ولد المستظهر سنة ٣٩٢هـ وكنيته أبو المطرّف وبويع بالخلافة في رمضان سنة ٤١٤هـ وعمره ٢٢ سنة فلم تطل مدته غير ٧٤ يومًا، إذ ثار عليه محمد ابن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر مع طائفة من أراذل العامة فقتلوه في آخر ذي القعدة سنة ٤١٤هـ ولا عقب له.



(١) أشار الزركلي في هامش الأصل إلىٰ فترة أخرىٰ بقوله: «نشير هنا إلىٰ فترة السنين السبع بين سليمان بن الحكم وصاحب هذه الترجمة» «المقدم».

وولي بعده محمد بن عبد الرحمن المذكور، ومولده سنة ٣٦٦هـ وكنيته أبو عبد الرحمن، ولقِّب (**المستكفي بالله**) وكان في غاية السخف وركاكة العقل، وسوء التدبير، فاستوزر رجلاً حائكًا! اسمه أحمد بن خالد، كان المدبر لأمره والمدير لدولته، فدامت خلافته ستة أشهر وأيامًا وساء القرطبيين سيرة فدخلوا عليه فقتلوا وزيره الحائك وأخرجوه هو إلىٰ ظاهر المدينة مخلوعًا مطرودًا فلحق بالثغور ومعه قائد ضجر منه فعمد دجاجة فسمَّها وقدمها إليه فأكلها المستكفي فمات مكانه، وهو في قرية تعرف «بشمنت» بالقرب من مدينة سالم، وذلك سنة ٤١٨هـ.

وبعد ذلك اجتمع رأي رؤساء القرطبيين علىٰ تولية أبي بكر هشام بن محمد ابن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وكان مقيمًا بحصن يدعىٰ البنت من ثغور قرطبة، فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة ٤١٨هـ وتلقب (**المعتدّ بالله**) وكان مولده في سنة ٣٦٤هـ، وخاف إن دخل قرطبة أن يقتله أهلها فبقي يتنقل في الثغور ثلاثة أعوام والفتن قائمة في البلاد إلىٰ أن اتفقوا علىٰ أن يسير إلىٰ قرطبة عاصمة المُلك فدخلها في ثامن ذي الحجة سنة ٤٢٠هـ، ولكنه لم يقم بها إلا يسيرًا حتىٰ قامت عليه طائفة من الجند فخلعوه وأخرجوه من قصره هو ونساؤه وخدَمه، فدخلوا الجامع الأعظم يُتعطف عليهم بالطعام والشراب أيامًا، ثم أخرجوا عن قرطبة فقصد الثغور ولحق بابن هود، وكان متغلبًا علىٰ مدينة لاردة وسرقسطة وإفراغة طرطوشة وتلك الجهات فأقام هشام عنده إلىٰ أن مات في سنة ٤٢٧هـ ولا عقب له.

وهشام هذا آخر ملوك بني أمية في الأندلس، وبخلعه انقطعت الدعوة لهم، وانقطع ذكرهم علىٰ المنابر بجميع الأقطار، وآل أمر البلاد إلىٰ استقلال كل عامل بما يلي فاستمرت بينهم الفتن والإحن يستنصرون بالأسبانيين تارة،

وبالروم طورًا حتىٰ سنة ٨٩٧هـ حين انتزع الرئاسة منهم أهل البلاد من الأسبانيول وتفرقوا واضمحل شأنهم.

وهذا آخر ما يقال علىٰ ضيق المجال في الكلام علىٰ خلفاء بني أمية في المغرب اعتمدت فيه علىٰ عدة كتب يثق بها العارفون بالتاريخ منها: كتاب نفح الطيب للمقري، والكامل لابن الأثير، والشذرات لابن شفده، والبيان المغرب لابن عذارىٰ، والمعجب للتميمي، والاستقصا في أخبار المغرب الأقصىٰ، وغيرها مما يطول شرحه تجدها في بيان الكتب، التي أخذت منها في آخر هذا الكتاب إن شاء الله[1].



(١) لا يوجد بالأصل ثبت بهذه الكتب. وعلّه كان ينوي كتابة هذا الثبت، ولكنه لم يكتبه لسبب ما (المقدم).

ملوك على غير تنسيق

كشف

قدمت الكلام في هذا المطلب، مطلب صدور الخلفاء والملوك، علىٰ دولة الراشدين في الحجاز فالأمويين في الشام، ثم العباسيين في العراق، فالأمويين في الأندلس، وأردت إكمال الشوط إلىٰ زمننا هذا مترجمًا مشاهير كل دولة من دول الإسلام كالدولة الإدريسية بمراكش، والأغلبية بتونس، والطولونية بمصر، ودولة بني بويه بإيران، والمرابطين والموحدين بمراكش، والأيوبيين والخديويين بمصر وهلم جرا غير أني لم أجد في ذلك العمل كبير نفع؛ لأنه يشغل مكانًا رحيبًا من الكتاب أضطرّ فيه عند ذكر كل ملك إلىٰ الإلمام بتاريخ دولته صعودها وانحطاطها، وقوتها وضعفها، وهذا يحتاج إلىٰ كتاب كبير ينفرد له كما صنع أحد أدباء المعاصرين «رزق الله منقريوس الصدفي» فإنه جمع كتابًا في ثلاثة مجلدات سماه «تاريخ دول الإسلام» تكلم فيه علىٰ سبع وستين دولة إسلامية، وبوَّبه تبويبًا لم يُسبق إليه، ولولا ما فيه من ضعف في الإنشاء وخلط في بعض المواضع لنال الحظوىٰ عند الفضلاء.

علىٰ أن كتابي هذا إنما جئت به للكلام علىٰ كبار الرجال وأعاظمهم لا لإحصاء أخبار الدول والبحث عن الممالك فرأيت أجدر بي أن أقف عند هذا الحد وأختم باب الخلفاء والملوك بأشهرهم بعد عباسية العراق، وأموية المغرب مكتفيًا منهم بمن علا له صيت أو سار له ذكر.

والسلام.

***

الكتاب بخط المؤلف

لم أضع لهذا الكتاب اسماً

ولا مقدمة. وأظنني كتبته حوالي (أو قبلها)

سنة ١٩٢٨ أيام وضعت «معجم

ما ليس في المعاجم» لقصاصات

الصحف.

خير الدين

بيت النبوة

إيضاح —

يا حت لواء عنوان «بيت النبوة» كل من انعقد نسبه بنسب النبي القرشي عليه أفضل الصلاة والتسليم: ممن تقدم من عهد عدنان، أو من تأخر عنه إلى هذا الزمان. وذلك أمر يطول على مثل هذا المعتكف. وأجدر به أن يكون في تصنيف ينفرد له. أما ما عوّلت عليه للاكتفاء به في هذا الباب فهو أنني سأفتتحه بذكر خلاصة ترجمة الرسول الأعظم ثم ألحقها بأخبار أشهر رجال نسبه الشريف ثم بالكلام على أنبه أعمامه ذكراً وأرفعهم قدراً، واختمه بالسبطين الأكملين رضوان الله عليهما، وبقية الأئمة الاثني عشر وأشباههم في الفضيلتين: الارتباط بالنسب النبوي الأغر. والنبوغ في مزايا الرجال: كالعلم والرياسة والشجاعة وأمثالها: مما فردت له فصولاً أشبعت الكلام فيه على ما أردت الإتيان عليه. يلتمسه طالب الوقوف على أخبارهم وآثارهم في مظانهم من فصول الكتاب.

والله أسأل تسديد خطاي إلى أوضح سبيل.

محمد ﷺ

ولد سنة ٥٧١ م - ٥٣ ق هـ . و

هاجر سنة ٦٢٢ م - ١ هـ . وتو

بينا العرب في ليلة ليلاء، من جاهلية عمياء، إذا

بأس قويهم ضعيفهم، ويفضل غويهم رشيدهم

وأنصاب الفتنة منصوبة، وسيوف مسلولة، والأوثان معبودة

ولا رادع لهم ولا حكم ولا مسيطر، وهم إلى الفناء أقرب منهم إلى البقاء.

بعيدون عن فضائل العلم والمدنية، لأنهم أهل الانتقال والنزال، على أنه

ما فيهم من ذوي العقول الراجحة، والألسنة الفصيحة، وما في نفوسهم

من الأنفة، والنجدة، والإباء، والغيرة، وما في أجسامهم من

القوة والمتانة والصلابة، وما في عشائرهم من التضامن، [illegible]

إلا إحن وأحقاد، تتوارثها الأحفاد، عن الآباء عن الأجداد، أبقت

في قلوبهم مكانا خاليا فتمكنت، فشغلتهم عن مباراة غيرهم

الفرس والروم في حلبة الحضارة والعمران، والعلم والعرفان

إذ أراد الله بهم الخير فأرسل إليهم من أنفسهم هاديا عليما،

ضم شملهم ووحد جمعهم وأمات كامن أضغانهم و[illegible]

بنيانا لا يتهدم وأودع في أدمغتهم نورا لا تطفئه العصور والأيام

ذلك هو: النبي الأعظم: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد

مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي

ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . والى هنا ينتهي
نسبه الشريف وما وراء ذلك فالخلاف فيه كثير . ولد صلى الله عليه وسلم بمكة .
ومات ابوه بعد مولده بشهور . فكفله جده عبد المطلب . وماتت امه آمنة بنت
وهب وعمره ست سنوات . ثم مات جده وله من العمر ثمانية اعوام . فاتم تربيته
عمه ابوطالب . فنشأ معروفا بالشجاعة والهمة والامانة والصدق والاخلاق الفاضلة
والعقل وقوة الادراك . . لقبه قومه بالامين . ولما بلغ الخامسة والعشرين زوجه
عمه بخديجة بنت خويلد القرشية الاسدية . وكانت قد ارسلته بتجارة الى الشام فأفلح
وربح . وفي العام الاربعين من مولده بعثه الله الى الناس مبشرا ونذيرا
فجعل يدعوهم ويرشدهم خفية مدة ثلاث سنين . ثم اعلن الدعوة وكان قد آمن
به جماعة من اهله وذوي قرباه . فهزأت به قريش وآذته . فصبر . واقام بمكة
ثلاث عشرة سنة بعد البعثة حتى اشتد اذى عشيرته له لما مات في اثنائها عمه واكبر
عاصم له من اعدائه : ابوطالب بن عبد المطلب . واسلم في اوائلها عمه حمزة بن عبد المطلب
نجدة لابن اخيه ونصرة له . واسلم عمر بن الخطاب . وكان عدوا للاسلام وفيهم
ابن عمه علي بن ابي طالب ، ومولاه زيد بن حارثة ، وصديقه ابوبكر ، وصاحبه
عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن ابي وقاص ،
وطلحة بن عبيد الله . فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ان يأذن لمن ليس له عشيرة تحميه من
شر قريش بالهجرة الى ارض الحبشة . فهاجر جماعة من اصحابه . ثم اسلم ستة
من الاوس والخزرج من سكان المدينة وذهبوا اليها فنشروا الاسلام في ابنائها .
فجاء منها اثنا عشر من الانصار فآمنوا به فبعث معهم مصعب بن عمير بن هاشم
ابن عبد مناف ليعلمهم شرائع الاسلام والقرآن . فلم يمض غير قليل حتى
لم تبق دار من دور الانصار في المدينة الا وبها مسلمون الا دار بني امية بن زيد . ثم ذهب
الى مكة جماعة منهم فعرضوا على النبي واصحابه الهجرة اليهم والاقامة في يثرب وهي

ومناهضوه

المدينة المنورة . [redacted] من الله بأن أقاموا عند [redacted] فاستوثقوا منهم ، وأمر
أصحابه بالخروج من مكة ثم لحقهم . وبلغ قريشاً خبر رحلته فقصدوه ليقتلوه فحماه
الله منهم . ودخل المدينة مهاجراً بعد إقامته بمكة ثلاث عشرة عاماً . ومن سنة دخوله
المدينة يبتدئ التاريخ الهجري . وكانت الدعوة الإسلامية لا تخرج عن حد الدليل
والبرهان . ولكنه [redacted] لما اطمأن في المدينة وعلم أن أعداءه غير تاركيه
بل لا بد لهم من قصده ومحاولة إيذائه . رأى أن السيف لا يدفعه إلا السيف
فأمر المسلمين بإعداد القوة ومحاربة خصومهم وبغاة الشر بهم . فحدثت مناوشات
يسيرة ثم عظم أمرها فلما كانت السنة الثانية من الهجرة في شهر رمضان
كانت غزوة بدر الكبرى . وفي هذه السنة كانت غزوة بني قينقاع ، والكدر ،
والسويق . وفي السنة الثالثة كانت غزوة أحد ، وغزوة حمراء الأسد ،
~~وغزوة الرجيع~~ ، وفي الرابعة غزوة الرجيع ، وغزوة ذات الرقاع ، وغزوة
بدر الثانية ، . وفي السنة الخامسة كانت غزوة الخندق ، وغزوة بني قريظة ،
وفي السادسة غزوة بني لحيان ، وغزوة ذي قرد ، وغزوة بني المصطلق ،
وفيها بعث رسول الله الرسل إلى كسرى وقيصر والنجاشي وغيرهم من
عظماء الملوك كالمقوقس بمصر والحارث الغساني بالشام . وفي السنة
السابعة من الهجرة كانت غزوة خيبر . وفي الثامنة غزوة ذات السلاسل
وغزوة مؤتة ، وفيها فتح المسلمون مكة المكرمة ، وكانت غزوة هوازن
بحنين . وفي التاسعة غزوة تبوك ، وغزوة طيئ ؛ .. وكل هذه
الغزوات كانت حروباً [redacted] بين المسلمين وعرب الحجاز وأكثرها
تم به النصر للمسلمين حتى ارتفع شأنهم وطأطأت لهم العرب رؤوسها .
فدخلوا في الدين أفواجاً . وأرسلت القبائل وفود الطاعة ~~إلى النبي عليه~~
~~الصلاة والسلام . ومن شاء الاطلاع على أخبار الحروب فليراجع~~

إلى

ولم يعرفه الله إلا بعزائمه

~~الى ... مقام ... كتاب ... ابن الاثير وتاريخ الطبري والسيرة النبوية ... وغير ذلك مما يعد بالمئات ...~~

[redacted] فتحت له بلاد الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب وما دانى ذلك من الشام والعراق وجبى له من أخماسها وصدقاتها وجزيتها ما لا يجبى للملوك إلا بعضه وهاداه جماعة من ملوك الأقاليم فلم يستأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهماً بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوّى به المسلمين .. [redacted] ما ترك إلا ...

[redacted] شجاعاً مقداماً، خطيباً اوتي جوامع الكلم متصفاً بصفات الكمال.

قال أنس بن مالك: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشجع الناس وأسمح الناس وأحسن الناس؛ ووقع في المدينة فزع فركب فرساً عرياً، فسبق الناس اليه وهو يقول: أيها الناس لم تراعوا لم تراعوا!. وقال علي بن أبي طالب: كنا اذا اشتد البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اقربنا الى العدو. ~~...~~ ودونت كل حديث

[redacted] ~~...~~ . قال صلى الله عليه وسلم: "اوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارا". وهذه نبذة من أقواله في الاجتماع والسياسة والحكمة:

آية المنافق ثلاث: اذا حدّث كذب، واذا وعد أخلف، واذا اؤتمن خان.

أحب الجهاد الى الله: كلمة حق تقال لامام جائر.

أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما.

اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فان الأمور تجري بالمقادير.

أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.

ألا أدلكم على أشدكم؟ - أملككم لنفسه عند الغضب.

— الاقتصاد نصف العيش، وحسن الخلق نصف الدين
— الجنة تحت اقدام الامهات !
— الجنة تحت ظلال السيوف !
— الحزم سوء الظن .
المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده
خير الناس أنفعهم للناس .
دعوا الحسناء العاقر وتزوجوا السوداء الولود فاني اكاثر بكم الامم يوم القيامة .
— الربي خير ما لهوتم به .
زُرْ غِبًّا تزدد حبا .
الصبر عند الصدمة الاولى .
عرامة الصبي في صغره زيادة في عقله في كبره .
— ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع الى جنبه .
من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين .
— من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الاسلام .
المستشار مؤتمن فاذا استشير فليشر بما هو صانع لنفسه .
ومما اثبته رجال الحديث وثقاة الرواة من نعوته واوصافه صلى الله عليه وسلم :
كان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش .
وكان اذا خطب في الحرب خطب على قوس واذا خطب في الجمعة خطب على عصا .
كان طويل الصمت قليل الضحك ، واذا تكلم تبسم .
كان يجلس على الارض ويأكل على الارض ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير .
كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويجالس المساكين
كان اذا مشى لم يلتفت ، واذا التفت التفت جميعا . يتكفأ في مشيه كأنما ينحط من صبب .
كان

كان اذا ضحك وضع يده على فيه .

كان اذا اهتم أكثر من مس لحيته .

كان اذا اراد غزوة ورّى بغيرها = وهو القائل : الحرب خدعة .

كان اشدّ حياءً من العذراء في خدرها .

كان ضخم الرأس واليدين والقدمين ، ليس بالطويل ولا القصير ، سبط الشعر .

كان فيه دعابة قليلة ، واذا نزع غضبه احمر .

كان في كلامه ترتيل وترسيل .

كان لونه اسمر . وخلقته تامة . عيناه سوداوان . وفي خديه حمرة .

كان متواضعاً في غير مذلة .

كان يأخذ المسك فيمسح به رأسه ولحيته .

كان يرسل شعره الى انصاف أذنيه .

كان يلبس قلنسوة بيضاء .

وكتب الحديث مفعمة بدرر الفاظه مشحونة بمحاسن اوصافه . واما معجزاته فحسبنا منها المعجزة الخالدة التي هي القرآن الكريم المتبكِّم لفصاحته بلغاء الجاهلية المحيِّر بأحكامه حكماء الناس أجمعين وهو الذي أجمع عقلاء الامم كافة على انه افضل الكتب السماوية واجدرها بالبقاء وأصلحها للبشر وانفعها للناس .. وكان رسول الله ، صلى الله عليه ، كثير الزوجات . قال ابن الكلبي النسابة : تزوّج النبيّ خمس عشرة امرأة ، ودخل بثلاث عشرة منهن وجمع بين احدى عشرة ، وتوفي وعنده تسع نسوة . وولد له سبعة اولاد : ثلاثة ذكور واربع بنات . فأما الذكور فالقاسم - وبه كان يكنى - ، وعبد الله ، وابراهيم . وكلهم ماتوا صغاراً لم يتجاوز احدهم السنتين . واما البنات : فزينب ورقية وام كلثوم وفاطمة . وكلهن عشن حتى كبرن وتزوجن . ولم يكن لرسول الله

نسل إلا من ابنته فاطمة. تزوجها ابن عمه علي بن أبي طالب. فولدت له الحسن والحسين وإليهما نسبة كل منتسب إلى النبي المصطفى صلوات الله عليه. وولد لهما ولد ثالث سماه محسناً مات صغيراً. وكان لرسول الله كتاب يستعين بهم لأنه لم يتعلم الكتابة، منهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبي سفيان. وكان له سيافون يضربون الأعناق بين يديه، وحراس اتخذهم حتى نزل قوله تعالى "والله يعصمك من الناس" فتركهم، ومؤذنون، ورسل، شعراء، وخطباء، وخدم، وخيل، وبغال، وإبل، وحمار، وبضع كثير من سيوف ودروع وقسي ورماح وحراب وخوذة وحجف. وفي آخر سنة من حياته الشريفة حج حجة الوداع وخطب فيها فأبان للناس ما لهم وما عليهم وهي من أطول خطبه وأشهرهن استيعاباً لأمور الدين والدنيا. وفي المدينة المنورة بدأ به ألم في آخر صفر وحم واشتد به الصداع فتوفي في يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول. وفي مثل هذا اليوم كان مولده. فدفن في مرقده الشريف في المدينة المنورة، بعد أن أسس للناس مدنية أشرقت شمسها اليوم في جميع أقطار الأرض وديناً يعتنقه نيف وستمائة مليون من البشر. صلى الله تعالى عليه وسلم تسليماً كثيراً.

{ عدنان }

كان في نحو سنة ١٩٠٠ قبل الهجرة

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول: كذب النسابون. فلا يتجاوزه. وأجمع المؤرخون ورجال الأنساب على أن عدنان من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.(١) وإسماعيل يبتدئ به القسم الثالث من أقسام العرب في جاهليتهم. وذلك أن المؤرخين يسمون الجيل

(١) والذي اعتمده القلقشندي في نسبه إلى إسماعيل أن عدنان بن أد بن أدد بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن قيدار بن إسماعيل عليه السلام ».

الاول من اجيال العرب « العرب العاربة » وهم الذين انقطعت اخبارهم وبادت آثارهم وربما سموهم العرب البائدة ، ومنهم قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى . والجيل الثاني يبتدئ بقحطان ويسمونه « العرب المتعربة » يذهبون الى أن قحطان وابن يعرب اخذا العربية عمن تقدمهم وسبقاهم في الكلام مع قحطان وبنيه . والجيل الثالث « العرب المستعربة » ويبدأ باسماعيل عليه السلام . ويسمونهم مستعربة لان اسماعيل لم يكن عربياً وانما هاجرت به أمه هاجر من الشام الى الحجاز . وكان الحجاز وتهامة حينئذ مقر العمالقة ، فاصابت سكانه اليمن مجاعة نشأت عن قحط اصاب بلادهم فأقبلوا الى جهة تهامة يطلبون الماء والمرعى . فاجتمع بهم اسماعيل وامه فاقبلا معهم . واحتلوا اسفل مكة ثم حاربوا العمالقة سكان الحجاز فأهلكوا أكثرهم . واقام اليمنيون المهاجرون في ربوع الحجاز وتهامة وفيهم بقية من جرهم الثانية (وهم من العرب المتعربة) فنشأ اسماعيل فيهم وتعلم منهم اللغة العربية وكان يتكلم بالعبرانية . وتزوج من بناتهم فخرج فيهم نسله وكان من احفاده عدنان المتقدم واليه ينسب الجم الغفير من عرب الحجاز : وذلك أنه ولد له معد وولد لمعد نزار ، ومن نزار [redacted] ربيعة ومضر : وهذان هما اللذان كثرت بطونهما . فكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر في تاريخ العرب اذ كانوا يناصبون مضر في الشرف والرفعة ومنهم كان اكثر الخوارج في الاسلام ، ومنهم ~~بنو عبد القيس بن أفصى~~ بنو أسد وبنو عبد القيس وعنزة وبكر وتغلب ووائل والاراقم والدؤل وغيرهم مما يطلب من كتب الانساب – انظر انساب العرب للقلقشندي – . وتشعبت قبائل مضر الى شعبتين : قيس بن عيلان بن مضر ، وبطون الياس بن مضر . فمن بني قيس بن عيلان : [redacted] بنو غطفان [redacted] وبنو سليم بن منصور

ومن غطفان بغيض بن ريث، وعبس وذبيان ابنا بغيض، وما يتفرع منهما. ومن سليم بن منصور بنو بهثة وبنو هوازن. وأما إلياس: فكان من بنيه تميم بن مرّ، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة، وبطون كنانة بن خزيمة. ومن كنانة: قريش. وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وانقسمت قريش. فكان منها جُمح وسهم ابنا هصيص بن كعب، وعدي بن كعب، ومخزوم بن يقظة بن مرة، وتيم بن مرة، وزهرة بن كلاب، وعبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي. وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم. وبيت هاشم هو الذي كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم. ومنه العباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب. ومن بني عبد شمس بن عبد مناف بنو أمية الخلفاء. [illegible]

هذه خلاصة موجزة لبعض بطون عدنان وقبائلها الذين انتشروا في أنحاء الحجاز ونجد والعراق ثم اليمن. ونحن وإن أطلنا في إيرادها ولكن البحث يضطرنا إلى ذكر أكثر ما ذكرنا. [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

~~القلقشندي [illegible] ولم أذكر ثم [illegible]~~
~~[illegible]~~

والله بحقيقته أعلم .

{ مضر }

مات في نحو سنة ٩٥٠ قبل الهجرة

مضر بن نزار بن معد بن عدنان : احد سادات قريش . وبنوه كما في العبر : اهل الكثرة والغلبة بالحجاز من سائر بني عدنان . ولهم الرياسة بمكة والحرم. ومضر : أول من سنّ الحداء للابل . وكان من أحسن الناس صوتاً . وهو صاحب المثل السائر « بصبصن إذ حُدين بالاذناب » قال وكان في سفر فوقع فرُضّت يده فجعل يصيح : يا يداه ! يا يداه ! . فأتته الابل القريبة منه وكانت ترعى فلما صلح وركب حدا . فأعجبه ما رأى من الابل فقال : بصبصن الخ . فذهبت مثلاً . ومات بمكة .

{ كعب بن لؤي }

٢٠٠

مات في نحو سنة ٤٠٠ قبل الهجرة

ابو هصيص كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر : قرشي من كبار سادات العرب في الجاهلية وله اعمال مشهورة وذكر في تاريخ الجاهليين معروف . قال القلقشندي : كان كعب عظيم القدر عند العرب فلما مات أرّخوا بموته الى عام الفيل (وهو عام مولد النبي صلى الله عليه وسلم) . ثم أرخوا بالفيل الى أن ظهر الاسلام فكانوا يؤرخون بالوقائع العظيمة الى ان قرر رأي عمر بن [illegible] على

هـ تحاذ حجرة الرسول الأعظم تاريخاً لمسلميه.. وهو الكعب اول من سن الاجتماع في الجمعة وكانت العرب تسميه يوم العروبة. كانت قريش تجتمع اليه في هذا اليوم فيخطبهم ويعظهم وقيل كان يذكر لهم أنه سيكون من وَلَده نبي يبعثه الله. وهو الذي سمى يوم العروبة بيوم الجمعة. وقال ابن الأثير المؤرخ: كان كعب يخطب الناس ايام الحج. فهو من الخطباء الشعراء. وهو من الآب الثامن للنبي الهاشمي المختار. وكانت اقامته بمكة وفيها مات.

قُصَيّ

مات في نحو سنة ٢٠٠ قبل الهجرة

ابن المغيرة قُصَيٌّ، واسمه زيد، بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤَي: كان سيد قريش ورئيسهم والمشار اليه منهم. مات ابوه وهو طفل صغير. فتزوج امه، فاطمة بنت سعد، رجل من بني عُذرة يدعى ربيعة بن حرام. وسار بها الى الشام فاخذت قصياً معها. فشبّ في حجر ربيعة. وسُمّي قصياً لبعده عن دار قومه. فكان قصي ينتمي الى ربيعة الى ان كبر فكان بينه وبين رجل من قضاعة شيء فعيّره القضاعي بانتسابه لغير ابيه. فعاد الى امه فسألها فاخبرته. فلما كان الشهر الحرام خرج مع الحاج حتى قدم مكة فتعرف الى قومه من قريش فعرفوه فاقام بينهم وكثر ماله وكان موصوفاً بالدهاء والعقل ومعرفة الطرق الموصلة للسيادة والرياسة. فعظم شرفه. ووَلِيَ الكعبة. ثم كانت له مع القبائل حروب ووقائع رفعت ذكره واضطرته أن يجمع قومه الى مكة من الشعاب والاودية والجبال فسمّوه مجمّعاً. وملكوه عليهم فكان اول قرشي من ولد كعب بن لؤَي اصاب ملكاً اطاع به قومه. وقسم مكة ارباعاً ومنازل بين قومه فبنوا بها المساكن. وكان اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة

والندوة واللواء فحاز شرف قريش كله . قال في كامل التواريخ : وتيمنت قريش بأمره ورأيه فكانت لا تعقد نكاحاً الا في داره ولا يتشاورون في امر ينزل بهم الا في داره ولا يعقدون لواء لحرب الا في داره يعقده بعض ولده وكان امره في قومه كالدين المتبع في حياته وبعد مماته . وحفر بمكة بئراً سماها العجول وهي اول بئر حفرتها قريش بمكة . ولما كبر وبلغ سن الهرم جلس في دار الندوة - وهي دار في مكة كانت قريش تجتمع بها في قضاء امورها - وجمع بنيه وكانوا قد شبوا وسادوا فرأى اكبرهم سناً اضعفهم شأناً وهو ولده عبد الدار . فأشفق عليه فقال له : والله لألحقنك بهم . فاعطاه رياسة دار الندوة ؛ وحجابة الكعبة ؛ واللواء - فكان يعقد لقريش الوية في الحروب - والسقاية - فكان يسقي الحاج . والرفادة وهي سنة سنها قصي في قريش وذلك أنهم كانوا يأتونه في كل موسم بشيء من اموالهم يصنع منه طعاماً للحاج يأكله الفقراء . قال ابن الاثير في معنى الرفادة : وكان قصي قد قال لقومه : انكم جيران الله واهل بيته وان الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم احق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً ايام الحج ففعلوا فكانوا يخرجون من اموالهم فيصنع به الطعام ايام منى . قال : وجرى الامر على ذلك في الجاهلية والاسلام الى الآن فهو الطعام الذي يصنعه الخلفاء كل عام بمنى . ثم مات قصي بمكة فخلفه بالسيادة ابناؤه ودفن بالحجون فكانوا يزورون قبره ويعظمونه . وهو مؤلف الناس من آباء النبي صلى الله عليه وسلم . وفي جمعه القبائل يقول الشاعر :

ابوكم قصيٌّ كان يدعى مجمِّعاً ... به جمع الله القبائل من فهر

{ عبد مناف }

مات في نحو سنة ١٢٥ قبل الهجرة

عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة: سيد من سادات الجاهلية. كانت له الشوكة في قريش. ساد في أيام أبيه قصي وترأس بعد أبيه. وعبد مناف لقب له وإنما اسمه المغيرة. ويكنى أيضاً أبا عبد شمس. وكان يقال له القمر لجماله. وكانت أمه حبى ولدته ودفعته إلى مناف وهو صنم بمكة تديناً فغلب عليه عبد مناف. وكان دون أبيه السلف ذكره بالحكمة والتدبير فلم يحدث جديداً في قومه بعده. وانقادت له قريش لمكانة أبيه عندهم ولشدة تعلقهم به وحبهم له ولبنيه. قال الجوهري: والنسبة إلى عبد مناف مَنافيّ. قال: وكان القياس عبدي، عدلوا عنه لإزالة اللبس. وهو الأب الرابع لرسول الله. وفي آله يقول الشاعر:

قل للذي طلب السماحة والندى هلّا مررتَ بآل عبد مَناف
الرائشون وليس يوجد رائش والقائلون هلمّ للأضياف

هاشم بن عبد مَناف

ولد سنة ٢٠٨ ومات سنة ١٢٧ قبل الهجرة

هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ: أحد من انتهت إليهم سيادة قريش في الجاهلية. اسمه عمرو وكنيته أبو نضلة ولُقِّب هاشماً لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة. وزعموا أنه كان أحد الأجواد الذين ضرب بهم المثل في الكرم والسخاء، وللشعراء فيه قصائد وأبيات مأثورة. واتفق أن أصاب الناس محل فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقاً وكعكاً وقدم به مكة في الموسم فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر وجعله ثريداً وأطعم الناس حتى أشبع الجياع

فسمي

فسمي هاشماً . قال الشاعر :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجافُ

وكان هاشم قد بلغ السيادة وهو صغير فعُرف شأنه في حياة ابيه عبد مناف ولما مات ابوه تولى سقاية الحاج ورفادته (وهي اطعام الفقراء من الحجاج وكان دينا) فحسده ابن اخ له اسمه امية بن عبد شمس (وهو جد بني امية ملوك الشام) فتكلف أن يقلده في كرمه فعجز وظهر عليه أنه يصنع ذلك لحسد فشمت به ناس من قريش فغضب ودعا هاشماً للمنافرة فكره هاشم ذلك لسنه وقدره فألحّت عليه قريش حتى رضي فتنافرا الى كاهن من بني خزاعة بعسفان واتفقا على أن ينحر المغلوب خمسين ناقة بمكة يطعمها الناس ويرحل عن مكة عشر سنين . فانصرفا الى الكاهن فقال :
.. والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشمٌ أميةَ الى المفاخر ..
فقضى بتفضيل هاشم واخذ هاشم الابل فنحرها واطعمها وغاب امية عن مكة بالشام عشر سنين فكانت هذه اول عداوة وقعت بين هاشم وامية . ثم توارثها بنوهما . وبينا كان هاشم في سفر الى الشام مرض فتحوّل الى غزة فمات بها وهو في عصر الشباب لم يتجاوز سنّه خمساً وعشرين . وكان موصوفاً بالجمال وكرم المنزل . وهو جد ابي القاسم محمد صلى الله عليه وسلم . وفي هاشم يقول الشاعر :

عمرو العلا ذو الندى من لا يسابقه مرُّ السحاب ولا ريح تجاريه
جفانه كالجوابي للوفود اذا لبوا بمكة ناداهم مناديه
او أمحلوا اخصبوا منها وقد علموا قوتاً لحاضره منهم وباديه

عبد المطلب بن هاشم

ولد سنة ١٢٧ ومات سنة ٤٥ قبل الهجرة

ابو الحارث شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف: احد عظماء قريش وسيد من كبار سادات العرب. اسمه شيبة الحمد: قيل لانه ولد وفي رأسه شيبة فسموه بها. وغلب عليه لقبه عبد المطلب: وذلك أن اباه هاشماً سافر في تجارة الى الشام فمر بالمدينة فنزل على عمرو ابن لبيد الخزرجي من بني النجار فرأى ابنته سلمى فأحبته فتزوجها ولما عاد من سفره اخذها معه الى مكة ثم اراد السفر الى الشام فأخذها الى المدينة عند ابيها يعيدها عند رجوعه وكانت حبلى. فلما بلغ غزة مات. (كما تقدم في ترجمته) وولدت سلمى غلاماً شيبة (او شيبة الحمد) ونشأ في المدينة. وبعد نحو سبع سنين مر بالمدينة رجل من بني الحارث فاذا غلمان ينتضلون (يتبارون في رمي السهام) وشيبة بينهم كلما اصاب قال: انا ابن هاشم انا ابن سيد البطحاء. فقال له الحارثي من انت؟ قال: انا ابن هاشم بن عبد مناف. فلما اتى الحارثي مكة اخبر المطلب بن عبد مناف (اخا هاشم) بما رأى وما سمع فسر المطلب وركب وارتحل الى المدينة فرأى غلماناً يضربون كرة فعرف ابن اخيه فأخذه واستأذن امه واركبه على عجز الناقة حتى قدم مكة ضحوة والناس في مجالسهم فسألوه: من هذا وراءك؟ وكانت بزته غير حسنة فخجل ان ينسبه لهم فقال: عبد لي. ثم البسه حلة تليق به واخرجه للناس فحدثهم بخبره فكان بعضهم اذا ذكروه قالوا عبد المطلب فغلب عليه. ثم شب بينهم فكانت له السقاية والرفادة وله حفت

عليه امارات السيادة والامارة وكان عاقلاً ذا أناة ونجدة وخبرة فأحبه قومه فرفعوا من شأنه وطال عمره. وحفر بئر زمزم. وهي البئر التي احتفرها اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام ودفنتها جرهم. فأعادها وظهر ماؤها. وكان فصيح اللسان حاضر الجنان. ووفد بجماعة من قريش على ملك اليمن سيف بن ذي يزن الحميري لتهنئته ادراك ملك آبائه يهنئونه بالنيابة عن اهل الحجاز، فلما دخلوا عليه استأذنه عبد المطلب في الكلام فقال: ان كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك أذنّا. فقال عبد المطلب:

" ان الله قد أحلك ايها الملك محلاً رفيعاً. صعباً منيعاً. باذخاً شامخاً. وانبتك منبتاً طابت ارومته. وعزت جرثومته. وثبت اصله. وبسق فرعه. في اكرم معدن. واطيب موطن. فانت ابيت اللعن، رأس العرب. وربيعها الذي به تخصب. وملكها الذي له تنقاد. وعمودها الذي عليه العماد. ومعقلها الذي اليه يلجأ العباد. فسلفك خير سلف. وانت لنا منهم خير خلف. فلن يهلك من انت خلفه. ولم يخمل من انت سلفه. نحن ايها الملك اهل حرم الله وذمته وسدنة بيته أشخصنا اليك من انهجك لكشف الكرب الذي فدحنا. فنحن وفد التهنئة. لا وفد المرزئة. لا زلت ناعم البال. مهنّأً في كل حال. "

فقال سيف الملك: من انت ايها المتكلم؟ قال: انا عبد المطلب بن هاشم. قال: ابن اختنا؟ قال: نعم. فأقبل عليه من بين القوم وقال: " مرحباً واهلاً ومناخاً سهلاً. وناقة ورحلاً. وملكاً ربحلاً. يعطي عطاءً جزلاً. قد سمعت مقالتكم وعرفت قرابتكم. انتم اهل الشرف والنباهة ولكم الكرامة ما اقمتم والحباء اذا ظعنتم. " ثم امر بهم الى دار الضيافة فاقاموا شهراً لا يؤذن

في مقابلته ولا في منصرف . ثم دعا بعبد المطلب فأخبره ان كتبهم السماوية تبشر بنبي يظهر من ذريته ، وأمره ان يكتم ذلك . وأجزل له العطا[redacted] وأكرم مدحاء منه وأذن لهم فعادوا . (وكان عبد المطلب اذا دخل شهر رمضان صعد حراء فتحنث (أي تعبد) وأطعم المساكين جميع الشهر . وهو أول من خضب بالسواد من العرب . مات وعمره ٨٢ سنة - كما في عيون التواريخ - وفي الكامل انه عاش ١٢٠ سنة ، وفي سبائك الذهب ١١٠ . وخلف اثني عشر ولدا وهم : عبد الله ، وأبو طالب ، والزبير ، وعبد الكعبة ، والعباس ، وضرار ، وحمزة ، والمقوم ، [redacted] وأبو لهب ، وقثم ، والغيداق ، والحارث . [redacted]
وبعض النسابين يعدهم عشرة ؛ يهمل عبد الكعبة وقثم . وله ست بنات . وأنا ذاكر فيما يلي تراجم أشهرهن وأولاده . وفي كتب السيرة النبوية ان رسول الله كان اذا انتشى في الحرب يقول : " أنا النبي لا كذب ؛ أنا ابن عبد المطلب ! "

عبد الله بن عبد المطلب

ولد سنة ٨١ ومات سنة ٥٣ قبل الهجرة

أبو قثم عبد الله الذبيح بن عبد المطلب بن هاشم : والد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولد في مكة ونشأ بها وهو أصغر ولد عبد المطلب وأقصرهم عمرا . وكان عبد المطلب أبوه قد نذر : لئن ولد له عشرة أبناء وشبوا في حياته وكانوا اعوانا له على اعدائه ليذبحن أحدهم عند الكعبة لله تعالى ! . فما زال يلد له حتى بلغ ابناؤه عشرة اشداء . فذهب بهم الى هُبَل وهو أكبر أصنام الكعبة فضربت القداح (يفعلون ذلك كالقرعة) فخرجت على عبد الله .. وهو أحب بنيه اليه وأصغرهم . وكان عبد المطلب واقفا يدعو فلما خرج القدح على عبد الله انبرى اليه فأخذه وذهب به الى اساف ونائلة (وهما صنمان كانوا اذا ارادوا ذبح شيء نحروه عندهما) فقامت قريش من انديتها فمنعوه من ذبحه . فأصرّ

فقالوا

فقالوا: هلم فانطلق الى كاهنة الحجر فسلها، فان امرتك بذبحه فافعل. فذهب معهم اليها وهي بخيبر. فقص عليها عبد المطلب خبره. فقالت: ارجعوا اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله. فرجعوا عنها. ولما اصبحوا غدوا اليها. فقالت: نعم قد جاء في الخبر. فكم الدية عندكم؟ قالوا: عشر من الابل. قالت: ارجعوا الى بلادكم فقربوا عشراً من الابل واضربوا عليها وعلى عبد الله بالقداح فان خرج على صاحبكم فزيدوا عشراً حتى يرضى ربكم وان خرجت على الابل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم. فخرجوا حتى اتوا مكة فاجتمعوا ثم قربوا عبد الله وعشراً من الابل فخرجت القداح على عبد الله فزادوا عشراً فخرجت عليه فما برحوا يزيدون عشراً وتخرج القداح عليه حتى بلغت الابل مئة ثم ضربوا فخرجت القداح على الابل. فقال من حضر: قد رضي ربك يا عبد المطلب. فقال عبد المطلب: لا والله! حتى اضرب ثلاث مرات. فضربوا ثلاثاً. فخرجت القداح على الابل. فنحرت. وتركت لا يصد عنها انسان ولا سبع. وانصرف عبد المطلب بابنه فرحاً به. فزوجه بآمنة بنت وهب (ام رسول الله صلى الله عليه وسلم). ثم ارسله الى المدينة يمتار لهم تمراً. فمرض بالمدينة. ومات بها ودفن في دار النابغة الجعدي الشاعر. وبعضهم يقول: انه سافر الى الشام في تجارة فلما عاد نزل في المدينة وهو مريض فتوفي بها. وله من العمر ثمان وعشرون سنة. وكانت وفاته قبل ولادة سيد الخلق وهادي الهداة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام. وجل هذه الترجمة ملخص عن المجلد الثاني من الكامل لابن الاثير. ~~وفي كتاب السيرة ...~~

~~...~~

انا النبي لا كذب ؟! انا ابن عبد المطلب

ابو طالب بن عبد المطلب

ولد سنة ٨٥ - وتوفي سنة ٣ قبل الهجرة

ابو طالب واسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم: والد علي بطل الاسلام. وعم النبي الامين وناصره وكافله ومربيه. وهو من ابطال بني هاشم والمطاعين منهم. قال رسول الله ص: ما نالت قريش مني شيئاً اكرهه حتى مات ابو طالب. وذلك: انه لما اعلن الدعوة ثارت عليه بنو قريش وارادوا قتله. فانتصر له عمه ابو طالب. فصدّهم عن اذيته. فلما مات أخرجوه فاضطر الى الهجرة بعد موته كما قدمنا في الترجمة الاولى. وكان ابو طالب خطيباً عاقلاً حسن الروية طاهر القلب ابيّ النفس. وعرض عليه ابن اخيه الايمان بدينه فوعده بنصرته وحمايته ولكنه امتنع عن قبول الاسلام خوفاً من أن تعيره العرب وتعيبه. فنزلت آية إنّك لا تهدي من أحببت. فتركه واكتفى منه بصد اعدائه عنه. واورد الفاضل السهيلي في كتابه الروض الأنف نقلاً عن هشام بن السائب الكلبي خطبة قالها ابو طالب حين حضرته الوفاة، اذ اجتمعت عليه وجوه قريش نذكرها هنا

قال:

يا بني قريش! انتم صفوة الله من خلقه. وقلب العرب. وفيكم السيد المطاع. والمقدم الشجاع. والواسع الباع. لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً الا احرزتموه. ولا شرفاً الا ادركتموه. فلكم على الناس بذلك الفضيلة. ولهم به اليكم الوسيلة. والناس لكم حرب. وعلى حربكم أُلب. واني اوصيكم بتعظيم هذه البنية: فان فيها مرضاة للرب، وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطأة. صلوا ارحامكم ولا تقطعوها: فان في صلة الرحم منسأةً في الاجل، وزيادة في العدد. واتركوا البغي والعقوق: ففيهما هلكت القرون قبلكم. واجيبوا الداعي وأعطوا السائل: فان فيهما شرف الحياة والممات. وعليكم بصدق الحديث واداء الامانة: فانّ فيهما محبة في الخاص، ومكرمة

ومكرمة في العام . وانا اوصيكم بمحمد خيرا : فانه الامين في قريش ، والصديق في العرب ، وهو جامع لكل ما اوصيكم به ، وقد جاء بأمر : قبله الجنان وانكره اللسان مخافة الشنآن ؛ وأيم الله كأني انظر الى صعاليك العرب واهل البر في الاطراف والمستضعفين من الناس : قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا امره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها اذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها اربابا واذا أعظمهم عليه احوجهم اليه وابعدهم منه أحظاهم عنده . قد محضته العرب ودادها واصفت له فؤادها وأعطته قيادها . دونكم يامعاشر قريش ابن ابيكم . كونوا له ولاة ولحزبه حماة ووالله لا يسلك احد منكم سبيله الا رشد ، ولا يأخذ احد بهديه الا سعد ، ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكفيته عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي .»

ومن خطبه ما ذكره الامام المبرد و قال : خطب ابو طالب لرسول الله ص » في تزويجه خديجة بنت خويلد فقال : « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوبا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم ان محمد بن عبد الله ابن اخي : من لا يوازن به فتى من قريش الا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا وإن كان في المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصداق فعلي . » قال المبرد : وهذه الخطبة من أقصد خطب الجاهلية . وكان ابو طالب صاحب تجارة كباقي قريش ومولده في موطنه مكة وبها نشأ وفيها مات ودفن . وأعقب اربعة واثنتين ؛ وهم : علي ، وجعفر ، وعقيل ، وطالب ؛ والبنتان هما : ام هانئ ، واسمها فاختة ، وجمانة . وامهم فاطمة بنت اسد بن هاشم بن عبد مناف .

حمزة بن عبد المطلب

ولد سنة ٥٤ قبل الهجرة وتوفي سنة ٣ للهجرة

ابو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم: عم رسول الله، واحد صناديد قريش وساداتهم في الجاهلية والاسلام. ولد بمكة ونشأ بها. قال صاحب اسد الغابة: كان اعز قريش واشد هاشمية. واول اخباره في الاسلام أن ابا جهل المخزومي القرشي (عدو النبي واول شديد اعدائه عليه) تعرض لرسول الله فشتمه واهانه ورسول الله صامت لم يجبه. وكان حمزة غائباً في الصيد فلما عاد أخبر بما صنع ابو جهل فقصده. فرآه في الكعبة فضربه بقوس كانت في يده فشج رأسه شجة منكرة وقال: أتشتمه وانا على دينه اقول ما يقول؟ فاردد عليّ ان استطعت. فحدثت ضجة عظيمة وقامت رجال بني مخزوم على حمزة فمنعهم ابو جهل وخاف اتساع الفتنة فقالوا: ما نراك يا حمزة الا قد صبأت. فقال حمزة: وما يمنعني؟ فقالت العرب: اليوم عزّ محمد وانّ حمزة سيمنعه. فكفوا عن بعض ما آتهم الى المسلمين. وثبت حمزة في الاسلام. وكان ذلك قبل موت ابي طالب. ثم هاجر حمزة مع النبي «ص» الى المدينة وحضر وقعة بدر وغيرها وابدى من البسالة ما هو معروف عنه. قال المدائني: اول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان لحمزة بن عبد المطلب، وكان حمزة يُعرف في الحرب بريشة نعامة يضعها في صدره. ولما كانت في وقعة بدر قاتل بسيفين. فقال امية بن خلف وهو اسير في يد المسلمين: من الرجل المعلَّم بريشة؟ فقيل له: حمزة. فقال: ذاك فعل بنا الافاعيل!

وقُتل

وقتل « رضي الله عنه » في وقعة أحد بعد أن قتل أحداً وثلاثين نفساً ثم عثر فوقع على ظهره فرآه أحد العبيد فأدركه وضربه بحربة ذهبت بروحه. وأخذه المشركون فمثلوا به وبشهداء المسلمين. فلما رآه النبي عليه السلام صعق وبكى. ثم قال:

« رحمك الله أي عم فلقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات »

وأخذه المسلمون فدفنوه في المدينة. قال ابن حزم وغيره من رجال الحديث أنه انقرض عقبه. فلا يثبت انتساب بعض الأسر إليه رضوان الله عليه.

العباس بن عبد المطلب

ولد سنة ٥١ قبل الهجرة - وتوفي سنة ٣٢ هجرية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « هذا العباس بن عبد المطلب: أجود قريش كفاً وأوصلها؛ هذا بقية آبائي .. كان العباس أحد عظماء قريش: رئيساً في الجاهلية عظيماً في الإسلام؛ وَصُولاً للأرحام قريش محسناً إليهم ذا رأي سديد وعقل غزير؛ مولعاً بإعتاق العبيد، كارهاً للرق: قال صاحب أسد الغابة: اشترى العباس سبعين عبداً وأعتقهم جميعاً. وكانت له سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام (وهي أن لا يدع أحداً يسب أحداً في المسجد ولا يقول فيه هُجراً). ولد بمكة قبل مولد رسول الله بسنتين وأسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه وأقام بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار المشركين. وبعد الهجرة أراد أن يرحل إلى المدينة مهاجراً فقال له النبي: مقامك بمكة خير. ثم هاجر بعد زمن وشهد وقعة حنين فثبت مع رسول الله لما انهزم الناس. وشهد فتح مكة أيضاً. وكان طويلاً جميلاً أبيض بضاً له ضفيرتان. وعاش نيفاً وثمانين عاماً. أصيب في آخر عمره برمد في عينيه فعمي. وهو أبو الخلفاء العباسيين يتصل نسبهم.

وكان جليل القدر رفيع الجانب : قال الصفدي في نكت الهميان : ولم يرّ (أي العباس) لعمر ولا لعثمان وهما راكبان إلا ترجّل : إجلالاً له . وبارك الله في نسله : قال الجهشياري في كتاب الوزراء : أحصي ولد العباس في سنة مئتين فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ... ٢٢ . وتوفي رضي الله عنه بالمدينة ودفن في البقيع . وله عشرة أولاد ذكور، سوى الاناث، منهم حبر الاسلام عبد الله بن عباس .

الحسن بن علي

- ولد سنة ٣ - وتوفي سنة ٥٠ هـ -

أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب : خامس الخلفاء الراشدين (الآتي ذكرهم) وآخرهم . أمه السيدة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أكبر أولادها وأولاده . ولد في المدينة المنورة ونشأ بها . وكان عاقلاً حليماً وقوراً محباً للخير حسن الخَلق والخُلق . لما استشهد أبوه علي (وستأتي ترجمته) عمد أهل العراق إليه فبايعوه على الخلافة سنة ٤٠ هـ وأشاروا عليه بالمسير إلى الشام لمحاربة معاوية بن أبي سفيان . فأطاعهم وزحف بمن معه . ونهض معاوية فسار من الشام إليه . فلما تقارب الجيشان في موضع يقال له مسكن بناحية من الأنبار : علم الحسن أن هاتين الطائفتين لا تغلب إحداهما الأخرى ~~[illegible]~~ إلا بفناء عدد عظيم منهما ، فعظم عليه الأمر ، وهاله ~~[illegible]~~ فمال إلى السلم . وكتب إلى معاوية يتنازل له عن الخلافة لقاء شروط يشترطها . ~~[illegible]~~ فأقرّ معاوية ~~[illegible]~~ وخلع الحسن نفسه وسلم الأمر إلى معاوية في بيت المقدس تورعاً وحسماً للشر . وسمي عام ذلك وهو سنة ٤١ هـ

عام

لا عام الجماعة ، لاجتماع كلمة الاسلام فيه واتفاقهما عليه حقنا للدماء بعد تعدد الحروب والفتن بين علي ومعاوية . ثم قصد معاوية الكوفة ووصل الحسن الى المدينة فاقام بها حتى توفي مسموما في قول بعضهم . ودفن بالبقيع عليه الرحمة والرضوان ومدة خلافته ستة اشهر وخمسة ايام . وولد له احد عشر ابنا وبنت واحدة .

هذا ما يتعلق بسيرته واما فصاحته وبداهته فكان معاوية يوصي حاشيته باجتناب محاورة جنبين هما : الحسن وعبدالله بن عباس لقوة بداهتهما . قال البيهقي : قدم الحسن على معاوية وعنده عمرو بن العاص ومروان ابن الحكم والمغيرة بن شعبة وصناديد قومه ووجوه اليمن والشام . فأجلس معاوية على سريره الى جانبه فحسده مروان فقال : يا حسن لولا حلم امير المؤمنين ما أقعدك هذا المقعد واقتلك وانت له مستوجب بقودك الجماهير فلما احسست بنا وعلمت أن لا طاقة لك بفرسان اهل الشام وصناديد بني امية أذعنت بالطاعة وبعثت تطلب الامان . أما والله لولا ذلك لأريق دمك ولعلمت أنا نعطي السيوف حقها عند الوغى فاحمد الله اذ ابتلاك بمعاوية فعفا عنك بحلمه ثم صنع بك ما ترى .. فنظر اليه الحسن . وقال : ويحك يا مروان ! لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها والمخاذلة عند مخالطتها . نحن ، هبلتك الهوابل ، لنا الحجج البوالغ والنعم السوابغ تعير بني امية وتزعم أنهم صُبُرٌ في الحروب أُسد عند اللقاء ؟ ثكلتك أمك ! اولئك البهاليل السادة ، والحماة الذادة ، والكرام القادة ، بنو عبد المطلب . اما والله لقد رأيتهم وجميع من في هذا البيت ما هالتهم الاهوال ولم يحيدوا عن الأبطال كالليوث الضارية الباسلة الحنقة فعندها وليت هاربا وأُخذت اسيرا فقلدت قومك العار . أبراءة دمي زعمت ؟ أفلا أرقت دم من وثب على عثمان في الدار فذبحه كما يُذبح الجمل وانت تثغو ثغاء النعجة وتنادي بالويل والثبور كالأمة اللكعاء . ألا دفعت عنه بيد او ناضلت

عنه بسهم ؟ لقد ارتعدتْ فرائصُك وغُشي بصرُك فاستغثتَ بي كما يستغيث العبد بربه فأنجيتك من القتل ومنعتك منه ثم تحثّ معاوية على قتلي ؟! لا ولو رام ذلك معك لذُبح كما ذُبح ابن عفان!. أنت معه أقصر حَنَدًا وأضيق باعًا وأجبن قلبًا من أن تجسُرا على ذلك. ثم تزعم أني ابتُليتُ بحلم معاوية ؟ أما والله لهو أعرف بشأنه وأشكر لما وَلّيناه من هذا الأمر. فمتى بدا له فلا يُغضينَّ جفنه على القذى معك، فوالله لأُعقبنَّ أهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها ويستأصل فرسانها ثم لا ينفعك عند ذلك الهرب والروغان ولا يردُّ عنك الطلبَ تدريجُك الكلام. ! نظن أنك كنتَ صادقًا !.. فانتصر عمرو ومعاوية بالحسن وشتما مروان فانصرف مغضبًا مغيظًا .. وسأله أبوه عليٌّ، رضي الله عنهما، "(1)" ليمتحن بداهته: يا بُنيّ ما السداد ؟ قال: دفع المنكَر بالمعروف. قال: فما الشرف؟ قال: اصطناع العشيرة والاحتمال للجريرة. قال: فما السماح ؟ قال: البذل في العسر واليسر. قال: فما اللؤم ؟ قال: إحراز المرء ماله وبذله عرضه. قال: فما المنعة ؟ قال: شدة البأس ومنازعة أعز الناس. قال: فما الجبن ؟ قال: الجرأة على الصديق والنكول عن العدو. قال: فما الغنى ؟ قال: رضى النفس بما قسم الله لها. قال: فما الذل ؟ قال: الفزع عند الصدمة. قال: فما المجد ؟ قال: أن تعطي في الغرم وتعفو في الجرم. اهـ. وتجد ترجمته بأطول مما هنا في تاريخ الشام لابن عساكر وإسعاف الراغبين للصبان وأمثالها من كتب التاريخ والسير والأخبار. ومن آخر كلامه، رضي الله عنه، لأخيه الحسين وهو يجود بنفسه: : يا أخي أوصيك أن لا تطلب الخلافة فإني والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة فإياك أن يستخفك سفهاؤها و الكوفة ويخرجوك فتندم من حيث لا ينفعك الندم ".

والحسن، عليه الرضوان، ثاني الأئمة الاثني عشر عند الإمامية: وذلك (1)

أن

أن السادة الإمامية . وهم فرقة من فرق المسلمين تقول بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم (انظر كتاب الملل والنحل للشهرستاني) . يذهبون إلى أن إمامة المسلمين يتوارثها أبناء علي عنه. وهم مختلفون في تسميتهم أسماء بعضهم ولكنهم متفقون على عددهم وأنهم ختموا بالمهدي المنتظر وهو الإمام الثاني عشر والأشهر في تسميتهم أنهم : الإمام علي، والحسن، والحسين، وزين العابدين، والباقر، والصادق، والكاظم، والرضا، والجواد، والهادي، والعسكري، والمهدي . رضوان الله عليهم أجمعين . ولكل من هؤلاء الأئمة شأن معروف ومكان محفوظ. وأنا آتٍ على تراجمهم فيما يلي إن شاء الله . وأما الإمام الأول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فسيذكر في فصل الخلفاء الراشدين .

الحسين بن علي

— ولد سنة ٤ — وتوفي سنة ٦١ هـ —

السيد الشهيد أبو عبد الله الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب . وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله : ولد في المدينة المنورة . ونشأ بين عظماء المسلمين وعقلائهم: أديباً عاقلاً مفكراً . قال رسول الله، صلوات الله عليه : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . وهو صاحب الفاجعة التي أدمت القلوب وقرحت الأجفان وأنست الناس أحزانهم وأبقت في قلوب بني هاشم وأشياعهم ضغينة لبني أمية لا تنسى أبد الدهر وحسبك أنها مازالت تغلي في الصدور حتى ضربوا آل أمية ومروان تلك الضربة القاضية فمحوا دولتهم وأزالوا صولتهم حتى لم يبق منهم في بلاد المشرق ديار . وخلاصة الحادثة أنه لما مات معاوية بن أبي سفيان وولي الخلافة ابنه يزيد تخلف الحسين عن مبايعته ورحل إلى مكة في جماعة من أصحابه وافقوه على رأيه فأقام بمكة أشهراً فبلغ أهل الكوفة ذلك وكان

لابن علي وأخي الحسن في أنصار وأعوان فكتبوا إليه كتاباً يطلبون بحضوره
ليبايعوه على الخلافة ويذكرون له أنهم في جيش متهيئ للوثوب فوعدهم بالسير
إليهم ثم نصح جماعة من عقلاء قومه أن لا يذهب فأصرّ على ما ارتأى. وخرج
في أسرته ومواليه ورجاله، وهم نحو الثمانين، قاصداً الكوفة. وبلغ يزيد
بن معاوية خبره فأرسل إليه جيشاً اعترضه في كربلاء. وبعد قتال عنيف
نشب بين الفريقين أصيب الحسين بجراح شديدة فسقط عن فرسه فقتلوه.
قيل قاتله سنان بن أنس النخعي وقيل الشمر بن ذي الجوشن. وأرسل
رأسه ونساؤه وذراريه إلى يزيد بن معاوية في الشام. فأظهر يزيد حزنه
عليه ولكن ما ينفع الحزن وقد سبق السيف العذل. ونفذ القضاء والقدر.
واختلفوا في الموضع الذي دفن رأس الحسين فيه فقائل في الشام وقائل بل دفن
مع الجثة في كربلاء وقائل غير ذلك مما أدى إلى تعدد مراقده وضياع ضريحه
الحقيقي بينها. وكان مقتله، سقاه من شآبيب رضوانه، يوم الجمعة عاشر
محرّم. ولا يزال هذا اليوم يوم حزن وكآبة عند جميع المسلمين اللهم
إلا جماعة من جهلة أهل السنة يتباركون به لثبوت صيام النبي المكرّم في
يوم عاشوراء. وفي طائفة الشيعة أيضاً رجال يتجاوزون حد الحزن يقيمون
له المآتم ويضربون أنفسهم بالسلاح وبعضهم يمثلون حادث مقتله
كما تمثّل الحوادث التاريخية والخيالية على مسارح النوادي. وعقلاء
الطائفتين غير راضين عما يفعله هؤلاء الجماعات منهم. أصلحهم الله!.
أما خروج الحسين يريد الكوفة ثائراً للخلافة فقد فسّره الفيلسوف الألماني
«ماربين» في كتاب له سماه «السياسة الإسلامية» بما لا أرى مناصاً من
التفكير فيه. قال «ماربين»: «أمات الرجلان العظيمان علي ومعاوية وتركا في
الصدور أضغاناً وجاء ولداهما: الحسين بن علي، ويزيد بن معاوية؛ والأول طامح
للمشورة

والثاني يراقبه ولا يستطيع البطش به . اما الحسين فلا اعلم في اصحاب الديانات من اختار سياسة المؤثرة فانه لما وجد قوته وقوة قومه ضعيفة بجانب قوى يزيد فكر في عمل كبير صرّح به لقومه وهو أن يريد المسير الى الموت .. وعلى اثر ذلك جمع نساءه وأطفاله وخرج من المدينة فلحق به عدد من اقربائه واصدقائه .. ليس اختياره اخذ اطفاله الا لعلة كان يعلمها ويسعى اليها . أيقن انه لا بد ليزيد من قتله فاراد أن تكون المصيبة عامة . فاستصحب صغاره منطلقه وهو معتقد أن يزيد سيفتك بهم جميعاً . راقه ذلك لانه علم أن الثورة الهاشمية لا محالة سيثيرها على بني امية الدافع مؤثر يثب بالامة الاسلامية جمعاء، ويثير الحزن والاشفاق، ويثير التألم والغضب . وهي الامنية التي كان يسعى اليها الحسين باخذ اطفاله وصغاره . ولذلك كان . فانها لم تقع الواقعة حتى نفرت من يزيد قلوب اخصائه، وما بلغت سبايا الحسين مدينة دمشق حتى تهيأت الثورة على يزيد . وما هي الاعوام قلائل حتى تركت آل يزيد طعماً للسيوف وشيدت على اثرها دعائم الخلافة الهاشمية العباسية .. لم يذكر لنا التاريخ رجلاً القى بنفسه وابنائه واحب الناس اليه في مهاوي الهلاك والفناء احياءً لدولة سُلبت منه إلا الحسين : ذلك الرجل الكبير الذي عرف كيف يزلزل ملك الامويين الواسع ويقلقل اركان سلطانهم . " واستطرد الباحث الى الكلام على الشيعة مما لا دخل له في بحثنا . وقد نُقلت بعض مباحث كتابه الى الفارسية والعربية وكان لما فكّر به مناصرون ومؤيدون . وهو رأي حسن على علاته : فان الحسين انما قصد الكوفة وهو واثق بنصرة اهلها وأخذ أطفاله ونساءه للسكنى بها ولعمري أن تفكير حسين بذلك ليكون دليلاً ثابتاً على ما كان يوصف به من سعة العقل وجودة الروية . ولنختم ترجمته بشيء من كلامه العذب .

قال ابن مترجمه : خطب حسين بن علي يوماً فقال :

" يا ايها الناس ! نافسوا في المكارم وسارعوا الى المغانم ولا تحتسبوا بمعروف لم تعجلوه واكتسبوا الحمد بالنجح ولا تكتسبوا بالمطل ذماً . واعلموا ان حوائج الناس اليكم من نعم الله عليكم فلا تملوا النعم . واعلموا ان المعروف يكسب حمداً

ويُكسب اجراً فلو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسر الناظر به ويفوق العالمين ولو رأيتم اللؤم رأيتموه سمجاً مشوّهاً تنفر منه القلوب وتغض دونه الابصار . ايها الناس : من جاد ساد . ومن بخل رذل . وان اجود الناس من اعطى من لا يرجوه . وان اعفى الناس من عفا عند قدرة . وان افضل الناس من وصل من قطعه . والاصول على مغارسها بفروعها تسمو . من احسن احسن الله اليه . والله يحب المحسنين . » . ومن كلامه : الحلم زينة والوفاء مروءة والعجلة سفه والسفه ضعف والغلو ورطة ومجالسة اهل الدناءة شر ومجالسة اهل الفسوق ريبة . .

زين العابدين بن الحسين

— ولد سنة ٣٨ — وتوفي سنة ٩٤ هـ —

ابو الحسن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب : رابع الائمة الاثني عشر عند الامامية وواحد من يضرب بهم المثل في الحلم والورع . ولد بالمدينة ونشأ بها فكان من اهل التقى وصلاحها وكان من العلم والكرم في جانب عظيم : فاما حلمه فله فيه حكايات عجيبة : خرج يوماً من المسجد فلقيه رجل فسبه وبالغ وافرط فبادر اليه العبيد والموالي ، فكفهم واقبل عليه وقال : ما ستر عنك من امرنا اكثر ! ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحى الرجل ونحى فامر له بخمسة آلاف درهم . ولقيه آخر فنال منه . فقال : يا هذا بيني وبين جهنم عقبة ان انا جزتها فما ابالي بما قلت وان لم اجزها فانا اكثر مما تقول ! ألك حاجة ؟ فخجل الرجل . واما ورعه وتقاه : قال ابن المسيب : ما رأيت اورع منه . وكان كثير الصلاة منهمكاً في العبادة فلقب زين العابدين . وقُرّب اليه الماء ليلة ليتوضأ فوضع يده في الاناء ليبدأ ثم رفع رأسه فنظر الى السماء والقمر والكواكب فجعل يتفكر في خلقها حتى اصبح واذن المؤذن ويده فيه

في الوناء لا يفتكر بها . واما الزهد فقال ابن عائشة : سمعت بعض اهل المدينة يقولون : ما فقدنا صدقة السر الا بعد موت علي بن حسين . وقال محمد بن اسحق : كان ناس من اهل المدينة يعيشون لا يدرون من اين معايشهم ومن يعطيهم فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به ليلاً الى منازلهم . ولما مات أحصي من كان يقوتهم فاذا هم نحو مئة بيت . وينقل كثير من المصنفين أن القصيدة التي مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

قيلت في مدح زين العابدين وأن قائلها الفرزدق ارتجلها ارتجالاً في البيت الحرام . ولها قصة معروفة في كتب الأخبار والقصيدة في طبقة عالية من الشعر ونسبها ابو تمام في اشعار الحماسة للحزين الليثي قال : وقيل انها للفرزدق . ومن كلام زين العابدين : كان اذا بلغه ان احداً ذكره بسوء يقول : اللهم ان كان صادقاً فاغفر لي وان كان كاذباً فاغفر له . وكان يقول : فقد الاحبة غربة . ومات في المدينة المنورة فدفن في البقيع .

الباقر بن زين العابدين

ولد سنة ٥٧ - وتوفي سنة ١١٧ هـ

الامام ابو جعفر محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين : رضي الله عنهم : هو خامس الائمة الاثني عشر . وكان ناسكاً عابداً وله في العلم وتفسير القرآن آراء واقوال : سأله العلماء ابن عمرو بن عبيد عن قوله تعالى : « اولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما » ما معنى هذا الرتق والفتق ؟ فقال ابو جعفر : كانت السماء رتقاً لا تنزل مطراً وكانت الارض رتقاً لا تخرج النبات ففتقناها بنزول المطر وخروج النبات . وهذا رأي حسن في تفسير الآية لموافقته درجة علم العرب في عصر نزول القرآن الكريم . ولم أنسب تعقيبه بالباقر فلم يذكروا

لا غيره وجه واحد نتمثل. وهو أن مشتق من مادة بَقَرَ قالوا: لأنه بقر العلم أي شقه فعرف أصله وخفيه. ومن كلامه: بئس الأخ أخ يرعاك غنياً ويقطعك فقيراً. وقال: ليس في الدنيا شيء أعون من الإحسان إلى الإخوان. وقال: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ذلك قلَّ أو كثر. وقال: سلاح اللئام قبيح الكلام. وقال: لموت عالم أحب إلى الشيطان من موت سبعين عابداً. وقال: شيعتنا من أطاع الله. وقال: اعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك. وتوفي بالمدينة ودفن بقبة العباس في البقيع «رضي الله عنه».

جعفر الصادق

— ولد سنة ٨٠ - وتوفي سنة ١٤٨ هـ —

أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين: عليهم رضوان الله: سادس الأئمة الاثني عشر، وكان من أجلاء التابعين وله منزلة في العلم معروفة وأخذ عنه جماعة من أئمة المسلمين كأبي حنيفة ومالك وابن جريج والسجستاني وأشهر من ينتسب إليه من القارئين علي جابر بن حيان الكيميائي العلامة المشهور. قال ابن خلكان: وألف جابر كتاباً يشتمل على ألف ورقة يتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة. ~~[illegible]~~. والشيعة تذكر أن لجعفر كتاباً يدعونه «الجفر» ذكر فيه كل ما يحتاجون إلى علمه إلى يوم القيامة. وهذا الوصف باطل. ولُقب جعفر «رضي الله عنه» بالصادق لأنه لم يُعرف بالكذب قط. ومن كلامه: لا يتم المعروف إلا بثلاث: تعجيله وتصغيره وستره. أربعة أشياء القليل منها كثير: النار والعداوة والفقر والمرض. صحبة عشرين يوماً قرابة. من لم يستحِ عند العيب ويرعوِ عند الشيب ويخش الله بظهر الغيب فلا خير فيه. إياكم وملاحاة الشعراء فإنهم يضنون بالمدح ويجودون بالهجاء. من أكرمك فأكرمه ومن استخف بك

بك فاكرم نفسك عنه . ودخل عليه بعض شيعته فرآه يوصي ولده موسى
بوصية حفظ منها قوله : « يا بني اقبل وصيتي واحفظ مقالتي فانك ان
حفظتها تعش سعيداً وتمت حميداً . يا بني انه من قنع بما قسم الله له استغنى
ومن مد عينيه الى ما في يد غيره مات فقيراً ومن لم يرض بما قسم الله له اتهم
ربه في قضائه ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره . يا بني
من سل سيف البغي قتل به ومن كشف حجاب غيره انكشف ستره . من
داخل السفهاء حقر ومن خالط العلماء وقر ومن دخل مداخل السوء
اتهم . يا بني قل الحق لك او عليك ، واياك والنميمة فانها تزرع
الشحناء في قلوب الرجال . يا بني اذا زرت فزر الاخيار ولا تزر الاشرار
فانهم صخرة لا يتفجر ماؤها وشجرة لا يخضر ورقها وارض لا يظهر عشبها »
وكان جريئاً قوي البديهة : يذكر أنه كان عند المنصور فوقعت ذبابة على
وجه المنصور فذبها فعادت حتى اضجرته فالتفت الى جعفر فقال له :
يا ابا عبد الله لمَ خلق الله الذباب ؟ قال : ليُذلّ به الجبابرة . فسكت
المنصور .. توفي صاحب الترجمة في المدينة ودفن في البقيع في قرابته .

موسى الكاظم

— ولد سنة ١٢٨ — وتوفي سنة ١٨٣ هـ —

الامام ابو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن الباقر : عليهم رضوان الله :
سابع الائمة . واحد سادات بني هاشم . ومن أعلام اهل البيت . ولد
بالابواء . وسكن المدينة المنورة وكان أعبد اهل زمانه
ومن كبار علمائهم واسخيائهم : حذا حذو جده زين العابدين في تفقد الفقراء
ليلاً والتأسي بهم وقيل فيه ما قيل بجده من انه كان يحمل النفقات الى منازل الفقراء

في المدينة فلا يعرفون من أين أتت حتى مات فانقطعت فعرفوه . وكانت له سيادة ورياسة معروفة فوشى به بعض اعدائه الى الرشيد العباسي وقالوا له : ان الاموال تحمل لموسى من جميع الجهات والزكاة والاخماس وانه قد اشترى ضيعة سماها اليسيرية بثلاثة آلاف دينار . وحج الرشيد في تلك السنة وفي نفسه شيء منه فبدأ بالمدينة فدخلها فاستقبله موسى بن جعفر في جماعة من الاشراف ثم خلا به الرشيد فقال له : انت الذي يبايعك الناس سرّاً ؟ قال : انا امام القلوب وانت امام الجسوم . ثم اتفق اجتماعهما عند القبر الشريف فقال الرشيد : سلام عليك يا ابن عمّ . وقال موسى : السلام عليك يا أبتِ . فلم يحتملها الرشيد فحمله الى البصرة وأمر واليها عيسى بن جعفر بن منصور أن يحبسه عنده . فحبسه سنة فكتب اليه الرشيد في سفك دمه واراحته منه فاستعفاه عيسى من ذلك ورجاه ان يكون قتله على غير يده . فحمله الى السندي بن شاهك في بغداد يأمره بسمّه وقتله . فجعل له سمّاً في طعام قدّمه اليه فاقام متوعكاً ثلاثة ايام ومات . ودفن في مقابر قريش بباب التبن في بغداد . ومن انشائه رسالة بعث بها الى الرشيد من سجنه يقول فيها : " انه لن ينقضي عني يوم من البلاء الا انقضى معه يوم عنك في الرخاء حتى نفضي جميعاً الى يوم ليس له انقضاء هنالك يخسر المبطلون . "
ولُقّب بالكاظم لحلمه وكظمه لغيظه . واخباره شهيرة .

عليّ الرضا

— ولد سنة ١٥٣ – وتوفي سنة ٢٠٣ هـ —

ابو الحسن عليّ الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق : ثامن الائمة عند الامامية : ومن اجلاء السادة اهل البيت وفضلائهم . يذكر اصحاب التواريخ والسير أن المأمون

المأمون العباسي عهد اليه بالخلافة من بعده وزوجه ابنته وضرب اسمه على الدينار والدرهم وغيّر من اجله الزي العباسي الذي هو السواد فاستعاض عنه بالاخضر لانه كان شعار اهل البيت فثار العباسيون من ذلك النبأ وقام اهل بغداد فخلعوا المأمون وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي فرحل اليهم المأمون بجيشه فاستخفى ابراهيم ثم استسلم فعفا عنه المأمون ومات عليّ الرضى في حياة المأمون فلم تتم له الخلافة وعاد الى السواد فاستألف القلوب ورضي الناس عنه . وكان السيد عليّ الرضى أسود اللون لان امه كانت سوداء . وولد بالمدينة . وكان موصوفا بطيب النفس وكرم الاخلاق والجود : حكى القرماني في تاريخه أنه دخل يوما الحمام فبينما هو في مكان منه اذ دخل عليه جندي فازاله عن موضعه وقال له: صُبّ على رأسي يا اسود ! فنهض عليّ واخذ يصب على رأس الجندي حتى دخل رجل عرفه فصاح : ويلك يا جندي هلكت ! أتستخدم ابن بنت رسول الله؟ فانقلب الجندي يقبل قدميه ويقول: هلا عصيتني اذ امرتك ؟ فقال: انها لمثوبة وما اردت أن اعصيك فيما أثاب عليه ! . ورآه ابو نواس ذات يوم وهو خارج من حضرة المأمون على بغلة فارهة، فدنا منه وسلم وقال: يا ابن رسول الله قلت فيك ابياتا احب أن تسمعها مني . قال: قل . فانشأ ابو نواس يقول:

مطهرون نقيات ثيابهم ... تجري الصلاة عليهم كلما ذكروا

من لم يكن علويا حين تنسبه ... فما له في قديم الدهر مفتخر

اولئك القوم اهل البيت عندهم ... علم الكتاب وما جاءت به السور

فقال: قد جئتنا بابيات ما سبقك اليها أحد . ما معك يا غلام ؟ قال: ثلاث مئة دينار . قال: ادفعها اليه . وبعد ان افترقا وصل عليّ الى المنزل

قال لعله يستقلها : يا عدوم سوءة الى البغلة .. وكان دعبل الخزاعي شاعر
اهل البيت وله في مدحهم وابيه مدائح كثيرة .. توفي رضي الله عنه بمدينة طوس
ودفنه المأمون بجانب قبر ابيه الرشيد . وفي سبائك الذهب ان وفاته
كانت سنة ٢٠٠ والصحيح ما ذكرته واعتمده ابن خلكان واكثر المؤرخين .
[illegible] لانهم جميعا على انه توفي في حياة المأمون المتوفى سنة ٢١٨ هـ

محمد الجواد

— ولد سنة ١٩٥ – وتوفي سنة ٢٢٠ هـ —

ابو جعفر محمد الجواد بن علي الرضى بن موسى الكاظم . وبقية النسب معروفة : وهو تاسع
الائمة : كان لبيد القد رفيع الذكر كأسلافه من أهل البيت ولد في المدينة
ثم انتقل مع والده الرضى الى بغداد ولما توفي ابوه كان صغيرا فاجتاز به
المأمون يوما فعرفه واخذه معه واحسن اليه وقربه وكان على صغر سنه
ذكي الفؤاد طلق اللسان تلوح عليه امارات النجابة فعني به المأمون وبالغ
في الاحسان اليه ثم اراد ان يزوجه بابنته ام الفضل فمنعه العباسيون من
ذلك خوفا من ان يعهد اليه كما عهد الى ابيه فاظهر المأمون ميله اليه وحبه لفضله
وعلمه على حداثة سنه فنازعوه باتصافه بصفة العلم واستصغروه فارسل
الى يحيى بن اكثم وامره ان يمتحنه فلما حضر أمر له بفرش حسن وجلس
عليه ثم سأله يحيى مسائل فاجاب عنها باحسن جواب وسر الخليفة
فقال : احسنت يا ابا جعفر ثم التفت الى ابن جعفر فقال : الحمد لله على ما من به علي
من السداد في الامر التوفيق في الرأي . واقبل على ابي جعفر فقال له : اني مزوجك
ابنتي ام الفضل وان رغمت لذلك انوف قوم ! فاخطب لنفسك فقد
رضيتك لنفسي وابنتي . فقال ابو جعفر : الحمد لله اقرارا بنعمته ولا اله الا الله
اخلاصا بوحدانيته وصلى الله على سيدنا محمد سيد بريته والاصفياء من عترته ..

بعدُ فقد كان من فضل الله على الأنام أن أغناهم بالحلال عن الحرام فقال تعالى:
«وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله
من فضله والله واسع عليم» ثم إن محمد بن علي بن موسى خطب إلى أمير المؤمنين
عبد الله المأمون ابنته أمّ الفضل وقد بذل لها من الصداق مهر جدته فاطمة بنت
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خمسمائة درهم جياد فهل زوجتني يا أمير المؤمنين
إياها على هذا الصداق؟ فقال المأمون: زوجتك ابنتي أمّ الفضل على
هذا الصداق المذكور. فقال أبو جعفر: قبلت نكاحها لنفسي على هذا
الصداق المذكور. ثم أمر المأمون بأنواع الطيب فتطيب الحاضرون وعني
بالحلواء فمدت موائدها وأكلوا وفرقت عليهم الجوائز وأفرجت
الأموال للفقراء والمساكين. وبعد ذلك تم الزواج. وأقام أبو جعفر
محمد عند المأمون معظّماً مكرّماً حتى عزم على التوجه بزوجته أم الفضل
إلى المدينة المنورة. [illegible] حتى مات المأمون وآلت الخلافة العباسية
إلى المعتصم فكتب إليه يستقدمه إلى بغداد ومعه زوجته فحضر وذلك
بسنة ٢٢٠ هـ ومرض فمات ببغداد شاباً صلوات الله عليه، ودفن في مقابر
قريش في قبر جده أبي الحسن موسى الكاظم وعادت امرأته أم الفضل إلى قصر المعتصم
وخلف ابنه [illegible] وبنتاً
ويقال إنه مات مسموماً كما يقال في أكثر الأئمة المذكورين. ومن كلامه:
ما عظمت نعمة الله على أحد إلا عظمت إليه حوائج الناس فمن لم يتحمل تلك المؤنة
عرّض تلك النعمة للزوال. أهل المعروف إلى اصطناعه أحوج من أهل الحاجة
إليه لأن لهم أجره وفخره وذكره فمهما اصطنع الرجل من معروف فإنما يبتدئ
فيه بنفسه. من أمّل إنساناً هابه، ومن جهل شيئاً عابه، والفرصة
خلسة. من كثر همه سقم جسمه. عنوان صحيفة المسلم حسن خلقه. من
استغنى بالله افتقر الناس إليه. الجمال في اللسان والكمال في العقل. العفاف

زينة الفقر؛ والشكر زينة البلاء؛ والتواضع زينة الحسب؛ والفصاحة زينة الكلام؛ وخفض الجناح زينة العلم! . العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به شركاء . العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم . - اخذه ابو العلاء فقال: اولو الفضل في اوطانهم غرباء تشذ وتنأى عنهم القرباءُ -. ومن كلام ابي جعفر: الصبر على المصيبة مصيبة على الشامت . لو سكت الجاهل ما اختلف الناس . الرأي مع الأناة . من وعظ اخاه سراً فقد زانه ومن وعظه علانية فقد شانه .

عليّ الهادي

- ولد سنة ٢١٢ - وتوفي سنة ٢٥٤ هـ -

ابو الحسن العسكريّ عليّ الهادي بنُ محمد الجواد بن عليّ الرضَى: عاشرُ الائمة الاثني عشر: كان معروفاً بالتقى والصلاح . ولد في المدينة المنورة وبها نشأ فلما بلغ سن الشباب واصبح في منزلة يُنظر بها اليه تواترت الوشايات به عند المتوكل العباسي الخليفة في بغداد فارسل اليه فاستقدمه من المدينة وأنزله في سر من رأى (سامرّاء) وكانت تسمى «مدينة العسكر» لان المعتصم لما بناها انتقل اليها بعسكره فنُسبت الى العسكر . ولذلك لُقِّب ابو الحسن عليّ المترجَم بالعسكري. فاقام بها . فسعى بعض اعدائه الى المتوكل واخبروه ان في منزل عليّ سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته واوهموه أنه يطلب الإمرة لنفسه فوجّه اليه عدداً من جنده الاتراك ليلاً فهجموا عليه وهو في منزله على الارض وعليه مدرّعة من شعر وعلى رأسه ملحفة من صوف وهو مستقبلُ القبلة يترنم بآيات من القرآن لا يفصل بينه وبين الارض فراش الا الرمال والحصى . فأخذوه الى المتوكل ووصفوا له حالته وكان المتوكل جالساً يشرب الشراب فأجلسه الى جانبه وعرض عليه الكأس فاعتذر بانه لم يذقها فعافاه منها ثم قال: أنشدني شعراً أستحسنه فقال: اني لقليل الرواية للشعر فقال:

قال: لا بد أن تنشدني. فأنشده:

باتوا على قُلل الأجبال تحرُسُهم غُلْبُ الرجال فما أغنتهم القُللُ

واستُنزلوا بعد عزٍّ عن معاقلهم فأُودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا

ناداهمُ صارخٌ من بعدما قبروا أين الأسرّة والتيجان والحللُ

أين الوجوه التي كانت منعّمة من دونها تُضرب الأستار والكللُ

فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم: تلك الوجوه عليها الدود يقتتلُ

قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا

فهاجت الأبيات في أشغاله المتوكل فبكى وأمر برفع الشراب ثم قال: يا أبا الحسن عليك دين؟ قال: نعم أربعة آلاف دينار فأمر بدفعها إليه وردّه إلى منزله مكرّماً.. أقول: هذه الأبيات التي أنشدها صاحب الترجمة نقلها بعضهم عن زمان متقدم وعلى مؤلف رابع الملوك أنها مترجمة عن كتابة بالحميرية قديمة قبل الإسلام كانت منقوشة على بعض قصور ملوكهم حمير، وعبارته: قال وهب بن منبه: أصبتُ في غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء في اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المسند مترجماً بالعربية وإذا هي هذه الأبيات. وفي الكنز المدفون جاءت الأبيات أكثر مما تقدم بزيادة الأبيات الآتية في أولها:

انظر لماذا ترى يا أيها الرجل وكن على حذرٍ من قبل تنتقلُ

وقدّم الزاد من خيرٍ تُسرّ به فكل ساكن دارٍ سوف يرتحلُ

وانظر إلى معشر باتوا على دعةٍ فأصبحوا في الثرى رهناً بما عملوا

بنوا فلم ينفع البنيانُ وادّخروا مالاً فلم يُغنهم لما انقضى الأجلُ

باتوا على قلل الأجبال ... الخ .. قال: ووجد مكتوباً على

وقد رثاه ايضا بهذه الابيات :

من كان لا يطأ التراب برجله ... وطئ التراب بصفحة الخد
من كان بينك في التراب وبينه ... شبران كان بغاية البعد
لو بعثر الناس القبور ورأوهم ... لم يعرفوا المولى من العبد !

وتوفي الامام علي الهادي عليه الرحمة والرضى بمدينة سامراء ودفن في بيته وخلّف ثلاثة ابناء وابنة .

الحسن الخالص

ولد سنة ٢٣٢ — وتوفي سنة ٢٦٠ هـ

ابو محمد الحسن الخالص بن علي الهادي بن محمد الجواد : حادي عشر الائمة عند الطائفة الامامية ولد في المدينة المنورة وانتقل مع ابيه الهادي الى سامراء (او سر من رأى او سُرّ من را او مدينة العسكر = كلها اسماء لبلدة واحدة في العراق) وولي الامامة بعد وفاة ابيه وكان على سنة سلفه الصالح في التقى والنسك والعبادة يجله الناس ويكرمونه . قال صاحب الفصول المهمة : لما ذاع خبر وفاة الحسن ارتجت سر من رأى وقامت صيحة واحدة وعطلت الاسواق وغلقت الدكاكين وركب بنو هاشم والقواد والكتاب والقضاة والمعدلون وسائر الناس الى جنازته وصلى عليه ابو عيسى ابن المتوكل بامر الخليفة ودفن في البيت الذي دفن فيه ابوه . واصحاب القصص والاخبار ينقلون عنه وعمن تقدمه من اهل البيت رضوان الله عليهم " كرامات وحكايات كثيرة اضربت عن ذكرها لاني لا اقول بها ولا سيما وجلها معدود بالاوهام التي لا يتحصل منها للقارئ ما يفيده واما التاريخ فأضن به صدرا من أن يتسع لاشباه الاخبار والاقاصيص وهو انما يكرم الرجال الذين شرفوا باعمالهم وسموا بانفسهم وما احرى اولئك بالاجلال والاعظام اذا هم جمعوا بين التالد والطارف والنسب والمكتسب ذلكم خيرة الخلق وصفوة البشر .

محمد المهدي

ولد سنة ٢٥٥ هـ و... سنة ٢٦٥ م

ابو القاسم محمد المهدي بن الحسن العسكري بن علي الهادي: آخر الأئمة الاثني عشر فيما تعتقده الامامية. وهو المعروف عندهم بالمهدي وصاحب الزمان والمنتظر والحجة. والذي يحققه المؤرخون الثقات انه ولد بسامراء ومات ابوه وعمره خمس سنين ولما بلغ التاسعة او العاشرة فُقد فلم يُعرف له أثر. هذا ما عُرف من خبره. اما الشيعة فيرون انه دخل سرداباً كان في دار أبيه ثم لم يخرج منه. وهم ينتظرون خروجه ويأتون بالادلة الثابتة عندهم على أنه حيٌّ يُرزق وأنه سيعود الى هذا الوجود فيملأ الارض رحمةً وعدلاً وسلاما. وهناك اقوال وآراء لا يدخل ايرادها والمناقشة في بحث هذا الكتاب وحسبي منها الاشارة اليها. وأمر خروج المهدي المنتظر لا خلاف فيه عند الشيعة ولكن بعضهم يرى انه غير صاحب هذه الترجمة ويؤكد انه محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب والقول الاول هو الشائع الذائع عندهم. قال ابن بطوطة الرحالة في حديث رحلته ما لفظه: ثم وصلنا الى مدينة الحلة وهي مستطيلة مع الفرات وأهلها كلهم امامية اثنا عشرية وبها مسجد على بابه ستر حرير يقولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل هذا المسجد وغاب فيه وهو عندهم الامام المهدي المنتظر فيهم كل يوم يلبس آلة الحرب مئة منهم ويأتون باب المسجد ومعهم دابة مسرجة مُلجمة ومعهم الطبول والبوقات ويقولون: أُخرج يا صاحب الزمان فقد كثر الظلم والفساد وهذا أوان خروجك ليفرق الله بك بين الحق والباطل، ويقفون الى الليل ثم يعودون، كذلك دأبهم ابداً. واما اهل السنة فاكثرهم على اعتقاد ظهور رجل من نسل النبي صلى الله عليه وسلم تصلح به الارض بعد فسادها، وكثرهم بعد اكمادها وفيهم من يأخذ بالحديث الشريف: لا يزداد

الامر إلا شدة ولا الدنيا الا إدبارا ولا الناس الا شحًّا ولا تقوم الساعة
الا على شرار الناس ولا مهدي الا عيسى بن مريم". وفيهم من يتكلم في هذا الحديث
وهذا بحث يطول فاطلبه ان شئت فيما أُلف له خاصة من الاسفار والتصانيف
او في المصنفات الكبيرة مما له علاقة بأمر المهدي وظهوره ومن هو. وتأمل
فيمن ظهر في الاسلام حتى اليوم يدّعي انه ذلك الرجل المُصلح الالهي وما أحوجنا
معاشر المسلمين الا ونبينا الاعظم صلوات الله عليه قد أغلق الله به باب
النبوة وكفى الناس ظهور نبي جديد في كل جيل وقبيل فأبينا نحن الا أن
نوجد تلك الشنشنة حية خالدة لكنا حرّفنا الاسم وبدّلنا مادّة
النبوة بمادة الهدى فكان القائم لاصلاح البشر قبل خاتم الانبياء يدعوه
الناس نبياً ورسولاً فجئنا نحن [illegible] ندعوه مَهديًّا ومنتظراً. اقلوه [illegible]
ابناءَ القرون الاولى والاجيال الخالية قيام كذبة دجالين تسربلوا رداء النبوة
وظهروا بمظهر الرُّسل فأسكت الله تلك النأمة بآخر أنبيائه. وشهدنا نحن
السبيل لم نخالف ذلك النحو وانتهج ذاك النهج فأوجدنا له سربالاً من سرابيل الدعوة
الى الله والهداية اليه فعادوا يعاودون الكرة ويبرزون في هذه الاجيال المرة بعد
المرة. ذلك بما جنت ايدينا واقترفت انفسنا فلا حول ولا قوة الا بالله من شعبه
خليقته الا طريقته، وملازم كل قلب ما يشتغل به عما سواه.

كتاب الملوك والأمراء

- بيان -

امضينا الكلام في المطلب الاول من مطالب الكتاب على ما يتعلق بالنسب النبوي الطاهر والسادة من اهل البيت الكرام . وها أنا ذا أفتتح الباب الثاني منه وفيه الكلام على الملوك والامراء والخلفاء والوزراء جاهليتهم واسلاميتهم متقدميهم ومتأخريهم ورتبته على فصول اربعة : الاول في ملوك الجاهليين كحمير وسيف وتبع وجذيمة ، وامرائهم كقيس بن زهير وزهير بن جناب . والثاني في الخلفاء الراشدين الاربعة واولهم ابو بكر . والثالث : في صدور الخلفاء واعيان الملوك بعد الجاهلية وفيه أشهر ملوك بني امية ومروان وآل عباس وغيرهم . والرابع : وهو فصل الامراء والوزراء في الاسلام كالبرامكة ونظرائهم وانما انا متنوع اولئك الرجال الذين بنوا مجدهم بسواعدهم وقلوبهم غير المتكلين على آبائهم وجدودهم . وهذا الباب من اجل ابواب الكتاب لاشتماله على اخبار الجاهليين في باديتهم والاسلاميين في حاضرتهم وترى فيه نبذاً كثيرة عن المدنية العباسية في العراق والحضارة الاموية في الاندلس مما يعرف في فضول تراجم اصحابها والله الموفق للخير والمرشد للصواب .

ملوك الجاهلية وأمراؤها

(كلمة تمهيدية)

جاهلية العرب لم تزل أمراً غامضاً مستور الحقيقة في مدتها وأسماء ملوكها وأخبار قبائلها وأعمار رجالها ولاسيما ما سلف منها وإنما اندفع مؤرخونا المتقدمون بسائق حب الاطلاع فبحثوا ونقّبوا فيها وصحت اليه يدهم من أسباب على مدوليه والآخرين ولكن كان جلّ ما أتوا به من الأرقام التاريخية تكهناً وتقديراً ورمياً في الغيب ولقد تعذّر علينا أن نضع صنيعهم فلم تكن نتيجة بحثنا غير العلم بأنهم يحققون ما لا يتحققون ويدّعون علم ما لا يعلمون وأعظم ما استندوا اليه في أبحاثهم وعولوا عليه في ارقامهم أمران: الأول علم الأنساب في الجاهلية: يسلسلون الرجل حتى يبلغوا به أبا البشر آدم (عم) على ما يعترضهم من العقبات وما يضطرون الى سلوكه من وعر المسالك وفي هذا ما فيه من التصدي لما لا يدرك وحسبنا إسناداً في الوقوف عن الأخذ بأقوالهم ما صرّح به النبي القرشي صلى الله عليه وسلم من ريبة حول النسابين والإخباريين والشعراء ودهاة الحجاز واليمن من كراهية الإغراق في نسبة نفسه الى ما يتجاوز عدنان وقوله عند بلوغه وإرادة اجتيازه: كذب النسابون! . فبمثل هذا تسقط عندنا دعوى الوثوق بعلم الأنساب في الجاهلية الأولى؛ أي ما وراء عدنان؛ وفي ذلك اكتفينا .. وأما الأمر الثاني الذي عوّل عليه مؤرخونا بعد الأنساب فهو التوراة في أنبائها عن بدء الخليقة وأزمان آدم ونوح وغيرهما [illegible] (1) وقد أظهرت الاكتشافات الجيولوجية وتنقيب علماء العاديات والآثار ما خالف كثيراً من أخبار التوراة وأرقامها وأبانها .

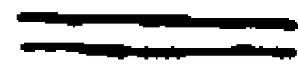
---

(1) انظر سفر التكوين .

والتوراة انما هو كتاب دين يوضح قدرة الله في خلق الأكوان وشرع شريعة موسى التي سنها الله له لا كتاب تاريخ وعلم يبحث عن الحقائق الطبيعية(1) والعلمية فان كثيراً ما تدخله الشبهة في مباحثه في الطبيعة والتاريخ(2) ولا يهولنك دفاع علماء اللاهوت عما جاء به والتماسهم له الوجوه البعيدة: فالكتب السماوية وفي مقدمتها القرآن الكريم: اذا تعرضت للبحث الغامض في التاريخ او العلم الطبيعي توجز فيه ولا تزيده بياناً عما يعلمه اهل زمن العصر المرسل اليهم ذلك الكتاب .

فاذا سقطت هاتان الدعويان: دعوى الانساب ودعوى الوثوق بالتوراة. تبقى ما يقال من حكم على الزمن الذي حكم فيه الحموربيون مملكةَ بابل والرافدين؛ والذي كانت فيه قبائل طسم وجديس وعاد وثمود وذوات الذكر والشأن ؛ ووراءهما الشك في عصر القحطانيين حكام البلاد اليمانية والجرهميين وأضرابهم. ومن اخترنا تَرْكَ ارادة التحقيق في ذلك حتى تنبثّ ايدي الباحثين في اطراف العراق واليمن والحجاز بعناية قوية وخبرة في العلم كبيرة. فاذا بدت لهم الآثار وانكشفت الاستار زالت الاوهام وقام البحث والقطع في الحكم مقام الوهم والتكهن والتقدير.

ولما كان هذا المصنَّف مرتباً على السنين في اكثر ابوابه وفصوله اضطررت الى ان اتابع فيه الأقرب الى الحق واليقين مما ذهبت اليه جماعة المؤرخين بينما يظهر ما يثبته او يُفنّده له من عاديات الآثار وربك يفعل ما يشاء ويختار .



(1) و(2) انظر تفسير الكتاب المقدس المطبوع في مطبعة الاميركان ج ص ٢٢١ و ٢٢٤ .

حمورابي

— كان في نحو سنة ٢٢٠٠ قبل الهجرة —

ما زالت شريعة حمورابي ومؤسسها موضع عناية الباحثين وتنقيب المنقبين حتى تضاربت بها الأقوال واختلفت الأنظار آثار رجال الرجال. والذي اتضح لهم بعد البحث أن مقر ممالك الدولة الحمورابية كان في القطر العراقي وأن عاصمتها مدينة بابل: وأنهم عثروا على ما وجدوه من آثار في المائلة للباحث في أنحاء النهرين حيث ظهرت الأقاصر من ابتدائية صغيرة (في مدينة نيبار) يرجع عهدها إلى ما يقارب ثمانية آلاف سنة قبل الهجرة. وعثروا عجائب على كثير من الآجر المشوي والأحجار المنبسطة منقوشاً عليها نصوص تاريخية وصلوات وعقود وسائر ... دينية كتبت بالحروف المسمارية مما استدل منه العلماء الجيولوجيون على أن عهد الدولة يرجع تاريخها إلى نحو القرن الثالث والثلاثين قبل الهجرة وهو رأي القائلين بأن حمورابي ... من معاصراً لابراهيم الخليل وأنه هو المذكور في سفر التكوين من التوراة باسم امرافل موحد المملكة البابلية. (قاله الأب شيو الدومنيكي) وحبذ هذا الرأي العلامة الأب أنستاس الكرملي قال في لغة العرب: إن الرأي القائل بأن حمورابي وامرافل اسمان لمسمى واحد قريب الاحتمال لولا اختلاف معناهما. وامرافل لفظة سنسكريتية من امرابالا Amarapala ومعناها حامي المخلدين. وحمورابي آرامية تفيد ما يقارب هذا المعنى وهو رب الأرباب.

ودولة حمورابي وإن جزم بعض فضلاء المؤرخين (كصاحب العرب قبل الإسلام) وسموها بالعربية الأصل واللسان فإن جل علماء الآثار والعاديات ما برحوا في شك من ذلك: فمنهم من يقول: إن حمورابي عربي الدولة. ومنهم القائل بأن الأسرة المالكة إنها لم تكن عربية ... يتكلمون باللسان العربية المتداولة في

في تقدم العصور . هي تختلف عما سواها من عرب اليوم وأشبه أمة الآشوريين فإن نينوى وما جاورها ، كانوا معاصريهم ومجاوريهم ويتفقون معهم في كثير من أزيائهم وعاداتهم وطراز بنائهم . والحموربيون إذا أثبتت عروبتهم بالكشف المنقبون من آثارهم يكونون أول دولة عربية عرفت بالحضارة في البشر ووصف حضارتها ومدنيتها بما افصحت عنه الاطلال الباقية منها . وفي الوقت قبل أعوام ان بعض الباحثين ظفر في حدود السوس ؟ (شوش او الاهواز) بمسلة(١) من الحجر الأسود الصلب قد نقشت عليها شريعة حمورابي مؤلفة من ٢٨١ مادة تبحث في طبقات الأمة وحقوق المرأة وواجباتها والزواج والارث . وعثر أيضاً على كتابات تدل على معرفتهم بفنون الزراعة والطب . وبالجملة فإن الأمة الحمورابية وإن ظلمها التاريخ باغفال ذكرها وإهمال أمرها فستظهرها آثارها الخالدة وتفصح عنها بناياتها وآثارها حتى تكون في عداد الدول القديمة المعروفة ذات المكانة الرفيعة والمنزلة السامقة والمجد والإعظام .

قحطان

- توفي في حدود سنة ٥٩٩٥ قبل الهجرة - (هذا تاريخ مضبوط)

سبقت الاشارة إلى صاحب هذه الترجمة في الكلام على عدنان وقلنا بأن الجيل الثاني من أجيال العرب الثلاثة وهو المسمى بالعرب المتعربة يبتدئ بقحطان وأنه وابنه يعرب أخذا العربية عمن تقدمهما من قبائل العرب العاربة . وقحطان هو : ابن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح . وذلك ما يذهب إليه علماء الأنساب ويقدمونه على ما عداه . واسم قحطان في التوراة يقطان . وأبوه عابر هو نبي من هود (عم) . وكانت إقامة ابن هود في حضرموت . [illegible] قومه

(١) المسلة في اصطلاح الأثريين اليوم : أعمدة طويلة مربعة محددة الرأس . ولهذه التسمية شيوعها عند العامة من المصريين في اطلاقهم على بعض الأعمدة القديمة اسم مسلة فرعون . قال ياقوت في المعجم في البحث عن عين شمس : وكانت مدينة كبيرة .. وبها آثار قديمة وعواميد تسميها العامة مسال فرعون سود طوال جداً تشبه ... ...

وجودهم وبها توفي ودفن قبره. واما ابنه قحطان: فمولده ومنشأه الاول في
حضرموت. ثم انتقل بجماعة من قبيلته واهله الى مدينة صنعاء وكانت اذ ذاك
خالية فابتنى بها واقتدى به من جاء معه فعمروها وصيروها مدينة تذكر
آثارها لعدة من الوف من السنين. وكثرت جماعة المنتقلين الى صنعاء
لما وجدوا بها من خصب وطيب الهواء فنادوا بقحطان اميرا عليهم (ملكا)
وكان لما قدمنا من اعيان قومه وابوه من ذوات الشأن الرفيع [redacted] بوجاهته
بينهم وشوكته فيهم. وكان حسن قحطان السياسة فاحبوه واكرموه. ورأى
نفسه في قوة وسلطان فجيش جيشا وزحف به الى العراق. وكان قد بلغه ان شداد
ابن عاد (احد امراء العرب العاربة) جار العراقيين واستولى في نحو سنة ٩٢٧ ق م
على مدينة بابل قاعدة مملكة الكلدانيين والحموربيين. ولما كانت سنة [redacted] ق م
ونشأ في ايام قحطان. وثب الملك الاشوري بعلوس على من كان فيها من العرب
فطردهم وجعلها عاصمة لمملكة الاشورية. فزحف اليه قحطان بما اجتمع لديه
من المقاتلة ونشبت بين الفريقين حرب هائلة طالت ايامها ومات في اثنائها
قحطان سنة [redacted] ق م. ثم ان ابنه يعرب عقد الصلح مع بعلوس وعاد الى
صنعاء متوجا بتاج ابيه. اما قحطان فيقال انه اول من لبس التاج
ولعله لما قدم العراق ورأى حضارة بابل ونينوى في ذلك العهد قلد ملوكهم
بلبس التاج فكان اول [redacted] من لبس من ملوك اليمن وجزيرة العرب. وهو
وهو وابنه يعرب اول من نطق باللغة العربية وكانت لغتهم اللغة الكلدانية وهي
لسان اهل العراق الاصليين. واستبعد ابن خلدون ما ينقله المؤرخون
من ان قحطان اول من تكلم بالعربية وانه اتى بها مخترعا من ذات نفسه؛ فقال:
وقحطان تعلم العربية [redacted] ممن ادركه من العرب العاربة (البائدة). وولد
لقحطان ثلاثة عشر ولدا وانتشر نسله حتى امتلأت به البلاد اليمنية لعدة من سنين
وانما

وانشعبت القبائل والبطون القحطانية من صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. فكانت منه بطون حمير وبطون كهلان وانتشرت ابناؤهم في الشام والحجاز والعراق واليمن. ومن نسله التبابعة ملوك اليمن، واللخميون ملوك الحيرة، والغساسنة ملوك الشام. وفيه يقول الشاعر:

فما مثل قحطان في السماحة والندى ولا كابنه في الفصاحة يعرب

يعرُب

مات في نحو سنة ٠٧٥٦ قبل الهجرة (هذا منا ربح مفرط) يصحح //

يعرب بن قحطان بن عابر: احد ملوك العرب وحكمائهم وخطبائهم ومن ذوي البسالة والإقدام فيهم. ولي امارة صنعاء بعد موت ابيه. واشتد ساعده. ولما رجع بعد عودته من قتال ابو شور ربيه في العراق وبابل. فاقام في مقر امارته حينا يعدّ عدده ويُبني عدده. ورأى قوم عاد (الثانية) قد طغوا في اليمن فخاف زحفهم عليه. فجمع جموعه وابتدأهم فحاربهم فحالفه الترفيه والظفر فاستملك البلاد اليمانية. وصفا له الملك له. ثم حارب العمالقة وكانوا في الحجاز فغلبهم على ارضهم. وولى اخوته اعماله: فجعل جرهما على الحجاز وعاد بن قحطان على الشحر وحضرموت بن قحطان على جبال الشحر وعمان بن قحطان على بلاد عمان. ويعرب هذا اول من حيا الملوك بتحية الملك: أنعم صباحا! و: أبيت اللعن! . وهو وابيه اللذان نشرا لغة العرب في البلاد والممالك، وذلك بعد تفرق الألسن وتبلبلها واختلاف الناس في اساليب التعبير عن ضمائرهم ... حتى يقول حسان بن ثابت الانصاري:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب ... أبينا فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديما ما لكم غير عجمة ... كلام وكنتم كالبهائم في القفر

ويزعم اصحاب الاخبار أن يعرب لما حضرته الوفاة جمع بنيه واوصاهم بقوله:

«أي بنيّ! تعلّموا العلم واعملوا به. واتركوا الحسد فإنه داعية القطيعة بينكم. وتجنّبوا الشر والحقد: فإنما الشر لا يجلب عليكم إلا الشر. وأنصفوا الناس من أنفسكم: فإنهم ينصفونكم من أنفسهم. واجتنبوا الكبرياء: فإنها تبعد قلوب الرجال منكم. وعليكم بالتواضع: فإنه يقرّبكم من الناس ويحبّبكم إليهم. وإذا استشاركم مستشير فأشيروا عليه بما تشيرون به على أنفسكم بمثل ما استشاركم فيه: فإنها أمانة قد ألقاها [redacted] في أعناقكم..»

وعمّر بعد أبيه ثمانين وثلاثمائة سنة. ومات في صنعاء.

سَبَأ

مات نحو سنة ٢٥٠٠ قبل الهجرة

عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان: أحد كبار ملوك اليمن وطغاتها بالذكر كان في تاريخ تلك الأصقاع. ملك صنعاء وما جاورها من [redacted] الديار التي أخضعها يعرب بن قحطان كما قدمنا في ترجمته. وكان موصوفاً بالشجاعة وعلوّ الهمة وحب الغزو: فإنه طمح ببصره إلى القبائل البعيدة عنه فقصدها وحاربها وأكثر السبي منها فلما عاد إلى صنعاء أكبرت قبيلته أمره وأعظمت شأنه وكانت عادة السبي غير مألوفة قبله عبد شمس. قال أصحاب التواريخ: ولذلك لُقّب بسبأ.. ولا يخفى عندي هذا التوجيه. وكان مولعاً بالعمران وإقامة الأبنية الفخمة: فابتنى مدينة مأرب: وهي مدينة المدن التي ما زالت آثارها شاخصة إلى هذا الحين وقد عثر بعض علماء الآثار واللاهوتيين بالبحث والتنقيب من فضلاء الغرب على كثير من الكتابات منقوشة على الحجارة باللسان الحميري استدلوا منها على اسم المدينة [redacted] و. أما بعض الأنقاض الآخذة بالاندثار فعرفوا

منها

منها صدر المدينة [redacted] باليمن . الى سور له بابان احدهما شرقي، والآخر
غربي ... هيكل ... الأطلال هيكل
سبأ . وبنى بها السد المعروف بسد مأرب . قال المسعودي: ومات
سبأ قبل أن يتمه فأتمته ملوك حمير بعده . وفي المؤرخين من ينسب له
بناء مدينة عين شمس في اقليم مصر التي تعرف اليوم باسم مصر الجديدة ، وما أحسبها
الا من بناء الفراعنة لما نعلم من صحة كلام ياقوت الحموي عنها . وكان موصوفاً
بقوة العارضة حتى قال واصفوه: هو أول من خطب في الجاهلية مع البلاغة.
يريدون انه اول خطيب جاهلي قام في مجتمع الناس فخاطبهم وأنذرهم
أو وعظهم أو شجعهم ولم يكن ذلك معروفاً عند من تقدمه من ملوك
القبائل وأمرائها . وكان ملكه بعد موت ابيه ... سنة . وأعقب
نسلاً كثيراً : قال النسابة الكلبي : وُلد لسبأ : حمير وكهلان وصيفي
وبشر ونصر وأفلح وزيدان والعود ورهم وعبدان ونعمان وشجب
وشداد وربيعة ومحمد وزيد . فيقال لبني سبأ كلهم السبئيون
الا حميراً وكهلان : فان القبائل قد تفرقت منهما : فاذا سألت الرجل:
من انت؟ فقال: سبئي . فليس بحميري ولا كهلاني . اهـ . وفي
كثرة غزواته وفتوحه يقول الشاعر :

لقد ملك الآفاق من مشارقها ... الى غربها ...
... الى بابل في مقنب بعد مقنب

قال صاحب «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب»: ... ان سبأ أغار على
... (؟) بالخيل ... واخذ اتاواتها وضرب بالخيل والرجال في
البلدان فكانه لا يذكر له بعد الا ... وفتحه . وهو اول من ...
اخذ اتاواتها ..

حِمْيَر

مات نحو سنة ٢٠٤٠ قبل الهجرة

الحِمْيَريون: ملوك عظام كانت منازلهم في اليمن ودام لهم الملك زمنا طويلا. وهم ينتسبون الى صاحب هذه الترجمة: حِمْيَر بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وكان ملكاً شجاعاً مظفَّراً. حَكَمَ بعد موت ابيه سبأ. ولم تزل عاصمة ملكه صنعاء. وغزا وافتتح حاذياً حذو آبائه في توسيع دائرة ملكهم حتى قيل ان غُزاته بلغوا الصين. وحمير: لقبٌ غلب عليه لاختياره الثياب الحمر وكثرة لبسه لها واسمه العَرَنْجَجُ: وهو مشتقٌّ من قولهم: اعرنججَ في الامر: اذا جدَّ فيه. واتخذ من الذهب الوهاج تاجا فكان اول من تتوج بالذهب. وله وقائع مشهورة منها أنه قاتلَ قبائل ثمود وكانوا مُقيمين في اليمن فغزاهم فارتحلت الى الحجاز. والدولة الحميرية ذات ذكر وشأن في تاريخ جاهلية العرب. واصحاب الاخبار لا يتفقون لونه في مدتها على رأي ولكنهم يتلقفون اضطرارا عما جاءهم في مثلها فلا غرابة فيه. وضعفت في منتهى امرها كشأن غيرها من الدول الكبيرة، فأُسست على انقاضها دولة حبشية: أسسها ارياط الحبشي الذي اغار بجيش كبير من ابناء جلدته على آخر الملوك الحميريين ذي نواس، وهو احد الملوك اليمانيين المعروفين بالاذواء (1) فقاتله وامتلك اليمن سنة ٨٥ ق ه. فدام لارياط الملك وتوارثه عنه بعض ابنائه. والعرب اليمانيون يتحفزون الى الوثوب بهم ولكنهم لا يستطيعون لاستئثار الحبشة بالقوة دونهم. حتى نهض فيهم شابٌّ كان من سلالة الاذواء الحميريين واسمه: سيف بن ذي يزن فانجدهم الوهباس بجيش اتى به من الفرس؛ على نحو ما سيأتي مفصَّلا في ترجمة سيف المذكور، فاعاد الملك الى أهله واستقلَّ به سنة ٧٢ ق ه. وللحميريين

(1) جمع ذو، وهم ملوك اليمن الحميريون المبدوءة اسماؤهم بذو: منهم: لغةً
ذو يزن و ذو غمدان وذو جدن و ذو سليمن وغيرهم.

انه انفردت بها قبائل اليمن تختلف عن العربية الحجازية بفروق كثيرة في تراكيبها وكلماتها وان الفاظاً لا يعرفها غير اليمانيين: فما اختصوا به من الالفاظ: المباحلة(؟) ، والاقيال، والارواع، والمثابيب، و[illegible](1)، وغير ذلك مما ورد في بعض رسائل النبي صلى الله عليه وسلم التي بعث بها اليهم وكان يخاطب كل قبيلة بلهجتها ولغتها. ورسائله محفوظة في اكثر كتب الادب والتاريخ. ومما خالفوا فيه غيرهم من قبائل العرب: الوثوب: يعنون به القعود. وابدال لام التعريف بالميم: يقولون: طاب امهواء، وجاء امشتاء، وصفا امجو؛ يريدون الهواء، والشتاء، والجو. ويحفظ عن رسول الله ص. ان جماعة من الحميريين سألوه عن الصيام في السفر فاجابهم بلغتهم: «ليس من امبر امصيام في امسفر» يعني: ليس من البر الصيام في السفر. والعامة في مصر والشام اليوم يقولون امبارح، اذا ارادوا البارح». ومنها: الوتم وهو ابدال السين تاء، يقولون: ألنات بالنات. يعنون: الناس بالناس. والشنشنة: وهي ابدال الكاف شيناً: سمع أحدهم في عرفة يقول: لبيش اللهم لبيش. اي: لبيك اللهم لبيك. وهذه شائعة اليوم في كثير من القرى والبوادي (ويبدلونها احياناً في حضرموت وشبه جزيرة العرب (أي الفصحى) ويبدلونها (بالجيم)). ويقفون على الهاء بالتاء: يقولون: عربيتْ، ولغويتْ، ونجديتْ. وهم يريدون: عربية، ولغوية. وهذه ايضاً شائعة اليوم في المدارس المسيحية خاصة في بلاد الشام. والبحث في هذا الامر يطول. وعلماء العربية لا يعتبرون كلامهم في لغة لما التزموه في الهنود (المزهر: للسيوطي). وعلماء الآثار اليوم يرون بوناً بعيداً بينها وبين العربية الحجازية، ولا سيما فيما عثروا عليه من كلامهم، حتى شك بعضهم في انها فرع من العربية وعدها لغة قائمة بنفسها. قال البستاني في دائرة المعارف (ج ٧ ص ٤٤): وذهب بعضهم الى أن الحميرية تختلف جداً

(1) المباحلة في لغتهم: الذين استقروا ملكهم. والاقيال: جمع قيل وهو دون الملك الاعلى. والاذواء: جمع ذو (صاحب لقب). والارواع: السادات. والمثابيب: [illegible]

عن العربية حتى أنه لم يكن جمعهما معاً . وأول من بيّن لأوروبا وجود الكتابة
الحميرية في المقاطعات الجنوبية من بلاد العرب هو العالم نيبور ووصف بسنة
١١٩٠ هـ (١٧٧٤ م) ثم كُشفت عدة كتابات وآثار في ظفار
وصنعاء والخريبة ومأرب وحرم بلقيس وحضرموت . وفي المتحف
الانكليزي بلوندره نموذج منها منقول عن ألواح نحاسية باللغة الحميرية وُجدت
في حضرموت، وجوهرتان عليهما كتابة حميرية جيء بهما من بابل . واكتشف
الباحثان بليطير وكوغلون عدة ألواح برنزية عثرا عليها في القرب
من صنعاء والعدي بأهال المرصد . قال البستاني : ووُجد حديثاً كتابات
كثيرة حتى صارت تعد بالمئات . والأحرف الحميرية اكتشفها سير جون
كلدور في أبين (جهة في شمال الشرقي من عدن) منقوشة على قطعة من برونز .
والكتابة الحميرية تختلف عن غيرها من لغات القبائل العربية اختلافاً واضحاً
وخطها يعرف بالمُسْنَد وهو قريب في صورته من الخط السرياني والحبشي . ونقل
صاحب المطالع النصرية عن ابن خلدون قوله : والحميرية [illegible] خط أصل اسمه قوم
هود وهم عاد الأولى وكانت كتابتهم تسمى المسند الحميري وكانت حروفها
منفصلة وكانوا يمنعون العامة من تعلمها فلا [illegible] يتعاطاها أحد
إلا بإذنهم [illegible] اهـ .

وعاش حمير خمسين سنة في ملكه بعد أبيه وولد له خمسة أولاد : مالك،
وعامر، وعمرو، وسعد، ووائلة . كذا في المعارف لابن قتيبة . ومن بطون
حمير على ما ذكره القلقشندي في كتاب الأنساب : السكاسك، والشعبيون،
وبنو الريان، وقضاعة، وبطون قضاعة، وبنو عبد شمس؛ ومن ملوك
حمير : التبابعة، والأذواء، والأقيال . وعلى ما في تاريخهم وأخبارهم من
الغموض تجد في كتب التاريخ الكبيرة كتاريخ ابن خلدون وأشباهه كلاماً كثيراً
عنهم وفيه ما تؤيده الآثار المكتشفة في عصرنا هذا .

تبع

تُبَّع

ـ مات في نحو سنة ٤٥٠ ق م ـ

الملك الأكبر من ملوك الدولة الحميرية الثانية في جنوب اليمن كان يلقب بتبّع. كما كان الفرس يدعون كل ملك منهم كسرى (معرب خُسْرَوْ الفارسية). والروم قيصر (معرب: Cesar). والترك خاقان. والحبشة النجاشي (معرب انكاش، في الحبشية، وهي بالكاف المشمّة بالجيم كما في مصر). واشتهر تبع هذا بأن ورد ذكره وذكر قومه كثيراً في الأخبار الإسلامية ووصف بأنه ذو الفتوح والشأن. واسمه حسان بن ~~تبع~~ وأبوه تبع أسعد أبو كرب الحميري (قاله أبو الفداء). كان من أعاظم ملوك حمير ولعله أكثرهم غارات وأعظمهم كتائب. قال الإمام ابن عساكر في تاريخ الشام: سار تبع بجيش عرمرم حتى انتهى إلى سمرقند يغزو ويفتتح. وكلما دخل مدينة أو قرية كبيرة اختار من حكمائها وذوي العقول الراجحة من أبنائها عدداً لا يقل عن العشرة فاستصحبهم معه. ثم انصرف فأخذ طريق الشام فانتهى إلى دمشق واعتنق منها أحباراً من اليهود جعلهم فيمن سيّر معه من حكمائه وكرّ راجعاً نحو اليمن والذين بين يديه من الأحبار والكهنة والحكماء ما يناهز أربعة آلاف رجل. وبينما هو يلجج سائراً إلى اليمن كان الأحبار يحدثونه عن أديانهم والكتب السماوية حتى استمالوه إليهم. ولما قرب من مكة شاع في الناس أنه يريد هدم الكعبة فذهب إليه الأحبار فحدثوه بشأن الكعبة وأنها بيت الله وما زالوا به إلى أن كانت لها في نفسه هيبة فخلع ثيابه محرماً وصلى فيه إبراهيم الخليل ودخلها فقضى نسكه وكساها بعض الأثواب، فهو أول من كسى البيت. ثم مر ببقعة يثرب (المدينة) وعاد إلى اليمن فاستمرت بينه وبين

وبين قومه مناظرات في امر دينه الجديد وكانوا وثنيين يعبدون بيتاً شيد ومن يزعمون أن به آلهة تكلمهم ويخاطبهم اليهم . وثبت تبع . وتبعه جماعات منهم واحرق كثيراً من الذين قاوموه في نشر دينه . واعتزل لجماعة بقواعد دياناتهم فهدم تبع واصحابه بيت عبادتهم . واتخذ في اليمن مدينتي « مارب » و « ظفار » فجعلها سكناً له يقيم في ايام الشتاء منها بمنزل في مارب مبني بالصفائح الذهبية . ويقضي فصل الصيف في « ظفار » بمنزله المبني من الرخام . وجعل في مارب مكاناً ينشأ ابناء الملوك من حمير يعلمون به اللغة والاخلاق فهو كمدرسة للعلم والتربية . ثم ثار عليه جمع من قومه فقتلوه . وقيل بل مات في « عمان » من بلاد الهند .

هذه اخبار تبع حسان اليماني لخصتها كما ترى عن بعض الكتب العربية الموثوق بها عند اصحاب هذه اللغة واما آثار التبابعة فحتى يومنا الذي نحن فيه لم ينكشف للباحثين من امرها غامضة ولا وضحت حقيقة وعاصمتها ما بقي من الطلول الدارسة بأقدار بناتها واهلها الاولين ولو بعد حين . اما زمن صاحب الترجمة فلم أر ما اثق به من الاقوال الصريحة في كتب التواريخ غير كلمة يستأنس بها لكن أوردها الحافظ ابن عساكر قال : وبين تبع ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم الف سنة . فأضفت ما بين مولد النبي وهجرته الى الالف فكان مجموعها الف سنة وثلاثاً وخمسين سنة . وانما هو تقدير وتقريب : وقد يحسن ايرادها ونحتج بها عند فقدان الحقيقة وامتناع التأكيد .

وينسبون لتبع هذا شعراً يزعمون انه ناظمه واثبت شيئاً منه ابن عساكر في تاريخه . اما عندي فلا يثبت من ذلك شيء ونحن نرى الخلاف في اسماء ملوكهم قائماً فكيف بما يعزى اليهم من الشعر مع كثرة ناظميه والمتقنين فيه . ~~[illegible]~~

عمرو بن لُحَي

— مات نحو سنة ٢٩٠ ق هـ —

كانت العرب حتى سنة ٤٠٠ قبل الهجرة آخذة بدين ابراهيم الخليل (عم) الا قليلاً منهم اتبعوا ديانات مجاوريهم من الفرس والروم والوثنيين وغيرهم حتى نشأ في الحجاز رجل منهم يُدعى «عمرو بن لحي» بن حارثة بن عمرو من قبائل الازد من ولد كهلان بن سبأ. وكان مُطاعاً شائع الذكر واهباً مفضلاً في الحجاز. وهو أول من أدخل الاصنام على تلك البقعة وجعلها في الكعبة. وذلك انه أُصيب بعلة شديدة فأعياه شفاؤها فقيل له: لو قصدت البلقاء من اعمال الشام فان بها حمة إن أتيتها برأت. فأتاها. فاستحم. فبرأ من مرضه. واختلط بسكانها هناك فرآهم يعبدون اصناماً فسألهم عنها. فقالوا: هذه ارباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نَستنصر بها فنُنصر ونَستسقي بها فنُسقى. فأعجبه ذلك. فطلب منهم صنماً وبذل لهم ما يعدل له من النقود فدفعوا اليه «هُبَل» واسمه في العبرانية «هبل»، وهو اسم اكبر اصنام الفينيقيين او الكنعانيين ومن جاورهم من اهل الشام. قال النويري: وهُبَل صنم من خرز العقيق على صورة الانسان. فاحتمله عمرو بن لحي وسار به الى مكة فوضعه على الكعبة واشترى صنمين احدهما «اساف» والثاني «نائلة» فعكف على عبادتها وامر قومه وعشيرته بعبادة الاوثان وتعظيمها ثم دعا العرب كافة الى رفع شأنها واحترامها والتقرب منها فاجابه السواد الاعظم منهم رغبة او رهبة. وشذّ جماعة من عقلائهم ومفكريهم. فعتنقوا الديانات المعروفة في ذلك العصر كالاسرائيلية والنصرانية. ومنهم من اختار مذهب المجوس او الزنادقة او الثنوية او عبادة الكواكب. وثبت فريق على ديانة الاول. واستمر اكثرون على عبادة الاصنام والتقرب الى اربابها حتى جاء الاسلام فحطمها وحوّل الناس عن ابتغائها بعد ان كثر عددها وفشا امرها واتخذت كل قبيلة من قبائل العرب صنماً ابتدعته. ومنهم من بنى له بيتاً ليكون كالكعبة يُطاف

حوله، حتى إذا ارتفع لصاحب ذلك الصنم شأن أو كان له سلطان، ضم من جاوره من العرب ثم دعاهم إلى تعظيمه وعبادته وناضل عنه ببأسه وقوته . تشبهاً بقريش في سدانتها للكعبة وسيادتها بذلك . وقد حطم المسلمون نيفاً وثلاثمائة صنم وقيل إنها كانت على عدد أيام السنة . ومن أشهر أصنام العرب : «هبل» الآنف ذكره . و«إساف» وكان على الصفا . و«نائلة» وكان على المروة . و«مناة» وكان عند الأوس والخزرج في مدينة يثرب . و«اللات» وكان لثقيف في الطائف . و«العزّى» وكان لقريش وكنانة . و«ود» لبني كلب بدومة الجندل . و«سواع» لهذيل . و«يغوث» لمذحج . و«يعوق» لهمدان . وأصنام أخرى كثيرة يضيق بها مجال هذا الكتاب .

أما عمرو بن لحي المترجم : فقد كان في عصر سابور ملك العجم (قاله الشهرستاني) . وسوابير العجم ثلاثة : سابور بن أردشير (مات سنة ٢٩٨ ق هـ) وسابور بن هرمز المعروف بذي الأكتاف (مات سنة ٢٧٨ ق هـ) وسابور بن ذي الأكتاف (مات سنة ٢٦٩ ق هـ) وأشهرهم عند أبناء جزيرة العرب ذو الأكتاف فإنه غزاهم وكان له معهم حديث طويل . والذي ذهبت إليه في تاريخ صاحب الترجمة أنه كان في عصر سابور الأول . ورجحه عندي تقدم الأصنام في الكعبة ورجوعها إلى عهد أبعد من عهد سابور الثاني أو الثالث . وكذلك صنع السيد رفاعة الطهطاوي في كتابه بداية القدماء وهداية الحكماء : اختار لعمرو معاصرة سابور الأول . وهو متردد في الحكم غير جازم .



هذية

جذيمة الوضّاح

— مات سنة ٢٦٥ ق م —

جذيمة بن مالك بن فهم بن غانم بن دوس الازدي : احد ملوك العراق ومن ذوي الذكر الذائع والاسم الشائع . قال المؤرخ ابن الاثير : «كان من افضل ~~الملوك~~ ملوك العرب رأياً وابعدهم مغاراً ، واشدهم نكايةً وهو اول من غزا بالجيوش ، وشن الغارات على قبائل العرب .. » ~~استولى~~ كان متقدماً في ~~الحيرة~~ [الانبار] والياً على من جاوره من عرب العراق من قبل الاكاسرة ملوك العجم في ايام ازدهار ملكهم وامتداد سلطتهم . ثم استولى على السواد (في شمالي العراق) وانقادت له الحيرة والانبار وسائر القرى التي ~~دونها~~ ~~[illegible]~~ . ثم طمح بنظره الى مشارف الشام وارض الجزيرة فغزاها وحارب ملكها عمرو بن الظرب والد الزباء . فقتله . ~~وانتهب~~ [وانتهب] بلاده ، (وكان له من الفرات الى تدمر . ثم انصرف جذيمة …) وفرّت ابنته الزباء ثم راسلته وعرضت عليه نفسها زوجة له وكانت اجمل واعقل واشهر نساء عصرها فقدم [جذيمة] لها ليتزوجها فاغتالته وقتلته واخذت بثارها : (وقصتها مشهورة تجدها في اكثر كتب التاريخ والادب العربي وفي موادها امثال جيدة واخبار تلذ التلاوة ، وللبحّاثة الافرنج اهتمام كبير بارها وهم يسمونها « زينوبيا ملكة تدمر » فارجع ان شئت البحث عنها الى الكتب الاستشراقية واهل التحقيق منهم وابتعد ما استطعت عن كتب العرب واقوالهم فيها الا في ما لا بدّ منه كالامثال العربية او ارادة المقابلة). ~~[illegible]~~ جذيمة ~~[illegible]~~ اول ملك او امير عربي جلس على ~~[illegible]~~ سرير اتخذه لنفسه في مجلسه : اخذ ذلك عن الفرس . ~~[illegible]~~ وجُبيت له اموال البلاد التي خضعت لحكمه فقال في شعره ،

[في الهامش:] … وعادت الى تدمر مقر سلطانها فجمعت شمل الجند واستعدّت …

أضحى جذيمة في الأنبار منزله   قد حاز ما جمعت في عصرها عادُ
مستمرُ الخير لا تفنى زيادتهُ   في كل يوم واصل الخير ترّدادُ

ونادم له ابن أخت يُدعى عمراً وهو صغير فرضي عليه زمناً ثم لقيه رجلان: اسم أحدهما مالك والثاني عقيل . فأتياه به فقال لهما جذيمة: تمنّيا عليّ ما شئتما . فطلبا منادمته ما بقي وبقيا . فنادماه أربعين سنة ورأى منهما عقلاً وأدباً فصحبهما حتى مات وفرقت بينهما الأيام . فضربت العرب بهما الأمثال في تأكيد الألفة وطول الصحبة : قال أبو خراش الهُذَلي يرثي أخاه عروة :

تقول أراه بعد عروة لاهياً   وذلك رُزءٌ لو علمتِ جليلُ
فلا تحسبي أنّي تناسيتُ عهده   ولكنّ صبري يا أميمُ جميلُ
ألم تعلمي أنْ قد تفرّق قبلنا   خليلا صفاءٍ : مالكٌ وعقيلُ

وكان يقال لجذيمة «الأبرش» و«الأبرص» لبرص كان فيه وكره العرب هاتين الصفتين به فلُقِّب بالوضّاح . وقتل في تدمر كما ذكرنا واختلفوا في مدة ملكه بين ٥٠ سنة و ٩٦ .

الضيزن السليحي

— مات سنة ٢٠٠ ق م —

ما برحت الآثار الشاخصة والأطلال البالية تذكّر رائيها ببانيها وتدل مُشاهدها على شائدها . فإن علماء البلدان وأصحاب الرحلات المولعين بالأسفار والبحث عن الآثار كلما مرّ واحد منهم بتلك الأخربة المبعثرة في ذلك المكان المائل بين الكوفة والقادسية ~~استوقفهم فيها فنقبوا وحققوا~~ استوقفه منظرها طويلاً فنقّب وبحث ثم كتب ما لاح له . فأما ياقوت فثبت عنده أنّ مجاوري ذلك الموضع كانوا يسمونه في عصره «طيزناباذ» وسبقه إلى بيانه ذلك المؤرخ البلاذري

الدوزري. واتفقا على أن اسمه هو ولده «ضيزناباذ»، ولكن مجاوريه الفرس عرفوا
الضاد طاء لأنه لغتهم خالية من الضاد. وقالوا: ضيزناباذ: مؤلفة من كلمتين «
ضيزن»، وهو اسم بانيها، و «أباذ»، ومعناها بالفارسية العمارة فتكون ترجمتها
عمارة ضيزن». وحرفتها العامة في العهد الأخير فقالت «طيزيزات»، وهو
اسمها الذي اليوم على ما جاء في مجلة لغة العرب البغدادية ص ٢٢٩. وربما تحولت الرياسات
كما جاء بها أيضاً في مواضع مختلفة. وهي كما في معجم البلدان تبعد عن القادسية في جادة
الحج مسافة ميل. وكانت في صدر الاسلام من أنزه المواضع محفوفة بالكروم والشجر
والحانات والمعاصر مقصودة للهو والبطالة. وفي القرن الرابع كانت خراباً ولم
يبق بها الا آثار قباب كانوا يسمونها «قباب أبي نواس» للأبيات التي نظمها أبو نواس فيها
أوردها ياقوت (ج ٦ ص ٧٩). وهي اليوم آثار ابنية في تلول وهضاب.

أما منشيء دعائمها والمنسوبة اليه فهو صاحب هذه الترجمة: الضيزن
ابن معاوية بن الاجرام (أو الاجرام) بن سعد بن سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن
قضاعة (كذا نسبه في كتابي المعجم والفتوح رواية عن الكلبي). وكان ملكاً
مذكوراً بالبأس والمنعة تخشاه أقيال العرب وملوكها. فكانوا يرونه دونه
ويسالمونه خوفاً من بطشه. وكان قد ملك الجزيرة الى الشام. والعرب في
ذلك العهد، كما تدل كتب الثقاة من مؤرخيهم، كانوا بين جاذبيتين سياسيتين
قويتين: احداهما دولة الفرس وهي لا تألو جهداً في تقريب من دنا منها من أمراء
القبائل وملوك العشائر فتنعم عليهم وتحسن اليهم ثم تطلقهم في بلاد الروم
يعيثون بها فساداً ويقلقون سكانها. والثاني: الروم. يصنعون صنيع
الفرس، حذوك النعل بالنعل! وكان الضيزن من شيعياً للروم متحيزاً
اليهم يغير رجاله على العراق والسواد. وذلك في أيام كسرى سابور ذي الأكتاف
وهو من بناة الأكاسرة وأشدهم عداوة للعرب. فجمع جيشاً كبيراً وزحف
به الى بلاد الجزيرة حتى جاء «الحضر»، وهو بناء من بناء الضيزن، أو مدينة له كغيرها حصين،

منها الضيزن الملك واقام سابور مدة لا يُرشد الى نتيجة [redacted]. وزعموا ان كان للضيزن بنت تدعى النضيرة، رأت سابور فأحبته وراسلته ثم مهدت له سبيل دخول الحصن فدخله، وقتل الضيزن، وانتهبه وامر بهدمه. ولعله هو اخو الحضر، الذي اراده صاحب القصيدة المشهورة وهو عدي بن زيد بقوله:

اين كسرى كسرى الملوك انوشروان ام اين قبله سابور
وبنو الاصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور
واخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلساً فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الملك عنه فبابه مهجور

النعمان السائح

— مات في نحو سنة ٢٢٠ ق هـ —

النعمان بن امرئ القيس بن عمرو اللخمي الاعور السائح: احد ملوك الحيرة من قبل ملوك الفرس: وكان شجاعاً كثير الغارات رفيع الذكر. غزا الشام مراراً بتحريض الفرس، كما سيجيء في الترجمة التالية الاشارة اليه، فغنم وربح وظفر واتخذ كتيبتين مازهما عن جنده: احداهما كانت مؤلفة من رجال الفرس، وسماها الشهباء. والثانية من تنوخ وسماها دوسر، وبهذه يُضرب المثل في البطش فيقال: [redacted] من دوسر. واجتمعت له في حروبه اموال كثيرة وكان موصوفاً بالعقل والدهاء منعوتاً بالحزم وبُعد النظر. وكان له معاصراً يزدجرد، المعروف بالاثيم، ملك الفرس. فدفع اليه ابنه بهرام ([redacted] بهرام جور) ليربيه ويهذبه. فانشأه على غاية ما يكون من [redacted] الشجاعة والفروسية. وطالت ايام النعمان. وهو باني القصرين العظيمين الخورنق

الخورنق والسدير. وللشعراء فيهما كلام كثير. ولما بلغ سن الكهولة فكّر في أمر الحياة الدنيا فلم يرها إلا غرورا. فسلك سبيل النسّاك والحكماء. واستعاض عن رداء الملك، بقباء النُسك. وانصرف سائحا في البلاد. فانقطع خبره، وخفي أثره. وذلك بعد أن حكم ثمانية وعشرين سنة وفيه يقول عديّ بن زيد من قصيدة تقدم بعضها:

وتدبّر ربّ الخورنق إذ أشرف يوما وللهدى تفكيرُ
سرّه حاله وكثرةُ ما يملك والبحر معرضا والسديرُ
فارعوى قلبه وقال: فما غبطة حيّ إلى الممات يصيرُ

ومطلع هذه القصيدة:

أيها الشامت المعيّر بالدهر أأنت المبرّأ الموفورُ

وفي ختامها بعد ذكر الملوك وآثارهم:

ثم بعد الفلاح والمُلك والنعمة وارتهمُ هناك القبورُ
ثم صاروا كأنهم ورقٌ جفّ فألوت به الصبا والدبورُ

ولما غاب النعمان وتحدث الناس بأمره عثروا على لوحة آثارية عرفوا منها ما صار إليه حاله فتولى مكانه المنذر الأول. وتعاقبت الأبناء والأحفاد من بني لخم حتى آل الأمر إلى المنذر بن ماء السماء الآتي خبره.

المُنذِرُ بنُ ماءِ السماء

(... - مات نحو سنة ٥٥ ق هـ -)

المنذر بن امرئ القيس اللخمي: أحد ملوك الحيرة وما يليها من جهات العراق. وهو من أعظم رجال هذه الطائفة اللخمية ومن كبار مشاهيرها ومفاخرها. ينتسب إلى أمه ماء السماء وهي أُخت كليب والمهلهل الآتي ذكرهما، وكان يتغنى بها إذا حمي القتال فيقول: أنا ابن ماء السماء! ثم ويقال له المنذر الثالث

كُلَيبُ وائل

– ولد سنة ١٨٧ وقتل سنة ١٢٢ ق هـ –

من امراء العرب الذين تشبهوا بالملوك في سلطتهم وسعة ديارهم وان لم يخضع
لحكمهم صاحب هذه الترجمة: كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي الوائلي (واسمه وائل)
من احفاد عدنان. سيد الحيين بكر وتغلب ابني وائل. ومن الشجعان المذكورين
في الجاهلية. كانت منازله في نجد واطرافها. ~~وامتدت على قبائل معد~~ وكانت
الامارة في بني ربيعة بن نزار للاكبر فالاكبر من ولده. وكلما ولي الامارة
حي منهم اتخذ له شارة يعرف بها: فكان لواء الامارة بعد جدهم ربيعة في
بني عنزة بن اسد بن ربيعة فجعلوا سنتهم التي يمتازون بها انهم يوفرون لحاهم ويقصون
شواربهم ولا يباح لغيرهم من قبائل ربيعة ان يفعل ذلك الا من اراد
حربهم وقتالهم فيفعله فرقا لحرمتهم ونبذا لطاعتهم. ثم تحول اللواء الى
بني عبد القيس بن افصى بن دعمي بن جديلة بن أسد: فكانت سنتهم انهم اذا شتمهم
احدهم لطم من شتمه واذا لطم قتل من لطمه ويرون ذلك حقا لهم لا ملام فيه.
وانتقل اللواء الى نمر بن وائل: فكانوا يوثقون فرخ طائر ويضعونه في قارعة
الطريق فاذا علم بمكانه لم يسلك احد ذلك الطريق وانما يتنحى عنه بعيدا
ومن دنا منه او حاذاه فقد خرق حرمة الأسرة المالكة وجاز قتله. ومنهم
تحول اللواء الى تغلب فوليه كليب بن ربيعة (بعد ابيه): فاتخذ جروا كان اذا جلس في روضة
او مكان يضربه ويلقيه فيعوي فحيثما بلغ صوته كان في حمايته فلا يرعى كلؤه
منه ولا يصاد فيه ولا يأوي احد اليه. وقالوا ان اسمه وائل ولكنه لما اتخذ
الجرو فكان اذا عوى هابتعد الناس يحذر بعضهم بعضا ويقولون: هذا كليب
وائل فغلب ذلك عليه. وزاد في منزلة كليب انضمام قبائل معد اليه وقيادته
لجموعهم يوم خزاز، وهو من ايام العرب المشهورة كان بين معد واليمن فاظهر
كليب شجاعة وبسالة ففضت جموع اليمن وهزمهم واطاعته معد فوثقت به

ودخله

ودخله زهو شديد وبغى على قومه حتى بلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فيقول: ما أظلته هذه السحابة في حماي فلا يُرعى ما تظله. وكان يقول: وحش ارض كذا في جواري. فلا يُصاد. ولا يورد احدٌ مع ابله. ولا توقد نار مع ناره. ولا يمر أحد بين بيوته. ولا يحتبي(١) احد في مجلسه. وحمى ارضاً من العالية في اول الربيع فكان لا يقربها احد. وبه يُضرب المثل: يقال: هو في حمى كليب، أي كان آمناً. ومن اجله ثارت حرب البسوس التي هي اطول حرب نشبت في الجاهلية: قيل: دامت اربعين سنة. وسببها انه رأى ناقة غريبة ترعى في ارضه العالية التي هي في حماه فرماها بسهم فقتلها. وكانت الناقة لرجل يقال له سعد بن شمس الجرمي نزل ضيفاً عند البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة وهو اخو زوجة كليب. فوقع الشقاق بين جساس وكليب على ما هو مسطور في كتب الامثال (انظر كتاب «العقيب المثلى» لصاحب هذا الكتاب) وجعل جساس يترقب كليباً حتى انفرد به يوماً فقتله. ونشبت الحرب بين التغلبيين رهط كليب والبكريين رهط جساس. وكان بطل تلك المواقع مهلهل بن ربيعة اخو كليب، وسيأتي ذكره في ديوان الشعراء. وفي كامل التواريخ كلام طويل على يوم البسوس كما في اكثر كتب التاريخ والاخبار. وجاء في معجم البلدان (ج ٤ ص ١٩٨): قوله: وردة الذنائب قرية دون زبيد من ارض اليمن وبها قبر كليب وائل.. قال مهلهل يرثيه:

أليلتنا بذي حُسُم أنيري ... اذا انتِ انقضيتِ فلا تحوري
فان يكُ بالذنائب طال ليلي ... فقد ابكي من الليل القصير
ولو نُبش المقابر عن كُليب ... لخُبّر بالذنائب ايُّ زيرِ
فلولا الريح أُسمِعَ اهلَ حُجر ... صليلَ البيض تقرع بالذكورِ

والزير لقب كان يدعوه به كليبٌ لأن مهلهلاً كان في صباه يُكثر من معاشرة النساء فسماه اخوه «زير النساء». فلما قُتل هجرَ مهلهلٌ ذلك النعيم وعكف على السلاح والكفاح.. والبيت الاخير يقال انه اول كذب ورد في شعر العرب لأن بين الذنائب

(١) .

وجرسيجليك . وله في كعب مراثٍ كثيرة يأتي بعضها في ترجمته ان شاء الله ؛

ذو نواس الحِمْيَري

— ولد سنة ١٧٥ ومات سنة ١٠٩ ق هـ —

اشرت في بعض ما تقدم الى ملوك الحِمْيَريين ومآثرهم في القطر اليماني. وصاحب هذه الكلمة هو : ذرعة بن كعب الحميري . احدُ ملوكهم وسادتهم فيهم. ولقبه ذو نواس لانه كان له ضفيرتان تنوسان (اي تضطربان) على عاتقه . وهو صاحب الاخدود المذكور في القرآن الكريم . وكان من حديثه انه بلغه ان رجلاً من الدعاة الى النصرانية والمبشرين بها بعثه آل جفنة ملوك غسان الى اهل نجران فتنصروا وكان دينهم اليهودية فغاظه ذلك وسار اليهم بنفسه . فامر باخاديد حُفرت وملأها حطباً وجمع من في المدينة فجعل يعرضهم على النار من تبعه نجا ، ومن أبى هوى ! . حتى قتل منهم جماً كثيراً . وأفلت رجل منهم اسمه « دوس ذو ثعلبان » فركب البحر وفرّ الى النجاشي ملك الحبشة وكان على النصرانية فحدّثه بما حدث . فكتب النجاشي الى قيصر يعلمه ذلك ويستأذنه في التوجه اليهم فأتاه الجواب بالايجاب فجهز جيشاً عدته سبعون الف مقاتل وزحف بهم يريد صنعاء فاستقبله ذو نواس بجيشه على ساحل البحر الاحمر عند عدن فتقاتل الجيشان وشعر ذو نواس بالغلبة ورأى ان الموت قد كمن له بين شفار اسياف العبيد فركض جواده برجله ركضة اقتحم بها البحر وودع ذو نواس الحياة وهو يلاطم الموج ويعارك الحيتان مختاراً بطون الاسماك وهو عزيز كريم على الوقوع في اسر السودان واحتلالهم واذلالهم له : فمات شريفاً !

زهير بن جناب الكلبي

– مات سنة ٦٤ ق هـ –

زهير بن جناب بن هُبَل بن عبد الله (أو عبد اللات) بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة الكلبي من أهل اليمن: أحد العرب المشهورين وشعرائهم وذوي الرأي فيهم: وكان يُدعى الكاهن لصحة رأيه. وكان شجاعاً مظفراً ميمون النقيبة. عاش طويلاً: ومؤرخونا يذكرون من عمره ما يقولون عن سائر المعمّرين. وهو أحد الذين شربوا الخمر صرفاً حتى ماتوا (انظر ترجمة عمرو بن كلثوم). ومن أخباره أنه لما بلغه أن بني بغيض بن ريث بن غطفان بنوا حرماً كحرم مكة لا يقتل صيده ولا يهاج عائذه قال: والله لا يكون ذلك وأنا حي! . فنادى في قومه فغزا بني بغيض فظفر بهم وأخذ فارساً منهم في حرمهم فقتله وعطّل ذلك الحرم. ثم منّ على غطفان ورد النساء وأخذ الأموال وقال في ذلك من أبيات:

فلم تصبر لنا غطفان لما — تلاقينا وأحرزت النساءُ
فلولا الفضل منا ما رجعتم — إلى عذراء [illegible] الحياءُ
نفينا نخوة الأعداء عنا — بأرماح [illegible] ظماءُ

واشتهرت واقعته مع بكر وتغلب ابني وائل: وسببها: أن أبرهة ملك اليمن حين طلع إلى نجد أتاه زهير فأكرمه وفضله على من أتاه من العرب ثم أمّره على بكر وتغلب فوليهم حتى أصابهم قحط فلم يؤدوا الخراج فقاتلهم زهير فترقبه ابن زيابة وأراد قتله حتى نام فاعتمد بالسيف على بطن زهير حتى ظن أنه قتله وعلمت أصحاب زهير فلم يتحرك لئلا يعودوا إليه. فلما انصرف التيمي إلى قومه أخبرهم أنه قتل زهيراً ولم يكن مع زهير إلا نفر من قومه فأمرهم أن يظهروا أنه ميت ورحلوا به حتى بلغ قومه فشفي وجمع جموعاً من أهل اليمن فهاجم بكراً وتغلب فأثخن فيهم وأسر كليباً ومهلهلاً ابني ربيعة وجماعة من فرسانهم وقال في ذلك من قصيدة:

أين أين الفرار من حذر المو ت إذ يتقون بالأسلاب
إذ أسرنا مهلهلاً وأخاه وابن عمرو في القيد وابن شهاب
وسبينا من تغلب كل بيضاء رقود الضحى برود الرضاب
واستدارت رحى المنايا عليهم بليوث من عامر وجناب
ثم بين هارب ليس يألو وقتيل معفر في التراب
فضل العز عزنا حين نسمو مثل فضل السماء فوق السحاب

وكان زهير خطيب قضاعة وسيدها، وشاعرها، ووافدها إلى الملوك، وبطلها، واجتمعت فيه خصال محمودة لم تجتمع في غيره واحصى بعضهم ما عرف له من الغزوات والحروب فبلغ مئتي واقعة واسنّ وطال عمره حتى ضعف عقله فمات منتحرا بشرب الخمر صرفا على ما سيأتي بيانه.

المنذر بن ماء السماء

— مات نحو سنة ٦٤ ق هـ —

المنذر بن امرئ القيس اللخمي: أحد ملوك الحيرة وما يليها من جهات العراق، وهو من أعظم رجال هذه الطائفة المالكة ومن كبار مشاهيرها ومغاويرها. أمه ماء السماء أخت كليب وائل؛ السابق ذكره؛ وكان المنذر ينتخي بها في حرب من حروبه فيقول: أنا ابن ماء السماء! فنسب إليها. وقيل لأنها كانت جميلة. وصاحب هذه الترجمة هو المنذر الثالث: ولي ملك الحيرة بعد أبيه سنة ١١٠ ق هـ وذلك من قبل ملوك الأعاجم وملكهم المعاصر له كسرى قباذ: وفي أيامه ظهر مزدك الفارسي ينشر مذهب الزندقة فاختاره قباذ على المجوسية ودعا إليه المنذر بن ماء السماء وهو نائبه على العرب فأبى المنذر متابعته. فأضمر له قباذ حقداً. وكان قد اشتهر في زمنه ملك من ملوك العرب يدعى الحارث بن عمرو ابن حجر الكندي: منازله في نجد وهو من نسل الأمراء وذوي النجدة منهم وسائر

وسيأتي ذكره في كلامه على ابن امرئ القيس الأصغر . فدخل الحارث هذا في مذهب مزدك وهو الاوثان . وبلغ ذلك ملك العجم قباذ فسُرّ وطرد المنذر من ملك العراق وولّى مكانه الحارث . فدام للحارث الملك حتى مات قباذ وتولى مملكة فارس كسرى أنوشروان المعروف بالملك العادل وذلك سنة ٩٢ ق.هـ . وكان كارهاً للزندقة وأشياعها فقتل مزدك الزنديق وأصحابه وطرد الحارث الكندي وأعاد المنذر بن ماء السماء . فدام ملك العراق في بني لخم حتى جاء الإسلام . والمنذر هذا: هو باني الغَرِيين وصاحب يومي البؤس والنعيم (وزمنه في رواية الأغاني، وأمالي القالي، ومعجم ياقوت، وكامل ابن الأثير) وقال الجاحظ في المحاسن والأضداد، وابن قتيبة في الشعر والشعراء والمعارف، والجوهري في الصحاح، والزبيدي في التاج: بل هو النعمان بن المنذر الآتي ذكره (وهذا خلاف المؤرخين فاختر أحد القولين .

والغَرِيان: بناءان في ظاهر الكوفة دُفن فيهما رجلان كانا نديمي المنذر وهما: خالد بن المضلل وعمرو بن مسعود الأسديان . غضب عليهما يوماً وهم يشربون فأمر بهما فقتلا . فلما أصبح وصحا سأل عنهما فأُخبر بما كان فندم وأمر أن يُبنى عليهما طِرْبالان ليُعرف قبراهما . وجعل لنفسه في كل سنة يومين أحدهما للبؤس والثاني للنعيم : فكان يضع سريره بينهما فأول من يظهر له في يوم بؤسه يذبحه ويطلي الغَرِيين بدمه . وأول من يراه في يوم النعيم يمنحه مئة من الإبل ويُغدق عليه إحسانه . وظهر له في أحد أيام بؤسه عَبيد بن الأبرص الأسدي الشاعر وافداً عليه رجاءَ خيره ولم يكن دارياً بذلك اليوم فتردد فيه المنذر ثم قتله (انظر ترجمة عَبيد في ديوان الشعراء) . وما زال على تلك الحال حتى أتاه في يوم بؤسه حنظلة بن أبي عفراء الطائي فعرضه على القتل وكانت له عند الملك المنذر يدٌ فسأله أن يمهله سنة يرجع بها إلى أهله فينظر في أمرهم ويعود في مثل هذا اليوم فأجابه وكفله شريك بن عمرو الشيباني فلما كان اليوم الموعود أقبل حنظلة وقد تكفّن وتحنّط

وجاء بنادبة فعجب المنذر من وفائه وسأله عما جاء به بعد أن أفلت من القتل . فقال: إن لي ديناً يمنعني من الغدر قال: وما دينك ؟ قال: النصرانية . ووصفها له فرآها المنذر احب اليه مما كان عليه فتنصر ودعا اهل الحيرة الى النصرانية وبنى لهم الكنائس وعفا عن الطائي وابطل تلك العادة . وعاش الى ان حدثت بينه وبين الحارث بن ابي شَمِر الغساني شؤون وتلاقيا بجيشيهما في موضع يُعرف بعين أُباغ: وهو واد وراء الانبار على طريق الفرات الى الشام . فقُتل المنذر وانهزم جنده وهذه الواقعة مذكورة في ايام العرب مشهورة باسم الموضع الذي كانت فيه .

الحارث الغساني

— ولد نحو سنة ١٢٢ ومات نحو سنة ٦٢ ق هـ —

الغسانيون هم عرب الشام قبل الاسلام ترجع انسابهم الى اصول يمانية تزود اصلها من اليمن عند انفجار سد مأرب . والمؤرخون مختلفون في اخبارهم على ما سنورده وانما يتجلى لنا ان الغسانيين كانت لهم الولاية على جميع اطراف الشام من الجنوب والشرق والشمال الشرقي: تمتد جنوباً الى الحجاز وشرقاً الى حدود ملوك العراق من اللخميين . ولم يصح ملكهم لدمشق وانما كانت لهم الزعامة والامارة على عرب الشام كافة . وكانت عاصمتهم بصرى (اسكيثم) في حوران . اما دمشق فكان اكثر سكانها من الروم يحكمها امراء من قِبَل القياصرة في القسطنطينية: كانوا يقرّبون امراء غسان منهم ويكرمونهم ليكونوا للشام مِجَنّاً يدفعون به غارة الجياع من عرب الحجاز والبادية: وسُمّوا غسانيين لنزولهم على ماء يدعى غسّان بالقرب من الشام وهم قادمون من اليمن . وكانت الديانة السائدة فيهم هي النصرانية وفيهم وثنيون كثيرون . وطالت مدتهم نحواً من خمس مئة سنة . اولهم جفنة بن عمرو ابن ثعلبة بن عمرو بن مزيقياء وآخرهم جبلة بن الايهم الذي اسلم وارتد .

والعجب من ديار الشام فانها على كثرة ما تضمنه من الآثار التي لا تزال موضع بحث الباحثين من المستشرقين وعلماء العاديات والآثار والتاريخ . والخلاف ما برح قائماً في ما يتعلق بالغسانيين من وجوه اربعة :

اولها : هل ملك الغسانيون بلاد الشام كلها ام بعضها ؟

ثانيها : هل دخلوا دمشق ؟

ثالثها : لماذا سُمّوا غسانيين ؟

رابعها : هل كانوا جميعهم نصارى ؟

فاما متملّكهم الديارات منه فلا دليل عليه غير ما جاء في كتاب «اشهر مشاهير الاسلام» قال مؤلفه الفاضل (ج ٢ ص ٢٢٢) : «... والذي يترجح عندنا ان الفرس لما دوّخوا الولايات الرومانية سنة ٦١١ م اقروا ملوك غسان على ما كان لهم واقاموهم ملوكاً على الشام ولما استعادها هرقل من الفرس البلاد لم يشأ ان ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه في حرب الفرس وخوفه من شغب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق الى حين الفتح الاسلامي . بل هناك دليل آخر على ان سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق وربما شملت سورية كلها فقد ذكر المؤرخون ان جبلة بن الايهم آخر ملوك غسان ابتنى بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه وهي جبلة التي لم تزل عامرة الى هذا العهد ... لا جرم ان سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام وكانت عاصمة ملوكهم دمشق ولولا ذلك لما تسنى لجبلة ان يبتني تلك المدينة ويسميها باسمه» . وهذا القول لم يشاركه فيه غيره من اهل البحث والنقد فيما نعلم فيثبت او يسقط .

واما الخلاف في حكمهم دمشق فقوي جداً وللفريقين المختلفين ادلة وحجج فمن القائلين بالسلب المستشرق الكبير نلدك صاحب تاريخ امراء غسان (ص ٤٧)

Nöldeke: Die Ghassan. Fürsten, P. 47.

قال الاوامل عاصم الغسانيين فكانت الجابية في الجولان: وهي عبارة عن كرسي كان يسكنها قوم من كلب مع لواصق تحدقه في وادي الزوا هو الوتر والاخ مولة غسان في وسطهم كشيوخ القبيلة يقطنونه تقدرا ابتنوه في ظهرانيهم» كذا نقلت المشرق

وقد نقصهم هذا المتقدم قدرهم لما ثبت في التاريخ من اعظام ملوك الروم لهم وتفخيم عندهم ما لا يكون لشيوخ القبائل مثله . وأيّد احد الباحثين رأي نلدك (راجع مجلة المشرق ج ١ ص ٦٨٤ و ج ٢ ص ٦٢٨) . ومن القائلين بان الغسانيين حكموا دمشق الدكتور فانديك Dr Van Dyck قال في كتابه المرآة الوضية » ١ » وكانت - يعني دمشق - قبل الاسلام تحت آل جفنة ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت :

اولاد جفنة حول قبر ابيهم قبرِ ابن مارية الكريم المفضلِ

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل »

ومن نقض هذا القول بحجة قول حسان في نفس القصيدة :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الاول

وعنده أن جلق قرية من قرى الغوطة يمر بها نهر بردى ، لا دمشق نفسها ، ذهب الى هذا الرأي نلدك صاحب آل غسان ودي برسفال في تاريخ الجاهلية :

(C. de Perceval : Hist. des Arabes II ; 223)

وفي اشهر مشاهير الاسلام (ج ١ ص ٦٠ و ج ٢ ص ٢٢٩) بحث حاول صاحبه فيه اثبات حكم الغسانيين لشام فراجعه .

واما سبب تسميتهم غسانيين فلم يكن من الامور التي فكر فيها الباحثون ولكن ياقوت في معجمه (٦ ص ٢٩٠) اضطرب فيه فقال: «يجوز ان يكون فعلان من الغس وهو دخول الرجل في البلاد .. وهو اسم ماء نزل عليه بنو مازن ابن الازد بن الغوث وهم الانصار (الاوس والخزرج) وبنو جفنة وخزاعة فسموا به

به.. ويقال: غسان ماء بالمشلل قريب من الجحفة - وهي قرية بين المدينة ومكة -
.. وقال نصر: غسان ماء باليمن بين رمع وزبيد واليه تنسب القبائل المشهورة..
الى آخر ما ذكره...

واما نصرانيتهم فالاكثر على ان الدين الذي كان غالباً على تلك القبائل هو النصرانية لا أن جميعهم كانوا نصارى. وللاب لويس شيخو اليسوعي كلام مفيد يؤخذ منه هذا القول (راجع مجلة لغة العرب ج ٧ ص ١٩١).
هذه صفحة يسيرة لا تفي بالمراد ولكن ترشد الباحث الى مظان البحث ومواضع الخلاف ولعل الآثار توضح لنا ما جهلناه وتكشف ما وراءنا.

∴

اما صاحب هذه الترجمة فان «الحارث الغساني» لقب يتناول كل من تملك او أُمِّر في بني غسان، ولفظ الحارث فيهم كلفظ قيصر في الروم وكسرى في الفرس. والذي اردناه هو ترجمة اشهر ملوك غسان ذكراً وابعدهم صيتاً: الحارث الخامس المعروف بالاعرج بن ابي شمر جبلة، بن الحارث الرابع، بن حجر، صاحب الوقائع المشهورة في حرب الحجاز والعراق وممدوح حسان بن ثابت الانصاري الشاعر. قال ابن قتيبة في كتاب المعارف: وامه (اي الحارث) مارية ذات القرطين. وكان غزا خيبر فسبى من اهلها ثم أعتقهم بعدما قدم الشام وكان سار اليه المنذر بن ماء السماء في مئة الف فوجه اليهم مئة رجل فيهم لبيد الشاعر وهو غلام. وأظهر أنه إنما بعث بهم لمصالحته فأحاطوا برواقه فقتلوه وقتلوا من معه في الرواق وركبوا خيلهم فنجا بعضهم وقتل بعض. وحملت خيل الغسانيين على عسكر المنذر فهزموهم. كما قدمنا في ترجمة المنذر. وكان للحارث بنت جميلة اسمها حليمة كانت تطيب اولئك الفتيان الذين دخلوا على المنذر واوقعوا به وهي التي ألبستهم الاكفان وفوقها الدروع التي كانت تحت الثياب في الظاهر. وهذه الواقعة

ذكرها ابن الأثير أيضاً وسماها يوم مرج حليمة (انظر الكامل ج ١ ص ١٩٠)
وفي هذه الحادثة خلاف عند أصحاب الأخبار فبعضهم يقول: ان الذي قتل
لا هو المنذر بن ماء السماء، والبعض يقول: بل مات المنذر في وقعة عين اباغ
- المذكورة في ترجمة المنذر - وفي الكامل تفصيل الخلاف فراجعه في الكلام
على يوم عين اباغ ويوم مرج حليمة. وفي عين اباغ يقول ابن الرعلاء الضبائي:

كم تركنا بالعين عين اباغ ... من ملوك وسوقة أكفاء
امطرتهم سحائب الموت تترى ... ان في الموت راحة الأشقياء
ليس من مات فاستراح بميت ... انما الميت ميت الأحياء

سيف ابن ذي يزن

— مات سنة ٤٩ ق هـ —

اسمه معديكرب ولقبه سيف بن ذي يزن المكنى بأبي مرة الحميري: احد ملوك
العرب اليمانيين ودهاتهم المذكورين. ولد ونشأ في صنعاء. وكانت الحبشة
قد تغلبت على البلاد اليمنية (سنة ١٠٧ ق هـ) وملكتها بعد ان قتلت ملوكاً من
آل حمير (السابق ذكرهم). ثم اشتد ضغط الحبشان السود على الأمة الى ضعة
وحاولوا لها اموراً لم تطق الصبر عليها. فتحركت سواكن اليمانيين وهاجت اضغانهم
واخذوا ينتظرون وثبة ثائر يزحفون اليه. حتى نهض من بينهم احد ابناء ملوكهم
سيف بن ذي يزن الحميري: وكان شاباً عاقلاً شجاعاً. فقصد قيصر ملك
الروم وهو حينئذ في انطاكية. فشكا اليه امره وما صنعت الحبشة من اغتصاب
ملك آبائه وسوء تحكمهم باهل البلاد واطمعه بانه يملكه اليمن اذا اخرج الحبشة
منها فلم يلبه قيصر. فقصد النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما
يليها من ارض العراق. فشكا اليه ما حل بهم. فقال له النعمان:
ارى

ان لي في كل عام رحلة الى كسرى فانتظر . فلبث سيف حتى كان الموعد ثم خرج معه فأوصله الى كسرى « انوشروان » ملك الفرس . فسأله عن شأنه . فقال له: ايها الملك غلبتنا على بلادنا الاغربة . فقال له كسرى : اي الاغربة الحبشة ام السند؟ قال : بل الحبشة ، وقد جئتك لتنصرني ويكون ملك بلادي لك . قال : بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم اكن لاورط جيشاً من فارس بارض العرب . ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه . فلما قبض سيف الدراهم رأى خير الامور أن يحتال فخرج وجعل ينثر تلك الدراهم للناس . فبلغ ذلك الملك . فقال : ان لهذا شأناً وامر باعادته فعاد فقال له : عمدت الى حباء الملك تنثره للناس ؟ قال : وما اصنع بهذا وكل جبالنا مملوءة بالذهب والفضة ! فجمع كسرى مرازبته فاستشارهم فقال احدهم : ايها الملك ان في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل فلو بعثتهم معه فان يهلكوا كان ما تريد وان ظفروا ملكت بلاداً بلا مشقة . فبعث كسرى معه من في سجونه وهم نحو ثمان مئة رجل وأمّر عليهم رجلاً من اشراف العجم اسمه وهرز بن الكامجار وهو شيخ مسن . فسار بهم حتى بلغوا الأُبُلّة فركبوا البحر في ثمان سفائن وخرجوا بساحل عدن فأقبل عليهم رجال اليمن يناصرونهم فقتلوا ملك الحبشة وهو مسروق بن ابرهة الاشرم ودخلوا صنعاء واستولوا البلاد وكتبوا الى كسرى بالفتح . فأُلحقت اليمن ببلاد الفرس : على أن يكون ملكها والمتصرف في ادارتها سيف بن ذي يزن الحميري . واتخذ سيف غمدان قصراً له . وعاد الفارسيون الى بلادهم بامر كسرى . واستبقى سيف جماعة من السودان اشفق عليهم وجعلهم خدماً له . ووفدت عليه وفود العرب تهنئه . ومكث في الملك نيفاً وخمساً وعشرين سنة . فاتفق عبيده الذين كانوا من بقايا الدولة الحبشية على قتله . فشدوا عليه يوماً وهم بين يديه في موكبه بصنعاء فطعنوه بحرابهم حتى قتلوه (سنة ٥٩٠ م)

وبلغ كسرى خبر قتله فارسل اليه جيشاً آخر افنى من بها من السودان وظلت اليمن تابعة لملوك فارس حتى جاء الاسلام وافتتحها المسلمون سنة ١٠ للهجرة .. وتجد اخبار الملك سيف في كتاب مروج الذهب للمسعودي، والكامل. وتاريخ الطبري، والسيرة لابن هشام، والاخبار الطوال للدينوري، وتاريخ البشامه للقضائي ودائرة المعارف للبستاني واكثر كتب تاريخ الاخبار .

عمرو بن هند

— قُتل سنة ٤٤ ق هـ —

اوردنا فيما تقدم ترجمة المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة الذي قتله الحارث الثاني . وقد استولى على مُلك العرب من قبيل الفرس بعد المنذر ابنه صاحب هذه الترجمة عمرو بن المنذر بن ماء السماء : واسم ام عمرو: هندُ الكندية عمة امرئ القيس الشاعر . واليها ينتسب عمرو . كما انتسب ابوه الى امه ماء السماء . ولما تملك عمرو واستتب امره اكثر الغزو واظهر قوة وبأساً . فشاع خبره . وهابته العرب . واطاعته القبائل . وكان شجاعاً فاتكاً . واخباره كثيرة . وهو صاحب صحيفة المتلمس (انظر قصتها في ترجمته) وقاتل طرفة بن العبد (انظر ترجمته) . ويُلقَّب بالمحرِّق لشدته وبطشه او لانه احرق مئة رجل من بني تميم وقصتهم لا بأس بالاشارة اليها : وذلك أن ملوك العرب كانوا كثيراً ما يرسلون اطفالهم الى بعض القبائل المطيعة لهم ليتربوا فيها تربية بعيدة عن زهو الملوك وكبريائهم وراء تربية من السذاجة ويتعلموا الفروسية والرماية ومهاجمة الابطال . وكان لعمرو اخ اسمه أسعد[1] : دفعه ابوه الى بني تميم يتربى بينهم فمازح وأخذ يتعلم الرماية مرت به ناقة سمينة فعبث بها فرماها بسهم اصابها فقتلها . فغضب صاحبها سويد الدارمي التميمي فضرب أسعد فقتله .

[1] هذا قول ياقوت في معجم البلدان في كلامه عن اوارة (ج ١ ص ٣٦١) واما ابن الاثير فقال في الكامل ان أسعد ابن لعمرو بن هند (ج ١ ص ١٩٩) .

ثم علم الملك عمرو بن هند بما أصاب ابنه فحلف ليقتلن من بني دارم مائة رجل وقصدهم
بجيش حتى بلغ أوارة (موضع لبني تميم بناحية البحرين) فظفر منهم بجماعة فأمر بهم
وبأخدود فألقيهم بهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلاً فمر رجل من البراجم (وهم قوم
رجال من بني تميم) فشمّ رائحة شواء فظن وليمة ولم يبلغه الخبر فمال إليه فلما
رآه عمرو بن هند قال: من أنت؟ فقال: رجل من البراجم. فقال عمرو: إنّ
الشقيّ وافد البراجم. فأرسلها مثلاً. وأمر به فألقي في النار وبرّت يمينه.
وصارت تميم تعيَّر بالشَّرَه وحب الأكل. قال شاعرهم:

إذا ما مات ميت من تميم   فسرّك أن يعيش فجئ بزادِ

وعاد عمرو وقد خافته القبائل. فبينما هو يومًا في مجلس له قال لجلسائه: هل
تعلمون أن أحدًا من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي؟ قالوا
ما نعرفه، إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن
ربيعة وعمها كليب وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو. فكتب الملك عمرو
إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويدعو والدته إلى زيارة أمه. فقدم عمرو بن كلثوم في
فرسان من بني تغلب ومعه أمه ليلى فنزل على شاطئ الفرات. وعلم الملك عمرو
بقدومه فأمر فضربت له الخيام بين الحيرة والفرات. وضرب سرادقًا
لأمّيهما: هند وليلى. وقال لأمه هند: إذا فرغ الناس من الطعام فنحّي
خدمك عنك ودعي ليلى فلتناولك الشيء بعد الشيء يريد أن تستخدمها.
ثم أرسل إلى عمرو بن كلثوم ومن معه فحضروا ونزلوا في الخيام وجلس القوم للطعام
في سرادق الملك. فلما انتهى وقت الطعام ~~[illegible]~~ طلبت
هند من ليلى أن تناولها حاجة. فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها.
فألحت عليها. فصاحت ليلى: واذلاه يا آل تغلب! فسمعها ولدها
عمرو بن كلثوم وكان السرادقان متقاربين. فثار الدم في وجهه والقوم
يشربون فقفز من بينهم إلى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف

غيره فاخذه فضرب به رأس الملك عمرو بن هند فقتله وخرج فتبعه اصحابه فانتهبوا ما في الخيام وانهزم رجال عمرو بن هند . قال افنون التغلبي :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا ... لتخدم ليلى امه بموفّق

فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا ... وأمسك من ندمانه بالمخنّق

وجلّله عمرو على الرأس ضربة ... بذي شطب صافي الحديدة رونق

ولعمرو بن كلثوم قصيدة هي من افضل المعلقات بناها على قتل عمرو بن هند وسيأتي ذكرها في ترجمته (انظر ديوان الشعراء) . وبعد قتل الملك عمرو تولى مكانه اخوه قابوس بن المنذر الذي تلاه المنذر الرابع الذي ولي بعده ولده النعمان بن المنذر الآتي ذكره .

النعمان بن المُنذر

— مات سنة ١٨ ق هـ —

اشهر ملوك الحيرة على الاطلاق ابو قابوس النعمان بن المنذر اللخمي : داهية ذكي شجاع كثير الاخبار . ملك الحيرة إرثا عن ابيه . وكان قد ضعف شأن دولتهم بعد قتل ابن كلثوم لابن هند . فلما ولي النعمان اعاد لها سيرتها الاولى وابلغها من الترف منتهاه ومن العزة اقصاها . وهو صاحب ايفاد العرب على كسرى . والقصة مشهورة . نذكر خلاصتها : وذلك أنه قدم النعمان على كسرى فاذا عنده وفود من الروم والهند والصين فذكروا ملوكهم وبلادهم وشاركهم النعمان في الحديث فافتخر بالعرب وفضّلهم على جميع الامم لا يستثني فارس ولا غيرها فتألم كسرى وذم العرب واجابه النعمان بما كذب ظنه في حديث طويل ثم عاد النعمان الى الحيرة فبعث الى عشرة رجال هم من خيار العرب في ذلك العهد فحضروا وهم : اكثم بن صيفي «من بني تميم» . وحاجب ابن زرارة «تميمي» . والحارث بن ظالم «بكري» . وقيس بن مسعود «بكري» . وخالد بن جعفر «عامري» . وعلقمة بن علاثة «عامري» .

وعامر

او عامر بن الطفيل ، عامري » . و عمرو بن الشريد ، سلمي » . و عمرو بن معديكرب
، زبيدي » . والحارث بن ظالم ، من بني مرة » . . فلما وفدوا عليه جمعهم في ايوانه
وقال لهم : « قد عرفتم هذه الاعاجم وقرب جوار العرب منها . وقد سمعت من
كسرى مقالات تخوفت ان يكون لها غور . او يكون انما اظهرها لامر أراد
ان يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج اليه كما يفعل
بملوك الامم الذين حوله » . ثم حدثهم بما كان بينه وبين كسرى . ودعاهم الى
الحضور على كسرى وان يخطبوا بين يديه ليعلم ان في العرب رجالاً ذوي عقول كبيرة
والسنة فصيحة . فاجابوه الى ما انتدبهم اليه . فرتبهم في الكلام بين يدي كسرى
وقدم عليهم اكثم بن صيفي . وخلع عليهم الخلع وكتب معهم كتاباً الى كسرى
يذكرهم فيه . فارتحلوا حتى بلغوا المدائن . فدفعوا الرسالة الى احد الحجاب فاوصلها
الى كسرى . فعقد لهم مجلساً لسماع اقوالهم ودعاهم . فمثلوا بين يديه
وألقى كل واحد منهم ما تهيأ له من كلام . ولولا خوف الاطالة لذكرت
اقوالهم لما فيها من الحكمة والابداع . وكان الترجمان يؤدي اليه معنى
ما يقولون . فلما انتهوا قال كسرى : « قد فهمت ما تكلم به خطباؤكم ولولا علمي
بان الادب لم يثقف اودكم وانه ليس لكم ملك يجمعكم فتنطقون بين يديه
منطق الرعية الخاضعة لم اجز لكم كثيراً مما تكلمتم به . واني لاكره ان اجبه
وفودي ~~[illegible]~~ وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب وصفحت عما كان
فيه من خلل فانصرفوا الى ملككم فاحسنوا ~~[illegible]~~ موازرته والتزموا طاعته واردعوا
سفهاءكم واقيموا اودهم وأحسنوا ادبهم فان في ذلك صلاح العامة » .
ثم اكرمهم واحسن اليهم فعادوا الى ديارهم . وان شئت الاطالة في قصة الوفود
فقد وردت في المجلد الاول من العقد الفريد لابن عبد ربه فارجع اليه . ولما انتقل
ملك فارس الى كسرى ابرويز بن هرمز الرابع اراد مصاهرة العرب فارسل الى
النعمان يخطب منه بعض بنات عمه لاولاده . فامتنع النعمان وقال للرسول :

الا ما في عينه السواد وفارس ما تبتغون به حاجتكم ؟ » وكتب الى كسرى يعتذر له بأنه
ليس في بنات عمه ما يرضيه . وانصرف الرسول فاعاد ما قاله النعمان وترجم له
لفظة « العين » بالبقر : وهي من الاوصاف الحسنة في العربية لتشبيه عيون النساء
بعيون البقر في السعة والملاحة . فكان كلامه : « ما في بقر السواد وفارس
ما تبلغون به حاجتكم » فأغضب هذا القول كسرى . وسكت أشهراً . ثم بعث
الى النعمان يستقدمه اليه . وعلم النعمان بما كان . فاخذ سلاحه واموالهُ ولجأ
الى بعض القبائل فلم يجيروه حتى نزل على بني شيبان سراً فاودعهم اهله
وماله وتوجه مستسلماً الى كسرى . فقبض عليه وارسله [redacted] مقيداً
الى خانقين . فاقام بها حتى اصابها وباء فمات بالطاعون . وبسببه يموتا
كانت واقعة ذي قار بين الفرس والعرب : فان كسرى لما [redacted] اعتقل النعمان ارسل
الى بني شيبان يطلب ما أودع عندهم . فامتنعوا من تسليمه . فجهز لهم الجيوش
واجتمعوا في مكان يعرف بذي قار فنشبت الحرب وابلت بنو [redacted] حسناً
وانهزمت العجم وذلك بعد البعثة النبوية وقبل الهجرة . وكان كسرى قد ولى
على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي فلما ضعف امرهم عن قتال العرب عاد بنو
لخم الى حكمها فتولى الاسود بن المنذر اخو النعمان ثم المنذر الخامس بن
النعمان وهو آخر ملوك العراق [redacted] وفي زمنه استولى خالد بن الوليد
على الحيرة فصالحه اهلها كما هو مسطور في كتب الفتوح .

وصاحب هذه الترجمة النعمان بن المنذر ذهب جماعة من ثقاة المؤرخين
الى انه صاحب الغريين ويومي البؤس والنعيم وقاتل عبيد بن الابرص
وقد اوردنا الكلام على كل ذلك في ترجمة المنذر بن ماء السماء السالفة
فارجع اليه . وانت تعلم ان مثل هذه الحوادث من وقائع الاجيال الخالية
لا يجد المؤرخ اليوم ما يعول عليه فيها الا النقل وتحري اصح الاقوال وقد
تعارضت في هذا الامر الآراء وصعب الترجيح فانظر وتأمل واختر ما يقوى لديك .

قيس

قيس بن زهير

— ماتَ سنة ١٠ م —

الامير قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي : امير عبس وداهيتها واحد السادة القادة في عرب العراق . كان يلقب بقيس الرأي لجودة رأيه وهو معدود في الامراء ، والدهاة ، والشجعان ، والحكماء ، والخطباء والشعراء : فاما امارته فقد ورثها عن ابيه زهير بن جذيمة امير عبس من قبله . واما دهاؤه ففيه المثل السائر « ادهى من قيس » واما شجاعته فحروبه مع بني فزارة وذبيان شاهد صدق على ما يقال . واما حكمته فله في اقواله غرر تحفظ من الشعر والنثر ؛ وهو خطيب مذكور ؛ وشاعر مقطور ؛ عُرفت بقيس تلك المنازل بعد يوم ~~الرهان (راجع ايام العرب) وهو اليوم الذي قُتل فيه حذيفة بن بدر ... بن زهير نفسه قيس لم يكن ليقيم مع القوم ، ولذلك نازل عبس في نجد . فسار الى~~ بعد مقتل ابيه وزبدته أن اباه زهيراً كان سيداً شريفاً فتزوج ملك الحيرة النعمان بن امرئ القيس ابنته (وهو جدُّ النعمان بن المنذر) وارسل النعمان الى زهير يستزيره بعض اولاده فسيَّر اليه ابنه شأساً . فاكرمه وحباه وردَّه الى ابيه . فلما كان شأس في طريقه بماء بني غنيّ اعترضه رياح ابن الأشل الغنويّ فقتله واخذ ما معه . ثم علم زهير بالامر فاغار على بني غني وكانوا حلفاء بني عامر فقتل منهم عدداً كثيراً ووقع الشر بين بني عامر وبني عبس . فترقب خالد بن جعفر العامريّ فرصةً بزهير حتى قتله . وانطلق الى ملك الحيرة النعمان بن امرئ القيس فاستجار به فاجاره فلحقه الحارث بن ظالم المرّي الفاتك المشهور فقتله في الحيرة . واخذ قيس

بن زهير العبسي يتجهز لقتال بني عامر أخذاً بثار أبيه . فوقع خلاف بينه وبين
أحد شيوخ بني عبس الربيع بن زياد . فانضم إلى الربيع أكثر القبيلة . فارتحل
قيس بأهله ومن انحاز إليه حتى نزل بجوار حذيفة وحمل ابني بدر
الفزاريين . وكان لبني عبس قرابة في بني فزارة فأكرموه فأقام فيهم .
وكان مع قيس أفراس له ولوفرتها رآها حذيفة فحسده عليها . وجرى
حديث الخيل بينهما فقال حذيفة لقيس : فرسي الغبراء أسبق من فرسك
داحس . فخالفه قيس . فتراهنا . وضمرا الفرسين واختار كل منهما
فارساً لفرسه وأرسلوها وركب القبيلة وقوف ينظرون وكانت
مسافة السباق بعيدة فأقام حذيفة رجلاً في طريقه وأمره إذا رأى
داحساً سابقاً فليعترضه حتى تجوزه الغبراء . وسبق داحس
فلطمه الرجل وحوله عن السير وهو على شفير واد فهوى الفرس بفارسه
فلما دار بهما . ومرت الغبراء فسبقت . ثم أقبل راكب داحس
يسير الهوينا فقص عليهم خبره فكذبه حذيفة فتشاجر حذيفة
وقيس وافترقا فأرسل حذيفة ابنه ندبة يطلب قيساً بالرهان فرده
قيس فأغلظ ندبة الكلام لقيس فطعنه فقتله . ونادى قيس بأهله
فركبوا وابتعدوا . وبلغ حذيفة ما كان بابنه فطلب قيساً فلم يدركه .
وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجاً في فزارة وهو مقيم بينهم . فرآه
حذيفة بعد ذلك فقتله . وشاع مقتل مالك فحزنت عليه عبس وبعثوا
إلى قيس أن يأتيهم بمن معه فجاءهم قيس فلقيه الربيع بن زياد فتعانقا
وبكيا لمصابهم بمالك . فقال قيس للربيع : «إنه لم يهرب مني من لجأ إليك
ولم يستغن عنك من استعان بك وقد كان لك شر يومي فليكن لي خير
يوميك وإنما أنا بقومي وقومي بك وقد أصاب القوم مالكاً ولستاهم بسود
لوفي

لاني ان حاربت بني بدر نصرتهم بنو ذبيان وان حاربتني خذلني بنو عبس لانه تحملهم عليّ وانا والقوم في الدماء سواء قتلت ابنهم وقتلوا اخي فان نصرتني طمعت فيهم وان خذلتني طمعوا فيّ». فقال الربيع: «يا قيس انه لا ينفعني ان ارى لك من الفضل ما لا اراه لي ولا ينفعك ان ترى لي ما لا اراه لك. وقد مال عليّ قتل مالك. وانت ظالم ومظلوم. ظلموك في جوادك وظلمتهم في دمائهم وقتلوا اخاك بابنهم. فان يَبُؤ الدم بالدم فعسى ان تلقح الحرب أتم معك واحبُّ الامرين اليّ مسالمتهم وتخلو بطلب ثأر ابيك». وعلم حذيفة باتفاقهما فشق ذلك عليه واستعد للقتال. ثم حدثت الوقائع المعروفة بحرب داحس والغبراء وعظم الشر والبلاء. وانضمت ذبيان الى فزارة فكانت وقعة جفر الهباءة وفيها قتل حذيفة وحَمَل ابنا بدر وعدد كبير من فزارة وعبس وبمقتل حذيفة واخيه انحسم الشر ودخل بعض امراء القبائل في الصلح بينهم. فاذن قيس لقومه بالصلح. وسلك وتنسك وسار عنهم لا يريد امارة ولا سيادة فنزل بني النمر بن قاسط [illegible] ثم دعاهم يوماً فخطبهم فقال:(١)

«يا معاشر النمر أنا قيس بن زهير، غريب حريب طريد شريد موتور فانظروا لي امرأة قد ادبها الغنى واذلها الفقر». فزوجوه بامرأة منهم. فقال لهم: «اني لا اقيم فيكم حتى اخبركم باخلاقي: أنا فخور غيور أنِفٌ. ولست افخر حتى أُبتلى ولا اغار حتى ارى ولا آنف حتى أُظلم». فرضوا اخلاقه. فاقام فيهم حتى ولد له. ثم اراد ان يتحول عنهم. فقال: «يا معشر النمر إن لكم حقاً عليّ في مصاهرتي فيكم ومقامي بين اظهركم واني موصيكم بخصال آمركم بها وانهاكم عن خصال: عليكم بالاناة: فان بها تُدرك الحاجة وتُنال الفرصة. وتسويد من لا تُعابون بتسويده. والوفاء بالعهود: فان به يعيش الناس. واعطاء ما تريدون اعطاءه قبل المسألة.

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

ومنع ما تريدونه منه قبل الانعام . وإجارة الجار على الدهر . وتنفيس البيوت عن منازل الأيامى . وخلط الضيف بالعيال . وأنهى كم عن الغدر: فانه عار الدهر . وعن الرهان: فان به ثكلت مالكا أخي . وعن البغي: فان به صرع زهير أبي . وعن السرف في الدماء: فان قتلى أهل الهباءة أورثتني العار . ولا تعطوا في الفضول: فتعجزوا عن الحقوق . وأنكحوا الأيامى الأكفاء فان لم تصيبوا بهن الأكفاء فخير بيوتهن القبور . واعلموا أني أصبحت ظالماً مظلوماً: ظلمني بنو بدر بقتل أخي مالك وظلمتهم بقتل من لا ذنب له .» ثم رحل إلى عمان فتنصر بها وعف عن المأكل حتى أكل الحنظل وما زال بها إلى أن مات .

وقد رُوي له شعر جيد . من قوله بعد وقعة جفر الهباءة يرثي حمل بن بدر:

تعلم أن خير الناس ميت على جفر الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكي عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر بغى والبغي مرتعه وخيم
أظن الحلم دل علي قومي وقد يُستجهل الرجل الحليم
ومارست الرجال ومارسوني فمعوج علي ومستقيم
فلا تغشى المظالم لن تراه يمتع بالغنى الرجل الظلوم

وقوله:

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
شفيت بقتلهم لغليل صدري ولكني قطعت بهم بناني!

وقوله:

إذا انت اقررت الظلامة لامرئ رماك بأخرى شبكها متفاقم
فلا تُبد للأعداء إلا خشونة فما لك منهم إن تمكنت راحم

(١) أخباره كثيرة تجدها في كامل التواريخ (ج ١ ص ٢٠٤) وفي شرح النهج لابن أبي الحديد (ج ٤ ص ١٠٠) وأكثر مصنفات الأخبار .

الخلفاء

الخلفاء الراشدون

{ علاوة }

الخليفة لقب كل ملك شرعي من ملوك الاسلام وهو كقيصر عند الروم والنجاشي عند الحبشة . وامتاز من خلفاء المسلمين اربعة هم سادة من ملك بعدهم نهجوا منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتدوا بهديه اولهم ابو بكر ، والثاني عمر ، والثالث عثمان ، والرابع علي رضوان الله تعالى عليهم . وهم الذين قاموا بجمع شتات المسلمين بعد وفاة النبي صلوات الله عليه وسنوا القوانين الاسلامية باعمالهم واقوالهم وجمعوا القرآن الكريم وكانوا قدوة لمن بعدهم . وينفردون بصفة خاصة بهم دون سائر خلفاء الاسلام وهو لقب الراشدين . كما ان ثانيهم عمر بن الخطاب رضوان الله احدث في الاسلام تلقيب كل ملك منهم بامير المؤمنين وجرت سنة في الملوك مقترنة بلقب الخلافة فكل ملك مسلم جمعت فيه شرائط التمليك من المسلمين يجوز له ان يدعى « امير المؤمنين الخليفة .. »

وهذا الفصل انما افردته لترجمة هؤلاء الاربعة الكرام وسيعقبه ان شاء الله الكلام على غيرهم كخلفاء الامويين في المشرق والمغرب وخلفاء بني مروان وبني العباس وامثالهم من حكموا البلاد وساسوا العباد وكان لهم القول والحول والطول والسيادة والقيادة والوفادة نقدم المتقدم في عصره ونؤخر عنه من تلاه جريا مع العصور والازمنة بحيث تتألف منذ هذا الفصل الى بدء فصل الامراء والوزراء سلسلة محكمة ينتظم بها ذكر اشهر الخلفاء الاسلاميين من وسألتزم في ذلك جانب الاختصار والايجاز ما استطعت وما تضافرت اجزاء الفوائد التاريخية فلا يفوتني من اخبار المترجم الا ما هو دون ما ذكرت واوردت

والله نعم العون

ابو بكر الصديق

— ولد سنة ٥١ ق.هـ وتوفي سنة ١٣ هـ —

توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واضطرب امر المسلمين من بعده في من يتولى امرهم فما زالوا حتى اتفقت كلمتهم على الصحابي الجليل ابي بكر عبد الله بن ابي قحافة عثمان بن عمرو بن كعب التيمي القرشي اقرب الناس مودة من النبي واول من آمن به من الرجال واحد عظماء اصحابه الذين جاهدوا في الله حق جهاده وبذلوا النفس والنفيس في سبيل اعزاز دينه: بويع بالخلافة يوم وفاة النبي في ١٢ ربيع الاول سنة ١١ هـ فخطب في المسلمين خطبة طويلة يحفظ منها: «ايها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم وان اقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له حقه وان اضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل. ايها الناس انما انا متبع لا مبتدع اطيعوني ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. ان احسنت الحسن فاعينوني عليه وان زغت فقوموني» وكان في الجاهلية على سيادة ورئاسة وكانت العرب تدعوه «عالم قريش» وله ثروة طائلة وربما عالج تجارة البز وهو من علماء الانساب المذكورين كان عارفاً باخبار القبائل وبطون العرب وجاهليتهم كارها للشيء من عادات الجاهلية وحرّم على نفسه الخمر فلم يشربها. ولما نال الخلافة في الاسلام قام بشؤون الامة حق القيام فحارب الذين ارتدوا عن الدين الاسلامي وقاتل الذين امتنعوا من اعطاء الزكاة ثم اتجه الى الاستعمار والفتح فافتتحت في ايامه الشام وقسم كبير من العراق والفضل له قواد امثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وابي عبيدة بن الجراح والعلاء بن الحضرمي ويزيد بن ابي سفيان والمثنى بن حارثة وازدهرت ايام العالم الاسلامي في زمنه وود الناس لو طالت ولكن المنية عاجلته فاصابته حمى شديدة فعهد بالامر من بعده لعمر بن الخطاب حذراً من اختلاف الامة بعده كما اختلفت بعد رسول الله. ومات بعد ان حكم سنتين وثلاثة اشهر ونصف شهر وعمره

وعمره ثلاث وستون سنة: وكان موصوفاً بالحلم والصبر والرأفة بالعامة عادلاً في أحكامه اثبت في الوقائع الاسلامية في حياة الرسول وبعده حباً عجيباً وولعاً غريباً بخير الامة ونفعها. والظهر شجاعة وبسالة يحدث عنها ما اخرجه البزار في مسنده عن علي انه قال: اخبروني من اشجع الناس. فقالوا انت. قال: اما اني ما بارزت احداً الا انتصفت منه ولكن اخبروني باشجع الناس. قالوا: لا نعلم فمن؟ قال: ابوبكر انه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله عريشاً فقلنا من يكون مع رسول الله لئلا يهوي اليه احد من المشركين. فوالله ما دنا منا احد الا ابابكر شاهراً سيفه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوي اليه احد الا هوى اليه فهو أشجع الناس.» الى آخر الحديث. وقد شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم اكثر الغزوات وهو صاحبه في الغار ساعة لا ثالث لهما الا الله. وكان خطيباً لسناً وله مقالات محفوظة وكلمات مأثورة. ومن خيار ما ينقل عنه وصيته ليزيد بن ابي سفيان لما ولاه قيادة جمهور من المسلمين وسيّره لفتح الشام فانه شيّعه ماشياً وهو يقول له:

« اني قد وليتك لأبلوك واجربك. فان احسنت رددتك الى عملك. وزدتك. وان اسأت عزلتك. فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك. واذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم اياه. واذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً. وأصلح نفسك يصلح لك الناس. واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به. وأنزلهم في ثروة عسكرك. وامنع من قبلك من محادثتهم. وكن انت المتولي لكلامهم. واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق من المشورة ولا تكتم عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك. واسهر بالليل في اصحابك تأتك الاخبار. وتنكشف عندك الاستار. واكثر حرسك وبددهم في عسكرك. واكثر مفاجآتهم في محارسهم بغير علم منهم: فمن وجدته

غفل عن حرسه فأحسن ادبه وعاقبه في غير افراط. . أعقب بينهم بالليل
واجعل النوبة الاولى اطول من الاخيرة: فانها ايسرها: لقربها من النهار.
لا تجالس العباثين وجالس اهل الصدق والوفاء. واصدق اللقاء ولا تجبن
فيجبن الناس. ولا تغفل عن اهل عسكرك فتفسده. ولا تجسس
عليهم فتفضحهم. ولا تكشف الناس عن اسرارهم واكتف بعلانيتهم. وتجد
اقواما حبسوا انفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا انفسهم له.»

ومن كلامه: «ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر:
قال الله تعالى: يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم. وقال: ومن نكث فانما
ينكث على نفسه. وقال: ولا يحيق المكر السيء الا باهله.»

وهو القائل لخالد بن الوليد: «فرّ من الشرف يتبعك الشرف. واحرص
على الموت توهب لك الحياة.» يريد بالشرف الرياسة والسيادة.

ولما عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب كان كتاب عهده ما ترى:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما عهد به ابو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله
عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا واول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن
فيها الكافر ويتقي الفاجر. اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب: فانه برّ
وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه. وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب. والخيرَ
اردتُ. ولكل امرئ ما اكتسب. وسيعلم الذين ظلموا ايَّ منقلب
ينقلبون.» فانظر الى الانشاء العذب الذي يمثل لك البلاغة
بأوضح معانيها كما انت تراه في تضاعيف كلامه وخطبه ووصاياه.
رضوان الله عليه. وكان اذا خطب يقول في ختام كلامه: «اللهم اجعل
خير زماني آخره وخير عملي خواتمه وخير ايامي يومَ ألقاك.» فيُعرف
انه انتهى. والمطلع على هذه النبذة مما نقله عنه المؤرخون. قال بعضهم:
كان ابو بكر اذا سقط خطام ناقته ينيخها ويأخذه. فقيل له:
هلا

هلّا أمرتنا؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً.

ومن مختصر خطبه ما أورده ابن عبد ربه في العقد قوله:

"يا أيها الناس اتقوا الله في سريرتكم وعلانيتكم وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ولا تكونوا مثل قوم كانوا في سفينة فأقبل أحدهم على موضعه يخرقه. فنظر إليه أصحابه فمنعوه. فقال: هو موضعي ولي أن أحكم فيه. فإن أخذوا على يده سلم وسلموا. وإن تركوه هلك وهلكوا معه وهذا مثل ضربته لكم رحمنا الله وإياكم.." وقد جمع الفاضل صاحب كتاب أشهر مشاهير الإسلام طائفة كبيرة من أخباره وآثاره بلغت مئة وخمسين صفحة فارجع إلى الجزء الأول منه إن شئت الاطلاع على أكثر ما قدمت لك. وأما كتب التاريخ كتاريخ أبي جعفر الطبري وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وأشباهها فهناك الكثير من أنبائه رضي الله عنه. ودفن مع النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة عائشة.

عمر بن الخطاب

— ولد سنة ٤٠ ق هـ وتوفي سنة ٢٣ هـ —

مضى الخليفة الراشد الأول لسبيله بعد أن اختار للمسلمين إماماً كان له من الذكر ما لم يكن لأحد من قبله ومن بعده: أعني ثاني الخلفاء الراشدين أبا حفص عمر ابن الخطاب بن نفيل القرشي. ذلك الرجل الكبير. وما أحسبني إلا على شيء من الجرأة وقد هممت بالإشارة إلى بعض أنبائه في صفحات يسيرة من هذا الكتاب الذي رضيته عن الإطالة والإكثار من الأخبار. ولكنه قول ما لا يستطاع كله لا يترك قله هذا إلى أن أقول:

كان عمر "رضي الله عنه" من أشراف العرب ووجوههم في الجاهلية والإسلام. أما في الجاهلية فكانت له السفارة في قريش: وذلك أنهم إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً. وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به. وأما في الإسلام فحسبك أن رسول الله كان يدعو ربه أن يعز به دينه.

وكان يرتزق من التجارة بين الشام والحجاز حتى ولي الخلافة . أسلم قبل الهجرة بخمس
سنين ونصر الإسلام نصراً مبيناً . وكان شجاعاً مهيباً طويل القامة: إذا مشى فكأنه
راكب والناس يمشون . وبويع بالخلافة سنة ١٣هـ يوم وفاة أبي بكر . فحذا حذوه
وسلك سبيله: فسيّر البعوث وجيّش الجيوش: فأتمّ فتح الشام والعراق وفتح القدس
والمدائن ومصر والجزيرة . ودوّن الدواوين على الطريقة الفارسية لإحصاء أرباب
الأعطيات وتوزيع المرتّبات المالية عليهم . ووضع للمسلمين التاريخ الهجري وكانوا يؤرخون
بالوقائع الشهيرة كعام الفيل وعام الفجار . وكانوا يتعاملون بالدراهم والدنانير
الفارسية والرومية فضرب عمرُ الدراهم على نقش الكسروية وزاد في بعضها «الحمد لله» وفي بعضها
«محمد رسول الله» . واتخذ بيت مال للمسلمين . وأمَر ببناء مدينتي البصرة والكوفة
فشُيدتا . وهو أول من دُعي بأمير المؤمنين ؛ وكانوا ينادونه يا خليفةَ خليفةِ
رسول الله . فاستُثقلت . وضُرب بعدله المثل : قال علي بن أبي طالب: «إن الله
جعل أبا بكر وعمر حجةً على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة فسبقا والله
سبقاً بعيداً وأتعبا من بعدهما إتعاباً شديداً ، فذكرهما حزن للأمة
وطعن على الأئمة ..» وكان يطوف في الأسواق منفرداً ويقضي بين الناس
حيث أدركه الخصوم . وقصة «اضرب ابن الأكرمين» من غريب أخباره : روى
أنس بن مالك فقال : بينا كان عمر جالساً أتاه رجل من أهل مصر فقال :
يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك . فقال عمر : لقد عذت بمجير فما شأنك؟
فقال : سابقتُ بفرسي ابناً لعمرو بن العاص (وهو يومئذ أمير مصر) فجعل يعلوني
بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين . فبلغ ذلك أباه عمراً فخشي أن آتيك
فحبسني في السجن فانفلتُّ منه حتى أتيتك . فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو
بن العاص : إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان . وقال
للمصري : أقم حتى يأتيك . فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج وقعد عمر
مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه . فقام المصري . فرمى إليه عمر بالدرة
(وهي سوطه) ؛ وأشار إليه أن يضرب ابن عمرو . قال أنس : فلقد ضرب
ونحن

ونحن نشتهي ان يضربه، فلم ينزع حتى اشتهينا ان ينزع من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين! فقال المصري: يا امير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت. قال: ضعه على صلع عمرو. قال: يا امير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني. قال: اما والله لو فعلت ما منعك احد حتى تكون انت الذي تنزع. ثم اقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو! متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا؟. فجعل عمرو يعتذر اليه، ويقول: اني لم اشعر بهذا.. قال الغزالي في احياء علوم الدين: وشهد عند عمر شاهد فقال: ائتني بمن يعرفك. فأتاه برجل: فأثنى عليه خيرا. فقال له عمر: انت جاره الادنى الذي يعرف مدخله ومخرجه؟ قال لا. فقال: كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الاخلاق؟ قال لا. قال: فعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل؟ قال لا. قال: اظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه طورا ويرفعه اخرى؟ قال: نعم! فقال: اذهب فلست تعرفه. وقال للرجل: اذهب فائتني بمن يعرفك.. وذكر عنده رجل فقيل: يا امير المؤمنين: فاضل لا يعرف من الشر شيئاً. فقال: ذاك اوقع له فيه..

وكتب الى ابي موسى الاشعري كتابا يوصيه فيه: نقله ابن قتيبة في عيون الاخبار، نصه:

«اما بعد فان للناس نفرة عن سلطانهم فاعوذ بالله ان تدركني وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة. أقم الحدود ولو ساعة من نهار. واذا عرض لك امران: احدهما لله والآخر للدنيا: فآثر نصيبك من الله: فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى. أخِف الفساق واجعلهم يداً يداً ورجلاً رجلاً. وعد مريض المسلمين. واشهد جنائزهم. وافتح لهم بابك. وباشر امورهم بنفسك: فانما انت رجل منهم غير ان الله جعلك اثقلهم حملاً. وقد بلغني انه فشا لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها: فاياك يا عبد الله ان تكون بمنزلة البهيمة: مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم الا السمن: وانما حتفها في السمن. واعلم ان العامل اذا زاغ زاغت رعيته. واشقى الناس من شقي الناس به والسلام.»

وهذه خطبة أوردها له أبو جعفر الطبري قال: قال عمر:

"إن الله عز وجل قد ولاني أمركم وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم وإني أسأل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به. ولن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً. فلا يقولن أحد منكم: إن عمر قد تغير منذ ولي: أعقل الحق من نفسي وأتقدم وأبين لكم أمري فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا في خلق فليؤذني فإنما أنا رجل منكم. فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم وحرماتكم وأعراضكم. وأعطوا الحق من أنفسكم. ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إليّ فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة. وأنا حبيب إليّ صلاحكم. عزيز عليّ عتبكم. وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه. ومطلع على ما بحضرتي بنفسي إن شاء الله لا أكله إلى أحد ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله."

ومن كلامه رضي الله عنه: لا تؤخر عمل يومك إلى غدك. لست بخب والخب لا يخدعني. اتقوا من تبغضه قلوبكم. إنما مثل العرب: مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقوده. لا ينبغي أن يلي هذا الأمر إلا رجل فيه أربع خصال: اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف والإمساك في غير بخل والسماحة في غير سرف فإن سقطت واحدة منها فسدت الثلاث. من كتم سره كان الخيار في يده. مروا ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. تعلموا المهنة: فإنه يوشك أحدكم أن يحتاج إلى المهنة. إياكم والمعاذير: فإن كثيراً منها كذب.

ولما كان فجر يوم الاربعاء لاربع ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ ووقف عمر للصلاة بالناس فاجأه فيروز ابو لؤلؤة الفارسي غلامُ المغيرة بن شعبة فطعنه في خاصرته بخنجر ذي رأسين مسموم فسقط من فانثال الناس على الفارسي يريدون القبض عليه فطعن منهم ثلاثة عشر رجلاً هلك سبعة منهم ثم طعن نفسه فمات منتحراً . واختلف اصحاب الاخبار في الدافع الحقيقي لابي لؤلؤة على عمله فقيل انه شكا لعمر ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولاه المغيرة فلم يره كثيراً فحقد عليه فضربه وقيل في ذلك : وكله وهم وامور اتخذها القوم الفارسي ليستر بها مؤامرة سياسية كانت بينه وبين جفينة النصراني من اهل الحيرة والهرمزان الفارسي ولا يُعلم ان كان ثمة غيرُهما فان عمر ابقى في قلوب الفرس والروم جروحاً لا تأسوها اليوم : او ليس الذي قوّض اركان دولة الاكاسرة وزلزل عروش القياصرة بحزمه وبأس رجاله ؟ كان فيروز الفارسي رجلاً غيوراً على امته اخزته الآلام مما صنع امير المؤمنين بقومه فاراد الانتقام ففعل ما فعل . واُخذ عمر الى داره فدعا بعلي وعثمان والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وامرهم ان يتشاوروا في امر الخلافة وان ينتظروا طلحة فان ابطأ فليقضوا بأمرهم وان يُشهدوا عبد الله ابن عمر (ابنه) وليس له ان يولّى . وانما صنع ذلك ليتخلص من تبعة خَلَفه وليكون امر المسلمين شورى . وقيل له في ذلك فقال : ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني (يريد رسول الله) وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني (يعني ابا بكر) . وكأنه بهذا القول يشير الى حَيْرة عرته في الامر فاختار سنة النبي الامين ولم يعهد الى احد . وعاش ثلاث ليال ثم لقي ربه .

هذا ما اتسع المجال لايراده من اخبار اعدل الخلفاء وابر الابرار رضوان الله ورحمته عليه وان شئت الزيادة فعليك بكتاب اشهر رجال الاسلام فهنالك نحو ثلاث مائة صفحة جمعت من اخباره ما لا تراه في غيرها .

عثمان بن عفان

— ولد سنة ٤٧ ق.هـ وتوفي سنة ٣٥ هـ —

توفي عمر بن الخطاب وترك الامر شورى في ستة من كبار المسلمين ولهذا حديث طويل تجده في تاريخ الطبري ثم تم رأيهم على ان يكون ثالث الخلفاء الراشدين ذو النورين عثمان بن عفان بن ابي العاص بن امية: نودي به خليفة في المسلمين بعد وفاة عمر بثلاثة ايام. وهو احد الرجال الذين اعز الله بهم الاسلام من السابقين الى الدين وله في سبيل الدعوة الاسلامية ايادٍ بيضاء. وهو صاحب جيش العسرة: وذلك ان رسول الله لما حشد جيش العسرة في غزوة تبوك وقف في القوم فقال: من يُنفق اليوم نفقة متقبّلة؟ فلم يكن من عثمان الا ان جهّز نصف الجيش من ماله فبذل ثلاث مئة بعير باقتابها واحلاسها وتبرع بألف دينار. فقال رسول الله: ما ضرَّ عثمانَ ما عملَ بعد اليوم. ولما ولي الخلافة كتب الى امراء الامصار يقول:

"اما بعد فان الله امر الائمة ان يكونوا رعاةً ولم يتقدم اليهم ان يكونوا جباةً وان صدر هذه الامة خُلقوا رعاةً ولم يُخلقوا جباةً وليوشكنَّ ائمتكم ان يصيروا جباةً ولا يصيروا رعاةً، فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء. ألا وان اعدل السيرة ان تنظروا في امور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ثم العدوَّ تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء." .. وكتب الى امراء الجنود في الثغور:

"اما بعد فانكم حُماة الاسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم [redacted] بل كان عن ملأ منّا ولا يبلغني عن احد منكم تغيير ولا تبديل فيغيّر الله ما بكم ويستبدلَ بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني انظر فيما الزمني الله النظر فيه والقيام عليه ..." وكتب الى عمال الخراج:

"اما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق. خذوا الحق:

الحق واعطوا الحق به ، والامانة الامانة : قوموا عليها ولا تكونوا اول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد : فان الله خصم لمن ظلمهم .» .. وكتب الى العامة من المسلمين بالامصار :

« اما بعد فانما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن امركم فان امر هذه الامة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم وبلوغ اولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الكفر في العجمة : فاذا استعجم عليهم امر تكلفوا وابتدعوا .» .

وسار عثمان في بادئ الامر سيرة من تقدمه ثم ما لبث ان جعل يتشيع لاقاربه من بني امية فيعزل عن البلاد الاكفاء ويوليها من لا يصلح لها منهم وقد كان عمر يتخوف ذلك منه . قال العلامة ابن ابي الحديد في شرح النهج من فصل عقده لذكر ما نقم على عثمان في خلافته :

« لما ولي عثمان صحت فيه فراسة عمر فانه اوطأ بني امية رقاب الناس وولاهم الولايات واقطعهم القطائع وافتتحت ارمينية في ايامه فاخذ الخمس كله فوهبه لمروان ابن الحكم . وطلب منه عبدالله بن خالد بن اسيد صلة فاعطاه اربع مئة الف درهم . واعاد الحكم بن ابي العاص بعد ان سيّره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يردّه ابو بكر ولا عمر واعطاه مئة الف درهم . وتصدق رسول الله بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور على المسلمين فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم اخا مروان . وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم الا عن بني امية . واعطى عبدالله بن ابي سرح جميع ما افاء الله عليه من فتح افريقية بالمغرب - وهي من طرابلس الغرب الى طنجة - من غير ان يشركه فيه احد من المسلمين . واعطى ابا سفيان بن حرب مئتي الف من بيت المال في اليوم الذي امر فيه لمروان بن الحكم بمئة الف من بيت المال وقد كان زوّجه ابنته ام ابان فجاء زيد بن ارقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى فقال

للخلفاء شعر كثير؛ لست ادري مبلغه من الصحة. جاء فيه هذان البيتان لعثمان:

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها ... وان عضها حتى يضر بها الفقر

وما عسرة فاصبر لها ان لقيتها ... بكائنة الا سيتبعها يسر

وترجم في كثير من كتب التاريخ الاسلامي ولعلك تجد ما يكفيك في آثار رجال الاسلام

علي بن ابي طالب

- ولد سنة ٢٣ ق هـ وتوفي سنة ٤٠ هـ -

امير المؤمنين ورابع الخلفاء الراشدين ابو الحسن علي بن ابي طالب بن عبد المطلب القرشي؛ ولد بمكة واسلم صغيرا وناصر ابن عمه كبيرا فكان من اعظم اعوان رسول الله على نشر الدعوة الاسلامية والذود عن حياض شريعة القرآن: وكان ممتازا بثلاث خلال: الشجاعة في الحروب: وهو ابن بجدتها وصاحب الصوت والصيت في المعارك والملاحم. والفقه في الدين: وكان اعلم اصحاب النبي «ص» بالاحكام وبه يضرب المثل في حسن القضاء. والفصاحة في المنطق: وله الخطب الرنانة والاقوال المتناقلة والكلم السوائر. تولى الخلافة بعد مقتل عثمان (عام ٣٥ هـ) فحدثت في ايامه وقائع عظيمة اشدها ما كان بينه وبين معاوية مزاحمه الاكبر على الخلافة والداهية الاموي المشهور.

يكاد الباحث المؤرخ يوجل من ابداء رأيه في صاحب هذه الترجمة عليه الرضى والسلام لما يراه من اختلاف الناس فيه وإذ خالف بعضهم العامة ورهط من الخاصة الحكم عليه في امور الدين: على انه اذا تأنى المنصف اذا وجد مجالا للقول لم يدع الا ان يجهر بحقيقة ما يجب ان يذكر به هذا الخليفة الراشد مما يكون له او عليه. لنترك اقوال الغالين في حبه والذين يبلغون به مقام الربوبية او ما دونها ولندع التعرض للمفاضلة بينه وبين من تقدمه من الخلفاء: فالاولون جهلة اغبياء لا يقاومون بغير التهذيب والتعليم فلا تلبث ان تنقشع عن قلوبهم

تلك

تحت التقاية الرائية والغواية الكامنة. وأما الخلفاء من الأصحاب فكلهم صالح أنصف للدين: لكل منهم مقام ومنزلة لا ينبغي أن يغض عنه أو يخفى. ولا يجاوز الشحناء في مثل هذا لا تجدي من الآراء إلا نفعا. أما ما نقل جماعات المؤرخين من أنه كان الأحق بعد النبوة من أبي بكر وعمر وعثمان: ما يؤدي بفريق من الناس إلى الطعن في رأيهم ونسبتهم إلى الظلم ثم بأن يقال فيهم ما يقال في الظالم المغتصب. إنها أيضاً أمر مفروغ منه: والذي نعتقده أن أبا بكر كان أرضى له والناس من سواه لاطلاعه على روح الدين في نشأته الأولى والثانية: حين كان أمير المؤمنين علي بعد في الفتيان: يقوده إلى الدين حب رسول الله وشغفه بأخلاقه وإحسانه لما جاء به وأبو بكر من شيوخ المسلمين وأهل الحنكة والدربة والعلم والرأي فيهم: فهو أولى بها. واجتهد أبو بكر في المسلمين فعهد إلى عمر فلم يكن دونه ضبطاً للأمور وقياماً بمصلحة الأمة. وانتهى الأمر إلى عثمان فكان في عصره ما كان. وجاءت النوبة إلى علي والناس له يريدون وعليه يجمعون فكان رضي الله عنه شديداً في الدين إذا رأى الرأي لم يردّه عنه راد أن يصدع فيما يأمره به قلبه النقي وما يوحي إليه ضميره الطاهر غير مداور ولا محاب. وأنت ترى أن سياسة الملك ربما قضت على القائم بها أن يغض بصره على بعض القذى وأن يتوقع الفرصة ويتربص للسوانح: فهذا مما أخذه على علي من آخذه: ومن دافع عنه عدّ تلك من سياسة خداع ودهان ورأى علياً عن أضرابه أجدر بأن لا يتصف بها وأحرى بأن يتعرى منها. وذلك ما يظهر لنا في أمر يتجلى لك فيما سنذكره من الكلام على أخباره:

قُتل عثمان وولي عليّ بمبايعة الناس له. فلم يكن ليطيب له الصبر وهو يرى البلاد قد طُوّقت ببني أمية وفيهم الصالح والطالح فسيّر الولاة إلى الجهات وعزل [illegible] بعضاً من ولّاهم سلفه. وكانت بينه وبين معاوية بن أبي سفيان مشادات ومنازلات أشار إليها العلامة ابن أبي الحديد في شرح النهج حكاية عن معاصره أبي جعفر نقيب البصرة قال (ج ٢، ص ٥٧٩): وكيف يتوهم

من يعرف السير أن معاوية كان يبايع لعلي لو أقره على الشام وبينه وبينه ما لا يترك
الدخل عليه من الترات القديمة والأحقاد وهو - أي عليّ - الذي قتل أخاه
حنظلة وخاله الوليد وجده عتبة في مقام واحد ثم ما جرى بينهما في أيام عثمان
حتى أغلظ كل واحد منهما لصاحبه وحتى تهدده معاوية وقال له: إني شاخص
الى الشام وتارك عندك هذا الشيخ - يعني عثمان - والله لئن أنحصت منه
شعرة واحدة لأضربنك بمئة ألف سيف .. الخ. فلما بعث عليّ الرجال الى
الأمصار سيّر سهل بن حنيف والياً على الشام: فسار حتى بلغ تبوك فاذا
خيل من الشام فقالوا: من أنت؟ قال: أمير. قالوا: على أي شيء؟ قال: على الشام.
قالوا: ان كان بعثك عثمان فحيَّ هلا بك وان كان بعثك غيره فارجع. فرجع
الى علي وبلغ معاوية الخبر فقام في الناس فأخبرهم بأن علياً قتل عثمان وحرضهم
على القيام لقتل من اشترك في دمه فاتجهت اليه القلوب. وكان علي (ع) لما
أراد توجيه الأمر بالعزل الى معاوية واضرابه من عمال عثمان نهاه أصحابه وألحوا
عليه ولا سيما المغيرة بن شعبة وعبدالله بن العباس وكانا من خيرة عقلاء المسلمين
ودهاتهم فأبى وأصرّ ~~وهو يقول~~ (راجع كامل ابن الأثير الجزء الثالث) قال له المغيرة: "أقرر معاوية وابن عامر
- والي البصرة - وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس
ثم اعزل من شئت." فكان يقول: "لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنية
في أمري." قال: "فان أبيت فانزع من شئت واترك معاوية فان فيه جرأة
وهو في أهل الشام يُستمع منه ولك حجة في اثباته، كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام"
فقال: "لا والله لا أستعمل معاوية يومين!" ودخل عليه ابن عباس فحدثه عليّ
بقول المغيرة فقال: نصحك. قال: ولم نصحني؟ قال: "لأن معاوية وأصحابه
أهل دنيا فمتى ثبّتهم لا يبالون من ولي هذا الأمر ومتى عزلتهم يقولون أخذ هذا
الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلّبون عليك فتنتقض عليك الشام وأهل
العراق مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرّا عليك وأنا أشير عليك أن تثبت
معاوية فان بايع لك فعليَّ أن أقلعه من منزله." قال علي: "والله لا أعطيه الا
السيف

السيف». فقال ابن عباس: «يا أمير المؤمنين انت رجل شجاع لست صاحب رأي
في الحرب اما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحرب خدعة؟». قال: بلى
قال: اما والله لئن اطعتني لاصدرنهم بعد ورود ولأتركنهم ينظرون في دبر الامور
لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا اثم لك...» فأزمع
عليّ على ما ارتآى ودبّر الرجال فكان لسهل بن حنيف ما كان فلما عاد وأخبره
اخذ يتجهز للزحف على الشام لقتال معاوية من اخذ إخذه. وإذا هم بنبأ جديد:
جمع من المسلمين ثاروا عليه في البصرة برأسهم طلحة والزبير الصحابيان الكبيران
وعائشة ام المؤمنين وكلهم يتهمونه بقتل عثمان. فحوّل عليٌّ قوته اليهم
وتوجه نحوهم فكانت الوقعةُ المعروفة باسم «وقعة الجمل». حاربهم فيها عليّ
بنصراء له من اهل الكوفة والحجاز فظفر بهم وفرّق جمعهم. فلم يطمئن حتى
بلغه وهو في الكوفة ان معاوية يتهيأ للوثوب. فكتب اليه كتاباً يدعوه الى
البيعة له ويؤكد له انه بريء من دم عثمان. فاجابه معاوية بأنه: إن لم يكن
هو قاتل عثمان فانه اغرى به وخذل عنه انصاره. وانه لا يبايع الا بعد امرين:
أن يدفع اليه قتلة عثمان ينتقم منهم. وأن يترك الامر شورى بين المسلمين كما تركه
عمر. فان اتفقوا عليه بايعه. فاغلظ له عليٌّ في الجواب. وترادفت الرسائل
بينهما. ولم يشعر عليٌّ إلا واهل الشام زاحفة بجيوشها عليه. فجهز اهل
العراق ومن كان معه من رجال الحجاز وخرج يريد القتال. فتلاقى الجمعان في
موضع يقال له صِفّين (كسجّيل: موضع بقرب الرَّقة على شاطئ الفرات من جانب
الغربي بين الرقة وبالس) قال ياقوت في معجم البلدان (ج ٥ ص ٣٧٠): «كانت وقعة صفين
في سنة ٣٧ في غرة صفر.. وكان عليّ في مئة وعشرين الفاً ومعاوية في تسعين الفاً..
وقُتل في الحرب بينهما سبعون الفاً منهم من اصحاب علي خمسة وعشرون الفاً ومن اصحاب
معاوية خمسة واربعون الفاً.. وكان مدة المقام بصفين مئة يوم وعشرة ايام.
وكانت الوقائع تسعين وقعة..» واختتمت تلك الحرب الآكلة في ذلك السبب التافه

حتى اتفق الفريقان على تحكيم رجلين منهما والرضى بما يتفقان عليه فاختار معاوية وأصحابه عمرو بن العاص القائد الداهية واختار أصحاب عليّ أبا موسى الأشعري أحد الأشراف وكان في سن الشيخوخة: فخدعه عمرو في حديث طويل (تراه في تاريخ الطبري وابن الأثير) فخلع أبو موسى صاحبه علياً وأثبت عمروٌ صاحبه معاويةَ ~~فبايعه أهل الشام~~ وعليٌّ في الكوفة ومعاوية في الشام فانصرف الناس كل فريق إلى صاحبه وسلَّم أهل الشام على معاوية بالخلافة. وأسف عليّ على ما كان ثم خرجت عليه الخوارج فما زال في حروب وخطوب حتى اعترضه عبد الرحمن بن ملجم المرادي في شهر رمضان لسبع عشرة خلت منه وهو واقف بباب مسجد الكوفة يصيح بالناس: «الصلاة. الصلاةَ» فضربه بسيفه فأصاب قرْنه وفرّ فشد عليه الناس فأمسكوه. وأُخذ عليّ إلى منزله فجمع بنيه وأوصاهم بما يُصلح به دينهم ودنياهم وأمرهم أنه إذا مات فليقتلوا ابن ملجم ولا يمثلوا به. ففعلوا ذلك. ودفن أمير المؤمنين بالكوفة عند مسجد الجماعة في قصر الإمارة. وقال المحققون دفن بالنجف.

ولم يتسع أجل علي كرم الله وجهه لتكون له أوليات كثيرة وإنما عرفوا له منها أنه أول من وضع «بيت القَصَص» وهو غرفة يُلقي بها الناس رقاعهم وشكاواهم: وتبعه بعده خلفاء بني العباس. (ذكره ابن أبي الحديد)

وأما خطبه وأقواله فقد جُمعت في كتاب سُمّي «نهج البلاغة» وربما شك بعض الناس في نسبة جميعه إلى عليّ. وهو في أعلى طبقة من طبقات كلام البشر يحسُنُ بكل مشتغل في اللغة والأدب والإنشاء أن يكثر من تلاوته. وقد شرحه أحد كبار علماء المعتزلة ابن أبي الحديد شرحاً وافياً (انظر ترجمة ابن أبي الحديد) وفي هذا الشرح الكبير تجد جميع أخبار أمير المؤمنين وجانباً عظيماً من أخبار صدر الإسلام والمباحث الجدلية والفلسفية النافعة.

ومن كلامه: المرء مخبوء تحت لسانه. الناس أعداء ما جهلوا. لا راحة لحسود. لا مروءة لكذوب. الراحة مع اليأس. من كثر مزاحه لم يَخْلُ من حقد عليه أو استخفاف به. كفى أدباً لنفسك ما كرهته من غيرك

غيرك . من أكثر من شيء عُرف به . الناس من خوف الذل في الذل . خير اموالك ما كفاك . وخير اخوانك من واساك . من عذب لسانه كثر اخوانه . البر يستعبد الحر . اذا تم العقل نقص الكلام . النصح بين الملأ تقريع . من اكثر فكره في العواقب لم يشجع . من أُعجب برأيه ضل . ومن استغنى بعقله زلّ . . وجاء في احدى خطبه بصفين يوصي الجيش : « لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم : فاذا هزمتموهم فلا تقتلوا مُدْبِراً ولا تُجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا ولا تأخذوا مالاً ولا تهيجوا امرأة وان شتمتكم : فانهن ضعاف الانفس والقوى . » ومن كلامه : قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك هذا ينفر الناس بتهتكه وهذا يُضل الناس بتنسكه . ما ذبّ عن الأعراض كالصفح والإعراض . وقال لابنه الحسن : يا بني ابذل لصديقك كل المودة ولا تطمئن اليه كل الطمأنينة وأعطه كل المواساة ولا تفش له كل الأسرار . وقال : من كثر ذنبه لم تقر عينه . من فعل ما شاء لقي ما ساء . من استهان بالرأي منك ومن كابد الامور هلك . من حسنت سياسته دامت رياسته . من ركب العجلة لم يأمن الكبوة . وعنه رضي الله عنه : الوحدة راحة والعزلة عبادة والقناعة غنى والاقتصاد بُلغة والعزيز بغير الله ذليل والغني الشره فقير ولا تعرف الناس الا بالاختبار فاختبر اهلك وولدك في غيبتك وصديقك في مصيبتك وذا القرابة عند فاقتك والتودد والملق عند عطلتك لتعلم بذلك منزلتك .

وجاء في خطبة أثبتها الجاحظ في البيان والتبيين :

« أما بعد فان الجهاد باب من ابواب الجنة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذلة وشمله البلاء وألزمه الصغار وسيم الخسف ومنع النَّصف ألا واني قد

دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم - يريد بني غامد - ليلاً ونهاراً سراً وإعلاناً
وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ما غُزي قوم قط في عقر دارهم إلا
ذلوا فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهرياً حتى
شُنّت عليكم الغارات هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار وقتل
ابن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين
وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة
فينتزع أحجالها وقلبها ورعثها ثم انصرفوا وافرين ما كلم رجل
منهم كلماً فلو أن امرأً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان عندي ملوماً
بل كان عندي جديراً بذلك فيا عجباً من جد هؤلاء القوم في باطلهم وفشلكم
عن حقكم فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يُرمى وفيئاً يُنهب يُغار
عليكم ولا تغيرون وتُغزون ولا تغزون ويُعصى الله وترضون
فإذا أمرتكم بالسير إليهم في الحر قلتم حمارة القيظ أمهلنا حتى ينسلخ عنا الحر
وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم أمهلنا حتى ينسلخ عنا القر كل هذا فراراً
من الحر والقر ؟ فإذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفر .
يا أشباه الرجال ولا رجال ! ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال !
وددت أن الله أخرجني من بين ظهرانيكم وقبضني إلى رحمته من بينكم والله
لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفتكم والله جرت ندماً وورثت صدري
غيظاً وجرعتموني الموت أنفاساً وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان
حتى قالت قريش إن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم !
وهل منهم أحد أشد لها مراساً وأطول لها تجربة مني ؟ لقد مارستها
وما بلغت العشرين فيها وقد نيفت على الستين ولكن لا رأي لمن لا
يُطاع . » قال الجاحظ : وهذه الخطبة خطب عليٌّ بها الناس وهو
جالس على باب السدة . أقول : وذلك في الكوفة فإنه كان اتخذها دار
امارة

امارة له . وروى له اصحاب المجاميع والاقاصيص شعراً جمعوه في كتيب سموه « ديوان علي بن ابي طالب » ، وجلُّ او كل ما ينطوي به براءته منه عليّ لبعده عن بلاغة معاني امير المؤمنين وفخامة الفاظ ذلك الجيل العربي المحض وما يذكرون ويعزونه اليه اشبه بشعر الفقهاء والمؤدبين فاين هو ممن نال شأوا في البلاغة عليه رضوان الله وسلامه . وقرأت في تاريخ النحاة للسيوطي كلمة نقلها عن المرزباني قال : ما صح عندنا ولا بلغنا أن عليّ بن ابي طالب قال شعراً الا هذين البيتين :

تلكم قريش تمنّتني لتقتلني فلا وربك ما برّوا ولا ظفروا
فان هلكتُ فرهنٌ ذمتي لهمُ بذات روقين لا يعفو لها أثرُ

بنو أُميّة في الشام

[توطئة]

مضى الكلام في المصنف السابق على القسم الأول من كتاب الملوك والأمراء وكان فيه الكلام على الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين. وهذا هو القسم الثاني نورد فيه تراجم ملوك بني أمية في الشام وهم الذين ورثوا الخلافة الإسلامية عن الحسن بن علي بن أبي طالب كما جاء في الكلام عليه. وإنما خصص بالذكر من كان في الشام منهم إعلاماً بأن ملوك الأندلس الذين هم من بني أمية سيجري البحث عن رجالهم في فصل [illegible] متقدمهم [illegible]. والدولة الأموية استقرت في الشام أول أمرها معاوية بن أبي سفيان وكان كما سترى في ترجمته أميراً على الشام من قبل عمر بن الخطاب ثم أقره على ولايته عثمان بن عفان ولما ولي علي بن أبي طالب عزله عنها فوثب عليه واتخذ سيرته ثوباً دينياً فادعى أنه لا يبايع علياً من أجل عثمان وربيبته وأنما هو يعتقد أن علياً قتل عثمان أو اشترك بدمه فهو يريد قتلته ويطلب دمه على نحو ما أوردنا في ترجمة علي. وانتهى الأمر بأن كان في المسلمين خلافتان في زمن واحد: راشدية في العراق وصاحبها علي بن أبي طالب وأموية في الشام وصاحبها معاوية بن أبي سفيان. فلما مات قتيلاً بايع أصحابه ابنه الحسن فصالح الحسن معاوية وولاه الخلافة فصفت لابن أبي سفيان يتوارثها بنوه من بعده وبنو هاشم في معزل عنها يتطاولون إليها ولا يطولونها حتى آلت إلى بني مروان وهم فرع من بني أمية وسنذكرهم في المبحث القادم بعد الكلام على معاوية وبنيه إن شاء الله ولا قوة إلا به.

. . . . . .

معاوية بن أبي سفيان

— ولد سنة ٢٠ ق ه وتوفي سنة ٦٠ ه —

بنو أمية بطن من قريش لبني هاشم وهم من ذوي السيادة والرياسة في هذه القبيلة وإنما (١
قُدِّم عليهم الهاشميون برسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لقي ربه طمحوا نحو الإمرة من بعده فتولاها أبوبكر فصبروا وعمر فانتظروا وصارت إلى عثمان فاعطاهم وأنعم آمالهم وفرقهم ولاة وحكاما في البلاد. أما معاوية وهو صاحب هذه الترجمة ~~[illegible]~~ فأبوه أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف: ولد بمكة وأسلم يوم فتحها (سنة ٨ ه) وكان من ذوي الرأي والدهاء عارفا بالكتابة وهي فضل كبير في ذلك الحين فجعله رسول الله في كتّابه. ولما ولي أبوبكر ولاه قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي سفيان فكان على مقدمته في فتح مدينة صيدا، وعرقة، وجبيل، وبيروت. وآل الأمر إلى عمر بن الخطاب فولاه ولاية الأردن. فرأى فيه معرفةً وحزما: فلما مات أخوه يزيد وكان والي دمشق ولاه عمر بدلا منه. وجاء عثمان وصلةُ النسب تربطهما فجمع له الديار الشامية كلها وجعل ولاة أمصارها تابعين له. فشرع معاوية يتحبب إلى أهل الشام ويدني رؤساءهم من حضرته حتى استألفهم واستمالهم إليه. ومات عثمان فقام علي بعده وهو الأمر الذي تكرهه أمية لعلمها بأن الخلافة ستتوارثها ذريته فرمت علي منها: فأعد معاوية العدة واتخذ من قتل عثمان ذريعةً له يستنجد بها الجموع على قتال علي وأصحابه وكان بينهما ما أسلفنا ذكره في ترجمة علي من الحروب والوقائع بصفين وانتهى الأمر بإمامته على الشام وإمامة علي في العراق. ثم قتل علي وبويع بعده ابنه الحسنُ فسلَّمَ الخلافة إلى معاوية (انظر ترجمة الحسن بن علي) وذلك في عام ٤١ ه وهو المعروف بعام الجماعة لاجتماع المسلمين فيه يداً واحدةً على إمام واحد. ودامت له الخلافة حتى بلغ سن الشيخوخة فعهد بها إلى ابنه يزيد. ومات بدمشق فدفن في مقبرة باب الصغير.

ذلك اجمال في سيرة معاوية مؤسس دولة بني امية ومن عظماء ملوك العرب
ودهاتهم وهو احد ابطال الفاتحين بلغت فتوحاته المحيط الاتلانتيكي وكان واليه
على مصر عمرو بن العاص (الآتي ذكره) فافتتح السودان سنة ٤٢ هـ. وفي هذه السنة
غزا عبدالله بن سوار العبدي القيقان من بلاد السند فاصاب مغانم كثيرة وعاد بها
الى معاوية ورجع الى الغزو فقتل في بعض بلاد السند. وكان عدد السفن في ايام معاوية
١٧٠٠ سفينة كاملة العدة. وهو اول مسلم ركب بحر الروم للغزو وذلك
حينما كان عاملاً على الشام في خلافة عثمان بن عفان. وفي ايامه فتح كثير من الجزائر
اليونانية والدردنيل وحاصر القسطنطينية براً وبحراً سنة ٤٨ هـ فلم تمكنه فتحها
وأصيبت سفنه بخسائر فادحة فعاد ما بقي منها. وهو اول من جعل [illegible]
واول من اتخذ المقاصير (وهي الدور الواسعة المحصنة) والحرس والحجاب ولم يكن
ذلك للخلفاء الراشدين لازدرائهم تلك المظاهر والزخارف وبعدهم عن
أبهة الملك وقناعتهم بما كانوا عليه قبل الخلافة من السذاجة والتقشف
واما معاوية فلم يتسع له ذلك وهو ~~[illegible] الروم~~ في بلاد الفتح
انظارها ما كان عليه ملوكها الذين يقربون من الروم وربما سخرت بمن كان
دونهم وعدّته دخيلاً على الرياسة ~~حديثاً~~ حديث عهد بالامارة. وهو
اول من خطب قاعداً لانه كان رجلاً بادناً. واول من قدّم الخطبة على الصلاة
في يوم الجمعة وكانت الخطبة بعد الصلاة فخاف معاوية أن يتفرق الناس عنه
قبل ان يتم ما يريد ان يقول فقدّمها: وتابعه المسلمون حتى اليوم.
وهو اول من جلس بين الخطبتين: وبقيت بعده الى يومنا هذا.
وفي انساب العرب للقلقشندي انه كان طويلاً ابيض جميلاً مهيباً قال: وكان
عمر ينظر اليه فيقول: هذا كسرى العرب!.

وفي سنة ٥٠ هـ سار الى المدينة بموكب حافل فالقى بها عدة خطب وكان
قوي المنطق جيد البديهة سريع الخاطر ومن احسن ما تمثل به سياسته قوله في
بعض خطبه: " يا اهل المدينة اني لست احب ان تكونوا خلقاً كخلق العراق
يعيبون

يعيبون الشيء وهم فيه : مل كل امرئ منهم شيعة نفسه . فاقبلونا بما فينا : فان ما وراءنا شر لكم وإن معروف زماننا هذا منكر زمان قد مضى ونكر زماننا معروف زمان لم يأت ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق وفي كل بلاغ ولا مقام على الرزية . » ودخل دار عثمان بن عفان في المدينة فصاحت عائشة بنت عثمان وبكت ونادت اباها فقال معاوية : « يا ابنة اخي إن الناس اعطونا طاعة واعطيناهم امانا واظهرنا لهم حلما تحته غضب واظهروا لنا ذلا تحته حقد ومع كل انسان سيفه ويرى موضع اصحابه فان نكثناهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون ام لنا ولأن تكوني ابنة عم امير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عرض الناس . » وخطب في المدينة ايضا فقال : « ايها الناس ان ابا بكر رضي الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترده واما عمر فارادته الدنيا ولم يردها واما عثمان فنال منها ونالت منه واما انا فمالت بي ومِلت بها فان لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم . » وكان يُضرب المثل بحلم معاوية ومن اخباره فيه انه كان لعبد الله بن الزبير ارض مجاورة لارض فيها عبيد لمعاوية من الزنوج يعمرونها فدخلوا في ارض عبد الله فكتب الى معاوية : « أما بعد فانه يا معاوية ان لم تمنع عبيدك من الدخول في ارضي كان لي ولك شأن ! » فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه الى ابنه يزيد فلما قرأه قال له : ما ترى ؟ قال : ارى ان تنفذ اليه جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتوك برأسه . فقال يا بني عندي خير من ذلك عليّ بدواة وقرطاس وكتب : « وقفت على كتابك يا ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءني والله ما ساءك والدنيا هينة عندي في جنب رضاك وقد كتبت على نفسي رقعة بالارض والعبيد وأشهدت علي فيه ولتضف الارض الى ارضك والعبيد الى عبيدك والسلام . » فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب اليه : « وقفت على كتاب امير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام . » فلما رأى

معاوية على كتاب عبد الله رماه الى ابنه يزيد فلما قرأه اشرق وجهه. فقال:
يا بني اذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء .

ويُذكر في الاتفاقات الغريبة ان اول ملوك بني امية اسمه معاوية وآخرهم معاوية واول ملوك الدولة الايوبية صلاح الدين يوسف وآخرهم صلاح الدين يوسف واول ملوك بني العاص مروان وآخرهم مروان واول ملوك الفاطميين عبد الله وآخرهم عبد الله .

يزيد بن معاوية

— ولد سنة ٢٥ وتوفي سنة ٦٤ هـ —

ما نسيَ المسلمون ولا تركهم ناسين فاجعتهم الكبرى بابن بنت نبيهم وفاجعتهم العُظمى بأحب الناس اليهم تلك الجريمة المؤلمة التي اقترفها صاحب هذه الترجمة يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ثاني ملوك بني امية : عهد معاوية الى يزيد بالخلافة فلما مات تولاها وانضم اليه من اخلصوا في صحابته وفاءً له وتنفيذاً لعهده : وكان يزيد فتى لهو وقصف ولكنه عارف بالادب رُوي له من الشعر رقيقه . ولم تصفُ له الخلافة بل ثارت في عهده الثورات وامتنعَ كثير من الناس عن مبايعته والرضى بخلافته فقامت الفتنة في العراق ودعا اهلُ الكوفة الحسينَ ليبايعوه ~~وثار اهل مكة والمدينة فبايعوا عبد الله بن الزبير~~ فلما اقبل اليهم اعترضه كردوس عمر بن سعد بن ابي وقاص قادماً من قِبَل عبيد الله بن زياد وكان يزيد قد كتب اليه يأمره بتوجيهه ليقاتل الحسين قبل ان يبلغ الكوفة فحاربوه وقتله شمر بن ذي الجوشن وأُتي برأسه الى دمشق على ما قدمنا في ترجمته (انظر ترجمة الحسين) . فلما ذاع خبره كان عبد الله بن الزبير بمكة فحض اهل مكة والحجاز على الثورة فبايعوه . واتفق اهل المدينة على خلع نائب يزيد وهو عثمان بن محمد بن ابي سفيان فطردوه من المدينة .

وعلم

وعلم يزيد بما حدث فوجّه مسلم بن عقبة في عشرة آلاف مقاتل فساروا الى المدينة
فافتتحوها وجعلها مسلم مباحة للسلب والنهب ثلاثة ايام ثم رحل عنها
~~منه فقاتله ابن الزبير فلم يزل له الحصار~~ يريد مكة فمات في طريقه بموضع يُعرف
بالمشلّل واقام نائباً عنه الحصين بن نمير فقدم مكة فقاتله ابن الزبير فلم
يزل بها حتى جاءه خبر موت يزيد فعاد بجيشه الى الشام .

هكذا تجد المسلمين بعد اشتغالهم بفتح البلدان وتوسيع رقعة الدولة
الاسلامية وتوطيد اركانها عادوا فشُغلوا بأنفسهم يقتل بعضهم بعضاً
ويحارب الرجل قريبه ونسيبه وحبيبه : ثورات في البلاد على كل مستخلَف
فيهم وخروج وعصيان وخوف مستمر :

كأنما القوم عادت جاهليتهم   لهم فما اغنت الآياتُ والنذرُ

وفي ايام يزيد فُتح المغرب الاقصى على يد الامير عقبة بن نافع وكان قد
وجّهه يزيد الى افريقية فلما بلغ القيروان جمع من بها من الجند ودخل مدينة
باغاية فحاربه اهلها وكانوا من الروم ثم اغلقوا ابوابها فاراد حصارهم
ولكنه اختار قصد غيرها فسار الى الزاب فافتتح مدينتها العظمى اربه
وسار الى طنجة ومنها عاد بغنائم وافرة .

فانظر هداك الله الى المسلمين في ذلك الحين لو وجّهوا سيوفهم التي يضربون
بها وجوههم الى بلاد الاعداء وامصار الروم وغيرهم ~~[illegible]~~ هل كانوا
بلغوا اقاصي الارض واطاعهم الناس اجمعون ؟ وانت ترى ان
جيشاً قليل العَدَد قليل العُدَد يتوغل يحارب البرابرة والروم ويرجع
ولواؤه يخفق بالظَفر والغُنم والرِبح .

وكانت وفاة يزيد بحوارين من ارض حمص لاربع عشرة ليلة خلت من
شهر ربيع الاول ، وعمره ~~[illegible]~~ تسع وثلاثون سنة . وخلّف في صحيفة بني
امية تلك النقطة السوداء التي لن تزول .. وقد صح القول بان ليزيد
شعراً مروياً فلا نرى بأساً من ذكر شيء منه وان كنت لا اثق بصحة كل
ما يُنقل عنه من هذا النوع : فمن ذلك قصيدة ~~[illegible]~~ تنسب اليه في كتب الادب قال :

خذوا بدمي ذات الوشاح فانني   رأيت بعيني في انامِلها دمي
ولا تقتلوها ان ظفرتم بقتلها   بل خبروها بعد موتي بمأتمي
لها حكم لقمان وصورة يوسف   ونغمة داود وعفة مريم
ولي حزن يعقوب ووحشة يونس   وآلام ايوب وحسرة آدم

الى أن يقول :

ولما تلاقينا وجدتُ بنانها   مخضّبةً تحكي عصارة عندم
فقلت : خضبتِ الكف بعدي؟ أهكذا   يكون جزاء المستهام المتيّم
فقالت وابدت في الحشا حرق الجوى   مقالة من في القول لم يتبرّم :
وعيشك ما هذا خضابا عرفته   فلا تكُ بالبهتان والزور متهمي
ولكنني لما رأيتك نائيا   وقد كنتَ لي كفي وزندي ومعصمي
بكيتُ دما يوم النوى فمسحته   بكفي وهذا الاثر من ذلك الدم
ولو قبل مبكاها بكيت صبابة   بسعدى شفيتُ النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيّج لي البكا   بكاها فكان الفضل للمتقدم

وتُنسب له القصيدة المشهورة التي مطلعها :

نالت على يدها ما لم تنله يدي   نقشا على معصم اوهت به جلدي

ويُروى له هذان البيتان :

دعوته بماء في اناء فجاءني   غلامٌ به خمرا فاوسعتهُ زجرا
فقال : هو الماء القراح وانما   تبدّى به خدي فاوهمك الخمرا

وهو صاحب الأبيات التالية قالها حين جاءه النبأ بموت ابيه وكان غائبا عن دمشق :

جاء البريد بقرطاس يخب به   فاوجس القلب من قرطاسه فزعا
~~فادت الارض او كادت تميد بنا   كأن اغبر من اركانها~~
قلنا لك الويل ماذا في صحيفتكم   قالوا الخليفة امسى مثبتا وجعا

فادت

فمادت الارض او كادت تميد بنا كأن اغبر من اركانها انقلعا

ثم ابتعثنا الى خوص مزممة نرمي الفجاج بها ما نأتلي سرعا

فما نبالي اذا بلغن ارحلنا ما مات منهن بالموماة او ظلعا

اودى ابن هند واودى المجد يتبعه كذا كنا جميعاً قاطنين معا

اغرُّ ابلج يُستسقى الغمام به لو قارع الناس عن احلامهم قرعا

لا يرقع الناس ما أوهى ولو جهدوا أن يرقعوه ولا يوهون ما رقعا

قال الشافعي: والبيتان الاخيران سرقهما من الاعشى [illegible] .

معاوية بن يزيد

- ولد سنة ٤١ ومات سنة ٦٤ م -

لما مات يزيد بايع اهل الشام ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية ثالث ملوك بني امية واضعفهم: فتولى الملك ثلاثة اشهر بعد ابيه واصيب بامراض حالت بينه وبين شؤون الخلافة والنظر في مصالح الناس فامر فنودي: "الصلاة جامعة" فاجتمع الناس فقام فيهم خطيباً فحمد الله واثنى عليه ثم قال: "اما بعد فان جدي معاوية نازع الامر من كان اولى به، ثم تقلده ابي: ولقد كان غير خليق به. [illegible] وقد ضعفت عن امركم. ولا احب ان القى الله عز وجل بتبعاتكم. فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم اجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم اجدهم. فانتم اولى بامركم فاختاروا له من احببتم. فقد خلعت بيعتي من اعناقكم." ثم دخل منزله واغلق بابه واقام يعبد ربه حتى مات ولم يعش في الرواية [illegible] المشهورة اكثر من اربعين يوماً.

ملوك بني مروان

[صلة]

رأيت في ترجمة «معاوية بن يزيد» آخر ابناء معاوية بن ابي سفيان: كيف ترك الخلافة للناس دون أن يعهد أو يوصي واعتذر عن نفسه بانه لم يجد الرجل الذي يحق له ان يركن اليه ويعتمد في امور المسلمين عليه وانت ترى أن المسلمين كانوا على عهد والده في نفور واضطراب وسخط فلما بلغهم موته وتولية ابنه معاوية المعروف بالضعف وقصر اليد قويت شوكة الثائرين فبويع لابن الزبير بالخلافة في الحجاز وامتدت سلطته الى المدينة ومصر فسيّر الى المدينة اخاه عبيدة ابن الزبير والى مصر عبد الرحمن بن جحدم الفهري واليين عليهما وابعد بني امية لحمة ومروان ابن الحكم الى الشام وانبثت الدعاة الى ابن الزبير بحمص وقنسرين وفلسطين والعراق ولاسيما حينما تنازل معاوية عن الملك وتركه لمن لا يعرف من يأتي واختلف اهل دمشق وفيهم مريدون لابن الزبير ومبايعون لمروان بن الحكم ثم انتهى الامر باجتماع الشاميين على مروان وهو ابن الحكم بن العاص بن امية: اموي ولكنه غير معاوي فكان اول من تولى من هذا البيت ثم [illegible] ابناؤه من بعده وبويع ابن الزبير في الحجاز والعراق فاجتمع للمسلمين خليفتان حتى كان زمن عبد الملك بن مروان فوجه الحجاج الى ابن الزبير فقتله وصلبه ثم نشأت الثورة العباسية على ما سنذكره ان شاء ربي

مروان بن الحكم

— ولد سنة ٢ وتوفي سنة ٦٥ م —

علمت ما كان في ايام معاوية بن يزيد من تركه للملك على ما تقدم بيانه وقلنا ان اهل الشام اتفقوا على مروان بن الحكم بن العاصي بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف: وهو اموي قرشي وكان شيخاً كبير السن. ولد بمكة وكان ... وانتقل الى المدينة حتى كانت ايام عثمان بن عفان جامع شتات بني امية بن عبد شمس فقربه عثمان اليه وجعله احد خاصته الذين يرجع الى ارائهم ويعتمد عليهم في المهمات ولما قتل عثمان انصرف الى مكة واقام يتردد بين الحجاز والشام حتى طرده ابن الزبير من مكة فانصرف الى الشام وهي بلا خليفة بعد انفصال معاوية بن يزيد عن الخلافة فبويع مروان بالسن وقربه من عثمان واموية فهدأ الشام وخرج الى مصر فتملكها وكانت قد فشت فيها البيعة لابن الزبير فوثب منهم مروان وولى عليهم ابنه عبد العزيز وعاد الى الشام. وجاء انه تصفو الخلافة لبنيه الا انه خاف مطالبة خالد بن يزيد بن معاوية بحق ابيه وكان آنئذ صغيرا فرأى ان يستميله فتزوج امه. وبقي مروان في الملك تسعة اشهر وثمانية عشر يوما. حتى دخل عليه يوما خالد بن يزيد في شأن له فشتم مروان وسبّ امه فانصرف اليها ونقل اليها الكلام فانتظرته حتى اقبل فوضعت على وجهه وسادة ضخمة بعد ان اضطجع وامرت الجواري فقعدن عليها فصاح واستكد فلم ينتبه فمات مخنوقا (قال ابن الاثير) وقال القلقشندي: توفي بالطاعون بدمشق.

عبد الملك بن مروان

— ولد سنة ٢٦ وتوفي سنة ٨٦ م —

ما انفكت خلافة الامويين في اضطراب وتزلزل منذ غادر الحياة معاوية الاول حتى انقلبت الامور في ايدي الرجال: فقام فريق بالزهد فيها وتعلق اخر بالغنى ...

وسرعتها إلى طامع بانتقالها إليه بحيث لم تستقر على حال واحدة إلا في زمن صاحب هذه الحالة وهو: أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي: انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه مروان سنة ٦٥ هـ فبويع في دمشق وأعظم ما يهدد ملكه استفحال أمر عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق: فلما بويع قام في الناس خطيباً فقال: "أيها الناس إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا بالخليفة المداهن - يريد معاوية الدول - ولا بالخليفة المأفون - يريد يزيد ابن معاوية - فمن قال برأسه كذا - أي امتنع - قلنا له بسيفنا كذا - أي ضربناه - ثم نزل ..." وعلم عبد الملك أن ابن الزبير وجه المختار الثقفي إلى الكوفة أميراً عليها فجهز عبد الملك جيشاً فيه عبيد الله بن زياد ورجال من كبار القادة عنده فأرسل المختار جيشاً لقتال عبيد الله بقيادة إبراهيم ابن [illegible] فالتقى الجيشان بالخازر (قرية من نواحي نهر بين إربل والموصل) فقتل عبيد الله بن زياد وأصحابه وأخذت رؤوسهم إلى ابن الزبير. فلما بلغ عبد الملك ذلك عظم عليه فنادى أهل الشام فلم يجيبوه. وكان في رجال شرطته الحجاج بن يوسف وهذا أول ما اشتهر به: فتقدم إلى عبد الملك فسأله أن يسلطه عليهم. فقال قد سلطتك. فانصرف من مجلسه لا يرى رجلاً من أهل الشام قد تخلف عن القيام إلا أحرق عليه داره. فخرج الناس واتجهوا إليه فجهزهم عبد الملك [illegible] يريد العراق وخرج إليه مصعب بن الزبير بأهل البصرة والكوفة فالتقوا بين الشام والعراق: وكان عبد الملك كتب كتباً إلى رجال من وجوه أهل العراق يدعوهم إلى نفسه ويجعل لهم الأموال: فلما تلاقى الفريقان انضم رجال مصعب إلى عبد الملك وبقي مصعب في قليل من أصحابه فأتاه غلام لعبيد الله بن ظبيان فأعانه عليه مولاه عبيد الله بن ظبيان فقتلوه (وستأتي ترجمة مصعب في القواد) ودخل عبد الملك الكوفة فبايعه الناس فجاءه الحجاج فقال: رأيت في المنام كأني أسلخ ابن الزبير من رأسه إلى قدميه. وكان عبد الملك قد رأى من الحجاج حزماً وشدة بأس فقال له: أنت له. فخرج الحجاج بجيش كثيف يريد عبد الله بن الزبير. وفي سنة ٧٢ هـ كان في منى ثم حصر ابن الزبير في مكة ونصب المجانيق على جبالها ونواحيها يرمي أهلها بالحجارة

وأخذ

القتال بقتل عبد الله بن الزبير امير المؤمنين في العراق والحجاز . فارسل الحجاج رأسه الى عبد الملك بن مروان في دمشق . ونصب للناس راية الامان فجعلوا يفدون عليه . فلم ينصرف عن الحجاز الا وهي مبايعة لعبد الملك وبهذا سكنت الفتنة واجتمع المسلمون مع عبد الملك واستتب له الامر فيهم . ودامت له الخلافة العامة بعد مقتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وثلاثة اشهر . وكان يقال : معاوية للحلم وعبد الملك للحزم : وكان ملكاً جباراً أ عنى من عانده قوي الهيبة شديد السياسة حسن التدبير : جمع بين العلم والعقل : قال الشعبي : ما ذاكرت احداً الا وجدت لي الفضل عليه الا عبد الملك فاني ما ذاكرته حديثاً ولا شعراً الا زاد في فيه . وقال نافع وهو من مشاهير القراء : لقد رأيت اهل المدينة وما بها شاب اشد تشميراً ولا افقه ولا انسك ولا اقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان . وفي ايامه كانت تكتب الدواوين باللغتين الفارسية والرومية فأمر بترجمتها ونقلت الى العربية : وهي مأثرة تذكر . وكانت الرعية كما علمت من ترجمة مروان بن الحكم وغيره تتكلم بلغة الخلفاء وترجع اليهم في جميع امورها : فنهاهم عبد الملك عن ذلك وجعل الكلام لخاصة من اراد من العلماء والامراء . وهو اول من سك الدنانير في الاسلام : وكان عمر قد سك الدراهم كما أسلفنا : وكأني بعبد الملك اتخذ امير المؤمنين عمر بن الخطاب اماماً له يقتدي به في سياسته وأعماله فانه أتم مشروعين جليلين بدأ بهما عمر : وهما الدواوين : وضعها عمر على نسق الفرس بلغتهم ونقلها عبد الملك الى العربية . والدراهم : نقشها عمر فتابعه عبد الملك بنقش الدنانير . ولعل هذا كان من صفاء الامراء وخلوه من المكدرات . وفي مراسلاته وكتبه تجد عقلاً كبيراً وخياً للخير جماً : كتب عنه الحجاج بن يوسف عاتباً عليه في المؤاخذة في شأن عروة بن الزبير عامل اليمن وكان قد لجأ الى عبد الملك :

«بسم الله الرحمن الرحيم : اما بعد فانه لو ذات المعترضين بك وحول

الى نفسه الى الملك باعتدائه وما تعتمد من دمث اخلاقك وسعة عفوك
كالعفاء من المبرمين لاعدائه لايعدم له [illegible] كما جاء [illegible] مقالة عفوك
واذا أوذي الناس بالصفح عن الجرائم فان ذلك تمرينا لهم على اضاعة الحقوق
مع كل ضلال والناس عبيد العصا هم على الشدة اشد تباقيا منهم على اللين
ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله وفيه ا تجاحد منه قطع لطمع غيره
فليبعث به امير المؤمنين ان رأى ذلك والسلام ".

فاجابه عبدالملك : " بسم الله الرحمن الرحيم : اما بعد فان امير المؤمنين
رآك مع ثقته بنصيحتك خابطا في السياسة خبط عشواء الليل فان رأيك
الذي يسول لك أن الناس عبيد العصا هو الذي اخرج رجالات العرب
الى الوثوب عليك واذا اخرجت العامة بعنف السياسة كانوا اوشك
وثوبا عليك عند الفرصة ثم لا يلتفتون الى ضلال الداعي ولا هداه اذا
رجوا بذلك ادراك الثأر منك وقد ولي العراق قبلك ساسة
وهم يومئذ احمى انوفا واقرب من عمياء الجاهلية وكانوا عليهم اصلح منهم
عليك وللشدة واللين اهلون. والافراط في العفو افضل من الافراط
في العقوبة والسلام ".

وفي ايام عبدالملك ضبطت الحروف العربية بالنقط والحركات : فعل ذلك
نصر بن عاصم [illegible]. ولما حضرت الوفاة [illegible] جمع ابناءه وقال يعظهم :
" اوصيكم بتقوى الله : فانها عصمة باقية وجنة واقية وهي احصن
كهف وازين حلية . وليعطف الكبير منكم على الصغير . وليعرف الصغير منكم حق
الكبير مع سلامة الصدور والاخذ بجميل الامور . واياكم والفرقة والخلاف :
فبهما هلك الاولون وذل ذوو العز المعظمون ". ثم اقبل على ابنه
الوليد ولي عهده فقال : " لا أُلفينّك اذا مت تعصر عينيك ! وتحن
حنين الامة ! ولكن شمر واتزر والبس جلد نمر ! ودلني في حفرتي
وخلني وشأني وعليك وشأنك ثم ادع الناس الى البيعة : فمن قال برأسه
كذا [illegible]

كونوا بني أم برزة لا تدب بينكم العقارب، وغمدوا سيوفكم عند ذوي الاحساب فانهم أصهاركم [illegible] وقربوا اهل الادب فانهم استقالوا فأقيلوا وان عادوا فاغفروا ..

كذا (له) فقل السيف لذا (اضرب عنقه) .» . الجملة الاخيرة اثبتها مترجمه لمرتين: صيه ولي وصيه ولي: لما رأيت . ومات في منصف ... ودفن خارج باب الجابية .

لخصت هذه الترجمة من الكامل لابن الاثير (المجلد الثالث) . وشذرات الذهب في اخبار من ذهب لابي الفلاح . والعقد الفريد لابن عبد ربه (ج ١) . وفوات الوفيات (ج ٢) . والمعارف لابن قتيبة . . وغيره .

الوليد بن عبد الملك

- ولد سنة ٤٨ وتوفي سنة ٩٦ م -

اتصف الملوك من بني مروان بصفات جعلت لهم فضلا كبيرا على العالم الاسلامي ففيهم الزاهد الناسك في غير ضعف والموطد السلطان في غير عنف والعراني المصلح الفاتح والرجل الصالح: مما لا ينكره المنكر ولا يجحده الجاحد . وكان من اعاظمهم الاكبر وصاحب الآثار فيهم مترجمنا هذا وهو: ابو العباس الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم: الاموي القرشي: ولي الخلافة بعهد من ابيه عبد الملك (سنة ٨٦ ه) . والبلاد مطمئنة والمسلمون ساكنون . فوجه القواد لفتح البلاد فكان من جملة موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد: فسيره الوليد الى بلاد المغرب (سنة ٨٩) وموسى يتبعها : فاجتاز طارق جبال البيرة (Les Pyrénées) وهي سلسلة جبال تفصل بين مملكة اسبانيا (الاندلس) وفرنسا . وافتتح الجانب الجنوبي من فرنسا واوشك يتوغل في اوروبا . الا ان موسى حسده وطرده واهانه واوقفه عن السير وقيل انه سجنه فبلغ الوليد ذلك فطلب موسى الى الشام وضربه وطرده الى مكة حيث كانت وفاته ~~[illegible]~~ واصبحت جبال البيرة (او البرينات) حدا بين العرب والعجم . وامتدت في زمنه المملكة العربية شرقا الى بلاد الهند فتركستان فحدود الصين بحيث بلغت مسافتها ستة اشهر بين الشرق والغرب والشمال والجنوب . قال احد المؤرخين: فتح المسلمون في ثمانية اعوام ما لم تفتحه الرومان في ثمان مئة .. اما وارث الوليد البنا.

والعراق . وكان غريباً جداً : ابن الأثير في حوادث سنة ٨٨ هـ : وفي هذه السنة كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز – والي المدينة – يأمره بتسهيل الثنايا وحفر الآبار وأن يعمل الفوارة بالمدينة فعملها وأجرى ماءها فلما حج الوليد ورآها أعجبته فأمر لها بقُوّام يقومون عليها وأمر أهل المسجد أن يستقوا منها . وكتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار . ومنع المجذومين من الخروج على الناس وأجرى لهم الأرزاق ١٠هـ . والوليد أول من أحدث المستشفيات في الإسلام وبناها مأوى للمرضى والمصابين بعقولهم . وجعل لكل أعمى قائداً يتقاضى نفقاته من بيت المال ولا عمل له إلا قيادته والنظر في شأنه . وأقام لكل مقعد خادماً . ورتب القراء المشتغلين بحفظ القرآن الكريم فخصص لهم أموالاً تكفيهم وتمنعهم من أن يكونوا عالة على الناس أو يتخذوا القرآن حرفة يعيشون بها كما هو الحال اليوم في بلاد المسلمين من تكسّب القراء بالقراءة : حتى وصلت عندنا بدعة من أسوأ البدع في الإسلام وهي بيع الختمة بقيمة محترمة وهم يتلونها مع الإمام فيجعلون الدراهم هبة ويهبون الختمة لروح الميت ولو امتنعت من بذل المقابل من الأجرة أو الجُعْل لما أصغوا على رفيقك بالكلمة يتلونها ويحرف يجرّ دونه . وهذا بحث يطول سواه فلنتركه إلى الباحثين من علماء الدين .

وأقام الوليد بيوتاً ومنازل تأوي إليها الغرباء وتهيأ فيها الضيافات كما هو الشأن في قبائل العرب والآخذين أخذهم . وهدم مسجد المدينة والبيوت ~~...~~ المحيطة به ثم بناه بناءً جديداً فجعل ساحته مئتي ذراع في مئتين (ذراعاً هاشمياً . الهاشمي نصف الذراع الشامي) . ودفع أثمان البيوت من بيت مال المسلمين . وصفّح الكعبة والميزاب والأساطين في مكة . وبنى المسجد الأقصى في القدس : أرسل إليه الصنّاع والعملة من الشام . والمأثرة

الثالثة

الخالدة للوليد بناؤه مسجد دمشق المعروف بالجامع الأموي وهو من أشهر مساجد
البلاد الإسلامية وفيه قبر ماريوحنا (~~يحيى بن زكريا عليه السلام~~) وكان كنيسة
للنصارى بالشام فلما فتح خالد بن الوليد دمشق ودخلها عنوة من جانبها الشرقي
ودخل الكنيسة وقد علم أن أبا عبيدة بن الجراح دخلها صلحاً من الجانب الغربي
فاتفق المسلمون مع الروم على أن يجعلوا النصف الشرقي مسجداً ويبقى النصف
الغربي كنيسة . فلما استُخلف الوليد الأمويُّ دعا النصارى الى أن يعوضهم عن
ذلك الجانب الغربي الذي بأيديهم مكاناً غيره في دمشق فأبوا فانتزعه قهراً وضمه
الى النصف الأول وكتب الى ملك الروم بالقسطنطينية أن يوجه اليه اثني
عشر ألفاً من صناع بلاده فأبى فهدده فأذعن وبعث بهم وأنفق على بنائه
كما نقل ابن جبير في رحلته غير المعلن ~~[illegible]~~ (١١,٢٠٠,٠٠٠) أي نحو ستة ملايين
ليرة انكليزية من نقود زماننا . وعلّق فيه ست مئة سلسلة ذهبية
للمصابيح . وملأ جدرانه كلها بفصوص الفسيفساء ممزوجاً بأنواع من
الأصبغة الغريبة تمثل أشجاراً وأغصاناً بديعة الصنع (رأيته [illegible] ولم يبلغ فاتحة أخرى جماله) . وقد وصف ابن
جبير هذا المسجد وصفاً شاملاً فارجع اليه ان شئت ولا بأس بنقل النبذة
التاريخية الآتية عنه قال : " وله - أي الجامع الأموي - أربعة أبواب : باب
قبلي : ويُعرف بباب الزيادة وله دهليز كبير متسع له أعمدة عظام فيه
حوانيت للخرازين وسواهم .. وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين - وهي
المعروفة بالصاغة اليوم - وهي كانت دار معاوية رضي الله عنه وتُعرف
بالخضراء . وباب شرقي : وهو أعظم الأبواب ويُعرف بباب جيرون .
وباب غربي : ويُعرف بباب البريد . وباب شمالي : ويعرف بباب الناطفيين .
وللشرقي والغربي والشمالي أيضاً من هذه الأبواب دهاليز متسعة يفضي
كل دهليز منها الى باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة فبقيت على
حالها وأعظمها منظراً الدهليز المتصل بباب جيرون يخرج من هذا الباب

الى بلاط طويل عريض قد قامت أمامه خمسة ابواب مقوسة لها ستة أعمدة طوال وفي وجه الباب منه مشهد كبير صغير كان فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما ثم نقل الى القاهرة وبإزائه مسجد صغير ينسب لعمر بن عبد العزيز .. اهـ"

وبالجملة فقد كان هذا المسجد من مفاخر الابنية الاسلامية ولما ولي عمر بن عبد العزيز ~~مرضه~~ اتاه جمهور النصارى وأوردوا عهداً في أيديهم من الصحابة بإبقاء جانب الكنيسة لهم فهم بإعادته اليهم ثم عوضهم منه بمال عظيم ارضاهم به فقبلوه .

وأحرق هذا الجامع مرات متواليات آخرها في عهدنا هذا وبناؤه اليوم يختلف كثيرا عن شكله الاول ~~ولا يماثله~~ فانه الآن مسجد متسع بعمارة لا تزيد عمارة غيره من المساجد العظيمة المبنية في الازمنة المتأخرة وفيه كثير من آثاره لا تزال كمشهد الحسين وبعض الاعمدة وشبابيك الفسيفساء في الجانب الشمالي من داخله . وقد اطلنا في الكلام عليه حتى لا نخرج عن موضوعنا .

وامتدت الخلافة للوليد تسع سنين وثمانية اشهر أبقى فيها آثاراً جليلة وذكرا حسنا وكان محبا للنساء كثير الزوجات : قيل ان عدد اللواتي تزوجهن ينيف على الستين . وكان كثير الصدقات والمبرات والخيرات . وكانت وفاته بدير مران في غوطة دمشق ودفن بها وقيل في خارج الباب الصغير ~~في مرضه ولا يعرف في أي مكان دفن~~ . وهذه الترجمة لخصتها من كتب كثيرة أوثقها : الكامل (ج ٤ و ٥) وشذرات الذهب . والفخري لابن الطقطقي . ورحلة ابن جبير . وتاريخ الشام لابن عساكر . وغيرها .

سليمان بن عبد الملك

— ولد سنة ٥٤ وتوفي سنة ٩٩ هـ —

لم يكن صاحب هذه الترجمة من اولئك الرجال الذين خالفهم التوفيق فشادوا وسادوا ولكنه قصرت مدته وحاول القيام بعمل عظيم فلم يفلح وكان الناس قد استبشروا بتوليه بعد اخيه : وذلك انه بويع يوم وفاة اخيه الوليد وهو بالرملة سنة ٩٦ هـ ثم تتابعت له المبايعة من سائر الأمصار في أيام ...

و

في منصب الخلافة وتفرّد الناس المشاغب بعد ما قاسوا وما عانوا في أيام مروان ومن تقدمه وكان الحجاج بن يوسف قد توفي سنة ٩٥ أي قبل تولية سليمان بسنة والناس له كارهون ومن شدته مشتكون فسرّهم موته ثم استخلف سليمان فأتحفوا به خيرا: فانه أطلق الأسرى وأمر بإخلاء السجون والعفو عن المجرمين وأحسن الى الناس بما علقهم بحبه وعهد أولا بالخلافة الى ابنه أيوب فمات في حياته فعهد الى وزيره ومشيره ابن عمه عمر بن عبد العزيز الملك الصالح وكان الناس يعرفون صلاحه وحسن دينه وفضله فشملهم السرور وسموا سليمان: مفتاح الخير: وهو أبو أيوب سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الاموي القرشي. وكان موصوفا بالفصاحة وجودة الفهم والفطنة وحب الخير والعدل والميل الى فتح البلدان والغزو. وفي سنة ٩٨ أراد أن يقرن اسمه بأسماء كبار الفاتحين فجهز الجيوش والسفن وسيّرها بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية فلما بلغها خدعته الروم وأصاب الجيش جوع شديد ومحنة وبلاء ولم يزل بها حتى بلغه موت أخيه سليمان وتولية عمر بن عبد العزيز فكتب اليه عمر أن يعود فعاد ولم يصب نجاحا. وفي أيام سليمان فتحت جرجان وطبرستان من بلاد الترك ولم تكن امصارا بل هي جبال ومخارم وأبواب يقوم الرجل على باب منها فلا يتقدم عليه احد. وكانت عاصمته دمشق عاصمة آبائه وأما اقامته مدة خلافته فأكثرها كان في دابق من ارض قنسرين وبها مات ودفن ~~[illegible]~~. ولم يحكم غير سنتين وثمانية أشهر الا اياما. وكان معجبا بنفسه: لبس يوما حلة خضراء وعمامة خضراء ونظر في المرآة فقال: انا الملك الفتى! فمات قبل تمضي عليه جمعة. ونظرت اليه جارية فقال: ما تنظرين؟ فقالت:

انت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما علمته فيك عيب كان في الناس غير أنك فان

عمر بن عبد العزيز

ولد سنة ٦٢ وتوفي سنة ١٠١ هـ

لعلك تجد في بعض كتب التاريخ والسير اسم هذا الخليفة الأموي مقترناً بلقب: خامس الخلفاء الراشدين؟ وأنت تعلم أن زمن الراشدين قد ذهب بهم وذهبوا به فكيف عادت تلك النغمة المحبوبة والذكرى المصطفاة بها فاعلم أن صاحب هذه الصيغة هو: أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم: الخليفة المرواني الأموي القرشي، هو الرجل الفذّ الذي سلك طريقة الراشدين واهتدى بهديهم ونسج على منوالهم: هو الملك الناسك والخليفة الصالح والإمام ~~العا~~ العابد (مولده بحلوان قرب القاهرة ونشأ وولي إمارة مدينة ثم استوزره سليمان بن عبد الملك) وولي الخلافة بعهد من سليمان ~~بن عبد الملك~~ ولم يكن يعلم به: فلما مات سليمان (سنة ٩٩ هـ) أقبل رجاء بن حياة أحد المقربين من سليمان وكان ذا رأي وفضل فنادى بالناس فاجتمعوا إليه في مسجد دمشق فابتدأ يقرأ عليهم عهد سليمان إلى عمر وعمر بناحية من المسجد يستمع لغيره بما ذكر سمه وكان يخشى أن يكون هو المولى وهذه صورة العهد:

"بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز: إني قد وليتك الخلافة بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الملك: فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم."

قال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون. فأسرع إليه رجل من ثقيف يقال له سالم، من أخوال عمر. فأخذ بضبعيه فأقامه. فالتفت إليه قائلاً: أما والله ما الله أردت بهذا ولن تصيب بي مني دنيا! ثم أصعده رجاء بن حياة على المنبر فأقبلت الناس تبايعه وهم يبكون على سليمان، ثم وقف عمر فحمد الله وصلى على نبيه وقال:

"أيها الناس إني ابتليت بهذا الأمر من غير رأي مني فيه ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم غيري"

فصاحوا كلهم: قد اخترناك ورضيناك. فقال: إن أوصيكم بتقوى الله فإن

فإن تقوى الله خلفٌ من كل شيء وليس من تقوى الله خلف. واعملوا لآخرتكم فإنه
من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه وآخرته. وأصلحوا سرائركم يُصلح الله علانيتكم.
والله إني لا أعطي أحداً باطلاً ولا أمنع أحداً حقاً. من أطاع الله وجبت طاعته
ومن عصى الله فلا طاعة له. أطيعوني ما أطعتُ الله فإن عصيتُ فلا طاعة لي عليكم.»
ولما نزل أُتي بمراكب الخلافة ونعل دابة سائس. فقال: ما هذا؟ فقيل: مراكب
الخلافة. قال: دابتي أوفق لي. وركب دابته وصُرفت تلك الدواب. فقيل له:
أتنزلُ منزل الخلافة؟ قال: لا: فإن فيه عيال أبي أيوب - يعني سليمان بن عبد الملك -
وفي فسطاطي كفاية حتى يتحولوا. ولما استقر به مجلسه دعا بكاتب واحد فجعل
يُملي عليه الرسائل إلى البلدان فكان فيما كتبه كتاب إلى عبد الرحمن بن نعيم:

«... أما بعد فاعمل عمل من يعلم أن الله لا يُصلح عمل المفسدين.»

وإلى سليمان بن أبي السري:

«... واعمل خانات فمن مر بك من المسلمين فاقروه يوماً وليلة وتعهدوا
دوابهم ومن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين وإن كان منقطعاً به فأبلغه
بلده.» وكتب إلى عامله على الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب:

«... أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله
وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا
يكونن شيء أهم إليك من نفسك فلا تحملها قليلاً من الإثم ولا تحمل خراباً
على عامر - يريد في أمر الجباية - وخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذن
من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذن أجور
الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا
أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض فاتبع في ذلك
أمري فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني
فيه وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مئة ليحج بها والسلام.»

وقال في إحدى خطبه وقيل في خطبته الأولى:

«أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة

من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بهم ويدلنا من الخير على ما نهتدي اليه ولا يغتابن احداً ولا يعترض فيما لا يعنيه .. ». ودخلت عليه امرأته فاطمة فرأته يبكي وهو في مصلاه فقالت: أحدث شيء؟ فقال: اني تقلدت امر امة محمد فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع والعاري والمظلوم المقهور والغريب الاسير والشيخ الكبير وذوي العيال الكثير والمال القليل واشباههم في اقطار الارض فعلمت ان ربي سيسألني عنهم يوم القيامة فخشيت ان لا تثبت حجتي فرحمت نفسي فبكيت .. واول حسنة قام بها عمر انه منع سب علي بن ابي طالب وكان الخلفاء من بني امية يسبونه ويعزون اليه اموراً مستنكرة حتى كتب عمر بن عبد العزيز الى عماله ان يستعيضوا عنها بآية: ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون : فكان رحمه الله من الخلفاء الاتقياء و سكن اليه الناس واطمأنوا وأمنت الرعية في زمنه لانه كان لا يحابي ولا يرائي وانما الناس في الحقوق سواء عنده كبيرهم وصغيرهم غنيهم وفقيرهم سيدهم وحقيرهم . ~~[illegible]~~ كتب اليه عامل حمص يقول: ان هذه المدينة تحتاج الى حصن . فوقع له في الكتاب: حصنها بالعدل . ومن كلامه: الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما . وقوله: لولا أن ذكر الله فرض علي لما ذكرته اجلالاً له .. وكان قد شرع بأمر لا يصدر عن غيره ولو طالت مدته لأتمه ولكن المنية التي لم تمكنه من الملك في منصب الخلافة غير سنتين وخمسة اشهر ونصف شهر حالت بينه وبين ما اراد: وذلك انه هم أن ينزع ~~[illegible]~~ الاموال والزخارف التي كان يملكها رجال من بني امية وهو يعلم انها انما اخذت سلباً وانتهاباً من بيت مال الامة فرأى ان يعيدها الى مصدرها ولكنه خاف الفتنة وقيام ثورة فعمل يمهد السبل رجاء أن يتمكن فيظهر ما عول عليه . وشعر بذلك بعض اهله فدسوا له السم في الدسم فمرض اياماً وتوفي رحمه الله وهو بدير سمعان من ارض المعرة فدفن فيه وقبره يزار الى اليوم . قال الشاعر :

دير سمعان لا عدتك الغوادي خير ميت من آل مروان ميتك

وقد جمعت سيرته وأخباره في عدة مصنفات منها كتاب بقي بن مخلد الأندلسي، وهو مفقود فيما أحسب، وكتاب أبي الفرج ابن الجوزي: سماه سيرة عمر بن عبد العزيز وهو مطبوع في مصر ~~سنة~~ صفحاته تقارب ستمئة. وترجمته في كتب التراجم والتواريخ.

- ذيل -

يزيد بن عبد الملك

لما توفي عمر بن عبد العزيز تولى الخلافة من بعده: ~~يزيد~~ يزيد بن عبد الملك بن مروان بعهد من أخيه سليمان كما تقدم في ترجمة عمر: وكان يزيد يتواضع ويتظاهر بالصلاح فلما صار إليه الملك رجا به الناس أن يتابع سيرة سلفه فخاب رجاؤهم ولم يكن من الرجل العظيم الذي يبقي المآثر ~~يخلد~~ بل خالف مظهره الأول ومال إلى لذائذه: ولد سنة ٧٦هـ وتولى سنة ١٠١هـ ومات سنة ١٠٥هـ وليس في أخباره ما يجد في عظماء الرجال الذين ألف هذا الكتاب لذكرهم وقد كانت في أيامه حروب وغزوات تجدها في تراجم أخبار السنين والعصور كتاريخ العبر والكامل والطبري فارجع إليها.

وعهد يزيد هذا بالملك إلى أخيه هشام بن عبد الملك ثم ابنه الوليد ابن يزيد بن عبد الملك. فلما مات تولى هشام الآتي خبره.

هشام بن عبد الملك

- ولد سنة ٧١ وتوفي سنة ١٢٥هـ -

امتاز صاحب هذه الترجمة برجاحة العقل وضبط الأمور بالحزم والأخذ بقوة البطش وجلال الهيبة: مات أخوه يزيد والأطماع ممتدة إليه. وهشام بحمص فبويع بها وأقبل على رشده وذلك سنة ~~١٠٥~~ ١٠٥ ~~[illegible]~~ وكانت في أيامه حوادث كثيرة منها ~~[illegible]~~ خروج زيد بن علي بن الحسين بن علي سنة ١٢٢ بأربعة عشر ألفا من أهل الكوفة

زيد بن علي

قد بايعوه وعاهدوه على قتال جيوش الشام ومن يرد عليهم من ملوك بني امية
قال ابن خلدون في العبر : ظهر زيد بن علي بالكوفة خارجاً على
هشام: داعياً للكتاب والسنة، والى جهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين،
واعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفيء، ورد المظالم، وافعال الخير،
ونصر اهل البيت . اهـ . وكان العامل على العراق يوسف بن عمر الثقفي وهو
حينذاك في الحيرة فكتب اليه هشام، بعد ان علم يوسف بالامر، يأمره ان
يقاتل زيداً، فكتب يوسف الى الحكم بن الصلت وهو في الكوفة، فطلب الحكم
زيداً، ثم اجتمع الثائرون من اصحاب زيد، والعساكر من جنود الحكم،
فنشب قتال أظهر فيه زيد بن علي شجاعة خارقة وجلداً على الحرب عجيباً
واصابه سهم في جبهته فلما عاد الى منزله في المساء نزعه وقد بلغ دماغه
فنزف دمه فمات من ساعته ودفنه اصحابه وفي اليوم الثاني تفرق جمعه
وكشف عنه الحكم فعثر عليه فقطع رأسه وارسله الى يوسف في الحيرة ويوسف
بعثه الى هشام في الشام فنصبه على باب دمشق وانطفأت الفتنة .
وكان في ايام هشام حروب كثيرة مع خاقان الترك في ما وراء النهر انتهت بقتل خاقان وتمكنوا
من فتح بلاده وفازوا بغنائم وافرة . وتحركت فرق من الخوارج يريدون
الظهور فعلم بهم هشام فوجه اليهم جنداً فكان قتال خُتم بقمع ثائرتهم
وتخضيد شوكتهم واستتباب الامن . وكان هشام محباً لجمع الاموال
منعوتاً بالبخل: قيل لم يجتمع في خزانة احد من ملوك بني امية من المال ما اجتمع
في خزائنه . قال الثعالبي في الاعجاز والايجاز : قيل لهشام ـ قبل أن
يلي الملك ـ : أتطمع في الخلافة وانت جبان بخيل ؟ فقال : كيف لا
أطمع وأنا عفيف حليم .. قال : وكتب الى اخيه مسلمة بن عبد الملك:
"طهر عسكرك من اهل الفساد فان الله لا يصلح عمل المفسدين".
ونقل ابن الاثير في الكامل عن يحيى بن يعقوب الانصاري نبذة تدل على حلم
هشام

هشام وحسن اخلاقه قال: شتم هشام رجلاً من الاشراف فوبخه الرجل وقال: اما تستحي أن تشتمني وانت خليفة الله في الارض؟ فاستحيى هشام منه. وقال: اقتصّ مني! قال: اذاً انا سفيه مثلك! قال: فخذ مني عوضاً من المال! قال: ما كنتُ لافعل! قال: فهبها لله! قال: هي لله ثم لك! فنكس هشام رأسه واستحيى وقال: والله لا اعود الى مثلها ابداً!

ولما كانت سنة ١٢٥ هـ مرض هشام بن عبد الملك وهو في الرصافة (قال ياقوت: رُصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة بينهما اربعة فراسخ على طرف البرية بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام وكان يسكنها في الصيف): وهي غير رصافة بغداد والبصرة) فَفكّر في امر من يلي الخلافة بعده وكان ابوه اخوه يزيد قد عهد بها الى ابنه الوليد بن يزيد: فرأى هشام ان الوليد لا يصلح لها ولا هو من رجالها فحاول خلعه وتولية من يكون اولى منه بها فلم يستطع ومات في الرصافة ومدة خلافته تسع عشرة سنة وتسعة اشهر وايام.

الوليد بن يزيد

— ولد سنة ٨١ وقُتل سنة ١٢٦ هـ —

قلتُ في آخر سيرة هشام السالف ذكره: ان هشاماً رأى الوليد لا يصلح للخلافة. وذلك لما كانوا يصفونه به من حب المجون والميل الى اللهو وايثار اللذائذ على التفكير بشؤون الملك. واوشكتُ أن اضرب صفحاً عن الحاقه بعظماء الرجال الذين عقدت النية على اثباتهم في هذا المصنَّف. ثم رأيت بعض المؤرخين يذهبون الى الثناء على الوليد ويَعُدُّون ما قيل فيه افتراءً عليه وهم يروون له شعراً حسناً يصح لنا ان ندعوه به شاعر الملوك الامويين. وعلماء الادب يذكرون ان كثيراً من الشعراء الكبار كأبي نواس وطبقته يسرقون معاني الوليد ويدمجونها في اشعارهم. فقلت: اذا لم يكن الوليد ملكاً هماماً فهو شاعر مجيد ولم ار اخلاء الكتاب من وضعه. وهو: الوليد بن

يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم : ولي الخلافة بعد عمه هشام بعهد من ابيه يزيد . قال ابن الاثير المؤرخ بعد ان ذكر اخباره ونسبه : وكان من فتيان بني امية وظرفائهم وشجعانهم واجوادهم واشدائهم منهمكاً في اللهو والشرب وسماع الغناء . ومن جيد شعره قوله لما بلغه أن هشاماً يريد خلعه وكتب اليه بالابيات :

رأيتك تبني دائباً في قطيعتي ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني
تثير على الباقين مجني ضغينة فويل لهم ان مت من شر ما تجني
كأني بهم والليت أفضل قولهم ألا ليتنا والليت اذ ذاك لا يغني
كفرت يداً من منعم لو شكرتها جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن

يشير اليه بأنه لو صرف الخلافة عنه ومات لحدثت حروب ووقائع وفتن . ولما مات هشام اتى خبره الوليد وهو في مجلس طرب فأصغى قليلاً وامر مغنيه ان يغنيه :

طاب يومي ولذ شرب السلافة واتانا نعي من بالرصافة
واتانا البريد ينعى هشاماً واتانا بخاتم للخلافة
فاصطبحنا من خمر عانة صرفاً ولهونا بقينة عزافة

فغناه بها وفي صبيحة اليوم الثاني من توليته اجرى على الزمنى من اهل الشام الجرايات وكسا المعوزين وامر باحصاء العميان وأن يدفع الى كل واحد منهم خادم يخدمه وزاد من على الناس العطايا والمنح ولم يسأل شيئاً الا سمح به . وقال :

ضمنت لكم ان لم تعقني عوائق بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك الحاق معاً وزيادة واعطية مني عليكم تبرع
فيحسبكم ديوانكم وعطاؤكم به تكتب الكتاب شهراً وتطبع

وهو

وهو الذي قتل خالد بن عبد الله القسري وقال في ذلك قصيدته العائبة يوبخ اهل اليمن
وكانوا قد حاولوا نصرة خالد ثم تخلوا عنه وقيل ان القصيدة لاحد شعراء اليمن
جمعها على لسان الوليد ولا اراه حقيقة . قال الوليد :

ألم تُهْتَجْ فتذّكرَ الوصالا ... وحبلاً كان متصلاً فزالا
بلى فالدمع منك الى انسجامٍ ... كماء المزن ينسجل انسجالا
فدع عنك ادّكارك آل سعدى ... فنحن الاكثرون حصىً ومالا
ونحن المالكون الناس قسراً ... نسومهم المذلة والنكالا
وطئنا الاشعري بعز قيس ... فيالك وطأةً لن تُستقالا
وهذا خالد فينا اسيراً ... ألا مَنَعُوه إن كانوا رجالا
عظيمهم وسيدهم قديماً ... جعلنا المخزيات له ظلالا
فلو كانت قبائلَ ذاتَ عزٍ ... لما ذهبت صنائعه ضلالا
ولا تركوه مسلوباً اسيراً ... يعالج من سلاسلنا الثقالا
وكندةَ الوقائع ضعضعتهم ... وجدتهم وردّتهم شلالا

واثّرت هذه القصيدة في اليمانية فاخذوا يسعون في قتله وقال حمزة بن
بيض [illegible] يرد على الوليد في ابياته السابقة :

وصلتَ سماء الضر بالضر بعدما ... زعمتَ سماء الضر عنا ستُقلعُ
فليت هشاماً كان حياً يسوسنا ... وكنا كما كنا نرجّي ونطمعُ

ثم اتوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك فارادوه على البيعة فأطاعهم فبايعوه
وانعقدت له البيعة سراً وفشت الدعوة اليه في الناس واستفحل
امره وشعر بهم الوليد فاراد تجهيز جيشه فرأى الناس عنه راغبين
فنهض بمن جاءه يقاتل يزيد واشياعه فنشب القتال ثم انهزم الوليد
فدخل قصر النعمان بن بشير في البخراء بظاهر دمشق واغلق الباب ثم الحّ على

المجاهير وقال: أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه؟ فأجابه رجل من أصحاب يزيد. فقال يخر: ألم أزد في أعطياتكم ألم أرفع المؤن عنكم ألم أعط فقراءكم ألم أخدم زمناكم. قالوا: بلى! ولكنك انتهكت حرمة الله وشربت الخمر واستخففت بأمر الله. فعلم أنه لا سبيل لاتقاء مهاجم فعاد فأخذ مصحفاً وجلس يتلو. ودخلوا عليه. فقال: يوم كيوم عثمان! فقتلوه وذلك سنة ١٢٦ هـ وبه خلافته سنة وستة أشهر. وله من الكلام ما هو غاية في بلاغته: يذكر أنه لما مات مسلمة بن عبد الملك قعد هشام للعزاء فأتاه الوليد ~~...~~ يجر مطرف خز عليه فوقف على هشام فقال: يا أمير المؤمنين إن عقبى من بقي لحوق من مضى وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى واختل الثغر فهوى وعلى أثر من سلف يمضي من خلف فتزودوا فإن خير الزاد التقوى. فأعرض هشام ولم يجبه. ومن شعره قوله في نصرانية اسمها سفراء:

أضحى فؤادك يا وليد عميدا صبّاً قديماً للحسان صيودا
من حب واضحة العوارض طفلة برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
ما زلت أرمقها بعيني وامق حتى بصرت بها تقبل عودا
عود الصليب فويح قلبي من رأى منكم صليباً مثله معبودا
فسألت ربي أن أكون مكانه وأكون في لهب الجحيم وقودا

— تتمة —

لما قتل الوليد ولي خلافته ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك فكانت أيامه على قصرها أيام شرور وفتن وثورات واحن. وليس له ما يدل على عظمة أو نبوغ نفس أو فضل إلا قوله من ولي: فإنه خطب الناس بعد أن قتل الوليد فذكر إلحاد يزيد وما كان عليه ابن عمه من الخلاعة والفسوق ثم قال:

"أيها الناس إن لكم علي أن لا أضع حجراً على حجر ولا [redacted] لبنة ولا [redacted]

يزيد بن الوليد

ولا اكري نهراً ولا اكثر مالاً ولا اعطيه زوجة وولداً ولا انقل مالاً عن بلد حتى اسد ثغره وخصاصة اهله بما يغنيهم فما فضل عنهم نقلته الى البلد الذي يليه ولا اجمركم في ثغوركم فافتنكم ولا اغلق بابي دونكم ولا احمل على اهل جزيتكم ولكم اعطياتكم كل سنة وارزاقكم في كل شهر حتى يكون اقصاكم كادناكم : فان وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة وان لم أفِ فلكم ان تخلعوني إلا أن اتوب وان علمتم احداً ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما اعطيكم واردتم ان تبايعوه فانا اول من يبايعه ان الناس لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" وكان الوليد قد زاد في اعطيات الناس (اي رواتبهم) عشرة عشرة من الدراهم فلما ولي يزيد نقصها فلقبوه "يزيد الناقص" وكان مولده سنة ٨٦ هـ وتولى الخلافة سنة ١٢٦ هـ فاقام خليفة خمسة اشهر وثمانية ايام ومات في هذه السنة وليس في تاريخ حياته ما يجعله في العظماء، اما اخبار ايامه فكثيرة كما قلنا وهذه ليست من خصائص هذا الكتاب فارجع اليها في تواريخ الازمنة والعصور .

ولما مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك قام بعده بالامر اخوه ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك : وكان ضعيفاً مغلوباً على امره مغلول اليد فازدراه اتباعه فكانوا تارة يسلمون عليه بالخلافة وتارة بالامارة وتارة لا يسلمون عليه بواحدة منها فمكث سبعين (وذلك سنة ١٢٦ هـ - ١٢٧ هـ) فثار عليه مروان بن محمد بن مروان وكان والي اذربيجان ودعا الى نفسه بالخلافة وسار الى الشام فانضم اليه اعوانه واستمال الجند اليه وعرف ابراهيم عجزه عن دفع هذه الغائلة وكان على ما عرفت من الضعف فنزل واختفى فاستولى مروان على الشام ثم امّن ابراهيم فظهر وسلّم الخلافة لمروان سنة ١٢٧ هـ

مروان بن محمد

— ولد سنة ٧٠ وقتل سنة ١٣٢ﻫ —

قدمنا أن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وثب على ابراهيم بن الوليد فاغتصب الملك منه ونزيد ان لمروان هذا ذكراً كثير الورود في التاريخ فلا ينبغي اغفاله وان لم يكن قد أبقى من الآثار ما يذكر به فايامه ليست من ايام ابقاء الآثار وتخليد الذكر: ولّاه هشام بن عبد الملك على ارمينية (سنة ١١٤ﻫ) فسار اليها وافتتح بلاداً وقلاعاً واستولى على ولايات كثيرة من ارمينية الى طبرستان وفي سنة ١٢٧ﻫ كان عاملاً على اذربيجان فبلغه ما اصاب الدولة الاموية وهي على ما رأيت من ضعف الكلمة وتقهقر السلطان واضطراب الحال فدعا الناس الى البيعة له فبايعوه وقدم بجيش كثيف الى الشام فخلع ابراهيم واستولى على عرش بني مروان. فكثرت في ايامه فتن الثائرين والمخالفين لما انبث بهم من روح الشقاق والخروج عن طاعة هذه الطائفة المالكة فكان كلما رأب صدعاً انصدع رأب وكلما داوى جرحاً سال جرح وسترى في الكلام على خلفاء بني العباس ما صنعوه من بث الدعوة اليهم وتحريض الناس على نزع بيعة بني امية والناس عبيد القوة فلما رأوا ان ابا مسلم الخراساني وهو قائد من عظم الذي اقام العباسيين في خراسان اولاً ثم بمرو وغيرها من بلاد فارس والعراق يدعو الى بني العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي انضموا اليه وعطفوا عليه وكتب في عضد مروان ومن والاه فجمع ما استطاع جمعه من الجيوش وذلك سنة ١٣٢ﻫ وقصد قتال قحطبة بن شبيب الطائي: وكان ابو مسلم الخراساني قد سيّره الى طوس فلما عظم شأنه سار اليه مروان بعسكره فنزل بالزاب وهناك جيش من عسكر قحطبة عليه عبد الله بن علي فاشتعلت بينهما نار الحرب فانهزم جنود مروان ثم وفرّ مروان الى الموصل ثم الى حران ومنها الى حمص فدمشق ففلسطين وانتهى الى بوصير من اعمال مصر. وكان السفاح (أول

الخلفاء

الخلفاء العباسيين) فكتب الى عبد الله بن علي يأمره بأن يتعقب مروان فلحقه
حتى ادركه ببوصير فقتله وبعث برأسه الى السفاح وهو في الكوفة سنة ١٣٢هـ
وهو آخر ملوك بني مروان وبه انقرضت دولتا بني امية: المعاوية والمروانية؛
في الشام. وصفا الملك لبني العباس على ما سنذكره ان شاء الله.

ومن كلام مروان: كنزنا الكنوز فما وجدنا كنزاً انفع من كنز معروف
في قلب حر: ايام القدرة وان طالت وانها لمحة قصيرة والمتعة
بها وان كثرت قليلة.

وكان مروان حازماً مدبراً فلم ينفعه حزمه وتدبيره عند ادبار الملك
وانحلال السلطان.

الدولة العباسية

[تمهيد]

قُتل الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي والأبصار حائمة على شخصه المحبوب. فانقلبت القلوب تبكيه والألسن تنعاه وترثيه واتخذ بنو هاشم مقتله ومأتم من حزن عليه ذريعة لبث الضغينة في المسلمين على بني أمية وأحدثوا لهم رمضاً يثيرون به نار الحقود والبغضاء وكانوا كلما آنسوا من أنفسهم قوة هيّجوا فريقاً من شيعتهم فثار بهم على من عاصره من خلفاء بني أمية فلم يظفروا بدأة ذي بدء لما كان أولئك قد تخذوه لأنفسهم من الوقاية ومراعاة ما من العدة حتى كان العام الأخير من القرن الأول للهجرة فكثرت أنصارهم وبلغت نابغتهم وتعددت مثالب الدولة المالكة وأحصيت هفواتها وزلاتها وكان مرجع الهاشميين في ذلك الحين إلى رجلين هما محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية. ثم مات أبو هاشم مسموماً قيل سمه سليمان ابن عبد الملك وأوصى أصحابه والدعاة إليه بمتابعة محمد بن علي: وكان محمد ينزل أرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام فأقبلوا عليه فبايعوه سراً كما كانوا يبايعون من قبله فاختار منهم رجالاً وثق بهم فسيّرهم إلى الآفاق لبث الدعوة إليه وكتب لهم كتاباً يكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها وهو أشبه بنظام جمعية سرية ثورية. فانصرفوا وهم كلما شكّ فيهم شاكٌّ من ولاة بني أمية أظهروا أنهم يشتغلون في التجارة وفي سنة ١٠٧ هـ وشى بجماعة منهم في خراسان واشٍ إلى أميرها أسد بن عبد الله فقطع أيدي من ظفر به منهم وصلبهم فكتب بعضهم بذلك إلى محمد بن علي فأجابه الحمد لله الذي صدق دعوتكم وحقق مقالتكم وقد بقيت منكم قتلى ستعدّ. ومن غريب أخبارهم أن أسد بن عبد الله ظفر بدعاة منهم سنة ١٠٨ هـ فقبض على اثني عشر رجلاً في رأسهم زياد أبو محمد مولى همدان فقتله أسد وعرض البراءة منه على أصحابه فمن تبرأ أخلى سبيله فتبرأ اثنان

نثرها

فنزل هو وأبي البزارة ثمانية فقتلوا. فلما كان الغد أقبل أحد الاثنين إلى أسد فقال: أسألك
أن تلحقني بأصحابي! فقتله. وفي سنة ١٢١ هـ أعلن العصيان زيد بن علي بن الحسين
في الكوفة فكان من أمره ما ذكرناه في ترجمة هشام وقتل سنة ١٢٢ هـ. وفي سنة
١٢٥ هـ توفي محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى إلى ابنه إبراهيم بن محمد بالقيام
بأمر الدعوة. وفي سنة ١٢٦ هـ وجّه إبراهيم بن محمد الإمامُ أبا هاشم بكير بن
ماهان وهو من أمنائه إلى خراسان فقدم مرو وجمع النقباء والدعاة فنعى
محمد بن علي ودعا إلى ابنه إبراهيم فقبلوه ودفعوا إليه ما اجتمع عندهم من الأموال
وكانت الشيعة تدفع إلى النقباء في كل سنة خمس أموالها يستعينون به على بث
الدعاة في البلاد فعاد بكير إلى إبراهيم بالأموال. وفي سنة ١٢٨ هـ كان قد اتصل
بإبراهيم بن محمد أبو مسلم الخراساني واسمه عبد الرحمن بن مسلم (انظر ترجمته) ورأى منه
ما جعله يثق به فوجّهه إلى خراسان وكتب إلى من بها من الشيعة أن يأتمروا بأمره
ويطيعوه فأبوا ذلك واستصغروا سنه وكان في التاسعة عشرة ثم شافههم
به إبراهيم فأطاعوه. وفي شهر شعبان من سنة ١٢٩ هـ نزل أبو مسلم قرية من قرى
مرو يقال لها فنين فجمع حوله النقباء ورؤساء الشيعة وفرّقهم في البلاد
وأمرهم أن يُظهروا الدعوة في الليلة الخامسة والعشرين من شهر رمضان في جميع الآفاق
بيوم واحد ومن خالفهم قاتلوه: وذلك بعد أن اعتقد ضعف ضعفاء بني أمية
ونفرة الناس منهم وكثرة عدد الشيعة في الأقطار. فتفرق أصحابه في طخارستان
ومرو الروذ والطالقان وخوارزم ثم انصرف هو فنزل قرية سفيذنج من
قرى مرو في الليلة الثانية من رمضان فبث الدعاة في الناس وأظهر أمره فأتاه
أهل ستين قرية من قرى خراسان: وأمير خراسان نصر بن سيار مشتغل في قتال جماعة
خرجوا عليه. ولما كانت ليلة الخميس في ٢٥ رمضان سنة ١٢٩ وهو اليوم
الموعود المتفق عليه عقد أبو مسلم لواءً كان إبراهيم الإمام قد بعث به
إليه يُدعى الظل على رمح طوله أربع عشرة ذراعاً ونشر راية تُدعى السحاب

ولبس هو ومن معه السواد واوقد النيران في الليل وكانت علامتهم فاجتمعت اليه شيعته ووجهت
عليه الرجال وكتب كتاباً الى نصر بن سيار فوجّه اليه نصر جيشاً عليه مولاه يزيد
وعلم به ابومسلم فسيّر اليه جيشاً عليه مالك بن الهيثم ~~[illegible]~~ الخزاعي فتلاقيا
بقرية تعرف بالين فأُسر يزيد وانهزم من معه وجيء به الى ابي مسلم فاحسن
ابومسلم اليه وعالجه حتى اندملت جراحه وخيّره بين البقاء معهم او الرجوع الى نصر
على أن يعاهدهم انه لا يحاربهم ولا يكذب عليهم بل يقول فيهم ما رأى فعاهده وعاد .
فليم ابومسلم على تركه فقال : ان هذا سيردّ عنكم اهل الورع والصلاح فما نحن عندهم
على دين الاسلام . وكان الامر كذلك فانهم كانوا يرجفون بانهم يعبدون الاوثان
ويستحلون الدماء والاموال . فلما انصرف اليهم يزيد نفى عنهم ما يقال وشهد فيهم بالديانة
ثم اجتمع الناس على قتال ابي مسلم فقاتلهم وفي سنة ١٣٠هـ دخل مرو وهرب نصر بن
سيار الى سرخس وطوس ونيسابور وانتهى الى ساوة من قرى الري ومرض
فمات بها . وبعث ابومسلم الرجال الى الجهات حتى امتلك كل ولاية خراسان
وسيّر الجيوش الى الشام والعراق . وكان مروان بن محمد بن مروان قد عثر على كتاب من ابرهيم
الامام الى ابي مسلم عرف فيه ما بينهما فكتب الى عامله بالبلقاء ان يوثق ابرهيم
ويرسله اليه فأتي به فحبسه مروان في حران . وأرسل ابرهيم الى اهل بيته يأمرهم
بالطاعة لأخيه ابي العباس عبدالله بن محمد وان يرحلوا الى الكوفة فارتحل بهم ابوالعباس .
// ولما علم مروان بما صنع ابومسلم في خراسان ارسل الى ابرهيم فقتله سنة ١٣٢ هـ
وفي هذه السنة عظم امر ابي مسلم ووصل الى الكوفة ابوالعباس واخوته
فبويع بالخلافة جهراً . وامر ابوالعباس عمه عبدالله بن علي ان يحارب مروان
فقصده وقاتله بالزاب فانهزم مروان الى بوصير كما قدمنا في الكلام عليه
وتبعه عبدالله فقتله في بوصير . وصفت الخلافة الاسلامية لابي العباس عبد
الله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم فتتابع ابناء العباس على ما يلي .

ابو

أبو العباس السفاح

— ولد سنة ١٠٤ وتوفي سنة ١٣٦ هـ —

أصبح الملك بعد بني أمية ثابت الأساس لبني العباس وأولهم: أبو العباس عبد الله بن
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عم النبي "ص". وذلك مع ما بيناه في التمهيد السالف:
تولى بالكوفة سنة ١٣٢ هـ بعد أن قتل مروان بن محمد آخر ملوك بني مروان.
وكان أبو العباس هذا شديد العقوبة حازماً مقتدراً. لم يأل جهداً في الانتقام
من بني أمية بل أخذ يقتل ويصلب ويحرق كل من ظفر به منهم حتى تشتت شملهم
واختفت آثارهم ولم يسلم منهم غير الأطفال ومن ذهب إلى الأندلس. ونبش
قبورهم فرأى معاوية بن أبي سفيان قد فني وابنه يزيد لم يبق [رماد ولا عبد الملك بن مروان] إلا جمجمته ووجد
هشام بن عبد الملك لا يزال عليه لحمه فأخرجه وصلبه وضربه بالسياط حتى
تناثر لحمه ثم أمر به فأحرقه وذر رماده في الفضاء. ولم يقف أبو العباس
عند ذلك بل كان جميع أمرائه وولاته الذين بعثهم وفرقهم في الأمصار يصنعون صنيعه
لما كان الأمويون قد جعلوه في قلوبهم من الأحقاد الكامنة. فإن عبد الله بن علي دعا من
بني أمية تسعين رجلاً إلى الطعام فلما كانوا عنده أنشده شبل بن عبد الله مولى بني
هاشم أبياتاً تحرض فيها على قتلهم وذكرهم بما صنعوا فثارت حفيظته وأمر
بهم فضربوا بالعمد وبسطت عليهم الأنطاع فجلس هو وأصحابه عليهم يأكلون وهم
يسمعون أنينهم من تحتهم حتى ماتوا جميعاً. وسليمان بن علي بن عبد الله بن عباس
قتل منهم بالبصرة جمعاً وافراً وألقاهم للكلاب فأكلتهم. وامتدت إليهم
الأيدي من كل ناحية وصوب حتى فني أكثرهم ونجا من فر إلى الأندلس
حيث أسست الدولة الأموية الثانية هنالك وسنتكلم في الفصل الآتي
عن رجالها. ولُقِّب أبو العباس "السفاح" لكثرة ما سفح من دماء بني
أمية. وبنى في الأنبار مدينة سماها "الهاشمية" وجعلها مقر خلافته

واتخذ الوزراء وهو اول من احدث ~~[illegible]~~ الوزارة في الاسلام فان بني امية لم يكن لهم من يطلقون عليه هذا الكلام وانما كانوا يقربون منهم رجالاً يستشيرونهم في معظم شؤونهم ويعولون على آرائهم . وكان السفاح من اسخى الناس يداً لا يعد وعداً ويؤخره عن وقته وهو اول خليفة في الاسلام وصل بمبلغ مليوني درهم . وكان يلبس خاتمه باليمين : وذلك ان رسول الله ص كان يتختم في يمينه وكذلك الخلفاء بعده ولما ولي معاوية جعله في اليسار واقتدت به بنو امية فلما استوى السفاح اعاده الى اليمين وتابعه الكثيرون : وبقي يستعمل في اليمين حتى كانت ايام الرشيد فنقله الى اليسار وتبعه الناس حتى الآن . وكان فصيحاً متأدباً ومن كلامه :

« لأُعملنَّ اللين حتى لا ينفع الا الشدة ولأُكرمنَّ الخاصة ما أمنتُهم على العامة ولأُغمدنَّ سيفي حتى يسلَّه الحق ولأعطين حتى لا ارى للعطية موضعاً . »

« ما أقبح بنا ان تكون الدنيا لنا واولياؤنا خالون من حسن آثارنا »

« اذا عظمت القدرة قلَّت الشهوة » .

مرض بالجدري وهو شاب في الثانية والثلاثين من عمره ومات بالانبار وقد عهد بالخلافة الى اخيه ابي جعفر المنصور . وكانت ايامه ثورات تمثل القوة وشدة الجدة ونشاط فتوة الملك .

ابو جعفر المنصور

— ولد سنة ٩٥ وتوفي سنة ١٥٨ هـ —

قال صاعد الاندلسي في طبقات الامم : « واول من عني بالعلوم من ملوك العرب الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، فكان مع براعته في الفقه ، وتقدمه في علم الفلسفة ، وخاصة في علم صناعة النجوم كلفاً بها وباهلها » . وكان مولده بالشراة (كما في المعارف) وولي الخلافة بعد اخيه السفاح : بويع يوم وفاته وهو بطريقه الى مكة (سنة ١٣٦ هـ) فقدم عليه

عليه ابو مسلم الخراساني وكان السفاح قد ولاه على خراسان و... فلما ولي المنصور [illegible] كان حاقداً على ابي مسلم خائفاً منه لما رآه من ميل الناس اليه والتفافهم حوله فاستدعاه فامتنع ابو مسلم ثم اطاع وجاء المدائن مجدّاً وهو يحسب ان المنصور يحبوه ويكرمه فلما تمكن منه ابو جعفر قتله شر قتلة (انظر ترجمة ابي مسلم) وذلك سنة ١٣٧ هـ . وهو الذي [illegible] جدير بآل عباس مشيد دولتهم ورافع لوائهم ومؤسس ملكهم ولكن رحم الله المتنبيُّ اذ يقول :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلةٍ لا يَظلمُ !

وكان ابو جعفر يُتهم بالبخل لحرصه ولانه لم يكن يضع الاموال في غير موضعها ولكنه لا يبذلها الا في منفعة فجمع مالاً وفيراً . وكانت في ايامه امور كثيرة لا علاقة لها بموضوع كتابنا هذا لانه لا يُكتب فيه الا ما يتعلق بترجمة صاحب الترجمة واما ما كان في زمنه من الاحداث و الخطوب فمرجعها كتب الاخبار وتواريخ الأعصار . وهو باني بغداد بدأ ببنائها سنة ١٤٥ هـ لجعلها مقراً لملكه بدلاً من الهاشمية التي لم تكن من الحصانة على ما يروم . وفي عصره شرع العرب يطلبون علوم اليونان والفرس ويترجمونها الى العربية . وفي زمنه عُمل اول اسطرلاب في الاسلام صنعه محمد بن ابراهيم الفزاري . وكان ابو جعفر بعيداً عن اللهو والعبث كثير الجِدّ والتفكير في الامور . وله تواقيع هي غاية في الابلاغة منها : أن رجلاً رفع اليه شكايةً على بعض عماله فوقّع فيها الى العامل : « اكفني امره والا كفيته امرك » . ووقّع الى عامل آخر : « قد كثرت شكاتك وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت » . وكتب اليه سوار بن عبد الله القاضي : « إنَّ عندنا رجلاً شديد الترفض يُدعى السيد الحميري » فوقّع في كتابه : « إنا بعثناك قاضياً لا ساعياً ! » . ووقّع في كتابِ بعض مستماحيه : « إن البلاغة والغنى اذا اجتمعا في رجل اطغياه وقد رُزقتَ احداهما فاكتفِ بها واقتصر عليها » . ورفع اليه

في بناء مسجد فوقّع: « إن من أشراط الساعة أن تكثر المساجد فزد في خطاك يُزَدْ في أجرك ».

وأوصى ابنه المهدي قبل وفاته فقال:

« لقد جمعتُ لك من الأموال ما إن كُسر عليك الخراج عشر سنين لكفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فإياك والأثرة والتبذير بأموال الرعية واشحن الثغور واضبط الأطراف وأمِّن السبل العامة وأدخل المرافق عليهم وادفع المكاره عنهم وأعدّ الأموال واخزنها فإن النوائب غير مأمونة وهي من شيم الزمان وأعدّ الكراع والرجال والجند ما استطعت وإياك وتأخير عمل اليوم إلى الغد فتتدارك عليك الأمور وتضيع واعدَّ رجالاً في الليل لمعرفة ما يكون في النهار ورجالاً في النهار لمعرفة ما يكون في الليل وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ولا تكسل واستعمل حسن الظن وأسيء الظن بعمّالك ولا تتاب وخذ نفسك بالتيقظ ».

وفي سنة ١٥٨ هـ أراد المنصور الحج فارتحل من الكوفة ومضى فمات ببئر ميمون على مراحل من مكة [قال القلقشندي: ودفن بالحجون] وكانت مدة خلافته اثنين وعشرين عاماً.

هارون الرشيد

— ولد سنة ١٤٦ وتوفي سنة ١٩٢ هـ —

مات أبو جعفر المنصور وتولى من بعده الخلافة ابنه أبو عبد الله محمد المهدي فكانت خلافته عشر سنين لم يأت فيها بعمل يدل على ما يجعلنا نذكره في قرن مع عظماء الرجال. وكان مولده سنة ١٢٦ وخلافته سنة ١٥٨ وموته سنة ١٦٩ هـ بماسبذان.

وبعد المهدي تولى ابنه الهادي موسى بن محمد المهدي وكان ضعيفاً فاستبدت أمه الخيزران بالأمور فلم يشعر إلا والقواد والرؤساء يغدون ويروحون إلى بابها فنهاها عن الدخول في شؤونه وقال لها ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك أما لك مغزل

منزل يشفعك او مصحف يذكرك او بيت يصونك اياك ان تقتل بابن مسلم او ذمي فاني ضاربٌ عنقه وقابضٌ ماله . فانصرفت وهي مغضبة وامرت جواريها ان يقتلنه : فجلسن على وجهه وخنقنه ثم فمات . وكان مولده سنة ١٤٤ وخلافته ١٦٩ وموته سنة ١٧٠ هـ وليس بذي بال .

اما الرجل الذي امتلأت باحاديثه صحائف الاخبار وشحنت بآثار حياته الآثار فهو صاحب هذه الترجمة : ابو جعفر هارون الرشيد بن المهدي محمد بن المنصور : خامس خلفاء العباسيين واشهرهم على الاطلاق : خدم العلم وقرّب العلماء من مجلسه رافعاً من شأنهم ومغدقاً عليهم في العطاء . وكان عالماً بالادب واخبار العرب والحديث والفقه وله محاضرات مع علماء عصره : شجاعاً مقداماً كثير الغزوات : حازماً كريماً متواضعاً لذوي العلم والفضل ، وكان يحج سنة ويغزو سنة حتى قال فيه بعضهم :

فمن يطلب لقاءك او يُرِدْهُ فبالحرمين او اقصى الثغور

وفي قبل الخلافة أعمالاً لابيه واخيه وغزا الروم في القسطنطينية فصالحته الملكة ايريني (Irène : morte en 803) على ان تفتدي منه المملكة الرومانية بسبعين الف دينار تدفعها اليه في كل عام . ولما بويع بالخلافة ولمدة ثلاث وعشرين سنة قام باعباء الملك احسن قيام وتشبه في افعاله بالمنصور الا في بذل المال : فانه لم يُرَ خليفة اجود من الرشيد . وكان لا يضيع عنده احسان محسن ولا يؤخّر . وكان يحب الشعر والشعراء ويجزل لهم العطاء . وكانت دولته من احسن الدول واكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً : ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والكُتّاب والندماء ما اجتمع على بابه . جاءته البيعة ليلة وفاة اخيه الهادي وفي تلك الليلة وُلد ابنه المأمون : فكانت ليلةً ، وُلد فيها خليفة وولي خليفة ومات خليفة . وكانت بينه وبين ملك فرنسا كارلوس الكبير الملقب بشارلمان (Charlemagne : 742-814) صلةٌ موثقة العرى وكثيراً ما كان الرشيد يتحفه بالهدايا ومن جملة ما اهداه : ساعة شمسية

وقائع وشطرنج ثمينة وارسل اليه مفاتيح كنيسة القيامة في القدس مع امر لنوابه بأن يعاملوا زائري الاراضي المقدسة احسن معاملة. وكان الرشيد يطوف في أكثر الليالي مستترا بألبسة العامة في اسواق بغداد وشوارعها فيعلم بدار رعية ما خفي عنه من ظالم يزجره او مظلوم ينصره او عالم يقربه. ويلهو واهو الخليفة عربي لعبة الكرة والصولجان. وهو صاحب وقعة البرامكة وكانوا طائفة فارسية الاصل استولت على الملك ادارته وسياسته وماله ورجاله فخاف الرشيد بادرة تبدر منهم نحوه ففتك بهم تلك الفتكة الهائلة فقتل بعضهم وشرد بعضا وسجن آخرين في ليلة واحدة لم يكونوا ... يقومون بها على قوتهم وتصرفهم في الدولة والاعمال والاموال وذلك سنة ١٨٧ هـ وسيأتي الكلام عليهم ايضا في اخبارهم. وكان خراج يحمل اليه من القسطنطينية منذ غزاها في ايام ابيه فلما كانت سنة ١٨٧ هـ خلع الرومانيون ملكتهم ايريني وولوا عليهم ملكا يدعى نيقيفور ( )

فكتب نيقيفور الى الرشيد كتابا ترجمته: « من نيقيفور ملك الروم الى هارون ملك العرب أما بعد فان الملكة ايريني حملت اليك من اموالها ما كنت حقيقا بأن تحمل اضعافه اليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابي هذا فاردد ما اخذت والا فالسيف بيننا وبينك ». فقرأ الرشيد الكتاب فغضب واجاب على ظهر كتابه: « من هارون امير المؤمنين الى نيقيفور كلب الروم: قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه ». وجهز جيشاً جراراً وسار يخرب المدن ويدمر المعاقل حتى قرب من القسطنطينية فارتاع ملك الروم والتمس الصلح فضرب عليه الرشيد الجزية وعاد فلم يبلغ بغداد حتى بلغه ان نيقيفور نكث عهده فرجع اليه ولم يبال ببرد تلك البلاد وثلجها فدمر واخرب حتى بلغ البوسفور فتذلل نيقيفور له فصفح عنه ثم اخلف وغدر ثالثة فغزاه الرشيد غزوة كادت تكون قاضية قتل فيها من جيش الروم اربعون الفا في وقعة واحدة وجرح نيقيفور فانتهب الرشيد ماله وسلاحه ثم جعل عليهم مالا يبعثونه به في كل سنة فاطاعوا واقبل الرشيد على بغداد ظافرا فاخرا

قاهراً . واخبار الرشيد مع الادباء والشعراء كثيرة تجدها في مظانها من كتب الادب. وله كلم مأثورة منها : إيّاك والدالَّة فانها تُفسد الحرمة . وقال يعاتب: ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يُصلح به لسانه أيسر أحدكم ان يكون لسانه كلسان عبده وأمَتِه ؟ . وسأل جلساءه : من أرغد الناس عيشاً ؟ قالوا : امير المؤمنين . فقال لهم : كلاً . إنّ لأ عواد المنابر لهيبة ، وإنّ لقعقعة اللجم لفزعة ، وان أهنأ الناس عيشاً : رجل له دار يسكنها ، وزوجة يأوي اليها ، في كفاف من العيش ، لا يعرفنا ولا نعرفه : فانه ان عَرَفَنا وعرفناه : أفسدنا عليه دينه ودنياه ! .

وكان قد ارسل رافع بن الليث عاملاً على خراسان فلما اطمأن بها خلع الطاعة واظهر العصيان وتبعه كثيرون فاغار على مدينة سمرقند فملكها وقتل عاملها فبلغ الرشيد ذلك فاغضبه فركب في عسكر ضخم فرض في الطريق ولما وصل الى مدينة طوس من أعمال خراسان مات بها فدفن هناك . واوصى بالخلافة من بعده لابنائه الامين ثم المأمون ثم المؤتمن . ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة . وكانت عاصمة ملكه بغداد .

ولما توفي الرشيد بطوس بايع الناس ابنه محمداً الامين وهو ببغداد سنة ١٩٣ هـ وكان ضعيف الرأي منهمكاً بالملذات والشهوات . وحسّن له بعض وزرائه خلع المأمون اخيه من ولاية العهد وتولية ابنه موسى وفي سنة ١٩٤ هـ امر بالدعاء على المنابر لابنه موسى وإبطال الدعاء للمأمون . وكان المأمون بمرو فغاظه ما صنع اخوه وجاءته رسالة من الامين يدعوه بها الى المسير اليه فاستشار المأمون اخصاءه فحذروه شر الذهاب . فرجع الرسول بخبر امتناعه . فجهز الامين جيشاً اراد توجيهه الى مرو لقتال المأمون وكانت للمأمون عيون ببغداد تأتيه باخبار الامين فلما جاءه النبأ جهز جيشاً من كانوا قد انضموا اليه بعد اعلانه العصيان على اخيه وسيّره بقيادة طاهر ابن الحسين : فالتقى الجيشان بقرب الري فانهزم جيش الامين وقتل قائده

على بن عيسى بن ماهان . وسار من هو بن حسين حتى بلغ بغداد فحاصرها ثم افتتحها وفر الامين فقبض عليه بعض جنود من هو فقتلوه واخذوا اليه رأسه فبعث به الى المأمون . وابتدأت خلافة المأمون على ما سيأتي . وكان مولد الامين سنة ١٧٠ وتولى الخلافة سنة ١٩٢ وقتل سنة ١٩٨ هـ .

المأمون

– ولد سنة ١٧٠ وتوفي سنة ٢١٨ هـ –

سعدت الدولة العباسية في ازمانها رجال كانوا خير من اخرجتهم بطون الامهات ظفرت بهم الامة بافخم شأنها وشيدي ذكرها ومؤسسي مجدها وكان من الطراز الاول فيهم صاحب هذه الصحيفة الذي كان قصارى الملوك من بعده ان يتشبهوا به ويتخذوه قدوة في احياء دارس المعارف ونشر لواء العلوم واكرام النابغين بما ينشط المشتغلين بالدرس المنقطعين الى البحث والتنقيب والتأليف والتصنيف على متابعة السير في ذلك السبيل الحميد والمنهج الرشيد .

قال صاعد الاندلسي في طبقات الامم : لما افضت الخلافة الى الخليفة السابع – من الخلفاء العباسيين – عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن ابي جعفر المنصور تمم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم واتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلتهم بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب افلاطون وارسطاطاليس وابقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس ، وغيرهم من الفلاسفة ، فاستخار لها مهرة التراجمة ، وكلفهم احكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما امكن ، ثم حض الناس على قراءتها ، ورغبهم في تعلمها ، فنفقت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكمة في عصره ، وتنافس اولو النباهة في العلوم ، لما كانوا يرون من احتفائه لمنتحليها ، واختصاصه لمتقلديها ، فكان يخلو بهم ، ويأنس بمناظرتهم ، ويلتذ بمذاكرتهم ، فينالون عنده المنازل الرفيعة ، والمراتب السنية ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين واهل اللغة والاخبار والمعرفة بالشعر

الشعر والنسب، فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة، وسنّوا لمن بعدهم مناهج الطب، ومهّدوا أصول الأدب، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومانية أيام اكتمالها، وزمانه اجتماع شملها..

تولى أبو العباس المأمون الخلافة سنة ١٩٨هـ وصفت له بعد مقتل أخيه الأمين عشرين سنة خدم بها الأمة الإسلامية والعالم العربي خدمة لا تنسى على وجه الدهر. وكان أفضل بني العباس على الإطلاق، وأكثرهم حزماً وفطنة واعتناءً بنشر العلوم والاشتغال في الفنون. وأطلق في أيامه حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة ونشر الأمان لكل باحث برأيه مهما لمذهبه وإن خالف الجمهور أو كُفّر أو زُندق فكانت بغداد في أيامه أشبه بمدينة راقية من بلاد الغرب اليوم تقام فيها الاجتماعات لخوض المباحث المختلفة دون مسيطر أو رقيب. وعلى ذلك آخذه إمام الحرمين الجويني: قال في كتابه «غياث الأمم»:

«وقد اتفق للمأمون وكان من أنجب الخلفاء وأقصدهم خطة؟ ظهرت هفوة فيها وعسر على من بعده تداركها فإنه رأى تقرير كل ذي مذهب على رأيه فنبغ الناجمون ونزغ الزائغون وتفاقم الأمر ونطق من غطاها النافذ واستهل زلله وخطله (؟) إلى أن سوّغ للمعطلة أن يظهروا آراءهم ورتب مترجمين ليردوا كتب الأوائل إلى لسان العرب وحملت جرأته إلى أحوال يقصر الوصف عن أدناها ولو قصت أشر طرفي بجنبات البدع [illegible] والضلالات في الموقف الأهول في العرصات لم أكن مجازفاً».

وقد جمعت أخبار المأمون في مجلد كامل (صفحاته ٢٨٤) من تاريخ بغداد لأبي الفضل طيفور (انظر ترجمة ت المتقدم على تاريخه). قال طيفور: وكان المأمون قد همّ بلعن معاوية وأن يكتب بذلك كتاباً فثناه عن ذلك يحيى بن أكثم قائلاً: يا أمير المؤمنين إن العامة لا تحتمل هذا ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن تكون لهم نفرة وإن كانت لم تدر ما عاقبتها والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وأحرى في التدبير. فرجع المأمون عن رأيه. وكان شعار العباسيين السواد فأراد المأمون أن يستبدله بشعار العلويين

وهو الأخضر فأمر قواده وخاصته أن يلبسوا الثياب الخضر ويعتاضوا بها من السواد فنقم عليه بنو العباس وتواطؤوا على مناوأته في الأمر فخاف الفتنة فعاد إلى شعار آبائه. وكان مولعاً بالصفح محباً للعفو حباً عجيباً حتى إنه ربما ضرب به المثل فيه. ومن كلامه: لو علم المذنبون ما لي في العفو من اللذة لتقربوا إليّ بالذنوب دون رهبة. وفي شرح نهج البلاغة أن أحد الكتاب أذنب ذنباً فتقدم ليحتج لنفسه ويعتذر فقال له المأمون: يا هذا قف مكانك، فإنما هو عذر أو يمين، وقد وهبتهما لك، وقد تكرر منك ذلك فلا تزال تسيء ونحسن، وتذنب ونغفر، حتى يكون العفو هو الذي يصلحك. وقد نقلت جملة أخبار في العفو في كتابي الكتب المثال في شرح أرجوزة الدمشقي، فارجع إليه إن شئت. ومن كلم رائعة تؤثر عنه قوله: لله در القلم كيف يحوك وشي المملكة.. إنما تطلب الدنيا لتملك فإذا ملكت فلتوهب.. الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق والتقصير عن الاستحقاق عيّ أو حسد.. النساء شر كلهن ومن شر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن.. الناس أربعة: ذو سيادة أو صناعة أو تجارة أو زراعة فمن لم يكن منهم كان عيالاً عليهم.. النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها ولا عداوة إلا جددتها ولا جماعة إلا بددتها ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه.. وله توقيعات تدل على مقدرة وإبداع منها ما وقّع به إلى الرستمي أحد عماله وقد تظلم منه غريم له: "ليس من المروءة أن تكون آنيتك من الذهب والفضة وجارك طاوٍ وغريمك عارٍ". ووقع إلى أحمد بن قطبة من عماله أيضاً في قصة متظلم منه: "يا أبا حامد لا تتكل على حسن رأيي فيك فإنك وأحد رعيتي عندي في الحق سواء". وفي قصة متظلم من علي بن هشام: "يا أبا الحسن الشريف من يظلم من فوقه ويظلمه من دونه فانظر أي الرجلين أنت؟". ورفع إليه أهل السواد قصة في أثناء الجراد على غلاتهم فوقع فيها: "من ذلك بعضاً فيه الجراد من أهل السواد فليحط عنهم نصف الخراج". وجاءته قصة يتظلم كاتبها من عمرو بن مسعدة أحد كتاب المأمون وخاصته فوقع فيها: "يا عمرو عمّر نعمتك بالعدل فإنه

"فان الجور يهدم". وتظلم رجل من ابي عيسى وهو اخو المأمون فوقع في قصته: "فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون". واخباره مع اهل الادب والظرف والعلم والشعر كثيرة لا مجال هنا للالمام بها. وله شعر رقيق منه قوله:

لساني كتوم لاسراركم ... ودمعي نموم لسري مذيع

فلولا دموعي كتمت الهوى ... ولولا الهوى لم تكن لي دموع

وفي سنة ٢١٨ هـ مرض فخلع اخاه المؤتمن من ولاية العهد واخذ البيعة لاخيه الى اسحق المعتصم ومات رحمه الله بطرسوس فدفن بها في دار خاقان خادم الرشيد

المعتصم بالله

— ولد سنة ١٧٩ وتوفي سنة ٢٢٧ هـ —

لم يكن ابو اسحق محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي من حملة العلم او ناشري لواء العرفان ولكنه اشهر ملوك بني العباس بما حوزه من قوة البأس والشجاعة والاقدام فقد كان خارقة زمنه في قوة الساعد ومتانة الاضلاع: يكسر زند الرجل بين اصبعيه، ويحمل عشرة قناطير، ولا تعمل في جسمه الاسنان. وكان في صغره يكره التعلم وضعه والده الرشيد مع مملوك له صغير عند احد المؤدبين فمات مملوكه فلما رأى اباه تأوّه فجعل ابوه يسليه عن المملوك وهو يحسب انه حزين عليه فقال: لا يا ابي انا لا اتأوه لموته ولكني سررت لانه استراح من التعليم! فعلم ابوه انه لن يكون من رجال العلم فأعفاه منه فنشأ ضعيف القراءة يكاد يكون امياً. وهو فاتح عمورية (Amorium) من بلاد الروم في غلاطية. وذلك انه كان في احد ايام سنة ٢٢٣ هـ بينما يتناول كأساً من الشراب واذا رجل دخل عليه يحدثه ان امرأة هاشمية سباها احد ملوك الروم وصفعها في عمورية فلطمها يوماً فصاحت: وامعتصماه! فهزئ بها الرومي وقال: دعيه يأتي على فرس ابلق. فنهض المعتصم فختم الكأس وقال: وحق لا شربته الا بعد اطلاقها ودفع عنها ونادى رجاله ان يركبوا الخيول البلق فسار في سبعين الف فارس حتى فتح عمورية

فأمر بها ثم هدمها ودفن مع أسرة وهو يقول: لبيك لبيك. ثم ضرب عنق أرمني بيده ودعا بالكأس نفخت ختامها وشربها. وهو باني مدينة سامراء حين ضاقت بغداد بجنده فخططها وأمرهم ببنائها فدعيت «سُرّ من رأى»، ثم حُرّفت فقالوا «سامراء» و«سامرا» و«سر من را» و«سر من راء» — راجع معجم البلدان —

ولقبه بعض المؤرخين بالمثمن: لأنه [illegible] وولي سنة ٢١٨ وتوفي في ثامن عشر رمضان وعمره ثمان وأربعون سنة، وهو ثامن الخلفاء من بني العباس، وفتح ثمانية فتوح، واستخلف ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وخلف ثمانية بنين وثماني بنات، وخلف من الذهب ثمانية ملايين دينار ومن الدراهم [illegible] وثمانين مليوناً، ومن الخيل ثمانية آلاف فرس، ومن المماليك ثمانية آلاف، ومن الجواري ثمانية آلاف جارية، وبنى ثمانية قصور. وقد ذكر هذا الاتفاق في كثير من مصنفات التاريخ وهو إن صح من غريب الموافقات. وهو أول من أضاف إلى اسمه اسم الله تعالى فقيل «المعتصم بالله». وكانت وفاته بسامراء ودفن بها. ومن كلامه: إذا نُصر الهوى بَطَل الرأي. وذُكر التيه عنده فقال: حظ صاحبه منه المقت ومن الناس اللعن. ولما احتضر قال: ذهبت الحيلة: وكررها حتى صمت. وكان موصوفاً بلين العريكة وطيب الأخلاق. عهد بالخلافة إلى ابنه الواثق بالله.

ولما مات ولي ابنه أبو جعفر الواثق بالله واسمه هارون بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد وكان كريماً أديباً أصيب بعلة الاستسقاء فمات بها، مولده سنة ٢٠٠ وخلافته سنة ٢٢٧ ووفاته سنة ٢٣٢ هـ وكانت في زمنه أمور غير ذات بال فهو غير جدير بالترجمة الواسعة. [illegible]

وبعده أخوه المتوكل على الله جعفر بن المعتصم ولد سنة ٢٠٦ وولي بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ وقتل سنة ٢٤٧ هـ طالت مدته فلم يحدث بها ما يجعله في طبقة عظماء الملوك ولكنه كان يحب العمران فبنى المتوكلية وأنفق عليها أموالاً كثيرة. وأراد نقل العاصمة العباسية من بغداد إلى دمشق فأقام بها شهرين وأياماً فلم يطب له مناخها فعاد إلى سامراء وكان يلبس في زمن الورد الثياب الحمر ويأمر بالفرش الحمر ولا يرى الورد إلا في مجلسه. وكان يقول: أنا ملك السلاطين والورد ملك

الرياحيه وكان منا اولي الصاحب . وكثرت الزلازل في ايامه فخربت اماكن كثيرة فمن
بعضها . وقتله غلام تركي اسمه باغر بايعاز من ابنه المنتصر . فدفن في سامراء .

وولي بعده ابنه المنتصر بالله ابو جعفر محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم : مولده
سنة ٢٢٢ وخلافته بعد ابيه المتوكل سنة ٢٤٧ ومات سنة ٢٤٨ هـ : لم تطل مدته
غير ستة اشهر وكان حليماً عاقلاً غزير المعروف راغباً في الخير الا انه قويت في
ايامه سلطة العلماء . فحرضوه على خلع اخويه المعتز والمؤيد وكانا وليي
عهده فخلعهما واهانهما فعاش شهراً وقيل مات مسموماً بمبضع احد الاطباء
توفي بسامراء ومولده بها . قال ابن الاثير : وهو اول خليفة من بني العباس
عرف قبره : وذلك ان امه طلبت اظهار قبره ، وكانوا لا يعرفون بقبور
موتاهم .

وكان نفوذ الاتراك قد تحكموا بالدولة والاموال فلم يرق لهم ان يجعلوا الخلافة
في ابناء المتوكل وهم قاتلوه فلما مات المنتصر اتفقوا على مبايعة احمد بن محمد بن
المعتصم ولقبوه المستعين بالله فولوه الخلافة فلم يكن له منها غير اسمها وكثرت
فتن العمال المتسلطين في زمانه وكان
مولده بسامراء سنة ٢٢١ هـ وولي الخلافة المزعومة سنة ٢٤٨ هـ ونقم عليه
قواده الاتراك فخلعوه سنة ٢٥٢ هـ ثم قتلوه في هذه السنة بواسط

وبايعوا بعده المعتز بالله بن المتوكل وكان في سجن المستعين فاخرجوه وولوه
سنة ٢٥٢ هـ ومولده سنة ٢٣١ هـ فلم يكن له من الملك الا الزخرف
الباطل ولبث وليس في يده عقد ولا حل الى سنة ٢٥٥ هـ فجاؤوه وطلبوا
مالاً لا يملكه المعتز فانزلوا مقداره الى خمسين الف دينار وكانت ام المعتز قد
قبضت على اموالها فسالها ان تعطيه ما يرضيهم فامتنعت فدخلوا عليه فضربوه فخلع
نفسه فسلموه الى من يعذبه فمات بعد ايام وذلك سنة ٢٥٥ هـ . وكان فصيحاً
وله خطبة ذكرها ابن الاثير في حوادث هذه السنة .

وفي اليوم الثاني من خلع المعتز اسندوا منصب الخلافة الى محمد بن الواثق
ولقبوه المهتدي بالله وكان يكنى ابا عبدالله ، فلم يقبل بيعة احد فأتي بالمعتز

فخلع نفسه امام الناس واقر بعجزه عما أسند اليه وبالرغبة في تسليمها الى ابن الواثق فبايعه الخاصة والعامة : مولده [في القاطول] سنة ٢٢٢ هـ وخلافته سنة ٢٥٥ هـ فكان من احسن الخلفاء مذهباً واقربهم سيرة الى الراشدين ولكنه اخذته في آخر ايامه حمية القوي المستضعف فخرج لقتال جمع من الاتراك كانوا قد اعلنوا العصيان فلما تقابل الفريقان خان من كان معه من الاتراك وانضموا الى اصحابهم فبقي المهتدي وحده وتخلى عنه انصاره فولى منهزماً وبيده السيف وهو ينادي يا معشر المسلمين انا امير المؤمنين قاتلوا عن خليفتكم فلم يجبه احد من العامة وأصيب بطعنة مات على اثرها سنة ٢٥٦ هـ في بغداد ومدة خلافته احد عشر شهراً ونصف . وكان محمود السيرة يأخذ اخذ عمر بن عبد العزيز في اصلاح واطراح الملاهي وذم الغناء وايثار العدل في نفسه ومنع اصحابه وخاصته عن الظلم ومن كلامه : عار على مثير سلم ولا تؤخره تندم .

وقبل قتل المهتدي بيومين بويع بالخلافة ابو العباس احمد بن المتوكل وكان محبوساً بالجوسق في سامراء فأطلقه الاتراك سراحه وبايعوه ولقبوه بالمعتمد على الله فاستولى على مراسم الخلافة وزخارف الامارة وهو يعتقد انه سيدها ويخرج منها : لا عليه ولا له : آلة تديرها قوة فتدار او مثال يعظم ويجل ولا ينيل او ينال . مولده سنة ٢٢٩ هـ وخلافته سنة ٢٥٦ هـ وطالت ايام ملكه وظهر فيه الضعف والعجز عن ادارة الشؤون والتفكير في امور لا تجنبه اخوه ابو احمد الموفق بحمد واعانه على بعض العصاة وكفت يد المعتمد عن كل قول وعمل حتى انه احتاج في بعض الاوقات الى ثلاثمائة دينار فلم ينلها . فقال في ذلك :

أليس من العجائب أن مثلي | يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً | وما من ذاك شيء في يديه
اليه تحمل الاموال طراً | ويمنع بعضه ما يجبى اليه

وكان كلفاً من قبله ليقيموا في سامراء فانتقل المعتمد منها الى بغداد ولم يعد اليها

احد من بعده . وكانت في ايامه شؤون وشجون تجد الكلام عليها في تصانيف الاخبار . ومات المعتمد سنة ٢٧٩هـ ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وستة اشهر . ومات اخوه الموفق في السنة التي قبلها . وكانت ولاية العهد للمعتضد الآتي خبره .

المعتضد بالله

— ولد سنة ٢٤٢ وتوفي سنة ٢٨٩هـ —

مضى الكلام فيما سلفنا على عدد كثير من خلفاء بني العباس لم يكونوا من نباهة الذكر وجلالة القدر وارتفاع الشأن بحيث يُقرنون مع اسلافهم الاولين كالمنصور والرشيد والمأمون . وجاء في عرض كلامنا اشارات واضحة الى أن اولئك الخلفاء كانوا مرتقين عن كمال غير مُطلَقين ، ومسيَّرين غير مخيَّرين . لعبت بهم طوائف الغلمان والمماليك حتى استولت على عقولهم ثم على اموالهم وانتهت الى التحكم بهم واحتياز تدبير المملكة دونهم فانزوا المال في خزائنهم والرجال طوع ايديهم والبلاد منقادة لهم فاستراح ضعفاء الخلفاء بحيث يتعب العظماء . واستمر الامر جارياً في منهاجه حتى قضى على هذه الدولة العباسية بعجز ملوكها وخور عزائمهم وهو الذي قوّض بعد ذلك اركانها وهدّم بنيانها وزلزل سلطانها وفرّق اعوانها . وكان حسب الرجل العظيم منهم أن يستميل بعض اولئك الدخلاء اليه ويجعل لكلمته بعض النفوذ ولقوته بعض التأثير كما كان ... صاحب هذه الترجمة وابيه من قبله والذي مرّ قبلاً ذكرهما :

لما تولى المعتمد (سنة ٢٥٦هـ) وهو الخليفة المتقدم ذكره اراد أن ينهض باعباء الملك فاثقلته فعهد الى اخيه ابي احمد طلحة بن المتوكل فعهد اليه بالخلافة ولقبه الموفق بالله واستعان به على اعدائه فكان الموفق من كبار الرجال حتى عدّه اخيه المعتمد غارت السلطنة بملكه ولكنه اختص بامور المملكة نفسه وحجر على المعتمد حتى كان يتمنى الشيء اليسير فلا يناله وكان الموفق شجاعاً كثير الحروب وبذا

وكان لذلك حسن السيرة يجلس للمظالم وعنده القضاة وغيرهم فينتصف الناس بعضهم من بعض
في جميع أعماله. وهو عالم بالأدب والنسب والفقه وسياسة الملك وأخباره
مستطابة (راجع الكامل ج ٧). ولم تخدم الموفق السعادة فيتولى الخلافة
اسماً لا تولاها فعلاً فإنه توفي في أيام أخيه المعتمد بعلة النقرس: ~~[illegible]~~
سنة ٢٧٨ هـ... ولما مات الموفق ببغداد بايع القواد ~~[illegible]~~ بولاية العهد بعد المفوض بن المعتمد للمعتضد بن
أحمد بن ~~[illegible]~~ الموفق ~~[illegible]~~: ~~[illegible]~~ وفي مبدأ سنة ٢٧٩ هـ
خلع المعتمد على الله ابنه جعفراً الملقب بالمفوض إلى الله من ولاية العهد وعهد
بالخلافة من بعده للمعتضد ابن أخيه الموفق. فأسقط اسم المفوض من السكة
والخطبة وأثبت اسم المعتضد وهو صاحب هذه الترجمة:

أبو العباس المعتضد بالله أحمد بن أبي أحمد الموفق بالله طلحة بن المتوكل:
ولد ببغداد ونشأ في كنف عهد أبيه الموفق وساعده في حياته أيام
خلافة المعتمد وأظهر بسالة ودراية في حروبه مع الزنج والأعراب وهو
في سن الشباب وبويع بالخلافة بعد وفاة عمه المعتمد سنة ٢٧٩: فحلّ من
بني العباس عقدة المتغلبين وظهر بمظهر الخلفاء الأولين ثم جعل يتوجه
بنفسه إلى المفسدين في البلاد وأصحاب الشغب فيقمع ثائرتهم ويفرق
عصبيتهم ويعود ظافراً فاخراً. قال ابن الأثير: «وكان المعتضد شهماً شجاعاً
مقداماً وكان ذا عزم مهيباً عند أصحابه يتقون سطوته ويكفون عن الظلم
خوفاً منه.» وكانوا يقولون: قامت الدولة بأبي العباس وجُددت بأبي العباس:
يريدون بالأول السفاح وبالثاني المعتضد: قال ابن الرومي:

هنيئاً بني العباس إن إمامكم ... إمام الهدى والجود والناس أحمدُ
كما بأبي العباس أُنشئ مُلككم ... كذا بأبي العباس أيضاً يُجدَّدُ

وكان المعتضد عارفاً بالأدب والشعر: قال ابن خلكان في وفيات الأعيان
(ج ١ ص ٢٠٢ من طبعة باريس): «كان أبو بكر المعروف بابن العلاف النهرواني
الشاعر ينادم الإمام المعتضد بالله قال: بتّ ليلة في دار المعتضد مع جماعة
من ندمائه فأتانا خادم ليلاً فقال: أمير المؤمنين يقول: أرقت الليلة بعد
انصرافكم.

انصرافكم فقلت :

ولما انتبهنا للخيال الذي سرى   اذا الدار قفرى والمزار بعيدُ

وقد أُرتجَ عليَّ تمامه فمن اجازه بما يوافق غرضي امرت له بجائزة . قال :
فأرتج على الجماعة وكلهم شاعر فاضل فابتدرت وقلت :

فقلتُ لعيني عاودي النوم واهجعي   لعلَّ خيالاً طارقاً سيعودُ

فرجع الخادم اليه ثم عاد فقال : امير المؤمنين يقول : قد أحسنتَ وامرتُ بجائزة و « . . . والمعتضد ممن اتصف بالحلم العجيب : نقل صاحب تاريخ دول الاسلام (ج ١ ص ١٢٨) عن احد وزراء المعتضد عبد الله بن سليمان قال : كنتُ عند المعتضد يوماً ، وخادم بيده المذبّة (المروحة) اذ ضربت قلنسوة المعتضد ، فسقطت ، فكدتُ أختلط إعظاماً للحال ، ولم يتغير المعتضد وقال : هذا الغلام قد نعس ! ولم ينكر عليه ؟ فقبلتُ الارض وقلتُ : والله يا امير المؤمنين ما سمعتُ بمثل هذا ولا ظننتُ أن حلماً يسعه ، فقال : وهل يجوز غير هذا ؟ أنا أعلم أن هذا الصبي البائس لو دار في خلده ما جرى لذهب عقله وتلف والانكار لا يكون الا على المتعمد دون الساهي الخاطيء . . . ولم يكن حلمه فيما يخص بالحلم دون شدته فيما تجب به الشدة فانه كان صارم العقوبة اتخذ للمومسين وذوي المفاسد مطامير تحت الارض : وهي حفائر كانت تخبأ فيها الحبوب فجعل يزجهم بها [?] ولما مات ولي ابنه المكتفي امرهم بها . وكان المعتضد في بغداد فجدد البيعة لابنه المكتفي بالله ومات بها ومدة خلافته تسع سنين وتسعة اشهر ونصف شهر الا يومين .

مات المعتضد وابنه ابو محمد علي الملقب بالمكتفي بالله في الرقة فلما بلغه الخبر اخذ البيعة على من عنده من الاجناد وقدم بغداد فاستلم زمام الملك فقام به قياماً حسناً وظفر في اكثر ما كان بينه وبين العصاة والثائرين من الوقائع . وارادة

٢٦٤ وخلافته سنة ٢٨٩ ووفاته سنة ٢٩٥ هـ . عاصمته بغداد . سيرة آبائه وهو
المكتفي بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل . مرضه وهو شاب في الثانية والثلاثين من عمره
وطال مرضه فعهد بالخلافة إلى أخيه جعفر المقتدر ومات وسنّ حكمه ستة سنين وستة
أشهر وتسعة عشر يوماً . ولم يكن كاتباً .

وبويع أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالخلافة ولقب المقتدر بالله بعد وفاة
أخيه المكتفي . وكان صغير السن لا يتجاوز الثالثة عشرة فاستصغره ونقم
الناس في أمره فخلعوه وولوا أبا العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل ولقب
بالمرتضي بالله ثم خذله أصحابه وهجم عليه بعض غلمان المقتدر فانهزم واختفى
ثم عثروا عليه فقتل وستأتي ترجمته في ديوان الشعراء . وصفا الملك للمقتدر
وطالت أيامه على ما حفت من الفتن والمحن وكان يستعين في أكثر شؤونه
بخادم له يدعى مؤنساً فبلغ هذا الخادم أن الخليفة يريد به الشر فأعلن
عصيانه فأرسل إليه المقتدر يحلف له أن ما بلغه كذب فعاد إلى الطاعة ثم
جمع أنصاره ودخل بهم دار المقتدر فأخرجوا المقتدر وأمه وأولاده وخواصه
وجواريه من دار الخلافة إلى دار مؤنس فاعتقلوا بها وبايعوا أخا المقتدر
ولقبوه القاهر بالله محمد بن المعتضد فاستخلف ثم ثارت فرقة من الجيش
تعرف بالرجالة فقتلت بعض رؤساء الغلمان ودعت بالخلافة للمقتدر فأعيد
إلى الملك ثانية وخرج مؤنس من بغداد وقد علم أن قلب الخليفة لم يصف عليه فاجتمعت
عليه العساكر والغلمان وقصد الموصل فاحتلها ثم سار بمن معه يريد بغداد فخرج
له المقتدر بعسكره فانهزم أصحاب المقتدر وبقي منفرداً فرآه جماعة من
المغاربة فقتلوه وسلبوا ثيابه وزينته ~~[illegible]~~ ثم دفن في موضعه . وكان
مولده سنة ٢٨٢ وخلافته سنة ٢٩٥ وخلع بابن المعتز سنة ٢٩٦
وأعيد بها ثم خلع ثانية بالقاهر سنة ٢٩٧ وأعيد فقتله بعض أصحاب خادمه
مؤنس الملقب بالمظفر سنة ٣٢٠ هـ وكان المقتدر ضعيفاً في إرادته
وقوته

قوته وسياسته فاستولى على الملك خزنه ونساؤه وخاصته وكان مبذراً لكثرة الانفاق على البذخ والجواري والندماء مضيعاً للمال والجوهر شاسع بين بينه وبين أبيه المعتضد: ذلك أعاد للدولة العباسية شأنها وهذا هدم ركنها. وقد أهملنا في هذه الحلة عليه وكان يجدر بنا إغفاله لأنه لو يليق في مثل هذا الكتاب ضعفاء الرجال وصغارهم.

ثم أتى بعد المقتدر على الخلافة محمد بن المعتضد الملقب بالقاهر فلما ولي ساء السياسة فأحضر أم المقتدر وطلب منها أموال ابنها فاستحلفته أنها لا تعرف غير ما في منزلها من متاع الزينة والثياب ومونات فضربها وعذبها وصادر جميع أصحاب المقتدر وباع أملاكهم وأوقافهم وجعل أبي بعضه وزراء ساء فيهم ما صنع لهم بتآمره عليه فقتل مؤنساً وعلي بن بليق وأباه وطلب ابن مقلة وكان من خاصته فاختفى. وهيج عليه الجند ثم زحفوا إلى دار الخلافة ببغداد فاستسقط القاهر وفر ثم قبضوا عليه وحبسوه إلى أن مات: وسملت عيناه فبقي أعمى لا يبصر ومولده سنة ٢٨٧ وخلافته الثانية سنة ٣٢٠ وخلعه سنة ٣٢٢ ومدة خلافته سنة وستة أشهر ووفاته سنة ٣٣٩ هـ.

الراضي بالله

– ولد سنة ٢٩٧ وتوفي سنة ٣٢٩ هـ –

خلاصة ما استفاده ما صارت إليه حال الدولة العباسية من الضعف وتحكم الحاجبين ما أدى بها إلى عصيان أمراء البلاد واستقلال كثير من العمال بما كانوا يلون. وانتهى أمرها إلى صاحب هذه الحلية وهو: أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله وكان محبوساً مع والدته في أيام القاهر فلما خلع أخرج وبويع بالخلافة سنة ٣٢٢ هـ ولقب بالراضي بالله وكان فاضلاً أديباً سمحاً يحب محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم وختم الخلفاء في أمور عدة منها: أنه آخر خليفة له شعر يدون وآخر خليفة كان يخطب الخطبة على المنبر ويطيلها وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل إليه الندماء وآخر خليفة كانت نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته وخزائنه ومطابخه

وخدمه وحجابه وهو على ترتيب الخلفاء المتقدمين . وشعره رقيق جيد منه قوله :

يصفرّ وجهي اذا تأمله طرفي ويحمرّ وجهه خجلا
حتى كأن الذي بوجنته من دم جسمي اليه قد نقلا

وقوله في رثاء ابيه المقتدر :

ولو أن حياً كان قبراً لميت لصيّرت احشائي لاعظمه قبرا
ولو أن عمري كان طوع مشيئتي وساعدني التقدير قاسمته العمرا
بنفسي ثرى ضاجعت في تربه البلى لقد ضمّ منك [illegible]

وولي الخلافة فحاول ردّ ما فقده اسلافه فلم يستطع وهذه البلاد قد انفرطت واتسع خرقها فكتب الى محمد بن رائق عامله على واسط والبصرة والاهواز يستقدمه الى بغداد وقلده امارة جيشه وجعله امير الامراء وولاه الخراج والدواوين وذلك سنة ٣٢٤ فاستولى ابن رائق على جميع ما ذكر واصبح الحاكم المطلق فتصرف بالامور والاموال والخليفة الراضي راضٍ بما وقع لا يملك لنفسه قوة يدفع بها ما اصابه وتفاقم الامر حتى لم يبق اسم للخليفة في غير بغداد واعمالها فكانت بلاد فارس في ايدي بني بويه والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان ومصر والشام في يد محمد بن طغج والمغرب وافريقية في يد امير المؤمنين القائم بامر الله العلوي والاندلس في يد الناصر من ملوك بني امية وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن احمد الساماني وطبرستان وجرجان في يد الديلم . وهكذا تفرقت هذه المملكة وانفرط عقدها . ولبث الخليفة الراضي يتلهى بمن كانوا يسامرونه ويلاعبونه من رجال الادب واعيان البيان حتى مات سنة ٣٢٩ هـ فتوفي في بغداد ودفن بالرصافة وخلافته ست سنين وعشرة ايام

وبويع من بعده باسم اخيه ابي اسحق ابراهيم بن المقتدر ولقب المتقي لله : مولده سنة ٢٩٧ وخلافته سنة ٣٢٩ ودامت خلافته اربع سنين الا اشهراً واياماً فلم يصنع شيئاً الا انه تغيرت في ايامه بعض اسماء قواده او بطلت اسماء المسيطرين على الملك الذين كان هو واشباهه آلة صماء في ايديهم . وكان

موصوفا

موصوفاً بالصلاح والتقى . وفي ايامه قُتل محمد بن رائق قتله ناصر الدولة بن حمدان (سنة ٣٣٠ هـ)
وفي سنة ٣٣١ تولى امارة الامراء توزون (او طوزون) التركي ثم خاف المتقي
من غدر توزون في العاصمة بغداد الى الموصل ومنها الى الرقة وتوزون يأمره
ويهدده . وفي سنة ٣٣٣ هـ بعث الى توزون يستأمنه فأقسم له بالايمان فركب الفرات
حتى اذا وصل السندية قبض عليه توزون وخلعه وسمل عينيه فعمي واتى به الى بغداد
فاقام وهو أعمى حتى مات سنة ٣٥٧ هـ .

وبايع توزون واصحابه يوم خلع المتقي لابي القاسم عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي
بالله بن المعتضد وكان مستتراً فلم تطل مدته غير سنة واربعة اشهر مات في خلالها
توزون (سنة ٣٣٤ هـ) وقدم عليه معز الدولة بن بويه ابن ابي شجاع فخلع عليه المستكفي ولقبه منذ ذلك
اليوم معز الدولة ولقب اخاه علياً عماد الدولة واخاه الحسن ركن الدولة وأمر
أن تضرب القابهم مع القابه على الدنانير والدراهم : فعل ذلك كله اتقاءً لشرهم وخوفاً من
بطشهم به . ثم تغير عليه معز الدولة فبينما كان المستكفي جالساً وحوله معز الدولة وبعض
الاعيان اقبل رجلان من الديلم فتناولا يده فظن المستكفي انهما يريدان تقبيلها فجذباه
عن السرير وجعلا عمامته في رقبته وقاداه الى منزل معز الدولة
ثم سمل فعمي وسجن الى ان مات . وكان مولده سنة ٢٩٢ وخلافته سنة ٣٣٣
وخلعه سنة ٣٣٤ ووفاته سنة ٣٣٨ هـ .

وكان للمقتدر ابن آخر اسمه الفضل وكنيته ابو القاسم فلما خلع اخوه المتقي وبويع بالخلافة بعد خلع المستكفي
وولي المستكفي خاف الفضل واستتر فطلبه المستكفي فلم يظفر به
فلما قدم معز الدولة بغداد انتقل اليه والتزم بالشيء حتى فعل به ما فعل وقدمه معز الدولة
للخلافة فبايعه الناس ولقب المطيع لله وازداد امر الخلافة العباسية ادباراً في توليته
ولم يبق للخلفاء من الامر شيء البتة وقد كانوا يراجعون ويؤخذ امرهم فيما يفعل وحرمة
قائمة بعض الشيء فلما كانت ايام معز الدولة زال ذلك جميعه بحيث ان الخليفة لم يبق له
وزير انما كان له كاتب يدبر اقطاعه واخراجاته لا غير وصارت الوزارة لمعز الدولة
يستوزر لنفسه من يريد . قال ابن الاثير (في حوادث سنة ٣٣٤): وكان من اعظم الاسباب
في ذلك ان الديلم كانوا يتشيعون ويغالون في التشيع ويعتقدون ان العباسيين قد غصبوا

المعز، وحدثت حادثة تافهة فلم يحسن ... باعث بين ... على الطاعة .. أي . وكان مولد المطيع سنة ٣٠١ وخلافته سنة ٣٣٤ . وفي سنة ٣٥٦ مات معز الدولة فتولى ابنه بختيار الملقب بعز الدولة فما ساء سيرة وزاد امر الدولة تفرقاً وضعفاً ثم مرض المطيع ومرض بالفالج وثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فدعاه سبكتكين وهو حاجب بختيار الى ان يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها الى ولده فقبل ذلك وأشهد على نفسه بالخلع سنة ٣٦٣ بعد ان اقام يدعى بلقب الخليفة تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر ومات بعد شهرين من استقالته ودفن سنة ٣٦٤ هـ . سنة ٣٦٤

ولما خلع المطيع بويع ولده ابو الفضل عبد الكريم ولقب الطائع لله . وفي ايامه ثار الاتراك ببختيار لتبديده الاموال وتأخيره مرتباتهم فكتب الى ابن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه يستنصره فدخل عضد الدولة بغداد ثم اخرج منه بختيار وابنه المرزبان منها . وفي سنة ٣٦٧ طمع عضد الدولة ببختيار واقبل من بغداد فانهزم بختيار منها الى تكريت فادركه عضد الدولة وأسره ثم قتله وعاد الى بغداد [illegible] فعمر منها ما خرب وزوج ابنته للطائع يلتمس ان يعقب منه ويكون ... فلم يكن ذلك . ثم مات عضد الدولة سنة ٣٧٢ فقام مقامه ابنه بهاء الدولة . وفي سنة ٣٨١ قبض بهاء الدولة على الطائع وحبسه في داره وأشهد عليه بالخلع ونهب دار الخلافة . ومولد الطائع سنة ٣١٥ وولي سنة ٣٦٣ وخلع سنة ٣٨١ ومات سنة ٣٩٣ هـ

القادر بالله

ولد سنة ٣٣٦ وتوفي سنة ٤٢٢ هـ

لقد هزلت دولة بني العباس حتى استامها الديلم والاتراك وضعفت قوى ملوكها حتى طمع بها المتغلبون وامتدت اليها الايدي وانصرفت نحوها وجوه الطامعين واصبح بهاء الدولة بن عضد الدولة الديلمي بعد أن خلع الخليفة الطائع حاكماً مطلقاً لا يد تعلو يده غير أنه خاف ثورة الجند اذا علموه قد استقل بالملك فلم ير الا أن ينصب في مقام الخلافة رجلاً يكون له مطيعاً ولأمره

ولامره سيف فشاور خاصته في الامر فاتفقوا على : ابي العباس احمد بن اسحق
ابن المقتدر بن المعتضد وكان بالبطيحة [وهي ارض واسعة بين واسط والبصرة]
فارسل اليه بهاء الدولة جماعة من اصحابه فقدموا عليه واخبروه فركب واتى بغداد فبايعه
الناس وخطب له في اليوم الثالث عشر من شهر رمضان سنة ٣٨١ ولقب القادر بالله. فاقام بضعة
اشهر ينظر في امور الدولة ويبحث عن اسبابها وصلاحها ثم طلب الخليفة المخلوع الطائع
له فسلمه اليه بهاء الدولة وكان قد سجنه في منزل منفرد فاكرمه القادر بالله وانزله
في حجرة من افضل حجره ووكل به من يقوم بخدمته وحسن ضيافته بحيث لم يختلف
امره بين معرفته وخلعه الا بالخطبة له . وطالت ايام القادر وكان حازماً
مطاعاً فألقى الله هيبته في القلوب فاطاعه الذين كانت لهم السيطرة والغلبة من
الخلفاء احسن الطاعة وكان موصوفاً بالحلم والكرم وحب الخير والبعد عن الشر
الا فيما يتعلق بالامور السياسية فاحبه الناس وصفا له الملك واصلح من امور
الدولة ما استطاع الى اصلاحه سبيلا وحسبه انه كف عنها آمال المتربصين
باعناقهم الى التسلط والتحكم فيها . وكان محباً للعلم فاضلاً في نفسه
وقد الف كتاباً في اعتقاد اهل السنة . فقد مع ما فقد من قديم الكتب
وحديثها . وكان الخليفة القادر كثيراً ما يلبس لباس العامة ويخرج
يتجول في دار السلام يزور قبور الصالحين ويتفقد امور الامة . ودامت
له الخلافة احدى واربعين سنة وتوفي ببغداد عن سبع وثمانين سنة الا شهرين.
ومات في ايامه بهاء الدولة (سنة ٤٠١) وانتهى امر رئاسة الامراء الى ابنه
ابي طاهر جلال الدولة . وتوفي الخليفة في ايامه بعد ان عهد بالملك
من بعده الى ولده الذي لقب القائم بأمر الله الآتي خبره

القائم بأمر الله

— ولد سنة ٣٩١ وتوفي سنة ٤٦٧ هـ —

كان الخليفة القادر بالله قد عهد بالخلافة الى ابنه ابي جعفر عبدالله ولقّبه القائم بأمر الله سنة ٤٢١ ولما كانت سنة ٤٢٢ توفي القادر على ما تقدم ذكره فصلى عليه ابنه القائم واتبع سنته في ادارة شؤون ما بقي له من مُلك بني العباس . وكان ورعاً ديناً له فضل وعناية بالأدب ومعرفة حسنة بالكتابة ولم يكن يرتضي اكثر ما يكتب من الديوان فكان يُصلح فيه اشياء وكان مؤثراً للعدل والانصاف يريد قضاء حاجات الناس لا يرى منعهم من شيء طلبوه ولا يضجر من الحاحهم وتكاثرهم على بابه : قال ابن الاثير : قال محمد بن علي بن عامر الوكيل : دخلت يوماً الى المخزن فلم يبق احد الا اعطاني قصة (عرض حال) فامتلأت اكمامي منها فقلت في نفسي : لو كان الخليفة اخي لاعرض عن هذه كلها فالقيتها في بركة والقائم ينظر ولا اشعر فلما دخلت اليه امر الخدم باخراج الرقاع من البركة فأخرجت ووقف عليها فوقّع فيها باغراض اصحابها ثم قال لي : يا عامي ! ما حملك على هذا ؟ فقلت : خوف الضجر منها . فقال : لا تعد الى مثلها فانا ما أعطيناهم من اموالنا شيئاً انما نحن وكلاء ! .. هذه ترجمة القائم بأمر الله في نفسه واما مُلكه فلم يزد على ما كان لابيه ومن تقدمه . وقد طال عمره وحدثت في ايامه امور ليست من امور هذا الكتاب فارجع اليها في تواريخ الملوك والازمنة ان اردتها . وكانت مدة خلافته اربعاً واربعين سنة وثمانية اشهر . وعهد بالخلافة الى ابن ابنه ابي القاسم عبدالله بن محمد بن القائم بأمر الله . وكان ولم يكن للقائم من اعقابه ذكر سواه لان ابنه ابا العباس محمداً توفي في ايامه ولا عقب له الا ان احدى جواريه واسمها ارجوان كانت حاملاً فوضعت

بعد

١ ستة اشهر من موت محمد بن القائم ولداً سمي عبدالله وكني ابا القاسم وسيأتي الكلام عليه .

المقتدي بأمر الله

– ولد سنة ٤٤٩ وتوفي سنة ٤٨٧ هـ –

مات القائم بامر الله بعد أن عهد الى حفيده أبي القاسم عبدالله بن محمد بن القائم . ولقبه المقتدي بأمر الله ؛ وذلك سنة ٤٦٧ هـ . وعمره ثماني عشرة سنة . فانصرف الى عمران بغداد وخدمة الامة فكانت ايامه ايام خير وسعة وعظمت في عهده الخلافة اكثر مما كانت قبله وبنى في بغداد عدة محال منها ما لا يزال عامراً حتى اليوم .

وامر بنفي المغنيات والمفسدات من بغداد وبيع دورهن فنفين . وكان المغتسلون ربما دخل بعضهم الحمام غير مؤتزر فأمر بالاتزار والاستتار . وأمر بقلع ابراج الطيور ومنع الناس من اللعب بها حفظاً لحرم المصونات في الخدور من اطلاع اولئك عليهن . ومنع من اجراء ماء الحمامات الى دجلة والزم اربابها بحفر آبار للمياه . ومنع الملاحين أن يحملوا في زوارقهم الرجال والنساء مجتمعين . وكان قوي النفس عظيم الهمة احبه الناس ووددوا لو طال عمره فانه حكم تسع عشرة سنة وثمانية اشهر ومات فجأة وهو بعد لم يبلغ الاربعين . ولادته ووفاته ببغداد .

المستظهر بالله

– ولد سنة ٤٧٠ وتوفي سنة ٥١٢ هـ –

لما توفي المقتدي بامر الله أحضر ولده ابو العباس احمد المستظهر بالله وهو ولي عهده فأعلم بموته وبايعه من حضر وله من العمر ست عشرة سنة وشهران . واتسق له الامر على ما كان لابيه وجده . اما اخلاقه فكان ممدوحها قال صاحب

الكامل: كان المستظهر لين الجانب كريم الأخلاق يحب اصطناع الناس ويفعل الخير ويسارع الى اعمال البر والمثوبات مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه . وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ الى سعاية ساع ولا ملتفت الى قول واش ولم يعرف عنه التلون وانحلال العزم باقوال اصحاب الاغراض: وهذه من احسن خصال الحزم فان الملوك والأمراء اذا ضعفت ثقتهم برجالهم تلاعب فيهم الناس وسلكوا بهم كل مسلك ولم تبق لهم ارادة يعزمون بها على المهمات وكيف يخلص الوزير او المستشار في خدمة مولاه وهو يعتقد أن كلمة من عدو او وشاية من حاسد تزلزل منزلته وتذهب باخلاصه وخدمته . على أن هذه الحسنة ربما انقلبت سيئة اذا لم تتخذ الحيطة في شأنها فان صاحب الامر لا ينبغي له اذا وثق أن يفرغ ثقته ويستنيم الى صاحبه بحيث لا ينظر في شيء يرد عنه . بل لابد لمن ولي من امور الناس جانباً أن يكون شديد الثقة في غير اطمئنان كثير الحذر في غير استرابة . والا فلا يتم له امر .

وكان المستظهر عارفاً بالادب والانشاء والشعر وله توقيعات لا يقاربه فيها احد تدل على فضل غزير وعلم [illegible] . وباسمه ألف العلامة الغزالي كتابه في [illegible] الذي سماه "المستظهري" . وأورد له ابن الاثير أبياتاً نأتي باثباتها هنا لتعرف منزلة المترجم في الادب قال :

أذاب حر الهوى في القلب ما جمدا لما مددت الى رسم الوداع يدا

وكيف اسلك نهج الاصطبار وقد ارى طرائق في مهوى الهوى قددا

وكانت خلافته اربعاً وعشرين سنة وثلاثة اشهر وعشرين يوماً ومات ببغداد وله من العمر واحد واربعون عاماً وستة اشهر ودفن في حجرة له كان يألفها وقد عهد بالخلافة من بعده الى ولده الفضل الملقب بالمسترشد بالله .

وكان المسترشد بالله شهماً شجاعاً كثير الهيبة بعيد الهمة فصيحاً بليغاً جيد التوقيعات [illegible] واسمه الفضل وكنيته ابو منصور ولا اراه ارتكب خطأً

فهو خطأ ذهب بحياته وأخّر دولته بعد تقدمها وذلك ان بلغ من [illegible]
يعفو لهم خطاياهم ويتعرضوا بسلامتهم [illegible] بعد [illegible] للخليفة منهم ويفرّوا
[illegible] الذي هو ابن [illegible] ويُنقّب [illegible]
[illegible] في عهد المسترشد هو الخلافة العباسية أنه اصبح يحكم فيها رجلين
احدهما الوازع السياسي المنفذ وهو صاحب الحل والعقد والامر والنهي في شؤون
الدولة داخلها وخارجها وكان يسمى امير الامراء ثم صار من أُسندت اليه
هذه الامارة يُلقب بملك او سلطان . والثاني وهو صاحب الحكم
الديني يُبايع وتُعرض عليه الامور قبل عرضها على الاول فيرى فيها رأيه
وهو الخليفة . فكأن الدولة في ذلك العهد بين سلطتين: نظرية وتنفيذية.
فالنظرية يتولاها الخليفة والتنفيذية يتولاها الملك او السلطان او امير
الامراء . وكان المعاصر للخليفة المسترشد بالله هو السلطان مسعود
ابن ملك شاه بن الب ارسلان السلجوقي ومقره في همذان . زار بغداد
فاكرمه المسترشد ثم ان الخليفة شعر بخيانة جماعة من الامراء فاراد عقابهم
فلجأوا الى السلطان مسعود فطلبهم الخليفة منه فأبى ردّهم اليه فحدثت بينهما
النفرة والوحشة وسافر السلطان مسعود الى همذان فلما استقرّ بها . علم
الخليفة ان مسعوداً يستعد لقتاله فتجهز هو أيضاً وجاءته رسائل من الامراء
الذين انضموا الى مسعود يعرضون عليه طاعتهم ويستأمنونه فأمّنهم الخليفة ووعدوا
فاكرمهم وخرج من بغداد بجيش يريد فيه ابتداء السلطان مسعود بالقتال
وجعل اولئك الامراء في الميمنة وزحف عليه السلطان مسعود فتلاقيا
بموضع يقال له دايمرج فلما حمي القتال انحازوا الى السلطان مسعود واستداروا
حول عساكر الخليفة المسترشد وهو ثابت في مقره وانهزم عسكره فأُخذ
هو اسيراً فأُنزل في خيمة وترددت بينه وبين السلطان الرسل
في الصلح فاتفقا على مال يؤديه الخليفة وان لا يعود يجمع العساكر

وأن لا يخرج من داره ورضي الخليفة وعزم على الرجوع الى بغداد فدخل عليه جماعة من فرقة تسمى الباطنية فقتلوه ومثلوا به وذلك على باب مراغة لانه كان مسعوداً قد اخذه معه حتى انتهى اليها فدفنه اهل مراغة عندهم . وكان مولد المسترشد سنة ٤٨٥ وخلافته سنة ٥١٢ وقتله سنة ٥٢٩ هـ والخطأ الذي أودى به هو اعتماده على جماعة خانوه اولاً فخانوه ثانياً ثم خروجه من بغداد يقود جيشه وكان لا جدر به أنه يوجه قائداً يعتمد عليه في مثل هذا الشأن .

ولما قتل المسترشد كتب السلطان مسعود الى رئيس الشحنة ببغداد أن يبايع ابن المسترشد وكان ولي عهده واسمه المنصور وكنيته ابو جعفر ولقبه الراشد بالله . فبويع في بغداد على شروط كتبها السلطان مسعود بخط يده وحلف عليها وهي أنه متى جند جنداً او خرج للقاء احد من اصحاب السلطان بالسيف فقد وجب خلعه . فلم تطل ايامه حتى وقع نفور بينهما فتهيأ الراشد لقتال ~~[illegible]~~ فعلم مسعود فزحف على بغداد فحاصرها حتى دخلها وفر الخليفة الراشد الى الموصل ومنها الى اصفهان فاقام بها حتى قتل . مولده سنة ٥٠٢ وخلافته سنة ٥٢٩ وخلعه سنة ٥٣٠ وقتله سنة ٥٣٢ هـ قتله باصفهان بعض خدمه للتخلص منه لانه لم يكن يستقر في مكان . ودفن بظاهرها في شهرستان .

المقتفي لأمر الله

— ولد سنة ٤٨٩ وتوفي سنة ٥٥٥ هـ —

لما خلع الراشد بالله استشار السلطان مسعود جماعة من اعيان بغداد فيمن يصلح أن يلي الخلافة فاتفقوا على ابي عبد الله بن المستظهر فدعا به فحضر واكرمه كثيراً واشترط عليه ما كان يشترطه على غيره فبايعه الناس ولقب المقتفي لأمر الله وهو ابو عبد الله محمد بن المستظهر بالله احمد بن المقتدي . تولى الخلافة وهي على ما علمت من الوهن والضعف وذلك سنة ٥٣٠ فجعل لا يترك سبباً

سبباً من اسباب تقوية ملك الخلفاء دون ان يجري من السلطان مسعود أو
غيره بعداوة فجمع مالاً كثيراً وقوة وسلاحاً حتى كانت سنة ٥٤٧ هـ
وبها توفي السلطان مسعود بهمذان فلم يتصل خبره بالخليفة المقتفي حتى
ثار ثورة الاسد فاستولى على دار السلطان مسعود ببغداد وقبض على اصحابه
واعوانه من السلجوقيين وغيرهم وضبط اموالهم وامر بان يراق في الطرقات
ما في بيوتهم وبيت السلطان من الخمر فأريق مقدار غير يسير وبه نفر الناس
ان الخليفة منكرين على العواقب السلطان ما اراده . واستقر الخليفة
من ساعده فاستقل بالملك وقهر كل مزاحم له عليه . وكان من الرجال
ذوي الرأي والعقل والدهاء وهو اول من استبد من ملوك العراق منفرداً
عن سلطان يكون معه من اول ايام الديلم الى ايامه . واول خليفة تمكن من
الخلافة وحكم على عسكره واصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من
عهد المستنصر الى ايامه . إلا ان يكون المعتضد - قال ابن الاثير - . وكان
المقتفي شجاعاً مقداماً مباشراً الحروب بنفسه وكان يبذل الاموال العظيمة
لاصحاب الاخبار في جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء . وهو موصوف
بالحلم والكرم والعدل وحسن السيرة . وكانت مدة خلافته اربعاً
وعشرين سنة وثلاثة اشهر صفت له الخلافة منها ثماني سنين بعد وفاة
السلطان مسعود السلجوقي . وعهد الى ابنه يوسف الملقب المستنجد بالله .

المستنجد بالله

- ولد سنة ٥١٠ وتوفي سنة ٥٦٦ هـ -

ابو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله . ولي الخلافة على
اثر وفاة ابيه (سنة ٥٥٥) فسار سيرته وضبط الدولة ضبط الحازم
العاقل واول ما بدأ انه ازال المكوس ورفع عن الناس الضرائب
حتى لم يترك في العراق شيئاً منها . وكان من احسن الخلفاء سيرة مع

الرعية عادلاً فيهم كثير الرفق بهم شديداً على حل العيث والفساد والسعاية بالناس : يُذكر أنه سجن انساناً كان يسعى بالناس فاطال حبسه فشفع فيه بعض اصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال : انا اعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي انساناً آخر مثله لاكف شره عن الناس ولم يطلقه . وقبض على قاضٍ يعرف بابن المرخم كان سيء المسلك وقد جنى لانه اخذ اموالاً كثيرة من بعض الرعية فصادر امواله ورد للناس ما اخذه منهم ولكنه اساء الى العلم اساءة لا تغتفر لانه لم يكتف بان صادر ذلك القاضي وحبسه وسلبه نعمته حتى امتدت يده الى كتبه فاحرق منها في الرحبة ماكان من علوم الفلاسفة وفيها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما يشاكلها . فهي وصمة في تاريخ حياته سوداء . حكم احدى عشرة سنة ثم مرض وكان قد خاف بطشه خاصته فارغم طبيبه على ان يصف له الحمام خاصة فوصفه له فامتنع المستنجد لضعفه فما زالوا به حتى ادخلوه واغلقوا عليه الابواب فصاح واستغاث فلم يلبوه حتى مات فاعلنوا وفاته .

وفي الليلة التي مات بها المستنجد بالله بويع ابنه ابو محمد الحسن ولُقب المستضيء بامر الله ففرق اموالاً كثيرة وهذا في الحكم ضد ابيه وكان حليماً جداً قليل المعاقبة على الذنوب محباً للعفو والصفح عن المذنبين كريم اليد صفت له الخلافة تسع سنين وسبعة اشهر ولا يُذكر له فيها اثر . ولد سنة ٥٣٦ وبويع سنة ٥٦٦ وتوفي سنة ٥٧٥ هـ .

الناصر لدين الله

– ولد سنة ٥٥٠ وتوفي سنة ٦٢٢ هـ –

وبويع بالخلافة بعد موت المستضيء بامر الله ولده ابو العباس احمد بن المستضيء بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي بن محمد بن القائم بن القادر بن المقتدر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي ابن المنصور بن محمد بن عبدالله بن عباس . ولقب احمد الناصر لدين الله وذلك

وزير سنة ٥٧٥ فلما تمتد طالت ايامه حتى انه لم يلِ الخلافة من بني العباس اطول منه مدةً . وكان شديد السياسة داهيةً خبيراً بتدبير الملك الا انه ربما تشدد في بعض الامور فنُسب الى الظلم واختلف مؤرخوه فيما يكتب عنه لانه لم يكن مستقيم الاطوار فبينما تراه مولعاً بمصالح الرعية يفتتح دور الضيافة للناس والحجاج ويطلق المكوس ويرفع عنهم الضرائب والمظالم ويتفقد شؤونهم متخفياً في الملابس الرثة يطوف بين المنازل ويجول في الشوارع العامة والازقة مرتدياً جلباب صوفي ورجل غريب اذا بك تراه قد اغلق تلك الدور واعاد تلك الضرائب وانصرفت همته الى اللهو واللعب برمي البندق والاشتغال بطيور والعناية بسراويلات الفتوّة [المعروفة اليوم بلعبة الشبّانات يتداولها المصارعون واحدها تبّان وليس بعربي] ويقال انه هو الذي كاتب التتر واطمعهم في البلاد بسبب ما كان بينه وبين خوارزم شاه من العداوة ليشغل خوارزم شاه بهم عن قصد العراق . وان صح ذلك يكون وصمة عار تشوهت بها صحيفته وقد شك فيه المؤرخون ورأوا انه مفترى عليه . وكانت خلافته ستاً واربعين سنةً واحد عشر شهراً ويومين . وفي آخر عمره ذهبت احدى عينيه وضعف بصر الثانية وفلج فبطلت حركته ثلاث سنين ثم اصابه دوسنطاريا فمات رحمه الله وله من العمر نحو سبعين سنة .

وولي بعده ابنه ابو نصر محمد الملقب الظاهر بامر الله وكانت ايامه في غاية القصر ولكن ابن الاثير ذكره واثنى عليه كثيراً حتى واطنب الثناء فيه فانه ربما كان محسناً اليه فقابله على الاحسان احساناً لان المؤرخ مهما تمكن من الرية والتقوى القلم في الحق لا بد له من أن تأخذه مع معاصره وولي امره عاطفة فيثني ويطري ويعدد المحامد ويستر المثالب دفعاً للشر او حباً للخير والذي يجدر بنا ان ننقله عن مؤرخنا ما يتعلق بهذا الخليفة انه كان

مع عكس ابيه مستقيماً محباً للخير المعروف المكوس التي كان قد وضعها والده .
وخفف الاموال عن بعض رعيته واخرج المسجونين ومنع جاسوسية الجواسيس
وكانوا يكتبون للخلفاء كل ما يدور بين الناس من حديث فاعفاهم من هذا . ولم تطل
مدته . ولد سنة ٥٧١ وحكم سنة ٦٢٢ ومات سنة ٦٢٣ ومدة حكمه تسعة اشهر

المستنصر بالله

— ولد سنة ٥٨٨ وتوفي سنة ٦٤٩ هـ —

البنيان افضل ما خلد به الذكر ولا سيما اذا كان اثراً نافعاً كمدينة او مدرسة فخمة
او ناد عظيم يأوي اليه المحتاج او مستشفى يطبب فيه اصحاب العاهات والامراض
او ما ضارعه من الابنية النافعة وحسبك من ادلتنا أن صاحب هذه الترجمة وهو
ابو جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر الملقب بالمستنصر بالله عاش كغيره من
الخلفاء أمثاله كالمحسنين منهم لانه كان عاقلاً عادلاً محباً للحق ولكنهم اذا كرت
الاجيال وانكرت الاطلال الرجال ذهب ذكر اولئك الخلفاء وبقيت
آثار مدرسة عظيمة أقيمت في بغداد ودعيت المستنصرية فهي ترشد الامم
التالية الى بانيها كما ترشد الاطلال [illegible] آثار سامراء الى المعتصم وكما ارشدت الاطلال نينوى الى حمورابي
والمستنصرية هذه مدرسة كبيرة من اشهر مدارس الاسلام [illegible] باها
في بغداد مترجمنا المستنصر بالله على شاطئ دجلة من جانب الشرقي مما يلي دار الخلافة وجعل عليها من الاوقاف شيئاً كثيراً
واقام لها الاطباء والصيادلة [illegible] حتى ظهرت في ابهر حلة
من الاتساع والزخرفة وما فيها من رجال العلوم الدينية والفنون الدنيوية
وهي اليوم مهملة تكاد تعفو آثارها وقد اصبح قسم منها داراً للمكس
وآخر مطبخاً وآخر قهوة تعرف بقهوة الشط . كانت سيرة المستنصر حميدة
كسيرة ابيه . وكان جده الناصر يحبه ويسميه القاضي لوفرة عقله .
ولكن ما ينفع العقل والفضل والاعمال منتقضة والدولة ذاهبة الى الخراب
ولي

وفي ايامه قويت شوكة قبيلة المغول التترية (وعلا شأنها بظهور جنكيز خان سنة ٥٩٩ هـ واصلها من جنوبي سيبريا) فاستولوا على كثير من الممالك الإسلامية حتى اوشكوا ان يدخلوا بغداد في عهده الا انهم صدوا دون دخولها. وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة إلا شهراً ؛ واقامته ببغداد وفيها توفي ودفن .

المستعصم بالله

— ولد سنة ٥٨٨ وتوفي سنة ٦٥٦ هـ —

انّ عمر الدولة العباسية حين من الدهر كان فيه الخليفة يقنع بامتلاك دار السلام عاصمة ملكه فلا يرى الى تعدي الأمنية من سبيل . ذلك بعد أن ملكوا البلاد وسادوا العباد واشتدت سلطتهم وعظمت سلطنتهم . ولكن الدول في رأي بعض الباحثين من علماء الاجتماع كالانسان اذا ادركها الهرم لم تنجع فيه الادواء : قال ابن خلدون : " . . . واذا كان الهرم طبيعياً في الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من الامراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما انه طبيعي والامور الطبيعية لا تتبدل . . وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها ايماضة الخمود كما يقع في الذبال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضة توهم انها اشتعال وهي انطفاء . . . "

انتهى امر الخلفاء العباسيين الى السابع والثلاثين منهم وهو آخرهم في القطر العراقي : ابو احمد عبدالله ولقبه المستعصم بالله بن المستنصر بالله . بويع بعد وفاة ابيه باتفاق آراء رجال الدولة ووزرائها عليه (سنة ٦٤٠ هـ) فلما ولي الخلافة كان مثال الضعف والوهن والانقياد لأمر

والعكوف على الدد فألقى زمام الملك الى الامراء والقواد واعتمد في اكثر الشؤون على وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي وكان يتشيع للعلويين . وقد علمت من ترجمة المستنصر السابقة أن المغول عظم امرهم وخيف شرهم فأشار بعض الناصحين على المستعصم أن يتخذ الحيطة لدرء هجماتهم وأن يعد جيشاً يقوى به عليهم فغلبت عليه غفلته فقال: «ان هؤلاء لا يطمعون باخراجي من دار ملكي وهم يكتفون مني بأن اترك لهم البلاد ويدعوا لي بغداد وهي تكفيني!»

واتفق ان فتنة حدثت في بغداد بين رجال السنة والشيعة العلويين وهذا مرض قديم في الاسلام وُلد منذ توفى الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وانحاز فريق من اهل الاسلام يرون ان علياً اجدر بالخلافة بعد ابن عمه ثم اتسع ذلك الخرق بعد زمن فكان في المسلمين الداء الذي لا يحسم والعلة التي لا تشفى وهو حتى اليوم سبب تأخر المسلمين الاعظم وعلة تفرقهم وتنازعهم وحكماء الفريقين دائبون على اصلاح ذات البين ولا اراهم يوفقون اليه إلا بعد أن لا يبقى غير القدم والأمل الأكبر بزوال تلك الشنشنة معقود بناصية دور العلم الحديث والفنون فإذا اشتغل فيها المسلمون وعرفوا حقائق الاديان وسبروا غور السياسة والاجتماع كان لهم من انفسهم زاجر ولكنني اقول :

فيا دارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك اهوال

وجارت السنة في هذه الفتنة على اخوانهم من الشيعة فانتهبت بيوتهم وسفكت دماءها وذلك بتحريض ابي بكر ابن الخليفة وبعض الامراء الكارهين لابن العلقمي الوزير وظهر من الخليفة ضعف وإغضاء أثار في قلب وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي مراجل حقد كانت كامنة وحزن لما اصاب اخوانه من الشيعة من الكوارث فكتب الى قائد المغول

ويعد

هولاكو حفيد جنكيز خان يعلمه بضعف الخليفة ويهوّن عليه امر احتلال
بغداد ويعده بالاعانة على خليفته . فزحف هولاكو بخيله وجنده
يقود جيشاً عرمرماً من التتر وذلك سنة ٦٥٥ هـ . وخرجت اليه عساكر
الخليفة ثم انهزمت ونزل هولاكو على بغداد من الجانب الشرقي وانتشر عسكره
في جميع جهاتها . فقدم اليه الوزير ابن العلقمي فتوثق منه لنفسه وعاد الى
الخليفة المستعصم وقال ان هولاكو يبقيك في الخلافة كما فعل بسلطان الروم
ويريد ان يزوج ابنته من ابنك ابي بكر وحسّن له الخروج الى هولاكو فخرج
اليه المستعصم في جمع من اكابر اصحابه فانزل في خيمة ثم استدعى الوزير الفقهاء
والاماثل فاجتمع هناك جميع السادات سادات بغداد والمدرسون والعلماء فلما تكاملوا
امر بهم هولاكو خاصة فاحاطت فيهم العساكر وقتلوا عن آخرهم وأبقي الخليفة
حياً حتى دلهم على مواضع الاموال والدفائن ثم قتلوه . ودخلوا بغداد فاعملوا
السيف فيها فدام القتل بل القتل والنهب نحو اربعين يوماً واحرقوا واغرقوا ما فيها من
كتب العلم والتاريخ وهدّم كثير من الابنية الشامخة والقصور العالية ثم نودي
بالامان . وبموت الخليفة المستعصم بالله انقرضت الدولة العباسية
في العراق وعدة خلفائها ٣٧ خليفة ومدة ملكهم من سنة ١٣٢ الى
موت المستعصم سنة ٦٥٦ هـ ودام لهم الملك يصفو ويكدر ٥٢٤
سنة والملك لله يؤتيه من يشاء .

— خاتمة —

انقرضت دولة بني العباس في العراق وانمحت آثارها فلم يطل امد احتجابها
غير نيف وثلاث سنين وظهرت في مصر بوفود ابي القاسم احمد بن الظاهر
ابن الناصر بن المستضيء العباسي على الملك الظاهر بيبرس البندقداري

احد ملوك دولة المماليك في مصر . وكان ابو القاسم هذا غائباً عند حدوث واقعة بغداد فنجا منها واثبت نسبه العباسي لدى الملك الظاهر بحضور امام جميع العلماء واركان الدولة ففرح به الظاهر لانه وجد فيه قوة جديدة لملكه: ولا يخفى ان المسلمين لا ينظرون الى الملوك بعين الرضى والخضوع الا اذا قرنوا الى القابهم السياسية لقباً دينياً كالخليفة او امير المؤمنين وهذا اللقب لا يحرزه الا اصحاب النسب الثابت كالعلويين والعباسيين واشباههم. فلما ظفر الملك الظاهر بالخليفة العباسي جمع الناس واعلن فيهم ان دولته اصبحت دولة ثابتة الاساس بانتسابها الى دولة العباسيين وبايع ابا القاسم العباسي ولُقب المستنصر وكذلك بايعه اركان دولة الملك الظاهر وخطب باسمه على المنابر ونُقش على النقود ~~والحلم~~ وأُقيمت له المظاهر وأنزل في دار فخمة وذلك سنة ٦٥٩ فهو اول الخلفاء العباسيين في الديار المصرية ولم يكن له ولا لمن بعده اثر يذكر لانهم انما كان لهم من الخلافة الاسم والابهة والخطبة ولا يحق لهم أن ينظروا في شيء من شؤون الدولة فهي خلافة كاذبة ومُلك وهمي ودام لهم ذلك نحو ٢٥٥ سنة تعاقب منهم خمسة عشر رجلاً على الامارة.

وهذه خلاصة اخبارهم اعتمدنا فيها على تاريخ السيوطي:

١ المستنصر = ابو القاسم احمد بن امير المؤمنين الظاهر العباسي. بويع سنة ٦٥٩ وجهز له الملك الظاهر البندقداري جيشاً زحف به الى العراق لاسترداد بغداد فحارب التتر فانهزم جيشه وفُقد هو ولم يُعلم خبره وذلك سنة ٦٦٠ هـ

٢ الحاكم بأمر الله = ابو العباس احمد بن علي بن احمد بن المسترشد بن المستظهر. ظهر في الديار المصرية بعد ان شاع خبر فقدان المستنصر فاثبت نسبه امام الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٠ فبايعه الظاهر وجعل له ما كان للمستنصر وتوفي بمصر

بمصر سنة ٧٠١ هـ فدُفن بها .

٣ المستكفي بالله = ابو الربيع سليمان بن احمد الحاكم . بويع بعد وفاة ابيه سنة ٧٠١ وتوفي بقوص سنة ٧٤٠ هـ ومولده سنة ٦٩٠ . وكان ~~الواثق بالله = ابراهيم~~ قد أخرج الى الصعيد سنة ٧٣٨ وعلى لسانه يقول ابن الوردي في تاريخه : " مَنْ لي بعيسى بالموت . ويبلغ المنى بالفوت . الى كم لهمُ العيشة الرَّطْبة . ولي مجرَّد الخُطْبة . فلهم الملك الصريح وسليمان الريح ! " .

٤ الواثق بالله = ابو اسحاق ابراهيم ابن اخي المستكفي . بويع بعد موت المستكفي سنة ٧٤٠ فتهتك وعاشر السفلة فخُلع من بعد ان مكث سنة واياماً .

٥ الحاكم بأمر الله (الثاني) = ابو العباس احمد بن المستكفي بالله بن الحاكم (الاول) . بويع في المحرم من سنة ٧٤٢ وتوفي سنة ٧٥٢ هـ .

٦ المعتضد بالله = ابو بكر بن المستكفي . بويع بعد من اخيه الحاكم الثاني سنة ٧٥٢ وتوفي سنة ٧٦٢ هـ .

٧ المتوكل على الله = ابو عبد الله محمد بن المعتضد . بويع سنة ٧٦٢ وتوفي سنة ٨٠٨ وخلف اولاداً كثيرين قيل انهم نحو المئة .

٨ المستعين بالله = ابو الفضل بن المتوكل . بويع بعد من ابيه سنة ٨٠٨ وتوفي سنة ٨٢٢ هـ .

٩ المعتضد بالله (الثاني) = ابو الفتح داود بن المتوكل بن المعتضد (الاول) . بويع بعد اخيه المستعين سنة ٨٢٢ وتوفي سنة ٨٤٥ هـ .

١٠ المستكفي بالله (الثاني) = ابو الربيع سليمان بن المتوكل . بويع بعد موت اخيه المعتضد سنة ٨٤٥ وتوفي سنة ٨٥٥ هـ .

١١ القائم بامر الله = ابو البقاء حمزة بن المتوكل . بويع بعد اخيه المستكفي الثاني سنة ٨٥٥ فاقام شهراً واثني عشر يوماً ووقع خلاف بينه وبين الملك الاشرف سلطان مصر فذهب الى الاسكندرية فاقام بها حتى مات سنة ٨٦٢ هـ .

١٢ المستنجد بالله = ابو المحاسن يوسف بن المتوكل بويع بعد انصراف اخيه القائم بعد الى الاسكندرية سنة ٨٥٥ ومات مقتولاً سنة ٨٨٤ هـ .

١٣ المتوكل على الله (الثاني) = ابو العز عبد العزيز بن يعقوب . بويع سنة ٨٨٤ وتوفي سنة ٩١٢ هـ .

١٤ المستمسك بالله = ابو الصبر يعقوب بن عبد العزيز . بويع بعد ابيه المتوكل الثاني سنة ٩١٢ وتوفي سنة ٩٢٧ هـ .

١٥ المتوكل على الله (الثالث) = محمد بن يعقوب المستمسك . بويع بعد ابيه سنة ٩٢٧ هـ . وفي ايامه افتتح السلطان سليم احد سلاطين آل عثمان ~~الآتي ذكرهم بتاريخ مفصل في هذا الكتاب~~ ان شاء الله بلاد الشام ومصر سنة ٩٢٢ فاستلم من المتوكل الآثار النبوية وهي الراية والسيف والبردة ومفاتيح الحرمين الشريفين . واخذه معه الى القسطنطينية بعد ان تنازل له المتوكل عن الخلافة . واصبح كل سلطان عثماني يلقب ~~بـ~~ بالخلافة وامارة المؤمنين منذ ذلك الحين فاجتمعت لهم السلطة الدينية والسلطة الدنيوية . واقام المتوكل في القسطنطينية مدة ثم عاد الى مصر فمات سنة ٩٤٥ هـ وهو آخر الخلفاء العباسيين في العراق والديار المصرية . وبه تم الكلام عليهم .

بنو أُمَيَّة في الاندلس

[دخول]

علمتَ مما سبق من أخبار الدولة العباسية أن مؤسسها الخراساني أبا مسلم ضرب الأمويين في المشرق ضربة بعد أن شدد بها الخليفة العباسي الأول انتقاماً من تعدي الأسرة الأموية لما كان لبني هاشم عند معاوية وبنيه من الثأر القديم وسعياً وراء توطيد الخلافة العباسية بحيث لا تطلع شمس على أحد من آل أمية أو مروان بعد ذلك . وقد تفرق الناجون من القتل والحبس من الأمويين والمروانيين في أنحاء الأرض فكان منهم عبد الرحمن الأول المعروف بالداخل وهو الذي ركب الأخطار وقصد بلاد الأندلس فأسس فيها دولة خفقت أعلامها ٢٧٦ عاماً وانتشرت مدنيتها وعلومها وصناعاتها حتى كان أبناء القارة الأوربية يسعون إليها بالرأس كما يسعى السوريون والأندلسيون والمصريون الى باريز ولندره ولوزان وجنيف اليوم . ويبتدئ تاريخ هذه الدولة في المغرب من سنة ١٣٨ هـ وهي سنة إمارة عبد الرحمن الأول على قرطبة وينتهي سنة ٤٢٢ وهي السنة التي خلع فيها آخر خلفائها هشام بن محمد وتفرقت البلاد من بعده فاستقل كل وال بما ولي عليه نسق ما أصاب دولة آل عباس في آخر عهدها . وقد خرجت الإمارة من أيدي الأمويين في أثناء تملكهم مدة سبع سنين وثمانية أشهر حكم فيها رجال من الفاطميين نذكرهم إن شاء الله بعد ترجمة سليمان بن الحكم الأموي . ثم عادت الى بني أمية فلم تطل أيامهم . وإنه ليؤلمني أن ألتزم جانب الإيجاز في بحث من تراجم ملوك هذه الدولة ذات الحضارة العجيبة والذكر المجيد غير أن المجال يضيق عن الإسهاب والإطالة فأكتفي بانتداب مؤرخينا وأصحاب البحث وأنتظر انتداب من علمائنا الأعلام الى وضع كتاب كبير يضم أجزاء تاريخها ويجمع ما تفرق في الكتب العربية والإفرنجية من أخبارها ففي ذلك الخدمة الجليلة والعمل النافع أثاب الله من يقوم به خيراً .

عبد الرحمن الداخل

- ولد سنة ١١٢ وتوفي سنة ١٧٢ هـ -

فتح المسلمون بلاد الاندلس، واخذت تتعاقب عليها دولتهم وامراؤهم من قِبَل دولة الامويين في الشام اولاً حتى ضعف شأنهم وتزلزل سلطانهم فاستبد الاندلسيون بأمر أنفسهم يعزلون ويولون من يشاؤون. وظهرت بينهم في اوائل القرن الثاني للهجرة ثورات واضطرابات كان امراؤهم يعالجون منها ما يمكنهم علاجه الى أن أُصيب بنو أُمية بتلك الرائعة التي شتتت شملهم ومزّقت ملكهم فتفرق من نجا منهم في البلاد وتملّك بنو العباس (على ما تقدم بيانه). وكان فيمن فرّ من ايدي المسوِّدة (آل عباس) اميرٌ من سلالة ملوك بني امية يُدعى ابا المطرّف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ولد بموضع يعرف بدير حُسَينة (١) من دمشق ومات ابوه وهو صغير السن فنشأ في جهات الشام ولما هلك قومه ما حلّ بهم انهزم واقام في قرية على الفرات فتبعته الخيل فاوى الى بعض الادغال حتى أمِن فقصد المغرب فبلغ افريقية فلجأ. فعلم وطلبه حين علم به، وهو حينئذ عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وانصرف

---

(١) كذا في البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٤٩ وفي تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضي «دير حَسينا»، ولم يذكرها ياقوت في معجمه.

المترجم الى مكناسة وقد لحقه مولاه بدر بنفقة وجواهر كان قد
طمرها من اختلاف تعرف بأم الأصبغ . ولم تطب له الاقامة
في مكناسة فارتحل منها ونزل بآل نفزاوة وهم جيل من البربر
منهم أمه فأكرموه حين عرفوا صلته بهم ولبث مدة يكاتب
الأمويين من أهل الأندلس يعلمهم بقدومه ويدعوهم الى نفسه ووجه
بدرا مولاه اليهم فأجابوه وسيّروا اليه مركباً فيه جماعة من كبرائهم
فالتقوه على ذلك واخذوه وعادوا الى الاندلس فأرسى بهم المركب
في المنكب (وذلك في شهر ربيع الاول سنة ١٣٨هـ) ثم انتقلوا
الى اشبيلية ومنها الى قرطبة فعلم بهم والي الاندلس يوسف بن عبد
الرحمن الفهري وكان غائباً عن قرطبة بنواحي طليطلة فأقبل ونشب
قتال بين عسكره ومن التفّ حول عبد الرحمن بن معاوية انتهى
بظفر عبد الرحمن فدخل قرطبة واستقر بها وبنى بها القصر
والمسجد الجامع ومساجد محليات ووافاه عدد كبير من الأمويين
وكان يدعو للمنصور العباسي ويُظهر أنه لا يميل الى الخروج عنه
لما عزة ملوك العباسيين في العراق فهو أول من أُمّرة الأندلس ثم قطع خطبة العباسيين وجهر بالاستقلال
واطمأنت الناس اليه واحبوه لعدله ورأفته وكان من أهل
العلم والمعرفة بالأدب وله شعر . ووصفه صاحب البيان المغرب
فقال : « أطرى صفته : طويل القد ، أصهب ، أعور ، خفيف
العارضين ، بوجهه خال ، له ضفيرتان . » وكان المنصور يلقبه
بصقر قريش . ولُقِّب الداخل لانه اول من دخل الاندلس من ملوك

بني أمية . وقال ابن الأثير في نعته : « .... وكان [...] عالماً حازماً سريع النهضة في طلب الخارجين عليه لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ولا يكل الأمور إلى غيره ولا ينفرد في الأمور برأيه ، شجاعاً مقداماً بعيد الغور شديد الحذر ، سخياً جواداً ، يكثر لبس البياض ، يقاس بالمنصور في حزمه وشدته وضبط المملكة . وبنى الرصافة بقرطبة تشبيهاً بجده هشام حيث بنى الرصافة بالشام » وعند أول نزوله بالرصافة رأى فيها نخلة منفردة فهاجت شجنه وتذكر وطنه فقال :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسح ويستمري السماكين بالوبل

توفي الداخل بقرطبة ودفن بقصرها . وكان دخوله على الأندلس وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وبويع بقرطبة يوم الأضحى سنة ١٣٨ هـ ومدة خلافته ٣٣ سنة وأربعة أشهر ونصف . وعقد العهد لابنه هشام ثم سليمان . ومن شعره تشوقاً لبلاد الشام :

أيها الراكب الميمم أرضي ... أقر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

هشام بن عبد الرحمن

ولد سنة ١٢٩ وتوفي سنة ١٨٠ هـ

لم يكن هشام أكبر ولد عبد الرحمن الداخل فان سليمان أكبر منه ولكن أباه كان
يتوسم فيه الشهامة والاضطلاع في أمر الملك فعهد إليه قبل أخيه
ولما توفي عبد الرحمن كان هشام بماردة متوليا لها وأخوه سليمان
بطليطلة وكان يوم [illegible] أخاه هشام [illegible] لتقديم والده
له وكان له أخ ثالث اسمه عبد الله ويعرف بالبلنسي كان بقرطبة عند
موت والده فجدد البيعة لهشام وكتب إليه بخبره فحضر هشام
لستة أيام . فبويع سنة ١٧٢ هـ ونهض أخوه سليمان
أجناده وقصد قرطبة منازعا لأخيه فانضم إليه أخوهما عبد الله فخرج
هشام إليهما بجيشه فالتقى الجيشان بجهة جيان وانهزم سليمان وجنده
بعد حروب شديدة وقفل هشام إلى قرطبة ظافرا . وكان يكنى بأبي
الوليد . ووصفه ابن الأثير وابن عذارى فقالوا : «كان أبيض
أشهل مشربا بحمرة بعينيه حول» ومما يحكى من سيرته أنه
كان يبعث إلى الكور قوما عدولا يسألون الناس عن سيرة العمال
وكان ذا حزم ورأي وشجاعة وعدل محبا لأهل الخير والصلاح
شديدا على الأعداء راغبا في الجهاد ومن غريب ما يذكر عن أيامه
أن منجما [illegible] أنه [illegible] وأوصى أن ينفذ إلى [illegible]
الحكم من تركته [illegible] ذنبه فلم يوجد في دار الأعداء

اسيرهم يشترى او يفك لضعف العدد وقوة المسلمين. وراه الاندلس يعدد دون مناقبه ويبالغون فيها حتى قالوا انه كان يشبه في سيرته لعمر بن عبد العزيز .. خلافته سبع سنين وتسعة اشهر وايام . ثم بنى عدة مساجد وتمم بناء جامع قرطبة الذي بدأ ابوه به .

الحكم بن هشام

— ولد سنة ١٥٤ وتوفي سنة ٢٠٦ هـ —

ابو العاصي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الاموي ، احد ملوك بني امية العظام في الاندلس . قال المقري في نفح الطيب : هو أول من جعل للملك ابهة بارض الاندلس واول من جند بها الاجناد وجمع الاسلحة والعدد وارتبط الخيول على بابه . وكانت له عيون يأتونه باخبار الناس . وكان يباشر الامور بنفسه ويقرب الفقهاء والعلماء والصالحين . وهو الذي مهد الملك لعقبه في تلك البلاد . ولد بقرطبة وفيها نشأ . وولي امر المسلمين بعد ابيه هشام بعهد منه اليه سنة ١٨٠ هـ . وكانت في ايامه حروب وفتن كثيرة اثارها عليه جماعات من الخوارج والثوار فاشتغل في هضمهم وردهم فجاءه نبأ مجاورين من الفرنج وانهم اتخذوا يعيثون فسادا في الثغور فسار اليهم بنفسه سنة ١٩٦ هـ فافتتح الحصون وخرب النواحي واثخن

وأثخن في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً. وأرسل سنة ...
فرقة من جيشه لصد غارات المعتدين على بلاده. فأمن بذلك شرهم
وتفرغ لسياسة الملك وتدبيره فنظم شؤونه واستقر له الأمر حتى
توفي فدفن في قرطبة. وكان من أجل بني أمية بالأندلس وأشدهم
إقداماً ونجدة - قاله المقري - وترك أولاداً كثيرين منهم عشرون
ذكراً وعشرون انثى. وكان أسمر طوالاً أشم نحيفاً لم يخضب
ونظم الشعر الرقيق يتفكه به أورد بعضه صاحب البيان المغرب
(ج ، ص ٧٠) وفي نفح الطيب قوله وأنشده بعد واقعة:

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعاً ... وقدماً لأمتُ الشعب مذ كنتُ يافعا
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرةٌ ... أبادرها مستنضي السيف دارعا
تنبئك أني لم أكن في قراعهم ... بوانٍ وقدماً كنتُ بالسيف قارعا
وهل زدتُ إذ وفيتهم صاع قرضهم ... فوافوا منايا قُدّرت ومصارعا
فهذي بلادي إنني قد تركتها ... مهاداً ولم أترك عليها منازعا

وعدّد له صاحب الكامل صفات [redacted] من أنه تشبّه بالجبابرة
وأنه أول من استكثر من المماليك بالأندلس، وأول من جنّد بها
الأجناد المرتزقة. [illegible]
وقال المراكشي صاحب المعجب
في تلخيص أخبار المغرب في الكلام عليه: الحكم بن هشام الملقب
بالربضي كان طاغياً وله آثار سوء وهو الذي أوقع بأهل

الربض فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم والربض محلة متصلة
بقصره اتهم اهلها بمكيدة يريدون الايقاع به فنكل بهم وقد
فسمي الحكم الربضي . قيل : وفي ايامه احدث الفقراء انشاد
اشعار الزهد والافزاع قيام الليل في صوامع المساجد
وأمروا ان يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل أن
يقولوا : يا ايها المسرف المتمادي في طغيانه المصر على
كبره المتهاون بامر ربه افق من سكرتك وتنبه من
غفلتك . . وما الى هذا النحو . فكان من هذا جملة ماهاجه
واوغر صدره عليهم ، وكان اشد الناس عليه في امر فتنة
الربض الفقهاء الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم الى
ان اوقع بهم . . وجملة ما يتحصل من اقوال المؤرخين فيه أنه
كان شديداً جباراً ضابطاً لامر مملكته يقظة اذا هم
القى بين عينيه عزمه . لا يرده عن سبيله واد قوي
الارادة واكثر خلاله تدل على رجل كبير وان شئت
التوسع في اخباره فارجع الى نفح الطيب وكامل التواريخ
والبيان المغرب والمعجب وأشباهها .

مجيد

عبد الرحمن بن الحكم

ولد سنة ١٧٦ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ

بعد موت الحكم سنة ٢٠٦ بايع ولده عبد الرحمن ان يقوم بالملك حق القيام. وكنيته ابو المطرف ولد بطليطلة ايام كان ابوه الحكم يتولاها لابيه هشام. ووقع بيعته ووفاة والده بيوم واحد. كان جسيماً طويلاً اسمر حسن الوجه أقنى أعين أكحل عظيم اللحية يخضب بالحناء والكتم.

قال صاحب البيان المغرب في وصفه: «هو اول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة وكسا الخلافة ابهة الجلالة وشيد القصور وأجلب الماء العذب الى قرطبة وبنى له مصنعاً كبيراً يرده الناس وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف وبنى المساجد بالأندلس وعمل السقاية على الرصيف واتخذ السكة بقرطبة وفخم ملكه» وزاد عليه غيره من المؤرخين فقالوا: ~~[illegible]~~ انه علا عن التبذل للعامة وكانت ايامه ايام سكون وعافية وكثرت عنده الاموال وكان عالي الهمة له غزوات كثيرة. وكان اديباً ينظم الشعر فيلهو به في بعض اوقات خلوته، عالماً بعلوم الشريعة وغيرها من علوم الفلسفة. وهو معدود في جملة من عشق جواريه كان يأنس بهن ويداعبهن كلما فرغ من عناء غزوة او انتهى من نصب حرب وكان يميل الى جارية له اسمها طروب ونظم لها شعراً فيه يشيد بها وأغدق عليها الاموال

وله اخبار معه . ولم يكن في البطش كأبيه بل خالفه في كثير من اخلاقه فاستعاض باللين عن الشدة وبتهدئة الفتن عن اقتحام حروبها وشعره جيد منه قوله يصف حالة المعزول :

ارى المرء بعد العزل يرجع عقله   وقد كان في سلطانه ليس يعقلُ
فتلقيه جم الود ما كان واليا   ويرحل منه ذاك ساعة يُعزلُ

ومن كلامه ما وقّع به الى بعض عماله وقد كتب اليه يسأله عملا لم يكن اهلا له فذيله بقوله : " من لم يصب وجه مطلبه كان الحرمان اولى به " وولد له كثيرة وله اكثرهم ذكور وخلف خمسة واربعين ولدا ذكورا . وكان ممدوح السيرة . مدة ولايته ٣١ سنة وثلاثة اشهر . وتوفي بقرطبة . وكان يشبه بالوليد بن عبد الملك في سياسته وتأنقه .

---

١١ ولما مات عبد الرحمن بن الحكم ملك ابنه ابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام . فجرى على سيرته عدلا واحسانا للرعية ورأى المُلك ثابت الاساس هادئا مطمئنا فصفت له ايامه . مولده في قرطبة سنة ٢٠٧ هـ ووفاته بها سنة ٢٧٢ هـ وحكم خمسا وثلاثين سنة الا شهرا . كان ابيض مشربا بحمرة ربعة اوقص وافر اللحية يخضب بالحناء . خلف ٢٢ ولدا ذكرا و ٢١ بنتا . وكان مثبتا في شؤونه وفيا لمواليه انفسهم واتباعهم لا يقدح عنده قادح في شيء عن احدهم فيتهمه او يقصيه . احبه اهل البلدان المستقلة في عصره حتى كان بنو مدرار السجلماسية

وهم

ومحمد بن أفلح صاحب تاهرت لا يتقدمون ولا يؤخرون في أمورهم ومهماتهم الا عن رأيه وأمره . ومما يحفظ عنه انه قال لهاشم بن عبد العزيز احد وزرائه وقد أنكر عليه شيئاً من عدم التثبت : يا هاشم من آثار السرعة اوضعت بك الى الهفوة ، ولو أنا أصغينا نحو زلاتك وأصخنا الى هفواتك لكنا ... كما وإياك في الزلة وقد ساواك في العجلة فمهلاً . فإنك إن تعجل يعجل بك ... ودعني عليك رويداً بك

بقرطبة . وكان ذكياً فطناً .

ولي بعد موته بثلاثة أيام ابنه ابو الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمن . مولده سنة ٢٢٩ هـ . اتصل به خبر موت ابيه وهو يحارب الفرنج محاصراً لفريق منهم في حصن يعرف بحصن الحامة فقفل راجعاً الى قرطبة فجددت له البيعة وفرق ... في الجند وكتب الى اهل قرطبة والرعايا بأن اسقط عنهم عُشر ذلك العام وما يلزمهم من جميع الغرم . وكان اسمر طويلاً جعد الشعر كث اللحية بوجهه اثر جدري يخضب بالحناء والكتم . [redacted] وكان جواداً يصل الشعراء ويحب الشعر . ولم تطل مدته فتوفي وهو في غزوة له على بربشتر سنة ٢٧٥ هـ [redacted] ملكه سنتين الا عشرين يوماً .

عبد الله بن محمد

– ولد سنة ٢٢٩ وتوفي سنة ٣٠٠ هـ –

خلف عبد الله أخاه المنذر في سيرته اذ ظهر بالمظهر ... الجديد
واعاد للدولة ما كادوا يذهبون به من وحدتها وفخرها . وهو ابن محمد
عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام . بويع يوم وفاة اخيه
المنذر ... النهوض بالمملكة فاضطرب امرها حتى كانت
ايامه كلها ايام ثورات تفرقت فيها القلوب بعد اتحاد في
ولاء عهد الى حين من سلطة حتى صار في كل جهة متغلب
او ... منتقض ولم يسلم من بدع فان الجسم اذا طال فيه
امر العلة حتى اوشكت تزمن وجبته بالاصلاح والصلاح
ثارت فيه ثائرة بما خيف منها على سائر الاضلاع
وبدء مثل عبد الله بن محمد في ملكه اذ لجأ اهل الدولة
وهم بين ... وسلب وحروب فنزع عن نفسه
حجب الجلالة والعظمة وامر ببناء ساباط بين قصره
والجامع في قرطبة فكان يقعد فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها
فيرى الناس ويشرف على اخبارهم وحركاتهم وحاجاتهم
ويسمع قول المتظلم ولا يخفى عليه شيء من امورهم واخذ
يقعد ايضاً مع بعض ابواب قصره (باب ...) اياماً معلومة
فترفع اليه الظلامات وتصل اليه الكتب على باب حديد

صغير

ح لذلك فلا يتقدم على ضعيف ايصال وطاقة بيده ولا ازدهاء
كلمة على لسانه. قال صاحب البيان المغرب: وكان اهل
كانات والمقربون منه محظوظون من كل امر يوجب الشكوى منهم
. وكانت الملذات متروكة في ايامه واللهو غير مقترف من
اكثر الامة. وسمى احد ابواب القصر «باب العدل» ينظر
فيه احوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترا.
وربما عيب عليه كرهه للسرف وميله الى الاقتصاد في
النفقة والعطايا الا فيما كان منها في سبيل الصدقات
والمبرات فانه لم يكن يرى بأسا بالانفاق الغزير فيها
ما يدل على أن اقتصاده الاول لا يسمى بخلا كما عرفه
به بعض المؤرخين فالبخيل الشحيح يتعلق بالدرهم والدينار
يحبسهما عن كل سبيل لا يفرق بين الصدقة والجائزة
وبين الاكرام والاحسان. وكان موصوفا بالورع
صلاح القلب، متفننا بضروب العلوم، بصيرا باللغات وقبائل
العرب، فصيح اللسان، حسن البيان؛ اما صورته فأبيض
مشرب بالحمرة اصهب أزرق، اقنى الانف، ربعة الى الطول
خضيب بالسواد، عظيم الكراديس؛ وكان اديبا حافظا
لأشعار العرب وايامهم وسير الخلفاء، راوية لـ...

بن نظمه ، وكانوا يعدونه من اصلح خلفاء بني امية في الاندلس وامثلهم طريقة واتمهم معرفة لولا ما كان ينقصه من دوام الفتن التي أجبرته على اظهار القوة والارهاب بالبطش حتى وصفه ابن حزم بانه كان قتالاً تهون عليه الدماء مع كثرة اقباله على الخيرات واعراضه عن المنكرات ويذكر انه احتال على اخيه المنذر فقتله بان سم له المبضع الذي فصد به بواسطة حجامه وهو نازل بعسكره على ابن حفصون الثائر . وقتل المترجم ولدان واخوان ايضاً جميعاً فولداه محمد والد الناصر لدين الله ومطرف اختصما في ولاية عهده فقتل مطرف محمداً ثم قتل الامير عبد الله مطرفاً واخواه احدهما يدعى هشاماً قتله بالسيف والثاني القاسم قتله بالسم ، ولم اجد فيما بين يدي من كتب التاريخ ما يصح ان يكون سبباً حقيقياً لفعلته هذه الا ان يكونا قد زاحماه على الامرة او حاولا الايقاظ فتنة جديدة عليه فصنع ما صنع . وتوفي في حصن قرطبة فدفن في مدافن آبائه وولايته اثنتان وعشرون سنة الا اشهراً وخلف احد عشر ولداً ذكراً أحدهم محمد المقتول والد عبد الرحمن الناصر الآتي ذكره .

امير المؤمنين عبد الرحمن الناصر

— ولد سنة ٢٧٧ وتوفي سنة ٣٥٠هـ —

بدأ الامير عبد الله (صاحب الترجمة السابقة) باصلاح بلاد الاندلس اصلاحا كادت تؤول اليه مهمة استبداد الوزراء والامراء بالحكم دون اهل الملك والسلطان فكان عمله واجهة لثورة المتمكنين وغضبهم فاشتعلت نار الفتنة في ايامه على ما تقدم ذكره ومات ولم يوفق الى اخمادها وتولى حفيده هذا والمملكة جمرة تلتهب وكان ولاة كالمرهم الى سم طلي به الجرح الناغل ولم يصف له الملك الا بعد نحو عشرين سنة من تملكه امضاها في قتال المخالفين واسترضاء النافرين حتى اذعنوا له واستقام امر الدولة فعذب له موردها وابتسمت ايامه فكانت ازهى وازهر ما عرفه الاندلسيون من ازمان الامراء والخلفاء والملوك .

اوردنا في الترجمة السابقة أن الامير عبد الله كان قد عهد بولاية الامر من بعده الى ولده محمد وأن مطرفا اخا محمد حسده فقتله ثم قتله ابوه عبد الله به . وكان لمحمد طفل ولد قبل قتله بأحد وعشرين يوما سماه عبد الرحمن فنشأ في حجر جده عبد الله فرباه التربية الصالحة وتفرس فيه

النجابة فلما شبّ قرّبه واعتمد عليه في اموره حتى كان كثيراً ما يقعده في بعض الايام والاعياد مقعد نفسه ويأمر الجند بالتسليم عليه بالامارة فتعلقت آمال اهل الدولة به ولم يشكّوا في مصير الامر اليه . ولما مات جده عبدالله اجلسوه مكانه دون ولده لصلبه . وكان يسكن القصر مع جده دونهم فرأوا قريباً اجلاسه دونهم مكانه . وولي الاندلس وهو ابن ثلاث وعشرين سنة وحوله اعمامه فكانوا اول من بايعه ولم يعترضه احد .

كنيته ابو المطرف وهو عبدالرحمن بن محمد بن الامير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم الربضي بن هشام بن عبدالرحمن الداخل .

ولي [redacted] سنة ٣٠٠ هـ وانصرف الى تهدئة الثورات واسكات القلاقل حتى صفا له المُلك . ولما كانت سنة ٣١٦ هـ رأى ضعف الخليفة العباسي "المقتدر" في العراق وعرف ما اصاب بني العباس من الانحلال فجمع الناس وخطب فيهم ذاكراً لهم حق بني امية بالخلافة وانهم اسبق اليها من بني العباس فأمر أن ينادوه امير المؤمنين وأن يُخطب باسمه بالخلافة ويلقب بلقب سلطاني وهو الناصر لدين الله فجرى ذلك سنة لمن بعده وكان اسلافه يُسمّون بني الخلائف ويُخطب لهم بالامارة فقط .

قال

قال ابن سعيد في المنتخب: عبدالرحمن الناصر أعظم
أمراء بني أمية في الأندلس، كان كبير القدر، كثير المحاسن،
محباً للعمران، مولعاً بالفتح وتخليد الآثار، أنشأ مدينة
الزهراء وهي عديمة النظير في الحسن وبنى بها قصر الزهراء
المتناهي في الجلالة. وقال المؤرخ المقري في وصف القصر:
أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الإسلام البتة بل
لم يسمع بمثله بل لم يتوهم كون مثله! والمؤرخون
يبالغون في مقدار ما أنفق على الزهراء. قال ياقوت: مدينة
صغيرة قرب قرطبة بالأندلس اختطها الناصر .. وعملها
متنزهاً له وأنفق في عمارتها من الأموال ما تجاوز فيه حد
الإسراف وجلب إليها الرخام من أقطار البلاد وأهدى
إليه ملوك بلاده من آلاتها ما لا يقدر قدره. وكان الناصر
هذا قد قسم جباية بلاده أثلاثاً: ثلث لجنده وثلث لبيت
ماله وثلث لنفقة الزهراء وعمارتها .. بدأ فيها سنة
٣٢٥ ومات سنة ٢٠ . وهو لا يزال ينفق على تحسينها وتزيينها.

كان الناصر أبيض أشهل حسن الوجه ربعة عظيم
الجسم قصير الساقين، ركاب سرجه يقارب الشبر، طويل
الظهر جميلة ربما يخضب بالسواد. طالت أيامه فحكم
خمسين سنة وستة أشهر، وكان حريصاً على الملك

يقظاً ومن عجيب امره في هذا الشأن ما رأيته في كتاب الطبقات
للسبكي (ج ٢ ص ٢٠٠) قال في ترجمة عبدالله ابنه: عبدالله ..
هو ابن الخليفة الناصر صاحب الاندلس كان فقيهاً شافعياً
اديباً متنسكاً طمحت نفسه الى الطمع بخلافة في حياة ابيه
وتابعه قوم واخفوا امرهم وبيتوا على اغتيال والده واخيه
المستنصر ولي عهد ابيه، فبلغ اباه، فما لبث أن سجنه وكبس
من اطلع على امره من متابعيه، ثم اخرجه واخرجهم يوم عيد
الاضحى سنة ٣٢٩هـ من الحبس وأحضره وأحضرهم بين يديه
وقال لخواصه: هذا ضحيتي في هذا العيد ثم اضطجع له ولده
وذبحه بيده وقال لاتباعه: ليذبح كل منكم أضحيته. فاقتسموا
اصحاب ولده عبدالله فذبحوهم عن آخرهم ...

ومن غريب ما يؤثر عن الناصر ما قرأته في شذرات
الذهب أنه كان يكتب في دفتر خاص ايام السرور
التي كانت تصفو له من غير تكدير فيذكر تاريخها وما كان
بها وقد اطلع كثيرون عليه بعد وفاته فاذا هي اربعة
عشر يوماً!! فيالله ما اعجب ما نرى! ملك كالناصر
صفا له الملك خمسين عاماً وضرب به المثل في ارتقاء
ملكه في ايامه وخدمه السعد لا يرى من ايام السرور غير
ذلك العدد اليسير ؟!

ومن لطيف ما يذكر في اخباره انه استدعى الطبيب

يوماً

يوماً ليفصده فأخذ الآلة وجس يد الملك وإذا بزرزور أشرف على المجلس وارتقى إناء ذهب وجعل يكرر هذين البيتين :

أيها الفاصد رفقاً بأمير المؤمنينا
إنما تفصد عرقاً فيه محيي العالمينا

فسرّ الناصر به وسأل عمن علّمه، فقيل له عبد الله ولده الحكم فوهب له ثلاثين ألف دينار.

توفي الناصر وهو في قرطبة وخلف احد عشر ولداً ذكراً فيهم ولي عهده الحكم بن عبد الرحمن الملقب بالمستنصر

المستنصر بن الناصر

ولد سنة ٣٠٢ وتوفي سنة ٣٦٦ هـ

ولي بعد الناصر لدين الله ولده الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله، ولقب المستنصر بالله، وكانت البلاد ساكنة مطمئنة إلا أن ملك الاسبان في عهده اردون بن الفونس طمع به بعد موت ابيه فهيأ جيشاً وأراد الاغارة على ما تملكه المسلمون من البلاد ولاسيما في عهد الناصر، فعلم المستنصر بعزم اردون فكتّب كتائبه وغزا الاسبانيين بنفسه فبادروا إلى عقد الصلح معه وانقبضوا عما كانوا فيه وقوي الحكم وكثرت فتوحاته واتصلت الصداقة بينه وبين اردون

حتى انه راسل الخليفة المستنصر في قرطبة واظهر خضوعه بين يديه.

وكان الحكم محباً للعلم مكرماً لأهله، اغراهم من البلدان البعيدة ليستفيد منهم ويحسن اليهم، جماعاً للكتب في انواعها، جمع منها مالم يجمعه احد قبله حتى قيل انها كانت اربع مئة الف مجلد، وكان عالماً نبيهاً صافي السريرة عارفاً بالادب يروى عنه شعراً، ضليعاً بالعلم بالانساب ملماً بالتاريخ. ولي سنة ٣٥٠ هـ ومدة ملكه خمس عشرة سنة وخمسة اشهر. وكان اصهب اعين اقنى عظيم الصوت ضخم الجسم افقم قصير الساقين غليظ العنق عظيم السواعد. وسيرته حسنة ولم يرَ فيما رأيت من اخباره ما يبعث على الاطالة. توفي في قرطبة.

المؤيد بن الحكم

ولد سنة ٣٥٥ وتوفي سنة ٤٠٣ هـ

[ما في ترجمة هذا الخليفة ما يجعله في عداد كبار الامراء الاقوياء اخباره كانت في شأنها طويلة في ايرادها ويستغني المؤرخ عن اسهابه البتة فوجب افراد ترجمة له ينتهي به الكلام عن رجال هذه الدولة]

المؤيد ابو الوليد هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، بويع يوم وفاة ابيه بعهد منه سنة ٣٦٦ هـ وعمره ١١ سنة وثمانية اشهر

اشهر فتولى اموره وتدبير مملكته الحاجب ابو عامر محمد بن عامر

الملقب بالمنصور [انظر ترجمته في باب الامراء والوزراء] فحجبه

عن الناس فلم يكن احد يراه ولا يصل اليه شأن من ابي عامر

المنصور سيء المعنى الا انه توفي سنة ٣٩٢ هـ فخلفه ولده

عبد الملك بن محمد الملقب بالمظفر وسار بسيرة ابيه وتوفي

سنة ٣٩٩ هـ فولي بعده اخوه عبد الرحمن بن محمد ولقب بالناصر

فسلك غير طريقهما واخذ في المجون وكان المؤيد قد ركن

الى المنصور ثم الى ابنه المظفر [illegible] نازعهما تدبير المملكة والتزم

بيته مستريحاً من عنائها ولما رأى حال الناصر كرهه

فدس له الناصر جماعة خوفوه منه ان لم يجعله ولي عهده

فخلع المؤيد نفسه مرغماً وشاع في الناس حقدوا عليه

ولا سيما بني امية والمضرية، وغزا الناصر بعد توليه [illegible] فتوغل في

بلاد الجلالقة وبينما هو راجع بلغه أن محمد بن هشام بن عبد

الجبار بن الناصر لدين الله قد ظهر بقرطبة واستولى عليها واخذ

المؤيد اسيراً. [illegible] وشاع الخبر في عسكر الناصر فتفرقوا

عنه ولم يبق معه الا خاصته فسار الى قرطبة ليدرك ما فاته

فخرج اليه عسكر محمد بن هشام فقتلوه وحملوا رأسه الى قرطبة

وجهه فوا به وذلك سنة ٣٩٩ ثم صلبوه . [illegible]

وكان محمد بن هشام هذا قد تلقب بالمهدي ودعا

اليه لما رأى من ضعف المؤيد وأعلن ذلك ومعه اثنا عشر حيث
بايعه الناس ومكثوه واخذ المؤيد فحبسه معه في القصر
ثم لما قتل الناصر أخرج المؤيد ودعاه ان يعهد اليه
فعمل المؤيد ثم اخفاه واظهر انه مات . وكان من قدمات
اقارب نصراني يشبه المؤيد فأبرزه للناس وذكر لهم انه
المؤيد فلم يشكوا في موته وصلوا عليه ودفنوه في مقابر
الخلفاء وبايع الناس ابن عبد الجبار الملقب [بالمهدي]
ثم نقموا عليه اشياء منها انه كان يعمل النبيذ في قصره
فسموه نباذاً ومنها بغضه للبربر فضغنوا عليه ومنها
انه كان متلونا في اخلاقه فانقلبوا عليه .
ولما وقع في قلوب اهل الاندلس من المهدي (ابن عبد الجبار)
ما وقع قصدوا هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فاخرجوه
من داره وبايعوه فتلقب [بالرشيد] وذلك في اواخر
سنة ٣٩٩ هـ واجتمعوا بظهر قرطبة فخرج اليهم المهدي
(ابن عبد الجبار) باصحابه فقاتلهم فانهزم اصحاب هشام
(الرشيد) واخذوه اسيراً فقتله المهدي ومن كان
معه من القواد واستقر امره . وكان هشام ابن اخيه
وبعد هذه الواقعة بيومين انضم من انهزم من اصحاب
هشام المقتول وكان معهم ابن اخ له اسمه سليمان بن الحكم
بن

ابن سليمان بن الناصر فبايعوه ولقبوه [المستعين بالله]
ثم لقب [بـ الظافر بالله] وساروا الى من جاورهم من النصارى
الاسبانيين فصالحوهم واستنجدوهم فأنجدوهم وساروا
معهم الى قرطبة فقاتلوا ابن عبد الجبار فانهزم وتحصن
بقصر قرطبة ودخل سليمان (الظافر) البلد فحصره في
القصر واغار البربر والروم على قرطبة فنهبوا وسبوا
وقتلوا عدداً عظيماً. ولما رأى ابن عبد الجبار ما حل به
اظهر المؤيد — وكان لا يزال محبوساً عنده في القصر — وظن
ان الناس متى رأوه يرجعوا اليه ويخلعوه هو وسليمان. ولكن
الناس لم يسمعوا له وظنوا ان المؤيد قد مات. فذهب
اذو الرأي واختفى ودخل سليمان القصر فبايعه الناس
بالخلافة (سنة ٤٠٠ هـ) وكانت عدة القتلى في هذه الوقعة
نحو خمسة وثلاثين الفاً..
وسار ابن عبد الجبار الى طليطلة فجاءه بعض
اصحابه فجمعوا جمعاً من نصارى الاسبان واستعانوا بهم ورجع
بهم الى سليمان [illegible] فحدثت وقعة انهزم فيها سليمان
الى شاطبة ودخل ابن عبد الجبار (المهدي) قرطبة وجدد
البيعة لنفسه وحجب المؤيد الذي لم ينتبه له الناس
وكان مع سليمان جماعة من الفتيان وعدد كثير

وانصرفوا الى ابن عبد الجبار واظهروا قبول طاعتهم وانه كملهم في
جملة رجاله فاجابهم الى ذلك فلما كان ثاني ذي الحجة سنة
٤٠٠ اجتمعوا في القصر فملكوه واخذوا ابن عبد الجبار
اسيرا واخرجوا المؤيد بالله فاجلسوه مجلس الخلافة
وبايعوه واحضروا ابن عبد الجبار بين يديه فعدد ذنوبه
عليه ثم امر بقتله فقتل وطيف برأسه في قرطبة وعرج
شوشاد شوشوه سنة
عاد المؤيد الى سرير الملك في ... زمام تدبيره الى
رجل من العامريين فتيان الوزير ابي عامر يدعى واضحاً
واخذ اهل قرطبة الحضرة فوعدهم ومناهم واحبوه. [redacted]
وكتب [redacted] الى سليمان بن الحكم واصحابه من البربر وهم
في شاطبة يدعوهم الى الطاعة فلم يجيبوه فامر اجناده بالحذر
والاحتياط ثم ان سليمان والبربر راسلوا ابن الفونس
ملك الافرنج انهم يعطونه الحصون التي كان المنصور
ابن ابي عامر قد فتحها [redacted] دي تمدونه فارسل ملك
الافرنج الى المؤيد يعرفه الحال ويطلب منه تسليم الحصون
فسلمها ابن ضيفة ابن يعينه على سليمان . ولما ...
البربر من انجاد الفرنج جاءوا فنزلوا قريباً من قرطبة وجعلت
خيلهم تغير يميناً وشمالاً وخربوا البلاد فعمل المؤيد سورا
وخندقاً على قرطبة امام السور الكبير فانتقل سليمان
الى الزهراء فملكها عنوة وطغى البربر في اهلها . ثم ان
واضحاً

واضحاً كاتب سليمان يعرفه انه يريد الانتقال من قرطبة ويشير عليه بمنازلتها فعثر بيد عنه ونما الخبر الى المؤيد فقتله وحدثت وقائع كثيرة بين المؤيد وسليمان راسل في آخرها سليمان نائب المؤيد بقرطبة وغيرها يدعوهم اليه فاجابوه واتفقوا معه وانتهى الى قرطبة فتمكنا بعد حروب وحصار وشدائد واخرج المؤيد من القصر محمولاً الى سليمان ودخل سليمان قرطبة سنة ٤٠٢ م

ثم حدثت للمؤيد مع سليمان امور فخرج المؤيد الى شرق الاندلس وقيل حينئذ قضي نحبه ، وفي آخر امره غموض (راجع ...)

واستقر الملك لسليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين بالله اولاً ثم اضاف اليه الظافر بحول الله آخراً وكان اديباً شاعراً ... في ايامه دماء كثيرة لما تقدم ولان البربر هم الحاكمون في دولته لا يقدر على خلافهم لانهم كانوا عامة جنده وهم الذين قاموا معه حتى ملكوه .

ولا ارى بأساً بايراد هذه القصيدة المشهورة من شعر سليمان (الظافر) نقلناه من كتاب المعجب في اخبار المغرب تفكهة ، قال :

عجباً يهاب الليث حد سناني ... واهاب لحظ فواتر الاجفان

واقارع الاهوال لا متهيباً ... منها سوى الاعراض والهجران

وتملكت نفسي ثلاث كالدمى ... زهر الوجوه نواعم الابدان

ككواكب الظلماء لحن لناظر ... من فوق اغصان على كثبان

هذي الهلال وتلك بنت المشتري ... حسنا وهذي اخت غصن البان
حاكمت فيهن السلو الى الصبا ... فقضى بسلطان على سلطان
وابحن من قلبي الحمى وثنينني ... في عز ملكي كالاسير العاني
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى ... ذل الهوى عز وملك ثاني
ما ضر اني عبدهن صبابة ... وبنو الزمان وهن من عبداني
ان لم اطع فيهن سلطان الهوى ... كلفا بهن فلست من مرواني
واذا الكريم احب امن الفه ... خطب القلى وحوادث السلوان
واذا تجارى في الهوى اهل الهوى ... عاش الهوى في غبطة وامان

وهذه القصيدة انما نظمها المستعين معارضا بها الابيات التي عملها العباس بن الاحنف على لسان هرون الرشيد فنسبت اليه وهي :

ملك الثلاث الآنسات عناني ... وحللن من قلبي بكل مكان
ما لي تطاوعني البرية كلها ... واطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك الا ان سلطان الهوى ... وبه قوين اعز من سلطاني

وهذه القطعة اشعر وأعذب، ومن مثل المستعين وهو لا يني متنقلا في ثورة وطغيان او فار يوقدها، ومنتصر يبدره او عرشه يحافظ عليه، فيجاري العباس بن الاحنف وهو الشاعر الغزل قصيدة [illegible]

[illegible]

شعره وترويقه انتهى .

[redacted]

وكان من جملة جند سليمان (المستعين الظافر) عند دخوله قرطبة رجلان من ولد الحسن بن علي بن ابي طالب وهما القاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبيد الله بن عمر ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب . [redacted] فجعلهما سليمان قائدين على المغاربة ثم ولى احدهما علياً وهو الاصغر منهما مدينتي سبتة وطنجة وولى القاسم الجزيرة الخضراء . ورأى علي ما صارت اليه حال خلافة الامويين فتحركت في نفسه غيرة العلويين فكاتب بعض العصاة من العبيد والبربر يخبرهم أن المؤيد لما كان محصوراً في قرطبة كتب اليه بولاية عهده ويعدهم وعوداً طائلة فاستجابوا له وبايعوه فزحف بهم الى مالقة فتملكها ثم الى قرطبة فدخلها بعد قتال عنيف وكان ناقماً على سليمان اشياء بعضها ديني نفسه فاستحضره اليه وضرب عنقه بيده يوم الاحد لتسع بقين من المحرم (٢١ محرم) سنة ٤٠٧ هـ وقتل اباه الحكم بن سليمان بن الناصر ايضاً في ذلك اليوم وهو شيخ كبير له ٧٢ سنة . وكانت مدة ولاية سليمان منذ دخل قرطبة الى ان قتل ثلاثة اعوام وثلاثة اشهر واياماً ولانه قد تملكها قبل ذلك ستة اشهر وكانت مدته منذ قام مع البربر الى ان قتل سبعة اعوام وثلاثة اشهر . وبمقتله انطفئ

ذكر دولة بني امية مع المنابر في هذا الوقت في جميع اقطار الاندلس.

وولي علي بن حمود وتسمى بالخلافة وتلقب بالناصر ووجد تقدم لنسبه فاستمر له الامر في قرطبة عاما وعشرة اشهر الى ان قتله صقالبة له في الحمام سنة ٤٠٨ وخلف من الولد يحيى وادريس.

فولي بعده اخوه القاسم بن حمود وكان أسن منه بعشرة اعوام وكان وديعا رقيقا فلم يغير للناس عادة فاستمر مدة وبقي كذلك الى شهر ربيع الاول سنة ٤١٢ فقام عليه ابن اخيه يحيى بن علي بن حمود بمالقة فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال ورحل الى اشبيلية وزحف ابن اخيه يحيى المذكور من مالقة بعسكره ودخل قرطبة بلا قتال وتسمى بالخلافة وتلقب بالمعتلي.

يحيى (المعتلي) وبقي المعتلي كذلك الى ان اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم الى قرطبة فدخلها سنة ٤١٣ وهرب يحيى (المعتلي) الى مالقة. فبقي القاسم بقرطبة شهورا ثم اضطرب امره وغلب ابن اخيه يحيى على الجزيرة الخضراء وابن اخيه الثاني ادريس بن علي صاحب سبتة على طنجة ورأى تغيرا من اهل قرطبة عليه فخافهم وانتقل الى اشبيلية وبها كان ابناه محمد والحسن ٢ فلما عرف اهل اشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه اليهم طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر وضبطوا البلد فلحق.

فلحق القاسم ... واجتمع البربر فقدموا ابن اخيه
يحيى بن ... الى يحيى ... فيشاطر عنه
وعند اخيه ادريس بعده الى ان مات ادريس فقتل قبيل
موت القاسم خنقاً سنة ٤٢١ هـ ووصل ابنه محمد بن القاسم
وهو بالجزيرة فدفنه هناك وكانت ولاية القاسم منذ قسمي
بالخلافة بقرطبة الى ... ابن اخيه ستة اعوام ثم كان
مقبوضاً عليه ... ست عشرة سنة عند ابني اخيه يحيى وادريس
الى ان قتل وعمره ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن .

~~اسماعيل بن عباد المعتضد ... صاحب اشبيلية في ...~~

وكان حنق اهل قرطبة على العلويين ميلهم الى البرابرة
واقتيادهم لهم فأزمعوا على رد الامر الى بني امية
فاختاروا منهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد
الرحمن الناصر ولقبوه [المستظهر] وكان اديباً فقيهاً
رقيق النفس عارفاً بالبلاغة والشعر ؛ هكذا يصفه المؤرخون
ولا اراهم يعنون بالخبرة في السياسة والمعرفة بشؤون
الملك على انه الملوك ... عن معرفتهم
بالشعر والادب والاغضاء عن بيان منزلتهم في السياسة
والدهاء وكثرة ما ... الحيلة وجل اصحاب تواريخنا
انما يعنون بالملك ... اذا كانت له اخبار مع جواريه حسان

ابن ... ٤٢١
٨٠
٥٠١

يوضع هنا ما كتبناه تاريخياً في صفحة

نشرح هنا الفترة السيئة التي ... بين ... وما ... الزمة .

اذ كان له اشتغال بالادب وعلم بالمنظوم والمنثور !..

ولد المستظهر سنة ٣٩٢ هـ وكنيته ابو المطرف

وبويع بالخلافة في رمضان سنة ٤١٤ وعمره ٢٢ سنة فلم تطل
مدته غير ٤٧ يوماً اذ ثار عليه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله
بن عبد الرحمن الناصر مع طائفة من اراذل العامة فقتلوه
في آخر ذي القعدة سنة ٤١٤ ولا عقب له .

وولي بعده محمد بن عبد الرحمن المذكور ، ومولده سنة
٣٦٦ هـ وكنيته ابو عبد الرحمن . ولقب [المستكفي بالله
وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير فاستوزر
رجلاً حائكاً (!) اسمه احمد بن خالد كان المدبر للامر
والمدبر للدولة . فدامت خلافته ستة اشهر واياماً وساء
القرطبيين سيره فدخلوا عليه فقتلوا وزيره الحائك واخرجوه
هو الى ظاهر المدينة مخلوعاً مطروداً فلحقه بالثغور وجه
قائد ضجر منه فعمد دجاجة فسممها وقدمها اليه فأكلها المستكفي
فمات لحينه وهو في قرية تعرف بشمنت بالقرب من مدينة
سالم وذلك سنة ٤١٨ هـ .

واقام يحيى بن علي الفاطمي (الحمودي) نافذ الامر في
الولاية الاولى لم يدخل قرطبة وانما كان مقيماً بقرمونة
في اوائل سنة ٤٢٧ هـ خرجت
وبينما كان محاصراً لاشبيلية
عليه خيل [illegible] كامنة له فقتلته وانقطعت دعوته .

هذه ... في ... الترجمة [illegible]

وبعد

وبعد ذلك ، اجتمع رأي رؤساء
القرطبيين على تولية أبي بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد
الرحمن الناصر ، وكان مقيماً بحصن يدعى البنت من ثغور
قرطبة ، فبايعوه في شهر ربيع الاول سنة ٤١٨ وتلقب
[المعتد بالله] وكان مولده في سنة ٣٦٤ وخاف ان دخل قرطبة
ان يقتله اهلها وبقي يتنقل في الثغور ثلاثة اعوام والفتن
قائمة في البلاد الى أن اتفقوا على ان يسير الى قرطبة عاصمة
الملك فدخلها في ثامن ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ ولكنه لم يقم بها
الا يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند فخلعوه واخرجوه
من قصره هو ونساؤه وخدمه فدخلوا الجامع الاعظم يتلطف
عليهم بالطعام والشراب اياماً ثم أخرجوا عن قرطبة وقصد
الثغور ولجأ الى ابن هود وكان متغلباً على مدينة لاردة
وسرقسطة وافراغة وطرطوشة وتلك الجهات فاقام
هشام عنده الى ان مات في سنة ٤٢٧ هـ ولا عقب له .
وهشام هذا آخر ملوك بني امية في الاندلس
وبخلعه انقطعت الدعوة لهم وانقطع ذكرهم على المنابر
بجميع الاقطار وآل امر البلاد الى استقلال كل عامل
بما بيده فاستمرت بينهم الفتن والإحن يستنصرون
بالاسبانيين تارة وبالروم طوراً حتى سنة ٨٩٧ حين

ملوك على غير تنسيق

— [illegible] —

قدمت الكلام في هذا الكتاب ، [illegible] صدور الخلفاء والملوك ، على دولة الراشدين في الحجاز فالأمويين في الشام ثم العباسيين في العراق فالأمويين في الأندلس وأردت إكمال الشوط إلى زمننا هذا مترجماً صاحب كل دولة من دول الإسلام كالدولة الإدريسية بمراكش والأغلبية بتونس والطولونية بمصر ودولة بني بويه بإيران والمرابطين والموحدين بمراكش والأيوبيين والخديويين بمصر وهلم جرا غير أني لم أجد في ذلك العمل كبير نفع للأمة ، [illegible] مكاناً أرحب من الكتاب أضطر فيه عند ذكر كل ملك إلى الإلماع بتاريخ دولته صعوداً وهبوطاً وتوسعاً وضعفاً وهذا يحتاج إلى كتاب كبير بمفرده كما صنع أحد أدباء المعاصرين رزق الله منقريوس الصدفي فإنه جمع كتاباً في ثلاثة مجلدات سماه "تاريخ دول الإسلام" ذكر فيه عن سبع وستين دولة إسلامية ورتبه ترتيباً لم يسبق إليه ولولا ما فيه من ضعف في الإنشاء وخلط في بعض المواضع لنال الحظوة عند الفضلاء . على أن كتابي هذا إنما جئت به للكلام عن كبار الرجال وأعاظمهم لا لاستقصاء أخبار الدول والبحث في المبادئ فرأيت أجدر بي أن أقف عند هذا الحد وأختم باب الخلفاء والملوك بأشهرهم بعد عباسية العراق وأموية الأندلس مكتفياً منهم بمن طار له صيت أو سار له ذكر والسلام

انتزع الربات منهم اهل البلاد من الاسبانيول وتفرقوا
واضمحل شأنهم.

وهذا آخر ما يقال مع ضيق المجال في الكلام على
خلفاء بني امية في المغرب اعتمدت فيه على عدة كتب
يشهد لها العارفون بالتاريخ منها: كتاب نفح الطيب للمقري،
والكامل لابن الاثير، والاشارات لابن تقدم، والبيان
المغرب لابن عذاري، والمعجب للتميمي، والاستقصا في اخبار
المغرب الاقصى، وغيرها مما يطول شرحه تجدها في بيان الكتب
التي اخذت منها في آخر هذا الكتاب ان شاء الله.

المقـدم والمراجـع

د. محمد علوان سالمان

- دكتوراه في الأدب العربي الحديث
- عضو اتحاد الكُتَّاب
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية
- صدر له العديد من الأعمال، منها:

❊ من وحي عينيك (شعر)

❊ عندما يبكي الربيع (شعر)

❊ صراخ الصمت (شعر)

❊ فلسطين في الشعر المصري (دراسة)

❊ مأساة لبنان في الشعر العربي (دراسة)

❊ الإيقاع في شعر الحداثة في مصر (دراسة)

❊ السريرة المنزعجة في شرح القصيدة المنفرجة للبصروي (تحقيق ودراسة)

❊ شرح ديوان الزَّفيان السعدي (تحقيق ودراسة)

❊ فن الألغاز عند العرب (تحقيق ودراسة)

❊ من ديوان الشعر العربي ج١، ويضم تحقيقًا لدواوين: أبي محجن الثقفي، وصفوان التجيبي، وابن مرج الكحل.

ج٢، ويضم تحقيقًا لديواني: ابن طباطبا العلوي، وأبي بكر الخوارزمي.

❊ عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، للإمام العيني (٢٤جزءًا) بالاشتراك.

❊ ديوان ابن سكرة الهاشمي (جمع وتحقيق ودراسة).

❊ ديوان البابا شنودة (جمع ودراسة).

❊ عيون الأخبار لابن قتيبة (اختصار وتقديم).

❊ حاصل على درع التفوق العلمي من أكاديمية الدراسات العليا بطرابلس الغرب.

❊ فاز بالميدالية التذكارية من المركز الثقافي المصري بطرابلس الغرب.

❊ ❊ ❊

فهرس الكتاب

✲ ✲ ✲